
DALAIL
مركز دلائل
Dala'il Centre
ردود علماء الغرب
على الإلحاد المُعاصر
(عرض ونقد)
(الجزء الأول)
د. جوهانس كلومنك
(د. عبدالله السويدي)

رُدودُ علماءِ الغربِ على الإلحادِ المُعاصر

(عرضٌ ونقد)

- الجزء الأول -

رسالةٌ علميَّة

لنَيْل درجةِ العالمية العالية؛ الدكتوراه

إعدادُ

د. جوهانس كلومنك

(د. عبدالله السويدي)

إشرافُ فضيلة الأستاذ الدّكتور

صالح بن عبد العزيز سندي

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

ردود علماء الغرب على الإلحاد المعاصر - عرض ونقد

د. جوهانس كلومنك (د. عبدالله السويدي)

١١٨٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم - (٣ أجزاء)

ترقيم دولي: ٠ - ٣ - ٨٦٢٠٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٢م

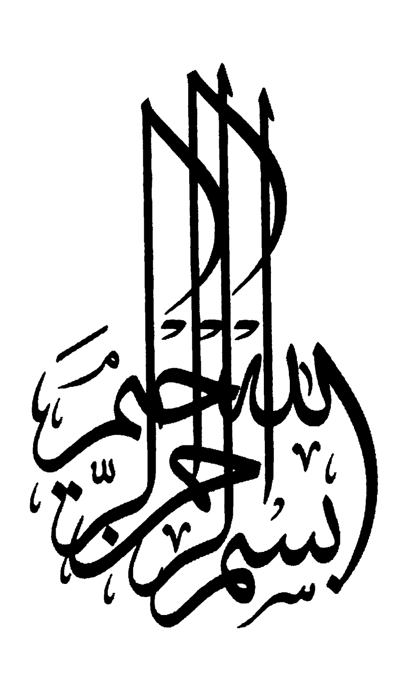
مركز دلائل
Dala'il Centre
DALAIL

Dalailcentre@gmail.com

الرياض - المملكة العربية السعودية

Dalailcentre@

+٩٦٦٥٠٣٩١٥٠٣٤٠


بسم الله الرحمن الرحيم

الملخّص

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلام على أشرفِ الأنبياء والمرسلين؛ نبيِّنا محمد، وعلى آله وصحبِه أجمعين. أمّا بعد:

فهذه رسالةٌ علمية لنيْل درجةِ الدكتوراه في الجامعة الإسلامية، بعنوان: «**ردودُ علماءِ الغرب على الإلحادِ المُعاصر - عرضٌ ونقد -**». والهدفُ منها: عرضُ ردود العلماءِ في العالم الغربي على الملاحدةِ المعاصرين، ثمّ تقييمُ هذه الردود في ميزانِ العقيدة الإسلامية. فلدَى علماءِ الغرب خبرةٌ طويلة في مناقشةِ الملاحدة في القضايا العلمية والعقلية، وقد صنّفوا في ذلك كثيرًا من الكتُب والأبحاث والمقالاتِ العلمية، إضافةً إلى قيامِهم بمناظرة الملاحِدة في مناظرات.

ويمكن للمسلِم أن يستفيدَ من هذه الردودِ في مناقشة المتأثّرين بالخطاب الإلحادي في العالم الإسلامي. ولكنّ ردودَ علماء الغرب تشتملُ على عددٍ من المخالفات العقديَّة؛ لأنَّها صادرةٌ من أتباع ديانات مُخالفة للإسلام. ولهذا كان لا بدَّ من دراستها دراسةً متأنِّية وناقدة.

وقد قسّمت الرسالةَ إلى مقدّمة وتمهيدٍ وثلاثة أبواب وخاتمة:

- **التَّمهيد**: يشتملُ على مقدّمات عن الإلحاد ونقدِه.
- **البابُ الأوّل**: يتضمّن ردودَ علماء الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم، ووسائلهم.
- **البابُ الثّاني**: مخصَّصٌ لحجج علماءِ الغرب على وجودِ الله. وذكرتُ فيه حججَهم العقلية، والعلمية، والحسيَّة.
- **البابُ الثّالث**: يشملُ ردودَ علماء الغرب على شُبهات الملاحدة. وذكرتُ فيه ردودَهم على شُبهات الملاحدة العقلية، والعلمية، والعاطفية.
- **الخاتمة**: ذكرتُ فيها أهمَّ النَّتائج والتوصيات، إضافةً إلى الفهارس العلمية.

والحمدُ لله أوّلًا وآخرًا، وصلَّى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

Abstract

All praise is due to Allah the Lord of all worlds. May Allah exalt and send blessings to the most noble of all prophets and messengers: our prophet Muhammad, and all of his family and companions.

This is a scientific thesis for obtaining a doctorate degree at the Islamic University in Madinah, entitled: "Western Scholars' Responses to Contemporary Atheism-Presentation and Criticism-". It aims to present the responses of scientists, philosophers and theologians in the Western world to contemporary atheism, and then evaluate these responses in the light of the Islamic creed. Western scholars have a long experience of refuting atheists in scientific, rational and theological issues. They have compiled thousands of books, studies and articles on this subject. In addition to that, they have debated atheists hundreds of times.

These responses contain many benefits that a Muslim can benefit from in discussing those affected by the atheistic discourse in the Islamic world, and this is what a number of Muslims interested in this subject have done. However, the responses of Western scholars include a number of doctrinal mistakes, based on the religions they follow. That is why it was necessary to study their responses in a careful and critical way. The thesis was divided into an introduction, a preface, three chapters and a conclusion.

The introduction: it includes introductions to and criticism of atheism.

The first chapter: includes the responses of Western scholars to the foundations of atheism, and the methods and means of atheists.

The second chapter: is devoted to arguments of Western scholars for the existence of God. It mentioned their rational, scientific and sensory arguments.

The third chapter: includes the responses of Western scholars to the doubts spread by the atheists. I divided the chapter into their responses to the rational, scientific and emotional doubts.

The ending: I mentioned in it the most important conclusions from the thesis and recommendations to the readers, in addition to scientific indexes.

All praise is due to Allah in the beginning and the end. May Allah exalt our prophet Muhammad, his family and companions.

الافتتاحية

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا، ومِن سيِّئات أعمالنا. مَن يهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له. وأشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله ﷺ.

أمّا بعد:

فإنَّ أهمَّ قضايا الدين وأعظمَها وأجلَّها: الإيمانُ بالله - عزَّ وجلَّ -، وإفرادُه بالعبودية. وإنَّ الإيمان بالله مركوزٌ في فِطَر الخلائق، وقد دلَّت عليه دلائلُ لا تعدُّ ولا تُحصى، حتَّى قالتِ الرسلُ لأقوامهم: أفي الله شكٌّ فاطر السماوات والأرض. وقال الشاعر:

فيا عجبًا كيف يُعصى الإله	**أم كيف يجحدُه الجاحدُ**
ولله في كلِّ تحريكة	**علينا وتسكينةٍ شاهدُ**
وفي كلِّ شيء له آية	**تدلُّ على أنَّه الواحد**[1].

ولهذا كان إنكارُ وجود الخالق غيرَ مُنتشر قديمًا، وكان يعدُّ أمرًا في غاية الشذوذ والقلَّة. ومعَ وضوحِ هذه المسألة وجلائها فإنَّه قد انتشرَ الإلحادُ في العالم بشكلٍ ملحوظ في الآونةِ الأخيرة. وحيث إنَّ العالم قد أصبح كقريةٍ واحدة، وسهل التواصل بين المجتمعات، والتنقُّلات بينَ الدول، وازدادَ ابتعاثُ شبابِ المسلمين إلى دولٍ يكثر فيها الإلحاد، فإنَّ الإلحاد بدأ ينتشرُ وينمو في بعضِ المجتمعات الإسلامية.

وقد كان لعلماءِ الغرب ردودٌ متميِّزة على الإلحادِ المعاصر، والنظريات العلمية والفلسفية التي يستندُ إليها الملاحدة. وقد ألّفوا في ذلك كثيرًا من المؤلَّفات، وعقدوا بسببِه المؤتمرات والندوات، وأفحموا الملاحدةَ في المجادلات والمناظرات، ونقدوا

---

(١) ديوان أبي العتاهية (١٠٤).

شبهاتهم عبرَ التِّلفاز والإذاعة، وغيرها من وسائلِ الإعلام والتَّواصل. فكان في كلامهم كثيرٌ من الحججِ القوية، والبراهين المفيدة، ونقد شُبهات الملاحدة الهزيلة. وذلك بسبب خبرتهم الطَّويلة في نقدِ الإلحاد. ولكن، حيث إنَّ علماء الغرب قد انطلقوا في ردودهم على الإلحادِ من عقائدَ فاسدةٍ ومذاهب منحرفة، فلا يسلم كلامُهم من النقص والخلل، فتنبغي الاستفادةُ مما عندهم من الصَّواب، ونقد وتقويم ما وقعوا فيه من الأخطاء.

وقد استخدمَ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله) هذه الطريقةَ في كثيرٍ من ردوده على أهل الباطل، ونصَّ على أنها طريقةٌ نافعة؛ إذ قال: «وهذا أعظمُ ما يُستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالُهم باطلة؛ فإنَّه يُستفاد من قول كلِّ طائفة بيانُ فساد قول الطَّائفة الأخرى؛ فيعرف الطالبُ فسادَ تلك الأقوال، ويكون ذلك داعيًا له إلى طلبِ الحق. ولا تجد الحقَّ إلّا موافقًا لما جاء به الرسول ﷺ ولا تجد ما جاءَ به الرسول ﷺ إلّا موافقًا لصريح المعقول»[1]. وقال (رحمه الله): «ومعَ هذا، فيُستفاد من كلامهم نقضُ بعضِهم على بعض، وبيانُ فساد قوله، فإنَّ المختلفين كلّ كلامهم فيه شيء من الباطل، وكلّ طائفة تقصد بيانَ بطلان قولِ الأخرى، فيبقى الإنسانُ عندَ دلائل كثيرة تدلُّ على فسادِ قولِ كلِّ طائفة من الطّوائف المختلفين في الكتاب»[2]. وهذه الطريقة ستكون نافعةً جدًّا في نقد الإلحاد كذلك في نظري.

ولذا، فإني قد رأيتُ بعدَ استشارة بعضِ المشايخ الفضلاء أن يكون موضوعُ رسالتي لنيْل درجة الدكتوراه بعنوان:

«ردودُ علماءِ الغرب على الإلحاد المعاصر - عرضٌ ونقد -»[3].

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣١٤).

(٢) منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٧٦).

(٣) مع التنبيه على أنِّي أطلقتُ وصف «علماء» ومرادي الاصطلاح المعاصر الدارج الذي يطلق على المتخصِّصين في العلوم التجريبية والكونية والفلسفية ونحوها.
والمقصودُ بالغرب: الولايات المتحدة، وكندا، ودولُ الاتحاد الأوروبي مع بقية دول أوروبا الغربية الخارجة عن الاتحاد، إضافة إلى أستراليا ونيوزيلندا.

أهميةُ البحث وأسبابُ اختياره

اخترتُ هذا الموضوع لأسبابٍ كثيرة:

١) انتشارُ الإلحاد بشكلٍ ملحوظٍ في الآونة الأخيرة في أنحاء العالم، ونموُّه بنموٍّ متزايد في الدّول الإسلامية، ومعَ ذلك فإنَّ البحوث العلمية المتقنة حول هذا الموضوع قليلة، فالكتابةُ في الموضوع في غاية الأهمية.

٢) اهتمامُ علماء الغرب بالردِّ على الإلحاد منذُ قرون، وكثيرٌ من ردودهم قوية ومفيدة، ويُستفاد منها فوائدُ عظيمة، فينبغي إبرازُ هذه الردود باللغةِ العربية والاستفادة منها.

٣) وقوعُ كثيرٍ من الشباب المتأثرين بالأفكار الإلحادية في الدول العربية في هزيمة نفسية أمامَ الغرب، فإبرازُ أنَّ طائفة كبيرة من علماء الغرب أنفسهم نقدوا الإلحادَ والنَّظريات العلمية الإلحادية من الأهميةِ بمكان.

٤) ردودُ علماء الغرب مع أنَّها قوية في كثيرٍ من الجوانب، فإنها ضعيفةٌ من جوانب أخرى، وذلك أنَّ أصحابها انطلقوا من عقائدَ فاسدةٍ ومذاهبَ باطلة، فوقعوا في النَّقص والخلل. وهذا النقصُ بحاجةٍ إلى نقدٍ وتقويم من منظور إسلامي.

٥) الضَّعفُ الموجود في كثيرٍ من الكتب عن الإلحادِ باللغة العربية، إمّا من ناحية عقائد مؤلِّفيها، وإمّا من ناحية عدم الإتقان، لا سيَّما في جانب النظريات العلمية التَّجريبية التي للغربِ فيها تقدُّمٌ لا يجحَد. والمكتبة العربية بحاجةٍ عظيمة إلى إثرائها برسائلَ علمية تعالج هذا الموضوعَ الخطير.

الدراساتُ السابقة

لم أقفْ - فيما اطَّلعت عليه - على مؤلَّف في هذا الموضوع، فضلًا عن رسالة علميَّة أو بحث محكَّم. ولكنْ وقفت على بعضِ الرسائل العلمية والبحوث المحكَّمة حولَ موضوع الإلحاد، وكلُّها بحوث عامَّة، منها:

١) الفكرُ الإسلامي في مواجهة التيار الإلحادي، رسالة دكتوراه، لميصر سليمان محمد، ١٤٠٦هـ.

٢) الإلحادُ المعاصر: نشأته، وأسبابُه، ونقدُ أسسه، لأحمد محمد أحمد جلي، مركز البحوث التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، ١٤١٣هـ.

٣) الإلحادُ وآثارُه في الحياةِ الأوروبية الحديثة، لصالح إسحاق بامبا إسحاق، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠١هـ.

٤) الإلحادُ وسببُ انتشاره، لمحمود يوسف محمد الشوبكي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، قسم العقيدة.

٥) جهودُ المفكِّرين المسلمين المحدثين في مقاومةِ التيار الإلحادي، للدكتور محمود عبد الحليم عثمان، رسالة ماجستير، ثمَّ طبعتْه مكتبة المعارف عام ١٤٠١هـ.

٦) الإلحادُ المعاصر في الذّات الإلهية عبرَ مواقع الشبكات العنكبوتية - عرضًا ودراسة -، رسالة ماجستير، بحثٌ تكميلي، لعبد العزيز بن محمد السريهيد، عام ١٤٣٤هـ.

٧) جهودُ ابن القيم - رحمَه الله - ومنهجُه في الرَّد على الملاحدة، وأثرُه على مَن بعده، رسالة الدكتوراه، الجامعة الإسلامية، لعبد الله بن حسين السعيد.

٨) منهجُ القرآن الكريم في دحْض شُبهات الملحدين، رسالة ماجستير في جامعة أمّ القرى، لأفنان حمد الغماس.

هذه البحوثُ وإنْ كانت تتعلّق بموضوع الإلحاد، إلّا أنّها لم تفردْ لمناقشة ردودِ علماء الغرب على الملاحدة.

خطَّةُ البحث

سرتُ - ولله الحمدُ والمنَّة - في هذه الرسالة وفقَ خطَّة اشتملت على: مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، ثمَّ فهارس.

المقدِّمة:

اشتملتْ على الافتتاحية، وأهمية الموضوع، وأسبابِ اختياره، والدراسات السابقة، وخطَّة البحث، ومنهجه.

التَّمهيد في مقدِّمات حولَ الإلحاد ونقده، وفيه سبعةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** تعريفُ الإلحاد.
- **المبحثُ الثّاني:** أقسامُ الملاحدة.
- **المبحثُ الثّالث:** تاريخُ الإلحاد.
- **المبحثُ الرّابع:** خطورةُ الإلحاد.
- **المبحثُ الخامس:** أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد.
- **المبحثُ السّادس:** وسائلُ نشر الإلحاد.
- **المبحثُ السّابع:** تاريخُ نقد الإلحاد.

البابُ الأوّل: ردودُ علماء الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم ووسائلهم.

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على أسسِ الإلحاد المعاصر، وفيه ستةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** المذهبُ المادي.

- **المبحث الثّاني**: تعظيمُ العلم التجريبي.
- **المبحثُ الثّالث**: تعظيمُ العقل.
- **المبحثُ الرّابع**: الشكُّ ونسبيةُ الحقائق.
- **المبحثُ الخامس**: تعظيمُ الصدفة.
- **المبحثُ السّادس**: نقدُ ردود علماء الغرب على أسس الإلحادِ المعاصر.

الفصلُ الثّاني: **أساليبُهم في الرُّدود على الملاحدة، وفيه سبعةُ مباحث:**

- **المبحثُ الأوَّل**: بيانُ مغالطات الملاحدة المنطقية.
- **المبحثُ الثّاني**: بيانُ شطحات الملاحدة.
- **المبحثُ الثّالث**: بيانُ تناقضات الملاحدة.
- **المبحثُ الرّابع**: بيانُ ضعف خطاب الملاحدة.
- **المبحثُ الخامس**: بيانُ مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي.
- **المبحثُ السّادس**: بيانُ الشرور المترتبة على الإلحاد.
- **المبحثُ السّابع**: نقدُ أساليب علماءِ الغرب في الردودِ على الملاحدة.

الفصلُ الثّالث: **وسائلُهم في الردودِ على الإلحاد، وفيه سبعةُ مباحث:**

- **المبحثُ الأوَّل**: تأليفُ الكتب.
- **المبحثُ الثّاني**: عقدُ المناظرات.
- **المبحثُ الثّالث**: البرامجُ والمقاطع المرئية.
- **المبحثُ الرّابع**: النشرُ في وسائل الإعلام.
- **المبحثُ الخامس**: النشرُ في وسائل التواصل الحديثة.
- **المبحثُ السّادس**: إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.
- **المبحثُ السّابع**: نقدُ وسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد.

البابُ الثّاني: حججُ علماءِ الغرب على إثبات وجود الله، وفيه ثلاثة فصول:

الفصلُ الأوَّل: حججُهم العقلية على إثباتِ وجود الله، وفيه عشرةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل**: حجةُ الفطرة.
- **المبحثُ الثّاني**: الحجةُ الكونية.
- **المبحثُ الثّالث**: الحجةُ الغائية.
- **المبحثُ الرّابع**: حجةُ التوافق الدقيق للكون.
- **المبحثُ الخامس**: حجةُ الجمال.
- **المبحثُ السّادس**: الحجةُ الوجودية.
- **المبحثُ السّابع**: الحجةُ الأخلاقية.
- **المبحثُ الثّامن**: حجةُ الوعي.
- **المبحثُ التّاسع**: الحجةُ البرغماتية.
- **المبحثُ العاشر**: نقدُ حججِ علماء الغرب العقلية على إثباتِ وجود الله.

الفصلُ الثّاني: حججُهم العلمية على وجودِ الله، وفيه سبعةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل**: الحججُ المتعلقة بعلم الكون.
- **المبحثُ الثّاني**: الحججُ المتعلقة بالفيزياء.
- **المبحثُ الثّالث**: الحججُ المتعلقة بعلم الأحياء.
- **المبحثُ الرّابع**: الحججُ المتعلقة بالكيمياء.
- **المبحثُ الخامس**: الحججُ المتعلقة بعلم النفس.
- **المبحثُ السّادس**: الحججُ المتعلقة بالرياضيات.
- **المبحثُ السّابع**: نقدُ حجج علماء الغرب العلمية على وجود الله.

الفصلُ الثّالث: حججُهم الحسيَّة على وجود الله، وفيه أربعةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل**: حجةُ إجابة الدعاء.
- **المبحثُ الثّاني**: حجةُ المعجزات والكرامات.
- **المبحثُ الثّالث**: حجةُ ثبوت الحقائق الدينية.
- **المبحثُ الرّابع**: نقدُ حجج علماء الغرب الحسيَّة على وجود الله.

البابُ الثّالث: ردودُ علماءِ الغرب على شُبهات الملاحدة، وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على شُبهات الملاحدة العقلية، وفيه أحدَ عشَر مبحثًا:

- **المبحثُ الأوَّل**: ردودُهم على شبهة الخصائص غير المتوافقة.
- **المبحثُ الثّاني**: ردودُهم على شبهة: من خلق الله؟
- **المبحثُ الثّالث**: ردودُهم على شبهة عدم إمكان رؤية الله.
- **المبحثُ الرّابع**: ردودُهم على شبهة تناقض القدرة المطلقة.
- **المبحثُ الخامس**: ردودُهم على شبهة الوحي غير المتناسق.
- **المبحثُ السّادس**: ردودُهم على شبهة عدم إدراك المراد بالإله.
- **المبحثُ السّابع**: ردودُهم على شبهة إبريق راسل.
- **المبحثُ الثّامن**: ردودُهم على شبهة عدم الإيمان.
- **المبحثُ التّاسع**: ردودُهم على شبهة رهان الملحد.
- **المبحثُ العاشر**: ردودُهم على شبهة ضعف التصميم.
- **المبحثُ الحادي عشر**: نقدُ ردود علماء الغرب على شبهات الملاحدة العقلية.

الفصلُ الثّاني: ردودُهم على شُبهات الملاحدة العلمية، وفيه ثمانيةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية الانفجار العظيم.
- **المبحثُ الثّاني:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بقوانين الطبيعة.
- **المبحثُ الثّالث:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بنظرية التطور.
- **المبحثُ الرّابع:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بميكانيكية الكم.
- **المبحثُ الخامس:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالكيمياء.
- **المبحثُ السّادس:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بعلم النفس.
- **المبحثُ السّابع:** ردودُهم على الشبهات المتعلقة بالتاريخ.
- **المبحثُ الثّامن:** نقدُ ردودِ علماء الغرب على شبهات الملاحدة العلمية.

الفصلُ الثّالث: ردودُهم على شُبهات الملاحدة العاطفية، وفيه ستةُ مباحث:

- **المبحثُ الأوَّل:** ردودُهم على شبهة مشكلة الشر.
- **المبحثُ الثّاني:** ردودُهم على شبهة مشكلة جهنم.
- **المبحثُ الثّالث:** ردودُهم على شبهة سلب الإرادة.
- **المبحثُ الرّابع:** ردودُهم على شبهة الشرور المترتبة على وجود الأديان.
- **المبحثُ الخامس:** ردودُهم على شبهة مصير الجاهل.
- **المبحثُ السّادس:** نقدُ ردود علماء الغربِ على شبهات الملاحدة العاطفية.

الخاتمة:

وهي تشتملُ على نتائج البحث والتوصيات.

الفهارس: وهي تشتملُ على الآتي:

١) فهرس الآيات القرآنية.

٢) فهرس الأحاديث النبوية.

٣) فهرس الآثار.

٤) فهرس الأعلام.

٥) فهرس الفرق والأديان والمذاهب الفكرية.

٦) فهرس المصطلحات الغريبة.

٧) قائمة المصادر والمراجع.

٨) فهرس الموضوعات.

منهجُ البحث

المنهجُ العلمي المتّبع في هذا البحث هو المنهجُ التحليلي. وسرتُ في البحث على المنهج الآتي:

١) الرجوعُ إلى مصادرِ علماء الغرب الأصليَّة في نقد الإلحاد كالكتب، والصحف، والمجلات، والمناظرات، والمحاضرات.

٢) الرجوعُ إلى مصادرِ الملاحدة الأصلية عندَ إيراد شبهاتهم كالكتب، والصحف، والمجلات، والمناظرات، والمحاضرات.

٣) ترجمةُ كلامهم إلى اللغةِ العربية معَ كتابة كلامِهم بلغتِه الأصلية في الحاشية إذا لم يكنِ الكلامُ مترجمًا من قبل.

٤) تقويمُ كلامِ علماء الغرب بالأدلَّة من المنظور الإسلامي، وبيان ما يمكن الاستفادة منه، وما هو مَردود.

٥) الرجوعُ إلى المصادرِ الأصيلة لعلماء الإسلام في نقدِ الإلحاد حسبَ الإمكان.

٦) عزْو الآيات القرآنية، بذكْر اسمِ السّورة ورقمها، معَ كتابتها بالرسم العثماني.

٧) عزْو الأحاديث النبوية، فإنْ كان في الصحيحين أو أحدهما اكتفيتُ بعزْوه، وإلّا عزوتُه إلى مظانِّه من كُتب السنة، معَ ذكر حُكم أهل العلم عليه.

٨) التعريفُ بالفرق، والأديان، والمذاهب الفكرية، والأعلام، وكلّ ما يحتاج إلى تعريف.

٩) شرحُ المصطلحات العلمية والكلمات الغريبة.

١٠) الالتزامُ بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج لضبط.

١١) تذييلُ البحث بفهارسَ فنّيَّة تسهّل الاستفادة منه، على النَّحو المبين في الخطة.

الشُّكر والتقدير

أشكرُ اللهَ تعالى على آلائه العظيمة، وعلى نعمِه التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فأشكر جلَّ وعلا على أنْ هداني لهذا الدين، ثمَّ أنْ هداني إلى سنَّة نبيه ﷺ، ثمَّ أن يسّر لي طلبَ العلم في المدينة النبوية، وفي هذه الجامعة المباركة.

ثمَّ إنَّني عملًا بقولِ النبي ﷺ: «مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله»[(١)] أتقدَّم بالشكر والتَّقدير للمملكة العربية السعودية، وعلى رأسها خادمُ الحرمين الشريفين حفظه الله ورعاه، الذي منحَ لي الدراسة في هذه الدولة المباركة.

كما أنَّني أشكرُ الجامعة الإسلامية المباركة؛ الجامعة التي لا تغيب عنها الشمس، ويتوافدُ إليها الطلبة من كلِّ فجٍّ عميق لطلبِ العلم الشرعي الأصيل. وأخصّ بالشكر كذلك كليةَ الدعوة وأصول الدين، وقسمَ العقيدة في هذه الجامعة المباركة.

كما أتقدَّم بالشكر والتقدير لمشايخي الذين درستُ عندهم في الجامعة وخارجها. وأخصُّ بالذكر مُشرفي فضيلة الأستاذ الدكتور / صالح بن عبد العزيز سندي؛ فإنَّه قد أفادني كثيرًا جدًّا بتوجيهاته الرَّشيدة، وتصحيحاته السديدة خلالَ كتابتي للرسالة.

وأشكرُ المناقشيْن الكريمين: الأستاذ الدكتور / بدر بن مقبل الظفيري، والأستاذ الدكتور الحبيب / إسماعيل عبد المحسن قطب؛ بتفضُّلهما بقبول مناقشة الرسالة.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٨١١)، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، (٧/ ١٨٨).
وأخرجَه الترمذي في جامعه (١٩٥٣)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر إلى من أحسن إليك، (٤/ ٧١)، وقال الترمذي: «هذا حديث صحيح». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وصحَّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤١٧)، (١/ ٧٧٦).

وأشكرُ زوجتي - حفظَها الله - على صبرِها العظيم خلالَ طلبي للعلم، وكتابتي للرسالة، فأسألُ الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتها.

وأشكرُ كلَّ مَن أعانني ماديًّا ومعنويًّا خلالَ كتابتي للرسالة؛ لأنَّ هذه المساعدة يسَّرت لي التفرغَ التام للرسالة، فأسألُ الله أن يتقبَّل ذلك منهم، وأن يرفعَ درجاتهم في العليّين.

وصلَّى اللهُ على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيدُ

في مقدِّمات حول الإلحاد ونقده

وفيه سبعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: تعريفُ الإلحاد.

المبحثُ الثّاني: أقسامُ الملاحدة.

المبحثُ الثّالث: تاريخُ الإلحاد.

المبحثُ الرّابع: خطورةُ الإلحاد.

المبحثُ الخامس: أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد.

المبحثُ السّادس: وسائلُ نشر الإلحاد.

المبحثُ السّابع: تاريخُ نقد الإلحاد.

المبحثُ الأوَّل

تعريفُ الإلحاد

الإلحادُ له معنى عامٌّ في اللغة، ومعنى خاصٌّ في الشرع، ثمَّ اصطلح المعاصرون على إعطائه معنى أخصَّ من المعنى الشَّرعي. وفيما يأتي توضيحُ معناه في اللغة والشرع والاصْطلاح المعاصر:

الإلحادُ لغةً:

الإلحادُ - في لسان العرب - مِن: ألحد يُلحِد إلحادًا. والمراد به «مال، وعدل، وماری، وجادَل»[1]. فأصلُ الإلحاد: «الميلُ والعُدول عن الشيء»[2]. ولهذا سمّي الظالمُ الجائر بالملحِد، كما في قول الشاعر:

قَدني من نصر الخبيبين قدي ... ليس الإمام بالشحيح الملحد[3]

ومنه اللَّحْد، وهو «الشقُّ الذي يكون في عرضِ القبر موضعَ الميّت، لأنَّه قد أميل عنْ وسطه إلى جانبه»[4]. والملتحدُ هو الملجأ، «لأنَّ اللاجئ يميل إليه»[5]؛ فالإلحادُ في اللغة هو الميلُ مطلقًا.

---

(١) القاموس المحيط (مادة: لحد) (٣١٧)، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس (مادة: لحد) (٩ / ١٣٦)، لمحمد بن محمد الزبيدي، (دار الهداية، مجموعة من المحققين، لم تذكر الطبعة، ولا سنة الطباعة).

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (مادة: لحد) (٢ / ٥٣٥)، لإسماعيل بن حماد الجوهري، (دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ ت. أحمد عبد الغفور عطّار). والبيت منسوب إلى حميد الأرقط.

(٤) تاج العروس (٩ / ١٣٥).

(٥) الصحاح تاج اللغة صحاح العربية (٢ / ٥٣٥).

الإلحادُ في نصوص الشَّرع:

المعنى الشرعي للإلحاد أخصُّ من المعنى اللغوي، فإنَّه لا يعني الميلَ مطلقًا، وإنَّما هو الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «الإلحادُ يقتضي ميلًا عنْ شيء إلى شيء باطل»[1]. وقد وردتْ كلمةُ الإلحاد في نصوصِ الشرع في عدَّة مواضِع، وكلّها تدور حولَ هذا المعنى. ومِن الأمثلة على ذلك:

١) قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ومعنى: ﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾: «يميلون إليه ويهْوونه»[2]. «وذلك أنَّهم فيما ذُكر كانوا يزعمون أنَّ الذي يعلِّم محمدًا هذا القرآن عبدٌ روميّ»[3]. وهذا الميلُ ميلٌ عن الحقِّ والصِّدق إلى الباطل والكذب[4].

٢) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصّلت: ٤٠]. «أي: يميلونَ عن الحقِّ في أدلَّتها.. وهذا يرجعُ إلى الذين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصل: ٢٦] وهم الذين ألحدوا في آياتِه، ومالوا عن الحقِّ فقالوا: ليس القرآنُ من عند الله، أو هو شعرٌ أو سحْر»[5].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ١٢٤)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦ هـ، جمعه: عبد الرحمن بن قاسم).

(٢) معاني القرآن (٢ / ١١٣)، ليحيى بن زياد الفراء، (دار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى، ت. أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي).

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن (١٤ / ٣٦٤)، لمحمد بن جرير الطبري، (دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ).

(٤) انظر: أضواء البيان (٢ / ٤٥٤)، لمحمد الأمين الشنقيطي، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٥ / ٣٦٦)، لمحمد بن أحمد القرطبي، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ، ت. أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.

وقد ذكرَ العلامة ابنُ عثيمين (رحمه الله) أنَّ الإلحاد في آيات الله ينقسم إلى قسْمين: إلحادٍ في آيات الله الكونية، والإلحادِ في آيات الله الشرعية:

القسمُ الأوّل: الإلحادُ في آيات الله الكونية، وهي ثلاثةُ أنواع:

- **النوعُ الأوّل**: اعتقاد أنَّ أحدًا سوى الله منفردٌ بها أو ببعضها.
- **النوعُ الثّاني**: اعتقاد أنَّ أحدًا مشاركٌ لله فيها.
- **النوعُ الثّالث**: اعتقاد أنَّ لله فيها معينًا في إيجادها وخلقها وتدبيرها.

والقسمُ الثّاني: الإلحادُ في آيات الله الشرعية، وهو ثلاثة أنواع أيضًا:

- **النوعُ الأوَّل**: تكذيبُها فيما يتعلّق بالأخبار.
- **النوعُ الثّاني**: مخالفتُها فيما يتعلَّق بالأحكام.
- **النوعُ الثّالث**: التحريفُ في الأخبار والأحكام[1].

٣) وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٨٠]. وفسّر السلفُ الإلحادَ في الآية بالتكذيب والشِّرك[2]. وقال إمامُ المفسّرين ابن جريرِ الطبري (رحمه الله): «وكان إلحادُهم في أسماء الله: أنَّهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسمّوا بها آلهتَهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسمّوا بعضها «اللات» اشتقاقًا منهم لها مِن اسم الله الذي هو «الله»، وسمّوا بعضها «العُزّى» اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو «العزيز»»[3]. والإلحادُ في أسماء الله وصفاتِه قد قسّمه الإمامُ ابن القيّم (رحمه الله) إلى خمسة أنواع:

- **الأوَّل**: أن يسمّى الأصنام بأسماءِ الله كتسميةِ المشركين اللات من الإلهية.

---

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٢٠ - ٣٢١)، لمحمد بن صالح العثيمين، (دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، ١٤٢٤ هـ).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن (١٠/ ٥٩٧ - ٥٩٨).

(٣) المصدر السابق (١٠/ ٥٩٦).

- **الثّاني**: تسميةُ الله بما لا يليقُ بجلاله كتسميةِ النصارى له أبًا.
- **الثّالث**: وصفُ الله بما يتعالى عنْه ويتقدّس من النقائص كقول أخبث اليهود إنَّه فقير.
- **الرّابع**: تعطيلُ الأسماء عن معانيها، وجحد حقائقها، كقول مَن يقول مِن الجهمية وأتباعهم إنَّها ألفاظ مجرَّدة لا تتضمّن صفاتٍ ولا معاني.
- **الخامس**: تشبيهُ صفات الله بصفاتِ خلقه، تعالى اللهُ عمّا يقول المشبّهون علوًّا كبيرًا[1].

٤) قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]. وقد روي عنِ السَّلف تفسيرُ الإلحاد في هذه الآية بالشرك، والقتل، والمعاصي، واستحلال الحرم تعمُّدًا[2]، واستحلال محظورات الإحرام[3]. ورويَ عنِ السلف أنَّ ما هو دون المعاصي يُعتبر إلحادًا في الحرم؛ فعنِ ابن عباس رضي الله عنهما أنّه قال: (تجارةُ الأمير بمكة إلحاد)[4]، وعنِ ابن عُمر رضي الله عنهما: (بيعُ الطعام بمكة إلحاد)[5].

وعنْ عبد الله بن عَمرو رضي الله عنهما: (كنّا نحدِّث إنَّ مِن الإلحاد فيه أنْ يقول الرجل: كلا والله، وبلى والله)[6]. «وهذه الآثار، وإن دلَّت على أنَّ هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هوَ أعمُّ من ذلك، بل فيها تنبيهٌ على ما هو أغلظُ منها»[7].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (١ / ٢٩٨ - ٢٩٩)، لمحمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية (دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ، ت. علي بن محمد العمران).

(٢) انظر: جامع البيان عن تأويل القرآن (١٦ / ٥٠٦ - ٥١٠).

(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٣ / ٢٣١)، لعبد الرحمن بن علي، المشهور بابن الجوزي، (دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ، ت. عبد الرزاق المهدي).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨ / ٢٤٨٤)، لعبد الرحمن بن محمد، المشهور بابن أبي حاتم الرازي، (مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الثالثة، ١٤١٩ هـ، ت. أسعد بن محمد الطيب).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) تفسير القرآن العظيم (٥ / ٤١٢)، لإسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي، (دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٠ هـ، ت. سامي بن محمد سلامة).

٥) قال النبي ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»[١]. والمراد بـ(ملحد في الحرم) «أي: ظالم أو عاصٍ فيه، فإنه عاصٍ لله تعالى، وهاتكٌ حُرمةَ الحرم»[٢].

فتبيّن أنَّ الإلحاد في نصوص الشرع ليس ميلًا من حيث الإطلاق، بل هو ميلٌ مخصوص. وقد فسّر السلفُ الإلحادَ في نصوص الشَّرع بالشرك، والكفر والانحرافات العقدية. وفسّروا الإلحادَ في الحرمِ بالمعاصي، وما دون ذلك كتجارةِ الأمير وبيع الطعام والحلف.

ولكن، هل يجوز إطلاقُ كلمة الإلحاد على جميع المعاصي في أيِّ مكانٍ كان؟ الجواب: الإلحادُ معناه الشرعي الميلُ عن الحقِّ إلى الباطل. وكلُّ ذنبٍ صغيرًا كان أو كبيرًا ميلٌ عن الحقّ إلى الباطل. فبهذا الاعتبار يجوز إطلاقُ الإلحاد على كلِّ ذنب؛ قال العلّامة ابنُ عثيمين (رحمه الله): «والإلحادُ في الآيات الكونية والشرعية حرام. ومنه ما يكونُ كفرًا؛ كتكذيبها، فمَن كذَّب شيئًا معَ اعتقاده أنَّ الله ورسوله أخبرًا به؛ فهو كافر. ومنْه ما يكون معصيةً من الكبائر؛ كقتل النَّفس والزنا. ومنه ما يكون معصية من الصَّغائر؛ كالنظرِ لأجنبية لشهوة. قال اللهُ تعالى في الحرم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] فسمّى الله المعاصي والظلم إلحادًا؛ لأنَّها ميلٌ عمّا يجب أن يكون عليه الإنسان؛ إذِ الواجب عليه السيرُ على صراط الله تعالى، ومَن خالف؛ فقد ألحد»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٨٨٢)، كتاب الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حقّ، (٩/ ٨)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٢٤)، لعلي بن سلطان محمد الهروي القاري، (دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ).

(٣) القول المفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٣٢١ - ٣٢٢).

ومعَ ذلك يبقى سؤال: هل كان أئمةُ السَّلف ومَن بعدهم مِن العلماء يسمّون العصاةَ في غير الحرمِ بالملاحدة ؟ وهل كانوا يُطلقون على السارق والزاني والقاتل في غير الحرم أنه مُلحد؟ الظاهرُ أنَّ هذا ليس من عُرف العلماء المتقدّمين، وإنما يطلقونَ الإلحادَ على الانحرافاتِ العقدية الكبيرة، وإذا وُصف ذنبٌ بالإلحاد ففيه إشارةٌ إلى عِظَمِه؛ قال بدرُ الدين العيني (رحمه الله): «ملحدٌ بضمّ الميم، وهو المائلُ عن الحقِّ، العادل عن القصد؛ أي: الظالم. فإنْ قلت: مرتكبُ الصغيرة مائلٌ عن الحق؟ قلت: هذه الصيغة في العُرف تستعمَل للخارج عنِ الدين، فإذا وصف بها مَن ارتكبَ معصية كان في ذلك إشارةٌ إلى عِظمها»[1].

فهذا اللفظُ استعمله السلفُ لمن وقعَ في انحرافاتٍ عقدية خطيرة، ولمَن ارتكب ذنبًا مِن الذّنوب في الحرم المكي. وتخصيصُ الحرم المكّي بذلك - والله أعلم - هو لورودِ الآية في ذلك، ولعِظم شأن الذُّنوب في ذلك المكانِ الطاهر. ولكن ليس مِن عرفهم الشائع استعمالُ هذه الكلمة على كلِّ معصية وذنبٍ في غير الحرم.

فالغالبُ أنَّ أئمة السلف إذا أطلقوا على أشخاصٍ وطوائف أنَّهم ملاحدة فكانوا يعْنون أنَّهم وقعوا في انحرافاتٍ عقدية خطيرة. ومِن الأمثلة على ذلك:

المثالُ الأوَّل: قولُ الإمام الكناني[2] (رحمه الله) في مناظرته للمريسي[3]: «فلما أنزلَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - هذه الأربعة الأخبار، خصّ العرب بفهمها ومعرفة معانيها

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٤ / ٤٤)، لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، (دار إحياء التراث العربي، بيروت).

(٢) الكناني: عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز المكي الكناني. فقيه مناظر. كان من تلاميذ الإمام الشافعيّ. له تصانيف عديدة، منها: الحيدة والاعتذار في الردّ على من قال بخلق القرآن. توفي عام٢٤٠هـ. انظر: الأعلام (٤/ ٢٨ - ٢٩).

(٣) المريسي: هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي مولاهم المريسي البغدادي. كان من كبار الفقهاء، ولكنَّه نظر في الكلام، فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرّد القول بخلق القرآن، ودعا إليه، حتَّى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم. أخذ عن: القاضي أبي يوسف. من مؤلفاته: الرد على الخوارج. توفي عام: ٢١٨ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠ / ١٩٩ - ٢٠٢).

وألفاظها وخصوصها وعمومها والخطاب بها، ثمَّ لم يدعها اشتباهًا على خلقه فيجد **المُلحدون السبيلَ إلى الإلحاد** في صفاته والطعن على أخباره»[١].

المثالُ الثّاني: قولُ الإمام الدارمي (رحمه الله): «وفيما ذكرنا من ذلك بيانٌ بيِّن ودلالةٌ ظاهرة على **إلحاد هؤلاء الملحدين في أسمائه**، المبتدعين أنها محدثةٌ مخلوقة»[٢].

المثالُ الثّالث: سمّى الإمامُ البخاري (رحمه الله) بابًا في صحيحه بـ«قتل الخوارج و**المُلحدين** بعدَ إقامة الحجة عليهم»[٣].

المثالُ الرّابع: قال الإمامُ ابن بطة (رحمه الله) في الردِّ على القدرية: «مَن زعم أنَّ أحدًا من الخلق صائرٌ إلى غيرِ ما خلق له وعلمَه اللهُ منه؛ فقد نفى قدرةَ الله - عزَّ وجلَّ - عن خلقه، وجعل الخلق يقدرون لأنفسهم على ما لا يقدر اللهُ عليه منهم. **وهذا إلحادٌ** وتعطيل وإفكٌ على الله - عزَّ وجلَّ - وكذبٌ وبهتان»[٤]. والأمثلة على ذلك عندَ السلف كثيرة[٥].

المثالُ الخامس: ذكرَ العلّامةُ البهوتي[٦] (رحمه الله) أنَّ الملحدَ مرادفٌ للزنديق إذ قال: «والمشهورُ على ألسنة الناس أنَّ الزنديق: هو الذي لا يتمسّك

---

(١) الحيدةُ والاعتذار في الرد على مَن قال بخلق القرآن (٥٦)، لعبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، (مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ هـ، ت. علي بن ناصر الفقيهي).

(٢) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله - عزَّ وجلَّ - من التوحيد (١ / ١٨٤)، لعثمان بن سعيد الدارمي، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ، ت. رشيد بن حسن الألمعي).

(٣) صحيح البخاري (٩ / ١٦).

(٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (٢ / ٤٤)، لعبيد الله بن محمد المعروف بابن بطة العُكبري، (دار الراية للنشر، الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ، ت. عثمان عبد الله آدم الأثيوبي).

(٥) انظر على سبيل المثال: الرد على الجهمية للدارمي (٣٢)، السنة للخلال (١، ٢٢٣)، الشريعة للآجري (١ / ٤١٢)، الكفاية في علم الرواية (٣٤)، شرح السنة للبغوي (٥ / ٢٦٨).

(٦) البهوتي: منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن البهوتي الحنبلي: شيخ الحنابلة بمصر في عصره. من مؤلفاته: الروض المربع شرح زاد المستقنع المختصر من المقنع، وكشاف القناع عن متن الإقناع للحجاوي. توفي عام: ١٠٥١ هـ. انظر: الأعلام (٧ / ٣٠٧ - ٣٠٨).

بشريعة، ويقول بدوام الدَّهر، والعرب تعبّر عنْ هذا بقولهم: ملحد؛ أي طاعنٌ في الأديان»[1].

ففي هذه المواضع السابقة ذكرَ أئمةُ السلف وأتباعهم أنَّ الملحد هو مَن وقع في انحرافاتٍ عقدية غليظة.

وقد وجدت أنَّ بعضَ المتقدِّمين ذكرَ الإلحاد بمعنى قريبٍ من المفهوم المعاصر - الذي سيأتي ذكرُه - ؛ فمِن ذلك ما ذكره الإمامُ اللغوي الزجاج[2] (رحمه الله) أنَّ الإلحاد بمعنى: «الشكّ في الله»[3].

ذكرَ الحافظ البيهقي (رحمه لله) حديث: «الإيمانُ بضعٌ وستون، أو بضع وسبعون أفضلُها لا إله إلّا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[4]، ثمَّ ذكر مِن فوائده: «...والخامس: إثباتُ أنَّه مدبِّر ما أبدع، ومصرِّفه على ما يشاء ليقع به البراءة مِن قول القائلين بالطبائع، أو تدبير الكواكب أو تدبير الملائكة، فأمّا البراءة بإثباتِ البارئ - جلَّ ثناؤه -، والاعتراف له بالوجودِ من معاني التعطيل[5] **فلأنَّ قومًا ضلُّوا عن معرفة الله - جلَّ ثناؤه - فكفروا، وألحدوا، وزعموا أنَّه لا فاعل لهذا العالم، وأنه لم يزلْ على ما هوَ عليه، ولا موجود إلّا المحسوسات**، وليس وراءها شيء، وأنَّ

---

(١) انظر: كشاف القناع عن الإقناع (١٤ / ٢٥٢)، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، (دار النوادر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ).

(٢) الزجاج: هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الزجاج البغدادي. الإمام نحوي زمانه. أخذ عن: المبرد، وأخذ عنه العربية: أبو علي الفارسي. من مؤلفاته: معاني القرآن. توفي عام: ٣١١ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤ / ٣٦٠)، والوافي بالوفيات (٥ / ٢٢٨ - ٢٢٩).

(٣) تاج العروس (٩ / ١٣٥).

(٤) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٩)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، (١ / ١١). وأخرجه مسلم في صحيحه (٥٨)، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، (١ / ٦٣)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) التعطيل: هو جحد الصفات وإنكار قيامها بذات الله تعالى ونفي ما دلّت عليه من صفات الكمال. انظر: التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية (٢٦).

الكوائن والحوادث إنَّما تكون وتحدث من قبل الطبائع التي في العناصر، وهي: الماء، والنار، والهواء، والأرض، ولا مدبِّر للعالم يكون ما يكون باختياره وصنعه»[1].

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): «**الإلحادُ المحْض: نفي الصانع بالكلية**، وأنَّ هذا العالم الموجود ليس له صانع»[2].

فالعلماءُ المتقدِّمون استعملوا لفظَ الإلحاد والملاحدة في كثيرٍ من الأحيان بمعنى أخصِّ من المعنى اللغوي، ولكنَّه في الوقت نفسه أعمُّ من المعنى الذي اصطلح عليه المعاصرون.

المصطلحُ المعاصر للإلحاد:

لقد وقعَ المنحرفون من بني آدم في أصناف من الإلحاد - الذي هو الميل عن الحقّ إلى الباطل - في مختلف العصور، ولكن كانوا شبه متّفقين على إثبات خالق لهذا الكون[3]. ولما انتشرت فكرةُ إنكار الخالق في العصور المتأخِّرة اصطلح أهلُ العصر على معنى خاصٍّ للإلحاد، وهو: إنكارُ وجود ربٍّ خالقٍ لهذا الكون[4]. وإذا أُطلق على شخصٍ في هذا الزمان أنَّه مُلحد، فإنَّه ينصرف إلى هذا المعنى المعاصر في الغالب. وسبقَ أنَّ المتقدِّمين إذا أطلقوا على شخصٍ أنَّه مُلحد فإنَّهم قصدوا أنه وقع في انحرافات عقديَّة أو غيرها، وفي بعضِ الأحيان قصدوا بالإلحاد: إنكار وجودِ الخالق، أو الشكّ في وجودِه. وسماتُ «الإلحاد المعاصر صناعة أوروبية»[5]، فقد تبلورَ الإلحاد

---

(١) شعب الإيمان (١/ ١٩٠)، لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي).

(٢) جامع المسائل (٤/ ٤٢٥).

(٣) سيأتي الكلام على هذه المسألة بتفصيل في المبحث الثالث.

(٤) كواشف زيوف: (٤٣٣)، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، (دار القلم، الطبعة الخامسة، ١٤٣٣ هـ). ذلك مع الاختلاف الوارد بين الباحثين في تحديد هذا التعريف كما سيأتي ذكره.

(٥) خرافة الإلحاد (٤٣)، للدكتور عمرو شريف، (مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ).

وأخذ سماته الخاصَّةَ في تلك القارة. وحيث إنَّ البحث يتناول ردودَ علماء الغرب على هذا الإلحاد فإنَّه مِن المناسب الرجوعُ إلى كتبهم لتحديدِ هذا المصطلح.

أصولُ المُصطلح المعاصر للإلحادِ في اللغات الأوروبية:

جُلُّ اللغاتِ الأوروبية الحديثة تعبِّر عن الإلحادِ بكلمات مُتشابهة: فهي باللغة الإنجليزية: Atheism والفرنسية: Athéisme والألمانية: Atheismus والإيطالية Ateismo والإسبانية Ateísmo والهولندية Atheïsme والسويدية Ateism وهلمَّ جرًّا. وكانت اللغة الإنجليزية أوّلَ لغة أوروبية حديثة استعملتْ هذا اللفظ، وذلك في عام ١٥٤٠، ثمَّ انتقلتْ إلى اللغة الفرنسية عام [١]١٥٤٩. وقد انتقلتْ هذه الكلمة إلى هذه اللغات من كلمة Atheos باللُّغة اليونانية[٢]. وحرف a باللغة اليونانية يسمى alpha privatium وتشيرُ إلى الفقدانِ أو حالةِ الغياب[٣]. ولكنْ لا يلزم مِن الفقدان أو حالة الغياب النفيُ الخاصُّ أو الجحود أو المعاداة[٤].

وكلمة theos بمعنى الإله؛ فيكون المرادُ بـالملحدِ باللغة اليونانية: الشخص الذي ليس له إيمانٌ بالله، سواء أنفَى وجودَه أم لم ينْفِه[٥].

التَّعريفاتُ المُختلفة لكلمةِ الإلحاد باللغة الإنجليزية:

قدِ اختلفتْ تعريفاتُ الأكاديميّين في الغربِ لكلمة الإلحاد، وليس هناك إجماعٌ في المسألة[٦]. وهذه خمسةٌ من أهمِّ التَّعريفات لهذه الكلمة الواردة في كُتب الباحثين الغربيّين المعاصرين:

---

(1) Renaissance and Reformation, the Oxford Handbook of Atheism (190),(Oxford University Press, 2013, ed. Stephen Bullivant and Michael Ruse)

(2) Defining atheism, the Oxford Handbook of Atheism (11)

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) انظر: المصدر السابق (١٢).

(5) The Cambridge Companion to ATHEISM (1)

(6) Defining atheism, the Oxford Handbook of Atheism (11)

- **التعريفُ الأوَّل**: «الإلحاد: هو الإيمانُ أنَّه لا يوجد إله أو آلهة»[١].
- **التعريفُ الثّاني**: «الإلحادُ يمثِّل موقفًا (وليس إيمانًا) يشير إلى أنَّه لا يوجد إله أو آلهة»[٢].
- **التعريفُ الثّالث**: «الملحدُ هو الذي ليسَ له إيمانٌ بالإله؛ ولكنْ لا يعني ذلك أنه يؤمنُ أنَّ الإله غير موجود»[٣].
- **التعريفُ الرّابع**: «الملحدُ لا يؤمن بالإله الذي يفضِّله اللاهوتيون»[٤].
- **التعريفُ الخامس**: «بكلمةِ الملحد أعني ما يفهَم من الكلمة دائمًا وأبدًا، وهو الموقفُ بجحد الإيمان بالله»[٥].

قدْ يتبادرُ إلى الذهن أنَّ هذه التعريفات متَّفقة، أو أنَّ الخلاف يسير؛ فلا مشاحةَ في الاصْطلاح، ولكنَّ الأمرَ ليس كذلك. إنَّه لا ريب أنَّ هذه التعريفات تحمل سماتٍ معينةً كالموقف السلبي للإيمان بإله[٦]، ولكنْ ثمَّة فروق مؤثِّرة؛ فالتعريفُ الأوّل والثاني لا ينفيانِ الإيمانَ بالله فقط، بل الإيمان بآلهةٍ كذلك، بينما التعريفاتُ الثالث والرابع والخامس تنفي الإيمانَ بالله فقط. صاحبَا التعريف الثاني والثالث يريان أنَّ الإلحاد فقدان لإيمانٍ معيَّن بينما يرى أصحابُ التَّعريفات الأخرى أنَّ الإلحاد هو الإيمانُ بأنَّ الله غير موجود[٧].

---

(1) Atheism: A Very Short Introduction (3)

(2) What is Atheism? (Atheism and Secularity, Vol: 1, p. 1)

(3) Atheism: A Philosophical Justification (1)

(4) The Definition of Atheism, (Journal of Religion & Society, Vol. 11, p. 1)

(5) The Twilight of Atheism: The Rise and Fall of Disbelief in the Modern World (175)

(6) Defining atheism, the Oxford Handbook of Atheism (11)

(٧) انظر: المصدر السابق (١١ - ١٢).

قد يسأل سائل: هل لهذا الخلاف تأثيرٌ واقعي؟ أو هل هو خلافٌ اصطلاحي فقط؟ فالجواب: ثمَّة تأثيرٌ واقعي لهذا الخلاف؛ فمَن عرَّف الإلحاد بأنَّه جحدُ وجودِ الخالق فإنَّ تعريفه يخصُّ الإلحادَ الإيجابي الصُّلب فقط. ومَن عرَّف الإلحاد بأنَّه فقدان الإيمان بالله فإنه يشمل الإلحادَ الإيجابي الصُّلب والإلحادَ السلبي الضعيف أيضًا(١). وذلك أنَّه بالنظر إلى نتيجة الموقفيْن فإنَّ الإلحاد الإيجابي يشمل الإلحادَ الضعيف ولا العكس؛ فكلُّ ملحدٍ إيجابي ملحدٌ سلبي، وليس كلُّ ملحدٍ سلبي ملحدًا إيجابيًّا(٢). والسببُ أنَّ الإلحاد الإيجابي فقدانُ الإيمان بالله، وعلاوةً على ذلك يزعم هذا الملحد أنَّ لديه أدلة وحججًا على عدمِ وجود الله، وهذا لا يزعمه الملحد إلحادًا سلبيًّا.

وفي واقع البلدان اليوم، يُلحظ الفرقُ المؤثِّر بينَ التعريفين. ففي الجدول الآتي(٣) إحصاءٌ للحالة الدينية للشُّعوب في بعض البلدان الأوروبية، ويظهر فيه الفرقُ بين مَن يسمِّي نفسَه ملحدًا وهوَ الإلحاد الإيجابي، ومَن يقول إنَّه يفقد الإيمان بالله وهو الإلحادُ السلبي:

---

(١) الإلحادُ الضعيف هو الإلحادُ المبني على عدمِ الاقتناع بأدلَّة وجود الله، والإلحاد القوي الصلب هو الإلحادُ المبني على شبهات. وسيأتي الحديثُ عن نوعي الإلحاد في المبحث القادم بالتفصيل - إن شاء الله -.

(2) Atheism A Guide for the Perplexed (12)

(٣) اعتمدت على المقال Phil Zuckerman الأستاذ المساعد في Pitzer College, والمقال:
Atheism Contemporary Numbers and Patterns, in The Cambridge Companion to Atheism (49-50)
معَ ملاحظة الفروقِ الواسعة بين الإحصائيات المختلفة، ولكن المراد هنا بيان الفرق بين الإلحاد الإيجابي والإلحاد السلبي.

الدولة	الإلحاد السلبي	الإلحاد الإيجابي
بريطانيا	٪٣١	٪١٠
فرنسا	٪٤٨	٪١٩
السويد	٪٤٦	٪١٧
الدنمارك	٪٤٣	٪١٥
النرويج	٪٤١	٪١٠

فلا شكَّ أنَّ هناك فروقًا مؤثِّرة بين التَّعريفين من حيث الشمول، وأنَّ الإلحاد السلبي أكثرُ انتشارًا من الإلحاد الإيجابي.

تعريفُ الباحثين المُسلمين للإلحاد:

قدْ أسهم الباحثون من المسلمين في تعريفِ الإلحاد في العصر الراهن أيضًا. وهذه بعضُ تعريفاتهم:

التعريفُ الأوَّل: «يُراد من الإلحاد هنا المعنى المصطلح عليه في هذا العصر، وهو **إنكارُ وجود ربٍّ خالقٍ لهذا الكون**، متصرِّف فيه، يدبِّر أمرَه بعلمه وحكمته، ويُجري أحداثَه بإرادته وقدرته. واعتبارُ الكون أو مادَّته الأولى أزلية، واعتبار تغيُّراته قد تمتْ بالمصادفة، أو بمُقتضى طبيعةِ المادة وقوانينها، واعتبار ظاهرة الحياة وما تستتبع من شعور وفكرٍ حتَّى قمَّتها عند الإنسان؛ مِن أثر التطور الذاتي في المادة»[١].

التعريفُ الثّاني: «المرادُ بالإلحاد الذي نحنُ بصدد دراسته: **كلُّ فكرٍ يتعلق بإنكار وجودِ خالقِ هذا الكون** - سبحانه وتعالى... بمعنى أنَّ وصفَ الإلحاد يشمل كلَّ مَنْ لم يؤمنْ بالله تعالى، ويزعم أنَّ الكون وُجِدَ بذاته في الإزل نتيجةَ تفاعلات جاءت عن طريقِ الصُّدفة، ودون تحديدِ وقتٍ لها، واعتقاد أنَّ ما وصل إليه الإنسان منذ أن وُجِدَ

(١) كواشف زيوف: (٤٣٣).

وعلى امتدادِ التاريخ مِن أحوال في كلِّ شئونه إنَّما وُجِدَ عن طريق التطور، لا أنَّ هناك قوةً إلهية تدبِّره وتتصرَّف فيه»[1].

التعريفُ الثَّالث: «مذهبٌ فلسفي يقوم على فكرةٍ عدميَّة أساسُها **إنكارُ وجود الله الخالق سبحانه وتعالى**»[2].

الوصفُ المشترك لهذه التعريفات الثلاثة أنَّ الإلحاد هو إنكارُ وجود الخالق. وهو تعريفٌ للإلحاد الإيجابي الصُّلب، دونَ الإلحاد السلبي الضعيف. والتعريفان الأوّلان مختصران، ثمَّ تبعهما كلامٌ مفسَّر. ففي التعريفِ الأوّل والثاني بيانٌ أنَّ الملحد يعتقد أنَّ الإنسان وُجِد عن طريق التطوُّر. وهذا هو اعتقادُ الملاحدة المعاصرين بعدَ ظهور نظرية التطوُّر. وأمّا قبلَ نظرية التطوُّر فلم يكن ذلك من اعتقاد الملاحدة.

وذُكر في التَّعريف الثالث للموسوعة الميسَّرة أنَّ الإلحاد مذهبٌ فلسفي. والأظهر أنه لا يُقال إنَّ الإلحاد مذهبٌ فلسفي. وذلك أنَّ الموسوعة نفسَها قد عرَّفت المذهب الفلسفيَّ بأنه: «مجموعةُ الآراء والأفكار التي يراها ويعتقدها إنسانٌ حولَ عددٍ من القضايا العلمية والسلوكية»[3]. والإلحادُ عدمُ الإيمان بالخالق فحسب، وهو قولٌ ضمن أقوالِ بعضِ المذاهب الفلسفية، مثل: الشيوعية[4]، والوضعية[5]

---

(١) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات (٢ / ١٠٠٣)، للدكتور غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ.

(٢) الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨٠٣)، (دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بإشراف: د. مانع بن حماد الجهني، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠ هـ).

(٣) المصدر السابق (٢ / ١١٤٢).

(٤) الشيوعية: مذهبٌ فكري يقوم على الإلحاد، وأنَّ المادة هي أساسُ كلِّ شيء، ويفسِّر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي. ظهرت في ألمانيا على يد ماركس وإنجلز، وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة ١٩١٧ م. انظر: الموسوعة الميسرة (٢ / ٩١٩ - ٩٢٤).

(٥) الوضعية: مذهبٌ فلسفي مُلحد، يرى أنَّ المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيَّما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي المذهب على إنكار وجودِ معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيَّما فيما يتعلق بما وراء الماد وأسباب وجودها. انظر: الموسوعة الميسرة (٢ / ٨١١ - ٨١٤).

وغيرهما. والملاحدة يذكرون شبهاتٍ فلسفية. وأمّا أنْ يقال: إنَّ الإلحاد نفسَه هو مذهبٌ فلسفي، فالذي يبدو أنه غيرُ صواب.

التَّعريفُ المختار:

قدِ اشترط العلماءُ للحدِّ أن يكون جامعًا مانعًا[1]؛ فالتعريفُ الجامع المانع الذي يرجِّحه الباحثُ ويعتمد عليه في الرسالة هو أنَّ الإلحاد هو: **فقدانُ الإيمان بوجود الخالق**. فيدخُل في هذا التعريف الملحدُ إلحادًا سلبيًّا وإيجابيًّا، كما أنَّه يمنع من دخول مَن عداه فيه، والله أعلم.

ولكنْ يُضاف إلى هذا التعريف أنَّ الإلحاد المعاصر إلحادٌ ماديٌّ بحْت، فينكر الملاحدةُ المعاصرون جميعَ الكائنات الخارقة للطبيعة والحياة الأخرويَّة، وغير ذلك. وهذا ما نبَّه عليه بعضُ مَن عرَّف الإلحاد، وسيأتي تفصيلُ ذلك في الباب الأوَّل - إن شاء الله -.

(١) الرد على المنطقيّين (٣٥٨ - ٣٥٩)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (دار المعرفة، بدون طبعة وسنة طباعة).

المبحثُ الثّاني

أقسامُ الملاحدة

قدِ اعتنى العلماءُ والباحثون بتقسيمِ العلوم ليسهلَ فهمُها وضبطها. وموضوعُ الإلحاد متشعِّب، والملاحدةُ يختلفون فيما بينهم في أمورٍ عديدة؛ فيحتاج مَن يدرس هذا الموضوعَ أن يضبطَ تقسيماته العامَّة، وما يندرج تحتَها من التفريعات. ويمكن تقسيمُ الملاحِدة إلى أقسام من حيثيات مختلفة؛ فينقسمونَ من حيث قناعتِهم بالإلحاد ونوعية أدلَّتهم، وحسب أسبابِ إلحادهم، وتشدّدهم وعدمِه:

- **التقسيمُ الأوَّل: أقسامُ الملاحدة حسبَ قناعتِهم بالإلحاد، ونوعية أدلَّتهم:**

قدْ قسَّم الباحثون الملاحدةُ حسبَ اقتناعهم بهذه العقيدة ونوعية أدلتِه إلى قسمين: الملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ الصُّلب الإيجابي، والملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحاد الضعيف السَّلبي. ولم أرَ الباحثين يختلفونَ في هذا التقسيم، ولكنَّهم اختلفوا في تحديد كلٍّ من الإلحاد القوي والإلحاد الضعيف على قوليْن:

القولُ الأوَّل: يرى البروفسور مايكل مارتن[1] أنَّ هناكَ ثلاثَ فئات يجب التفريقُ بينهم[2]:

الفئةُ الأولى: الملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ القويَّ الصلب. هؤلاء ينكرون وجودَ الله، وهذا الإنكارُ يتطلَّب منهم أمرين:

١) إنكار أدلة المؤمنين بوجود الله والرَّد عليها.

٢) إقامة براهين على عدم وجود الله.

---

(١) مايكل مارتن (Michael Martin): بروفسور في الفلسفة، متقاعد من جامعة بوستن في الولايات المتَّحدة. وهو من أشهر فلاسفة الإلحاد المعاصرين. من مؤلفاته: Atheism: A Philosophical Justification. انظر: The Cambridge Companion to Atheism (X)

وهو ما يفهم من كلام الدكتور هشام عزمي في كتاب: الإلحاد للمبتدئين (١٧ – ١٨).

(2) The Cambridge Companion to Atheism (2)

فالملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ الصُّلب لا يكتفونَ بعدم الاقتناع بأدلة وجود الله، بل يردّون على هذه الأدلَّة، ثمَّ يحاولون أنْ يقيموا أدلةً على استحالةِ وجود الله. وفي هذه الفئة نجد دعاةَ الإلحاد الذين ينشرونَ هذا الفكر.

الفئةُ الثّانية: الملاحدةُ الذين يتبنّون الإلحادَ الضَّعيف السلبي. هؤلاء يقولون إنَّهم يفقدون الإيمانَ بالله، أو يروْن أنَّ إمكانية وجودِه ضعيفة الاحتمال. و«لا يقومون بدورٍ إيجابي في نشْر أفكارهم. ويمثِّله كذلك أولئك الذين لم يُعِيروا الأمرَ اهتمامًا كافيًا»[1]. فالملحدُ الذي يتبنَّى الإلحادَ الضعيف يتطلَّب منه أمرًا واحدًا فقط؛ وهو عدمُ الاقتناع بأدلَّة المؤمنين بوجودِ الله. وفي هذه الفئة نجدُ كثيرًا من العوام الملاحدة أو من تربَّى في أسرةٍ إلحادية ولم يفكِّر في سبب إلحاده.

الفئةُ الثّالثة: اللاأدْريون[2]. اللاأدري «هو المتوقِّف في مسألةِ وجود الله، ويرى أنَّ أدلةَ إثبات وجودِه تتكافأ معَ أدلَّة نفي وجوده، وبالتالي لا يمكن بلوغُ حكمٍ عقلي في هذه القضية»[3]. فاللاأدري يصرِّح بأمرين:

أ) هناك أدلةٌ قوية على وجود الله.

ب) هناك أدلةٌ قوية على عدم وجوده.

وخلاصةُ الأمر أنَّه يتوقَّف في المسألة. وحين يتوقَّف فإنه لا يثبت بوجود الله، فيكون ملحدًا بهذا الاعتبار. وذلك أنَّ تعريف الإلحاد كما سبق: عدم الإيمان بوجود الله. ولهذا البروفسور مايكل مارتن أنَّ اللاأدرية تتضمَّن الإلحاد الضعيف السلبي،

---

(١) خرافة الإلحاد (٢٧).

(٢) اللاأدرية: مذهبٌ فلسفي قديم نشأ في اليونان على يد بيرون بعد انهيار مملكة الإسكندر الأكبر، فانعزلَ من الحياة، وامتنعَ على الأشياء بالإيجاب أو النفي، على أنَّ الأشياء مظاهر لا يدري حقيقتها. وفي العصر الحديث عرف وانتشرَ هذا المذهب مع ظهور الثورة الصناعية والاكتشافات العلمية في القرنين الثامن والتاسع عشر في أوروبا. ويعدُّ المذهب الوضعي ومذهب كانط المعبِّرين الرئيسيين عن فلسفة اللاأدرية. الموسوعة الميسرة (٢/ ١١٣٥).

(٣) الإلحاد للمبتدئين (١٨).

ولكن الإلحاد الضعيف لا يتضمَّن اللاأدرية[1]. فكلاهما لا يثبت وجودَ الله، ولكن اللاأدري يقول إنَّه متوقِّف، والملحدُ الإلحاد الضعيف لا يتوقَّف.

القولُ الثّاني: ذهب بعضُ الباحثين مِن المسلمين إلى أنَّ الإلحاد القوي هو: «الإلحادُ الذي يؤمن صاحبُه بعدم وجودِ الخالق، وبالتالي يتنكّر للوحي والنبوّات...»[2]. وساوَى بين الإلحاد السلبي واللاأدرية فعرَّفه بأنه: «الإلحادُ الذي لا يؤمن صاحبُه بوجود الخالق، لكنَّه أيضًا لا يؤمن بعدمِ وجوده، بلْ يقول: ليس عندي دليلٌ يدلُّ على وجوده فلستُ مؤمنًا بوجوده، ولا عندي دليلٌ أيضًا يدلُّ على عدمه، فلست مؤمنًا بعدمه، بل متوقِّف في شأنه لا أثبتُ ولا أنفي. وهو موقفٌ يجعل من سؤال وجودِ الخالق سؤالًا مفتوحًا دونَ تقديم جواب عليه»[3].

والذي يظهر - والله أعلم - أنَّ الرأي الأوّل أدقُّ من الرأي الثاني؛ فينبغي التفريق بين الإلحاد الضَّعيف السلبي واللاأدرية. وذلك أنَّ الملحدَ الذي يتبنَّى الإلحاد الضعيف مقتنع أنَّ الله غيرُ موجود، ولكنَّ اقتناعه دونَ اقتناع الملحد الإلحادَ القوي. وأمّا اللاأدري فهو متوقِّف في المسألةِ وغير مُقتنع. واللاأدري يعترف أنَّ هناك أدلة قوية على وجود الله مع قوله بأنَّ هناك أدلةً قوية على عدمِ وجوده. وأمّا الملحد الذي يتبنَّى الإلحاد الضعيف فلا يعترفُ بأنَّ هذه الأدلة قوية.

- **التَّقسيمُ الثّاني: أقسامُ الملاحدة حسبَ أسباب إلحادهم:**

إنَّ الإلحاد يخالف الفطرةَ السوية التي فطرَ اللهُ عليها عباده، كما أنَّه يخالف العقل السَّليم؛ فالإلحادُ شذوذ وخروجٌ عن الأصل. وإذا انحرفَ الإنسان عن هذا الأصل إلى الإلحادِ فإنَّه إمّا أن يكون مبنيًّا على ادِّعاء شبهات، أو غير مبنيٍّ على ادعاء شبهات:

---

(1) انظر: The Cambridge Companion to Atheism (2-3)

(٢) مليشيا الإلحاد - مدخلٌ لفهم الإلحاد الجديد - (١٩)، لعبد الله بن صالح العجيري (تكوين للدراسات والأبحاث، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ).

(٣) المصدر السابق (٢٠)

القسمُ الأوَّل: الإلحادُ غيرُ المبني على ادِّعاء شبهات: فهذا الملحدُ لم يقع في فخِّ الإلحاد بسبب شُبهات، وإنَّما كان لأسبابٍ أخرى. ومِن هذه الدوافع:

السببُ الأوَّل: النشأةُ في أسرةٍ إلحادية. كان الإلحادُ في القديم أمرًا شاذًّا لا يقول إلّا بعض الأفراد. وأمّا في عصرنا هذا فقدِ انتشرَ في بعض الدول، فتربَّى بعض الأجيال عليه تأثرًا بالوالدينِ والبيئة المحيطة بهم. وقد أشار رسولُ الله r إلى تأثير التربية في انحراف الطفل إذْ قال: «ما مِن مولود إلّا يولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه»[١]. فإلحادُ هؤلاء ليس مبنيًّا على براهين مزْعومة، بل بسبب نشأتهم بدون إيمانٍ في أسرة غيرِ متديِّنة[٢]. وهذا منتشرٌ بين الملاحدة الإلحاد الضعف السلبي، فإنهم في الغالب لا يفكِّرون في الدافع لإلحادهم، وإنَّما يقلِّدون الأبوين أو المجتمع.

السببُ الثّاني: الشَّهوات. «وهذا مِن أبرز أسباب الإلحاد بين المراهقين حيث يتعارضُ الاستمتاع بالشَّهوة معَ الشعور بالذَّنب، ووخْزِ الضمير، ويكون على المرء أن يختارَ بينَ طاعة الله والانخراطِ في الشهوات، فيكون قرارُه التخلّص من الله والدين وتكاليفه»[٣]. هناك عبارةٌ شهيرة كتبَها الأديب الروسي فيودور دوستويفسكي: «إن كان اللهُ غيرَ موجود ولا حياةَ بعد القبر، ألَا يعني ذلك أنه يجوز للإنسان أن يفعل أي شيء يريد؟»[٤]. فجميعُ الأديان - ولا سيَّما الإسلام - يقيِّد الإنسان بأحكام دينية تمنعه من الوقوعِ في شهواتٍ بهيمية، والرغبات الدنيئة. وبعضُ الناس يرى أنَّ في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٥٨)، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلَّى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ (٢ / ٩٤).
وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب معنى كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، وحكمُ موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (٤ / ٢٠٤٧)، من حديث أبي هريرة t.

(2) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (12)

(٣) الإلحاد للمبتدئين (٣٥)

(4) The Brothers Karamazov (788)
Fjodor Dostoyevsky, (trans. Andrew R. MacAndrew, Bantam Books, 1983)

الإلحاد فكًّا لهذه القيود وحريةً من الأغلال الدينية حسبَ زعمهم. وهذا الدافع للإلحاد يغلب على المراهقين ذوي الشهوات القوية.

القسمُ الثّاني: الإلحادُ المبني على ادِّعاء شُبهات: هذا النوع من الإلحاد يغلب على الملاحدة الإلحادَ الإيجابي. وهو حالُ أكثر دعاة الإلحاد حيث أنهم قد وقعوا في مستنقعِ الإلحاد بسبب شُبهات. والشيطان يأتي إلى الإنسان من نقطةِ ضعفه وميوله؛ فمَن كان عاطفيًّا يأتيه الشيطانُ بشُبهات عاطفية، ومَن كان معجبًا بالعلوم التجريبية يأتيه الشيطانُ بشُبهات علمية، ومَن كان متأثِّرًا بالفلسفة والعلوم العقلية يأتيه الشيطانُ بشبهاتٍ فلسفية عقلية. وعندَ النظر والتأمُّل يجد المرء أنَّ جميع الشبهات الإلحادية ترجع إلى هذه الأمور الثلاثة. فيمكن تقسيمُ الإلحاد حسبَ الأسباب إلى ثلاثة أنواع:

النوعُ الأوّل: الإلحاد الفلسفي العقلي.

النوعُ الثّاني: الإلحاد العلمي التجريبي.

النوعُ الثّالث: الإلحاد العاطفي.

وقد قسّمت البابَ الثالث في هذه الرسالة إلى ثلاثةِ فصول حسب هذه الأسباب، وأوردتُ الشبهاتِ العقلية، والعلمية، والعاطفية في مباحث تحت كلِّ فصل.

- **الثّالث: أقسامُ الإلحاد حسبَ التَّشدد:**

قدْ قسَّم بعضُ الباحثين[1] الإلحاد حسب التشدّد وعدمِه إلى قسمين:

القسمُ الأوَّل: الإلحادُ المتشدِّد. وهو إلحادُ الشيوعيين ودعاة حركة الإلحاد الجديد. وسيأتي تفصيلُ ذلك في المباحث القادمة - إن شاء الله -.

القسمُ الثّاني: الإلحادُ غيرُ المتشدد:

ليس جميعُ الملاحدة متشدِّدين مثل الشيوعيّين ودعاة الإلحاد الجديد. فقد عارض كثيرٌ من الملاحدةِ المعاصرين اللهجةَ المتشدِّدة لدى دعاةِ الإلحاد الجديد. ومن الأمثلة على ذلك:

---

(١) انظر: Atheism: A Guide for the Perplexed (12)

المثالُ الأوَّل: جيف سباروف[١]. فقد كتب مقالاً سمّاه: «نحن نستطيع أن ننقذ الإلحادَ من الملاحدة الجدد، أمثال ريتشارد دوكينز وسام هاريس» (We can save atheism from New Atheists like Richard Dawkins and Sam Harris)[٢] في جريدة «الغارديان» (The Guardian) البريطانية الشهيرة، وهاجم فيه الملاحدةَ الجدد أنهم ينشرون الكراهية بين الناس.

المثالُ الثّاني: البروفسور مايكل روس[٣]. فقد عارض دعاةَ الإلحاد الجديد بقولِه، وكتبَ عن كتاب ريتشارد دوكينز الأشهر: «وهمُ الإله»: «جعلني أستحي أن أكون ملحِدًا وأنا أعني ذلك حقًّا»[٤].

وهذا الموقفُ هو الطابعُ العام في الدول الغربيَّة العلمانية الليبرالية[٥]، فإنها تسمحُ بشيءٍ من الحريات لجميع الأديان، ولا تحاربُها بالطريقة التي حاربها الشيوعيون ولا الملاحدةُ الجدد. ومعَ ذلك فإنَّ لهجةَ الكراهية ضدَّ الأديان عمومًا، والإسلام خصوصًا قدِ ازدادت بشكلٍ ملْحوظ في الآونة الأخيرة.

---

(١) جيف سباروف (Jeff Sparrow). كاتب ومحرّر وصحفي في جريدة الغارديان. انظر: https: / /www.theguardian.com /profile /jeff – sparrow

(2) https://www.theguardian.com/commentisfree/2015/nov/30/we-can-save-atheism-from-the-new-atheists

(٣) مايكل روس (Michael Ruse): بروفسور الفلسفة الأمريكي، وصاحب مؤلفات عديدة. وهو أحد المحرّرين لدليل جامعة أكسفورد إلى الإلحاد. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (XV)

(4) https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/nov/02/atheism-dawkins-ruse

(٥) الليبرالية: مذهبٌ فكري يركِّز على الحرية الفردية، ويروْن وجوبَ احترام استقلال الأفراد، ويعتقد أنَّ الوظيفة الأساسية للدولة هي حمايةُ حريات المواطنين مثل حرية التفكير، والتعبير، والملكية الخاصَّة، والحرية الشخصية وغيرها. انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها (١٢)، والمعجم الفلسفي (١ / ٤٦١).

المبحثُ الثّالث

تاريخُ الإلحاد

موضوعُ الرسالة متعلِّق بالإلحادِ المعاصر في الغرب. ولكي نفهمَ هذا النوع من الإلحاد فلا بدَّ من الرجوع إلى جذورِه في تاريخ أوروبا(١).

الإلحادُ المعاصر وإنْ كان يتَّسم بسماتٍ خاصَّة، فإن له جذورًا في العصر اليوناني، والروماني، والعصور الوسطى، وعصر النهضة، وعصر التنوير، مرورًا على القرن التاسع عشر، والقرن العشرين إلى هذا القرن. بل هذه العصور كلّها لها آثارُها الخاصة في تكوين الفكرِ الإلحادي المعاصر، إمّا بشكل مباشر أو غيرِ مباشر. وفي كلِّ عصر من هذه العصور وُجِد ملاحدة، أو مَن اتُّهم بالإلحاد - وإن لم تصحّ النسبة إلى بعضهم -. ويمكن تقسيمُ هذا المبحث إلى مطالبَ حسبَ هذه العصور، والتركيزُ على دراسة أمريْن مهمَّين في كلِّ عصر:

١) أهميةُ هذا العصر في تكوين الفكر الإلحادي المعاصر.

٢) التعريفُ المختصر بالملاحدة أو من اتُّهم بالإلحاد.

---

(١) والبحثُ لا يتناول تاريخَ الإلحاد في أماكن أخرى كالإلحاد في بعض الأديان الوضعية مثل: البوذية والجانية. وأمّا الإلحادُ عند نمرود وفرعون فسيأتي الحديث عنه في مبحث: تاريخ نقد الإلحاد - إن شاء الله -.

المبحثُ الثّالث

تاريخُ الإلحاد

وفيه ثمانية مطالب:

المطلبُ الأوّل: العصرُ اليوناني.

المطلبُ الثّاني: العصرُ الروماني.

المطلبُ الثّالث: العصورُ الوسطى.

المطلبُ الرّابع: عصرُ النهضة.

المطلبُ الخامس: عصرُ التنوير.

المطلبُ السّادس: القرنُ التاسع عشر.

المطلبُ السّابع: القرنُ العشرون.

المطلبُ الثّامن: القرنُ الحادي والعشرون.

المطلبُ الأوَّل

العصرُ اليوناني

أهميةُ العصر اليوناني في الفكر الإلحادي:

إنَّ الحضارة الغربية المعاصرة تُعتبر امتدادًا للحضارة اليونانية القديمة، ولهذا نجدُ المفكِّرين الغربيّين يهتمّون بهذه الحضارة غايةَ الاهتمام، ويعظِّمون فلاسفتها تعظيمًا كبيرًا. وتتمثَّل أهميةُ هذا العصر في تكوين الفكر الإلحادي في النقاط الآتية[1]:

١) **نشأةُ المذهب المادي**[2]: الفلسفة المادية مستمدَّة من النظرية الذرية المنسوبة إلى الفيلسوف اليوناني ديموقراطيوس[3]؛ وخلاصتُها: أنَّ «الوجود واحد، وهو ينقسم إلى عددٍ غير مُتناهٍ من الوحدات غيرِ المتجانسة وغيرِ المدرَكَة بالحسّ، والواحدُ منها هو الجوهرُ الفرد، أو الجزءُ الذي لا يتجزَّأ. وهذه الوحداتُ غير المتجانسة قديمة أزلية، نظرًا إلى أنَّ الوجود لا يمكن أن يخرجَ من العدم الكلي المحْض، وهي دائمةٌ أبدية، إذ لا ينتهي الوجودُ إلى العدم الكلي المحْض (اللاوجود مطلقًا)»[4].

والإلحادُ المعاصر شديدُ الارتباط بالمذهب المادي، حتى إنَّ بعض الباحثين يقول:

---

(١) الغرضُ من إيراد هذه النقاط هو بيانُ استمداد الإلحاد المعاصر كثيرًا من هذه الأسس من الفلسفة اليونانية. أمّا الحديثُ التفصيلي عن هذه النقاط فسوف يأتي لاحقًا إن شاء الله.

(٢) المذهب المادي: الفكرُ الذي يقوم على اليقينِ المطلق بعالم الحسّ، والثقة المطلقة في المادة التي يتكوَّن منها هذا العالم، ثمَّ الإنكار المطلق لما وراء العالم المادي من عوالم الغيب، وعدم الإقرار بشيء منها. وهو معروفٌ بالمادية أيضًا. انظر: مذاهب فكرية معاصرة – عرض ونقد – (٢٩).

(٣) ديموقراطيوس (Democritus): فيلسوفٌ يوناني، ومِن أشهر روَّاد النظرية الذرية للكون، توفي عام ٣٧٠ ق.م. انظر: مشاهير الفلاسفة من طاليس إلى ديكارت (٩٤ – ٩٨)، لدوجين لايرتيوس، (العالمية للكتب والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١١ م. ت. عبد الله حسين).

(٤) كواشف زيوف (٤٤٤).

«ارتبطت نشأةُ الإلحاد المعاصر بظهور الفكْر المادي ارتباطًا وثيقًا، حتَّى يمكن القول إنَّ الإلحاد هو الابنُ الشرعي لهذا الفكر»[١]. فالملاحدةُ المعاصرون يروْن أنَّه لا يوجد شيء سوى هذا الكون؛ فقد قال الملحدُ المشهور كارل ساغان[٢]: «الكونُ هو كلُّ ما يوجد الآن، أو كان في السابق، أو سيكون في المستقبل»[٣]. وقال زعيمُ الملاحدة المعاصرين ريتشارد دوكينز عن الكون: «الكونُ لا شيء سوى مجموعةٍ من الذرات المتحركة»[٤]. وبذلك ظهر الارتباطُ بين النَّظرية الذرية التي أسَّسها الفيلسوف ديموقراطيوس في العصر اليوناني والإلحاد المعاصر.

٢) **دراسةُ العلم التجريبي وفقَ المذهب الطبيعي**[٥]: كان كثيرٌ من فلاسفة اليونان يهتمّون بالعلم التجريبي، وظهرَ كثيرٌ من النظريات العلمية في عصرهم. وكان بعض هؤلاء الفلاسفة يبحثونَ في هذا العلم وفقَ المذهب المادي، ويستبعدونَ الحديث عن الميتافيزيقا[٦]؛ وهذا المنهجُ ما يسمَّى بـالمذهب الطبيعي المنهجي[٧]. وكان

---

(١) خرافة الإلحاد (٣٩).

(٢) كارل ساغان (Carl Sagan): عالمُ الفلك الأمريكي، ومِن أبرز المساهمين في تبسيط علوم الفلك لعامَّة الناس في الغرب. وكان له أثرٌ رائد في تعزيز البحث عن المخلوقات الذكية خارج الأرض. توفي عام: ١٩٩٦ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1663)

(3) Program: Cosmos is all that is
(https://www.youtube.com/watch?v=uLu1cTKBspI)

(4) (http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/nave-html/faithpathh/dawkins.html)

(٥) المذهب الطبيعي (Naturalism): في الفلسفة العامة هو القول إن الطبيعة هي الوجود كله، وإنه لاوجود إلّا للطبيعة. انظر: http: / /arab – ency.com.sy /detail/ ٦٩٩٠

(٦) ميتافيزيقا: فرعٌ من الفلسفة يبحث في الموجود الذي خرج من عالم الواقع إلى عالم المعقول. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢١٤٢).

(٧) المذهب الطبيعي المنهجي (Methodological naturalism): أتباع هذا المذهب يدّعون أنه لا يمكنُ نيلُ العلم بحقيقة الوجود إلّا عن طريق التجارب العلمية. انظر:
Naturalism-A Critical Response (9)

الفيلسوف أناكساغوراس[١] من أشهرِ الأمثلة على ذلك في العصر اليوناني؛ فقد ادَّعى أنَّ الشمس حجرةٌ مشتعلة - أي أنَّه مخلوق طبيعي - وليس إلهًا من الآلهة كما زعمَ قومه، فرموه بالإلحاد والخروجِ عن دينهم[٢]. والمنهجُ الطبيعي المنهجي يعتبر أساسًا مهمًّا في الفكر الإلحادي المعاصر حيث يحاربُ الملاحدة الجددُ النظريات العلمية المبنيَّة على وجود الخالق حربًا ضروسًا - كما سيأتي ذكره بالتفصيل إن شاء الله -.

٣) **الادِّعاءُ أنَّ الإيمان يتعارض مع العقل:** كان فلاسفة اليونان يعتنون بالعلوم العقلية والفلسفية عنايةً فائقة، بينما كان مجتمعُهم غارقًا في الوثنية وعبادة الآلهة وتقديسها. ولا شكَّ أنَّ الوثنية تتعارض مع علوم العقل أيَّما تعارض. فبدأ بعضُ فلاسفة اليونان يؤلِّفون أدلةً عقلية ومنطقية ضدَّ وجود الآلهة المحلية. وكان الفيلسوف كارنياديس[٣] أشهرَ مَن صنَّف في هذه البراهين[٤]. ولا يملُّ الملاحدة المعاصرون عن الحديث أنَّ الإيمان بالله والتديّن يخالف العقل، وسيأتي ذكرُ ذلك في مبحث خاص في الفصل الأوّل من الباب الأوّل - إن شاء الله -.

٤) **فلسفةُ الشكِّ ونسبيةُ الحقائق:** «ابتليتِ الإنسانيةُ بهذا النوع من الشكّ على يدِ مَن سمّوا بالسوفسطائيين في تاريخ الفكر اليوناني»[٥]. وكان السوفسطائيون مجادلين، مُغالطين، مُتاجرين بالعلم. وقد أذاعوا التشكيكَ في الأديان

---

(١) أناكساغوراس (Anaxagoras): فيلسوفٌ يوناني اشتُهر بتقديمه لبعض النظريات العلمية لظواهر طبيعية. توفي عام ٤٢٨ ق.م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (67)

(٢) انظر: Västerlandets filosofi (٤٦)

(٣) كارنياديس (Carneades): فيلسوف في العصر اليوناني وُلد في ليبيا. وكان يشتهر باعتقاده أنه لا يوجد معيارٌ مطلق للحقيقة. توفي عام ١٢٩ ق.م. انظر
https://www.britannica.com/biography/Carneades

(٤) انظر: Atheism A Guide for the Perplexed (25)

(٥) نظريةُ المعرفة بين القرآن والفلسفة - المعرفة بين الشكِّ واليقين - (٨٣)، للدكتور راجح بن عبد الحميد الكردي، (دار الفرقان للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣ م.).

المحلية وشعائرها[1]. وأكثر مَن ورثَ هذا المذهب عن السوفسطائيين هُم اللاأدريون. ولكن فلسفة الشكِّ ذات أهميةٍ بالغة في الفكر الإلحادي المعاصر، ولا سيَّما في تشكيك المؤمنين بأدلة وجود الله، أو بشيء يتعلَّق بدينهم، وسيأتي تفصيلُ ذلك في مبحثٍ خاصٍّ في الفصل الأوّل من الباب الأوّل - إن شاء الله -.

٥) **نقدُ الأديان:** حيث كانت الوثنيةُ الإغريقية تتعارضُ مع علوم العقل فكان كثيرٌ من الفلاسفة ينتقدونَ الديانة المحلية. ومِن أشهر الأمثلة على ذلك انتقاد الفيلسوف سقراط لديانةِ قومه، وحُكمَ عليه بالإعدام بسببه[2]. ونقدُ الأديان من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر. وقد ورثَ الملاحدة المعاصرون هذا النقدَ من الفلاسفة اليونانيين.

فظهرَ من ذلك أنَّ العصر اليوناني يمثِّل دورًا مهمًّا في تكوين الفكر الإلحادي المعاصر.

المتَّهمون بالإلحاد في العصر اليوناني:

سبقَ بيانُ أنَّ هذا العصر أثّر تأثيرًا عظيمًا في تكوين الإلحاد المعاصر، واتُّهم بعض فلاسفتهم بالإلحاد. ولكنْ هل كانوا ملاحدةً بالمفهوم المعاصر؟ هذا يحتاج إلى شيء من البيان التفصيلي:

فقدْ كان بعضُ فلاسفة اليونان يعارضون تقديسَ وعبادة هذه الآلهة، ويسخرون منها. فأطلق المجتمعُ على هؤلاء المعارضين كلمة (Atheistos)، بمعنى: ملاحدة. فكان المرادُ بهذه الكلمة في ذلك الوقت معارضةَ الديانة اليونانية الوثنية، وليس المقصود بها المفهومَ المعاصر لكلمة الإلحاد[3]. قد كتبَ البروفسور ستيفن بوليوانت[4] بحثًا

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية (٤٥)، ليوسف كرم، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الخامسة).

(2) Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (19)

(٣) انظر: The Twilight of Atheism (8)

(٤) ستيفن بوليوانت (Stephen Bullivant): بروفسور علم اللاهوت والآداب وأستاذ في جامعة سانت ماري في بريطانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xii)

عميقًا عن الإلحاد في العصر اليوناني، وكانت خلاصة بحثِه أنَّه كتب: «في القرون الأربعة إلى بداية الإمبراطورية الرومانية عام ٣١ ق.م، كان عدمُ الإيمان بالآلهة موجودًا ولكنَّه نادر. ومع ذلكَ فلا يكاد يكون أحدُ المثقَّفين المشهورين في هذا العصر يتبنَّى هذا الرأي علانية»(١). وهذا ما توصَّل إليه البروفسور جان بريمير(٢) في بحثه عن الإلحاد في العصر اليوناني أيضًا(٣).

قد اتُّهم عددٌ كثير من فلاسفة اليونان بأنَّهم ملاحدة، ويمكن تقسيمُ هؤلاء المتَّهمين إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: تهمةٌ غير صحيحة:

مِن أمثال الفلاسفة الذين اتُّهموا بأنهم ملاحدة، ولكنْ لم تثبت هذه النسبة:

١) **سقراط**. قد اتُّهم سقراط بالإلحاد، وحُكم عليه بالإعدام بسبب هذه التهمة، ونفِّذ الإعدام عنِ طريق شُرب السمِّ. ولكن سقراط لم يكنْ ملحدًا بالمفهوم المعاصر. فإنَّه القائل في محاكمته للَّذي اتّهمه بالإلحاد: «ما أستطيع أن أفهم: هل أنت تقول إنني أعلِّم الناس أنْ يعترفوا ببعض الآلهة - ومهما كان الأمرُ فإنني أعترف بوجود آلهة، ولست بأيِّ حال ملحدًا، ولا تصحُّ هذه التهمة عليّ -، ولكنَّ هذه الآلهة غير الآلهة التي يعترفُ بها أهلُ المدينة، فتكون هذه هي التُّهمة: أنني أعترف بآلهة مختلفة. أو هل تقول إنَّني أبيتُ أنْ أعترف بآلهة أصلًا، وأعلِّم الناس هذا الشيء؟»(٤). وهذا الخطابُ يعتبر المرةَ الأولى التي دوِّنت

---

(1) From the Pre-Socrates to the Hellenistic age, the Oxford Handbook of Atheism (150)

(٢) جان بريمير (Jan Bremmer): برفسور التاريخ العام للأديان في جامعة غرونينغن في هولندا. انظر: https: / /rug.academia.edu /JanBremmer

(٣) انظر: Atheism in Antiquity, the Cambridge Companion to Atheism (11, 19)

(4) From the Pre-Socratics to the Hellenistic age, The Oxford Handbook of Atheism (139)

كلمة الإلحاد في أيِّ لغة غربية[١]. ومن البيِّن أنَّ سقراط أبى أن يعترفَ بهذه التُّهمة التي وجِّهت إليه.

٢) **أناكساغوراس:** سبقَ أنَّ الفيلسوف أناكساغوراس قال إنَّ الشمس حجرة مُشتعلة وليستْ إلهًا من الآلهة، كما قال أتباعُ الديانة اليونانية. فاتَّهمه أهلُ بلده بالإلحاد بسببِ هذا القول، ولكنْ هل تصحُّ هذه النسبة إليه؟ الجواب: لا، لأنَّ هذا الفيلسوف كان يؤمنُ بأن هذا الكون قد أوجدَه ما سمَّاه بالذكاء الكوني. وهذا الذكاء متّصفٌ بالألوهية في زعمه[٢].

٣) **ديموقراطيوس:** مِن أشهر فلاسفة اليونان المتَّهمين بالإلحادِ هو الفيلسوف ديمقراطيوس، مؤسسُ نظرية الذرّات. كان يرى أنَّ كلَّ شيء في الكون مكوَّن من الذرّات كما سبق. فظنَّ بعضُ الناس أنه يؤمن بالمادية المحضَة، ولكنّه معَ ذلك اعتقد أن الآلهةَ كذلك متكوِّنة من هذه الذرّات، فلم يكنْ ينكر وجود الآلهة[٣].

٤) **إبيقور**[٤]: كان الفيلسوفُ إبيقور متأثّرًا بنظريةِ الذرّات لديمقراطيوس[٥]، واشتهرَ بنقدِه الحادّ للوثنيةِ الموجودة في اليونان، وألّف في نشأة الإيمان بتلك الآلهة. ومع ذلك فإنَّه لم يكنْ ملحدًا بالمفهوم المعاصر كما ذكر البروفسور جان بريمير[٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر:

From the Pre-Socratics to the Hellenistic age, The Oxford Handbook of Atheism (140)

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) إبيقور (Epicurus): فيلسوفٌ يوناني مشهور، ومؤسسٌ للفلسفة الإيبقورية المنتشرة في اليونان والروم. وتوفي عام ٢٧٠ ق.م. انظر: مشاهير الفلاسفة (١٩٣ - ٢٠٩).

(٥) انظر:

From the Pre-Socratics to the Hellenistic age, The Oxford Handbook of Atheism (145)

(٦) انظر: Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (١٩)

٥) **إكسينوفانيس**[1]: كان إكسينوفانيس مِن أشهر المنتقدينَ للديانة اليونانية الوثنية. وكان نقدُه منصبًّا على نحتِ هذه الآلهة والأصنام على أشكالِ الإنسان. ولكنه لم يكنْ إكسينوفانيس ملحدًا؛ بل هو القائل: «الإلهُ الوحيد، متعالٍ على الآلهة والبشر»[2].

الثاني: اللاأدريون:

وُجِد في الحضارة اليونانية عددٌ من الفلاسفة اللاأدريين؛ منهم:

١) **بروتاغاراس**[3]: كان الفيلسوفُ بروتاغاراس يتبنَّى الفلسفة السفسطائية[4]، فقد اتُّهم بأنَّه ملحد، ولكنَّ الأرجح أنه لم يكنْ مُلحدًا؛ بل كان لاأدريًّا[5]. ومِن الأدلة على ذلكَ أنه قال: «فيما يتعلَّق بالآلهة، لا أستطيعُ أن أعرف ما إذا كانت توجَد أو لا، فهناك عوائقُ كثيرة تحولُ دون ذلك، منها عُسر الموضوع وقِصَر العمر»[6]. ويرجع ذلك إلى طبيعةِ التَّفكير السفسطائي بتمْويه الحقائق وادِّعاء عدم الحصول على اليقين. وقد لحقتْ هذه الفلسفة بالتَّحقير، بل بروتاغاراس نفسه نفيَ من أثينا وأحرقت كتبُه[7].

---

(١) إكسينوفانيس (Xenophanes): فيلسوفٌ يوناني وناقد اجتماعي وديني وشاعر. توفّي عام ٤٨٠ ق.م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (2085)

(٢) انظر: Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (13)

(٣) بروتاغاراس (Protagoras): زعيمُ السوفسطائيين في القرن الخامس. وكان يعتقد أن الإنسانَ مقياس كلِّ شيء، ويتبنَّى القول بنسبية الحقائق مما أدَّى به إلى القول باللاأدرية. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1555)

(٤) انظر: Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (13)

(٥) انظر: From the Pre-Socrates to the Hellenistic age, the Oxford Handbook of Atheism (141)

(6) Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (13)

(٧) انظر: تاريخ الفلسفة اليونانية (٤٦).

٢) **كارنياديس**: كان الفيلسوفُ كارنياديس شديدَ الهجوم على الوثنية اليونانية وصنَّف أدلة وبراهينَ على أنها غيرُ موجودة بطريقةٍ منطقية. حتى رأى بعضُ الباحثين أن نقدَه للأديان يشبه النقدَ المعاصر للأديان[١]. ومعَ ذلك فقد توصَّل البرفسور في الفلسفة القديمة في جامعة كامبردج دافيد سيدلي[٢] في بحثٍ له عنِ الإلحاد في العصر اليوناني إلى أنَّ كارنياديس لم يكنْ ملحدًا، بل كان لاأدريًّا[٣].

الثالث: مَجهولون:

لم نجدْ ممَّن اتُّهم بالإلحاد من الفلاسفة اليونانيّين المشهورين أنَّ هذه التهمة كانت صحيحة، بل إمّا أنهم كانوا ينتقدونَ الوثنية الموجودة في اليونان مع إيمانهم بإله واحد أو آلهةٍ أخرى، وإمّا أنهم كانوا لاأدريّين. ومع ذلك فقد أشار بعضُ الباحثين إلى أنَّ الإلحاد بالمفهوم المعاصر كان موجودًا في العصر اليوناني، وإن كان نادرًا جدًّا. ولكن لم يتبنّ هذا الرأيَ مفكّرٌ يوناني معروف. بل غاية ما وُجد أنَّ الفيلسوف أفلاطون (Plato) ذكر أن بعضَ الشباب في ذلك الوقت كانوا متأثّرين بأفكار إلحادية. وهاجم أفلاطون الملاحدة الموجودينَ في عصره، وردَّ عليهم ردًّا قويًّا في الكتاب العاشر من مجموعة رسائله: «القوانين» (Laws)[٤]. وقد وصل الأمرُ بأفلاطون أنه سنَّ قوانين ضدَّ الإلحاد تقتضي معاقبةَ مَن اعتنق هذا الفكر مذهبًا[٥].

فخلاصةُ الموضوع أنَّ الإلحاد بالمفهوم المعاصر لم يكن موجودًا بين الفلاسفة المشهورين في اليونان، وإنَّما كان الإلحاد موجودًا في أوساط بعض الشباب، بل كان بعضُ أكبر فلاسفتهم كأفلاطون ينتقد الإلحادَ ويسنُّ قوانين في معاقبة الملاحدة.

---

(١) انظر: Atheism A Guide for the Perplexed (25)

(٢) دافيد سيدلي (David Sedley): بروفسور الفلسفة القديمة في جامعة كامبردج المشهورة في بريطانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (XV)

(٣) انظر:
From the Pre-Socrates to the Hellenistic age, the Oxford Handbook of Atheism (149)

(٤) انظر: المصدر السابق (١٤٠)

(٥) انظر: المصدر السابق (١٤٤)

المطلبُ الثّاني

العصرُ الروماني

إنَّ العصر الروماني من أهمِّ العصور وأطولِها في تاريخ أوروبا، وقد قسّم المؤرِّخون[١] هذا التاريخ إلى ثلاثِ مراحل:

١) **المملْكة الرومانية (٧٥٣ ق. م. إلى ٥٠٩ ق.م.)**. وكانت المملكة منحصرةً في مدينة روما[٢].

٢) **الجمهوريةُ الرومانية (٥٠٩ ق.م. إلى ٢٧ ق. م.)**. وامتدَّت الجمهورية في هذه المرحلة امتدادًا واسعًا، حتَّى شملت جنوب وغرب أوروبا، وشمال أفريقيا، واليونان وتركيا.

٣) **الإمبراطورية الرومانية (٢٧ ق.م. إلى ٢٨٥ ب. م.)**، ثمَّ انقسمت الإمبراطوريةُ إلى الإمبراطورية الغربية عاصمتها روما، واستمرَّت إلى عام ٤٧٦ م. والقسم الثاني: الإمبراطورية البيزنطية عاصمتُها قسطنطينية[٣]، واستمرَّت إلى ١٤٥٣ م[٤]. وامتدَّت هذه الإمبراطورية على مساحاتٍ

---

(١) انظر: Ancient Rome and the Roman Empire (27)

(٢) روما: مدينةٌ تاريخية يمتدُّ تاريخها أكثر من ٢٥٠٠ سنة، وهي عاصمة إيطاليا الحالية. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1638 - 1639)

(٣) قسطنطينية: مدينةٌ تاريخية تأسست في القرن السابع قبل الميلاد، وجعلها الإمبراطور قسطنطين «روما الجديدة»، وأصبحت عاصمةَ الدولة البيزنطينية. واسمها اليوم: إسطنبول، وهي أكبر مدن تركيا الحالية. انظر:
https://www.history.com/topics/middle-east/constantinople

(٤) انظر: Outlines of Roman History, chapter 29

واسعة جدًّا من إسبانيا غربًا إلى العراق شرقًا، ومن بريطانيا شمالًا إلى سيناء[1] جنوبًا.

أهميةُ العصر الروماني في الفكر الإلحادي:

كان أهلُ روما في عهد المملكة الرومانية والجمهورية الرومانية وبداية الإمبراطورية الرومانية وثنيِّين، ويؤمنونَ بآلهة متعدِّدة. وفي القرن الثاني قبل الميلاد استولتِ الجمهورية الرومانية على اليونان. وبعدَ ذلك انتشرتِ الفلسفات اليونانية في روما القديمة. وكان سيسيرو[2] أوَّل فيلسوف روماني، وقد درسَ الفلسفة اليونانية، ثمَّ وضع المصطلحات الفلسفية باللغة اللاتينية، ثمَّ ظهر عددٌ من الفلاسفة في الدول الرومانية بعده[3]؛ فكان لروما القديمة عددٌ من الفلاسفة، ولكنَّ فلسفتهم كانت في الغالب مبنية على الفلسفة اليونانية، حتَّى لا يكاد يوجَد فيلسوف في هذا العصر إلا وقد تبنَّى فلسفة من الفلسفات الموجودة في اليونان، وإنْ أضافوا إليها بعض الإضافات[4].

وكان أهلُ روما القديمة يهتمّون بالقانون، والصناعة، وبناء المدن، والغزوات العسكرية أكثرَ من اهتمامهم بالفلسفة. ولهذا نجد أنَّ الغربيين اليوم لا يهتمون بالفلاسفة الرومانيّين كما يهتمّون بالفلاسفة اليونانيين. من الأمثلة على ذلك أن

---

(١) سيناء: شبه جزيرة في شرق مصر بين خليج العقبة إلى خليج السويس. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (1756)

(٢) سيسيرو (Cicero): ماركوس توليوس. رجلُ دولة، وفيلسوفٌ وكاتب روماني. ألّف كثيرًا من الكتب والرسائل في الفلسفة والبلاغة. توفي عام ٧ ق.م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (406)

(٣) انظر: Västerlandets filosofi (159 - 160)

(٤) انظر: الموسوعة الفلسفية في إنترنت (وهي موسوعة فلسفية أكاديمية بمراجعة الأقران، يشرف عليها عددٌ من الدكاترة في الفلسفة):
http://www.iep.utm.edu/romanphi/

الفيلسوفَ البريطاني أنطوني كيني[1] ألَّف كتابه: «الكتاب المختصر في الفلسفة الغربية» (A Brief History of Western Philosophy) - وهو من الكتب المشهورة عن تاريخ الفلسفة الغربية -، فكتبَ أكثرَ من ١٥٠ صفحة عن الفلسفة اليونانية، ثمَّ صفحتين عن الفلسفة الرومانية، ثمَّ أكثر من ٤٠٠ صفحة عن الفلسفات بعد الفلسفة الرومانية إلى يومِنا هذا. فلم يكنْ لفلاسفة روما القديمة تأثيرٌ فكري يُذكر في الفلسفة الغربية المتأخرة؛ ومعَ ذلك، فقد حدثت بعضُ الحوادث المهمّة في العصر الروماني أثَّرت في التاريخ الفكري لأوروبا؛ أهمُها أمران:

الأوَّل: نشرُ الفلسفات اليونانية: كان أهلُ اليونان القديمة يسيطرون على الجزيرة اليونانية وبعضِ المناطق الساحلية في أوروبا، وشمال أفريقيا، وآسيا. أمّا الإمبراطورية فكانتْ تسيطر في عزٍّ قوَّتها عام ١١٧ م على مساحاتٍ واسعة تقدّر بـخمسة ملايين كيلو مربَّع، ويسكنُ في هذه المناطق ٧٠ مليون نسمة، وتقدّر بـ٢١ ٪ من سكان العالم في ذلك الوقت[2]. ونشرتِ الإمبراطورية الرومانية الفلسفاتِ اليونانية في هذه المناطق. فإنْ كان الفلاسفة المشهورون من اليونان، فإنَّ نشرَ هذه الفلسفات في أنحاء أوروبا وغيرها تمَّ على أيدي الرومانيين. وقد سبقَ في المطلب السابق مدى تأثير الفلسفات اليونانية في الفكر الإلحادي المعاصر.

الثّاني: ظهورُ الديانة النَّصرانية: بعثَ اللهُ نبيّه عيسى عليه السلام بدعوة بني إسرائيل إلى التوحيد، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] وكانت بعثةُ المسيح في منطقة فلسطين التي كانت تحت سيطرة الإمبراطوريةِ الرومانية. وتآمُر اليهود على نبيِّهم بمساعدة الرومانيّين على قتله، ولكنّ الله رفعَه إلى السماء،

---

(١) أنطوني كيني (Anthony Kenny)، فيلسوفٌ بريطاني، وأستاذ في جامعة أكسفورد، ورئيسُ الأكاديمية البريطانية سابقًا، وقد ألّف عددًا من الكتب في تاريخ الفلسفة. انظر:
https://www.britannica.com/contributor/Anthony-JP-Kenny/6155

(2) Size and Duration of Empires (125)

كما قال تعالى عن اليهود: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨]. وبعد سنواتٍ من رفع عيسى عليه السلام إلى السَّماء، تظاهر رجلٌ اسمه بولس[١] بأنه اتَّبع رسالة المسيح، ولكنَّه بدَّل دعوتَه وحرَّفها إلى ديانة وثنية؛ قال المؤرِّخ الأمريكي وليام ديورانت[٢]: «ولقد أنشأ بولس لاهوتًا لا نجدُ له إلاّ أسانيد غامضة أشدَّ الغموض في أقوالِ المسيح، أمّا هذه الأسس فأهمُّها أنَّ كلَّ ابن أنثى يرثُ خطيئة آدم، وأن لا شيء يُنجِّيه من العذاب الأبدي إلّا موتُ ابن الله ليكفِّر بموته عن خطيئته... وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت بعضَ آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعتْ بين الناس، من ذلك قول بولس: إنَّ المسيح (حكمة الله) و(ابن الله الأوَّل) (بكر كل خليقة)، فإنه فيه خلق الكل)، (الكلُّ به وله قد خلق)، (الذي هو قبل كلِّ شيء وفيه يقوم الكل)، وقد استطاعَ بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغضَّ النظر عن حياة يسوع، وعن أقواله التي لم يسمعْها منه مباشرة»[٣].

وكانت دعوةُ المسيح خاصَّة ببني إسرائيل، ولكنَّ بولس حوَّلها إلى ديانةٍ عالمية، فدخلَ في هذا الدين عددٌ كبير من الوثنيين في أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وامتزجتِ العقائد الرومانية بعقيدةِ بولس المحرَّفة عند بعض فرق النصارى[٤].

---

(١) بولس (Paul): اسمه شاول، وُلد في مدينة طرسوس في أسرة يهودية، وتعلّم الديانة اليهودية والفلسفة اليونانية. ولما رأى انتشارَ رسالة المسيح بدأ يضطهدُ أتباعه، ثمَّ ادَّعى أنه رأى المسيح وهوَ في الطريق إلى دمشق. وتظاهر باعتناق دينه، ثمَّ حرَّفه إلى ديانة وثنية بادّعاء ألوهية المسيح، وألغى العملَ بشريعة التوراة. اختلف في عام وفاته فقيل ٦٤ وقيل ٦٧ م. انظر: النصرانية - دراسة عقدية تاريخية - (٤٧١ - ٤٨٧).

(٢) وليام ديورانت (William Durant): كاتب، وفيلسوف ومؤرّخ أمريكي. اشتهر بكتابة الموسوعة الضخمة عن تاريخ خضارات البشرية بعنوان: قصة الحضارة. توفي عام ١٩٨١ م. انظر:
https://www.thefamouspeople.com/profiles/will-durant-3178.php

(٣) قصة الحضارات (١١ / ٢٦٣ - ٢٦٥)، لويليام ديوارنت، (دار الجيل، ١٤٠ هـ، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرون معه).

(٤) وقد ألّف في ذلك مؤلّفات مستقلة، ومن أهمِّ هذه الكتب: (الوثنية في مسيحيتنا) (Paganism in Our Christianity) للمؤلف: أرثور فيغال (Arthur Weigall)

وقدْ لقي النصارى اضطهادًا شديدًا من قبَل حكّام الإمبراطورية خلال القرون الثلاثة الأولى من ظهور النصرانية. وفي عام ٣١٣ م. أصدر الإمبراطور الروماني قسطنطين[١] مرسومًا برفْع الاضطهاد عنِ النصارى ومنحهم حريةً دينية. ولكن قسطنطين لم يكتفِ بمنْح النَّصارى الحرية، بل تدخَّل بشكل مباشر في نصرة بعض الفرقِ النصرانية الممتزجة بالعقائد الوثنية. وذلك في الحادثة المشهورة في مجْمع نيقيه عام ٣٢٥ م. وقد اختلفتِ الفرقُ النصرانية في القول بالتثليث أو التوحيد، فانتهى المجمع بالقولِ بالتثليث بمباركة قسطنطين[٢].

وصارتِ النَّصرانية الديانةَ الرسمية للإمبراطورية الرومانية بعد ذلك. وهذا ساعد النصرانيةَ في الانتشار في أنحاء أوروبا، وشمال أفريقيا وغرب آسيا. وهذه النصرانية التي انتشرت في هذه الدول كانت ديانةً محرَّفة، وخليطًا بينَ بعض ما دعا إليه المسيح والعقائد الوثنية الموجودة في الإمبراطورية الرومانية.

وهذه الحادثة مهمَّة جدًّا في فهْم الفكر الإلحادي المعاصر، لأنَّ الإلحاد نشأ في أوروبا كردَّة فعلٍ للديانة النصرانية - كما سيأتي بيانُه في المطلب القادم -. وخطاب الملاحدة موجَّه إلى النصارى في الغالب؛ لأنَّهم يعيشون في أوسطاهم. ومفهوم الدين عندَ الملاحدة - الذي ينتقدونه في مؤلَّفاتهم - هو النصرانية دون بقية الأديان. وإذا كانوا ينتقدونَ الأدلة على إثباتِ وجود الله؛ فإنَّهم ينتقدون أدلة اللاهوتيين النصارى، كما فعل ريتشارد دوكينز في كتابه: وهم الإله[٣].

---

(١) قسطنطين (Constantine). وهو معروفٌ بقسطنطين الأوَّل، أو قسطنطين العظيم عند النَّصارى. حكمَ الإمبراطورية الرومانية وحوَّل عاصمتها من روما إلى قسطنطينية. واعتنق النَّصرانية، وتحت إمارته انتشرت الديانةُ النصرانية في أنحاء العالم. توفِّي عام ٣٣٧ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (454)

(٢) انظر: النصرانية دراسة عقدية تاريخية (٤٩٣ - ٤٩٨).

(٣) انظر: The God Delusion (100 - 135)

الملاحدةُ في العصر الروماني:

كتبَ المؤرخ الألماني البروفسور أنديرس دراخمان[١] بحثًا موسَّعًا عن الإلحاد في القديم سمّاه: «الإلحاد في الوثنية القديمة» (Atheism in Pagan Antiquity)، وتوصّل إلى أن الإلحاد لم يكنْ موجودًا في هذا العصر. وهذا ما مالَ إليه البروفسور مارك إيدواردس[٢] في بحث مطبوعٍ عن الإلحاد في القرن الأوّل من الميلاد[٣].

ومعَ ذلك ذكر إيدواردس أنَّ الاتِّهام بالإلحاد كان موجودًا في ذلك الوقت، كما أنه كان موجودًا في اليونان القديمة. وذكر أنَّ الإلحاد كان بمعنى: رفض عبادة بعض الآلهة التي عظَّمها المجتمع[٤]. ولهذا كان الرومانيون يتَّهمون اليهود بأنهم ملاحدة[٥]. ودُعِيَ النصارى إلى عبادةِ تماثيل الإمبراطور الروماني في عام ١١٢ م، فأبوا؛ فاتُّهموا بالإلحاد بسببه[٦].

فمِن الواضح أنَّ كلمة الإلحاد - التي اتَّهم بها اليهودُ النصارى - لم تحملِ المفهوم المعاصر لهذه الكلمة، وإنَّما كان مقصودُهم بإطلاقها: عدم الإيمان بالآلهة المحلّية. والظاهر أنَّه لم يكن هناك ملاحدةٌ في العصر الروماني كما أشار إليه الباحثون والمؤرّخون.

---

(١) أنديرس بيورن دراخمان (Anders Björn Drachman). بروفسور التاريخ في جامعة كوبنهاغن في الدنمارك. توفي عام ١٩٣٥ م. انظر:
https://data.bnf.fr/fr/12752094/anders_bj_rn_drachmann/

(٢) مارك إيدواردس (Mark Edwards): بروفسور في علم اللاهوت بجامعة أكسفورد في بريطانيا. وتخصَّص في دراسة النصرانية المبكّرة. انظر:
https://www.chch.ox.ac.uk/staff/professor-mark-edwards

(3) The Oxford Handbook of Atheism (152-163)

(٤) انظر: المصدر السابق (١٥٢).

(٥) انظر: المصدر السابق (١٥٥).

(٦) انظر: The Twilight of Atheism (9)

المطلبُ الثّالث

العصورُ الوسطى

العصورُ الوسطى كانت أطولَ العصور في التاريخ الأوروبي؛ فإنها بدأتْ بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية عام ٤٧٦ م، وانتهت ببداية عصر النهضة. وبدأ عصرُ النهضة في بعض البلدان، مثل: إيطاليا في القرن الثالث عشر، وتأخَّر في بلدان أخرى مثل: بريطانيا. وقد حدَّد بعضُ الباحثين أنَّ آخر تاريخ العصور الوسطى في بريطانيا كان في عام ١٥٤٧م[١]؛ فالعصورُ الوسطى استمرَّت أكثرَ من عشرة قرون في أوروبا.

قد سبقَ أنَّ المفكِّرين الغربيين المعاصرين يهتمّون بالعصرين اليوناني والروماني كثيرًا، ولكنَّهم في مقابل ذلك يتنكَّرون للعصور الوسطى ويسمّونها بـ«عصور الظلام»[٢]. ونجد بعضَ الباحثين في تاريخ الإلحاد يكتبونَ عن الإلحاد في العصر اليوناني، ثمَّ يقفزون إلى عصر النهضة والتنوير، ولا يهتمّون بالعصور الوسطى[٣].

أهميةُ العصور الوسطى في الفكر الإلحادي:

رغمَ أنَّ المفكِّرين الغربيين غالبًا يُهملون هذه العصور، فإنَّ هذا لا يعني أنها غير مهمَّة في تكوين الفكر الإلحادي المعاصر. وذلك أنَّ ما حصل في القرنين الثامن والتاسع عشر مِن ظهور الإلحاد في أوروبا هوَ في الغالب ردَّة فعلٍ لما

---

(١) انظر: البحث When did 'the Medieval' End? وهو في صفحة على الرابط: http://www.oxfordhandbooks.com/view/10.1093/oxfordhb/9780199229123.001.0001/oxfordhb-9780199229123-e-37.

(٢) انظر: Oxford English Dictionary (2ed)

(٣) انظر على سبيل المثال كيري والتيرس(Kerry Walters) في كتابه: Atheism A Guide for the Perplexed, مايكل مارتن (Michael Martin) في The Cambridge Companion to Atheism.

وقع في العصور الوسطى. وردَّة الفعل هذه تتمثَّل في أمرين مهمَّين وقعَا في تلك العصور، هما:

- **الأمرُ الأوَّل: طغيانُ الكنيسة:**

بعدَما سيطرَ النصارى على الحكم في الإمبراطورية الرومانية البيزنطية وغيرها من الممالك في أوروبا، أصبحت القوَّة والنفوذ بيدِ الكنيسة، وعلى رأسها البابا ورجال الدين. وبينما كان النَّصارى مُستضعفين في القرون الثلاثة الأولى بعدَ الميلاد أصبحوا هُم الطغاةَ والجبابرة. ومِن الأمثلة على هذا الطغيان:

١) **الطغيانُ السِّياسي**: فقد «بلغت سلطةُ البابا الدينية المهيمنة على ذوي السلطة الإدارية والسياسية أوْجَها. حتَّى كان باستطاعة البابا أن يتوِّج الملوكَ والأباطرة، وأن يخلع تيجانَهم إذا نازعوه ورفضوا أوامرَه، وأنْ يحرمهم من الدين، وأن يحرمَ شعوبهم الذين يوالونهم، ولا يستجيبون لأوامر الخلع البابوية»[(١)].

٢) **الطغيانُ الاقتصادي**: كانت الكنيسةُ تأكل أموالَ الناس بالباطل عن طريق الهبَات، والعُشور، والغصْب، والنهب، إضافةً إلى صكوك الغفران وغيرها من وسائل الاحتيال على الناس[(٢)].

٣) **الطغيانُ الدِّيني**: الديانة النصرانية مليئةٌ بالاعتقادات المصادمة للعقل والنقل، وعلى رأسها عقيدةُ التَّثليث[(٣)]، وغيرها من الخرافات. وهذه العقائد اختلفَ فيها أتباعُ الكنيسة اختلافًا كبيرًا، ولكنَّ الكنيسة الرومانية فرضتها عليهم، ولعن كلَّ مَن خالفها[(٤)].

---

(١) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة (٥٠).

(٢) دراسات في المذاهب الفكرية المعاصرة - نشأتها، منطلقاتها الفكرية - (١٠٢)، للدكتور أحمد علي عبد العال، (دار الأوراق الثقافية، الطبعة الثانية، ١٤٣٤ هـ).

(٣) التَّثليث: مفهوم هذه العقيدة عند النصارى أنّهم يؤمنون بإله واحد كثلاثة أقانيم. والأقانيم مُتميِّزة بعضها عن بعض تميُّزًا حقيقيًّا. انظر: النصرانية - دراسة عقدية تاريخية (٣٩٦).

(٤) انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (١٧٨ - ١٨٦)، للدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف، (أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ).

والمجامع النصرانية ودورها في تحريف المسيحية (٨٥ - ١١٤)، للدكتور سلطان بن عبد الحميد سلطان، (مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ).

٤) **الطغيانُ العلمي**: وهو: «وقوفُ الكنيسة ورجالها ضدَّ التقدُّم والمكتشفات العلمية، ومنعها العلماء من مزاولة نشاطهم العلمي بجميع المستويات»[١].

٥) **الطغيانُ الفكري**: قد أقامتِ الكنيسةُ محاكمَ التفتيش[٢] لكلِّ مَن عارض آراء الكنيسة في تفسيرِ كتابها المقدَّس أو العلم الطبيعي؛ فقتل بعضُ أبرز العلماء في هذه المحاكم، وقامَ القساوسة أنفسهم بتعذيبهم، ومن ثمَّ قتلهم[٣].

٦) **الطغيانُ الأخلاقي**: ومِن ذلك: فضائحُ رجال الدين الأخلاقية في الأديرة كالاستغلال الجنسي للأطفال[٤].

ومِن طبيعة الإنسان أنه إذا شعرَ بالظلم والطغيان أنَّه يسعى لتحرير نفسه من هذه القيود[٥]. وإذا كان الطّاغي والظالم رجالَ الدين في الكنيسة فإنَّه بطبيعة الحال يريد أن يتخلَّص من الكنيسة نفسها. وهذا الأمرُ فتح بابَ الإلحاد في العصور المتأخّرة على الملوك الذين أرادوا أن يتحرَّروا من طغيان الكنيسة السياسي، وعلى العلماء لكي يواصلوا المكتشفاتِ العلمية، وعلى الفلاسفة ليعبِّروا على آرائهم الفكرية والفلسفية، وعلى عامَّة الناس لتجاوزاتِ رجال الكنيسة الأخلاقية والمالية. فالكنيسة النصرانية وضعتْ أسسَ الإلحاد في العصور الوسطى بطغيانها وتجبُّرها على الراعي والرعية.

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة عرض ونقد (٦٩).

(٢) محكمة التفتيش: محكمةٌ دينيَّة أُنشئت لمعاقبة المخالفين في العقيدة والاهتمام بحماية الأخلاق والدين في أوروبا في القرون الوسطى. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣ / ١٦٦٨).

(٣) الإلحاد وأسبابه - الصفحة السوداء للكنيسة - (٨١ - ٨٧)، للأستاذة الدكتورة زينب عبد العزيز، (دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤ هـ).

(٤) مذاهب فكرية معاصرة عرض ونقد (٥٦ - ٥٩).

(٥) هناك مسارٌ في علم النفس يسمَّى بعلم النفس التحرّري (Liberation Psychology)، ويهتمُّ بنفسية المظلومين وسعيهم للتحرُّر من هذا الظلم.

- **الثّاني: طريقةُ الاستدلال على وجود الله في العصور الوسطى:**

لم يقتصرْ تأثيرُ الكنيسة في العصور الوسطى في تكوين الفكر الإلحادي على الطُّغيان فقط؛ بل هناك مشكلةٌ أخرى، وهي طبيعة الفلسفة النصرانية في تلك العصور وطريقة استدلالهم على وجودِ الله. فاللاهوتيّون في العصور الوسطى قد تأثّروا بالفلسفة اليونانية وعلمِ الكلام في العالم الإسلامي، ولذا نجدُ في بعض الأحيان تشابهًا كبيرًا بين اللّاهوتيين والمتكلِّمين(١). وقد وقعَ بين اللاهوتيين اختلافٌ كبير في طريقة الاستدلال على وجود الله. وهذه الأدلةُ الكلامية المنطقية في كثير من الأحيان ليست قوية ولا مؤدِّية للمقصود؛ قال الحافظُ القرطبي (رحمه الله) عنْ أدلة المتكلِّمين: «إنهم أعرضوا عن الطرقِ التي أرشدَ اللهُ تعالى إليها إلى طرقٍ مبتدعة ومناقشات لفظية، يردُ بسببها على الآخذِ فيها شبهٌ يعجز عنها، وأحسنهم انفصالًا عنها أجدلهم، فكمْ من عالم بفساد الشُّبهة لا يقوى على حلِّها، وكم من مُنفصل عنها لا يدرك حقيقة علمها»(٢). وهذا الضعفُ في الأدلَّة أورثَهم شكًّا وحيرة كما قال شيخ الإسلام (رحمه الله) عنهم: «تجدُهم أعظمَ الناس شكًّا واضطرابًا، وأضعفَ الناس علمًا ويقينًا»(٣).

وهذا كان حالَ اللاهوتيين من النصارى كذلك؛ فقد كتبتِ البروفسورة دوروثيا ويلتيك(٤) عن أدلةِ المتكلِّمين واللاهوتيين: «هذه الأدلةُ لم تؤصِّل لأصول الاعتقاد، سواء أكانتْ في الرسائل باللغة العربية أم باللغة اللاتينية. المعتقدُ كان موهبة بسبب الإيمان. المخالفونَ لعلم الكلام الإسلامي واللاتيني رأوا أنَّ هذه الأدلة غير مجديةٍ في أحْسن الأحوال، وزندقة في أسوأها»(٥).

---

(١) انظر: The Medieval Period,The Oxford Handbook of Atheism (171)

(٢) نقل ابن الوزير هذه العبارة في كتابه العواصم والقواصم (٤/ ١٠٢)، عن القرطبي في كتابه المفهم لما أشكلَ من تلخيص صحيح مسلم، ولم أجدِ العبارة في الأصل.

(٣) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٧).

(٤) دوروثيا ويلتيك (Dorothea Weltecke): بروفسورة تاريخ الأديان في جامعة كونستانز في ألمانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xvi)

(٥) انظر: The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (172)

وقد انقسمَ اللاهوتيون في العصور الوسطى إلى طوائفَ متعارضة. واختلفوا فيما بينَهم في طريقة إثباتِ وجود الله. ووقعت معاركُ كلامية بينهم، وتتَّهم كلُّ واحدة الأخرى بأنَّ طريقتهم تؤدِّي إلى عدم إثبات وجود الله[١]. ورأى بعضُ الباحثين أنَّ هذا الاختلاف مهَّد لظهور الإلحاد في القرن الثامن عشر[٢].

وكان توما أكوينيا «Thomas Aquinas» أشهرُ اللاهوتيين المصنَّفين في إثبات وجود الله في العصور الوسطى. وكان متَّبعًا لطريقة أرسطو في الاستدلال. وقد ذكر خمسة أدلة مشهورةٍ على وجود الله، التي تعتبر أشهرَ الأدلة على وجود الله في علم اللاهوت النَّصراني[٣]. ولكن ذكر الدكتور غافين هيمان[٤] أنه ليس المرادُ من هذه الأدلة أن تكون براهينَ يقينية على وجود الخالق، بل غاية هذه الأدلة أنَّها كانت طرقًا مختلفة للفلاسفة توصِّلهم إلى معرفة الخالق[٥]. وكان توما يرى أنَّه لا يمكن الوصول إلى معرفة الخالق عن طريقِ العقل أو الحسِّ مباشرة، ولكنَّ العقل يمهِّد الطريق للإيمان بوجود الإله، ثمَّ يأتي دورُ الوحي لتكميل هذا الإيمان[٦]. وإلى نحْو هذا الرأي ذهب اللاهوتي وليم الأوكامي[٧]، وهو مِن أشهر اللاهوتيين النصارى في العصور الوسطى[٨].

---

(١) انظر: The Age of Enlightenment, The Oxford Handbook of Atheism (197 - 198)

(2) Renaissance and Reformation, The Oxford Handbook of Atheism (186)

(٣) وسوف يأتي الحديث عنها في مبحث: تاريخ نقد الإلحاد في هذا التمهيد.

(٤) غافين هيمان (Gavin Hyman): حامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة ومتخصّص في تاريخ الإلحاد. يعمل كمحاضرٍ أوّل في جامعة لانشيستير في بريطانيا. انظر: https: / /www. lancaster.ac.uk /ppr /people /gavin – hyman

(٥) انظر: A Short History of Atheism (٢١)

(٦) انظر: Med Tanke på Gud (٥٨)

(٧) وليم الأوكامي (William of Ockham): راهب وفيلسوف ولاهوتي بريطاني في القرون الوسطى. توفي عام ١٣٤٧ أو ١٣٤٩ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1397)

(٨) انظر: المصدر السابق (٦٣).

وقد شنَّع الملاحدةُ في العصور المتأخِّرة على ضعف هذه الأدلة، وأنها غير مفيدةٍ لليقين. ومِن الأمثلة على ذلك أنَّ داعي الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز كتب بابًا في كتابِه الشهير «وهمُ الإله» سمّاه: الأدلةُ على وجود الإله، وصدَّر هذا الباب بعنوان: «أدلة» توما أكوينيا. ثمَّ كتب: ««الأدلة» الخمسة التي قدَّمها توما أكوينيا في القرن الثالث عشر لا تدلُّ على شيء، ويمكن بسهولة - وإن كنتُ أتردَّد في قولي هذا لمكانته - أنْ نعتبرها أدلة هشّة»[١].

الملاحدةُ في العصور الوسطى:

بدأ الاهتمامُ بتاريخ الإلحاد في العصور الوسطى في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين؛ فكتب عددٌ من الباحثين عن تاريخ الإلحاد في تلك العصور. ولكنَّهم عرَّفوا الإلحاد بكلِّ ما يوصَف بأنه هرطقة[٢]، ونقد الأديان، وحرية الفكر ومعارضة الكنيسة. وعليه، فإنَّهم حشدوا عددًا كبيرًا من المفكِّرين في عداد الملاحدة. ولكنَّ البروفسورة دوروثيا ويلتيك كتبتْ عقبَ استعراض هذه البحوث: «لا يوجد دليلٌ على أنَّ أحدًا ممن ذكرَ في هذه البحوث كانوا ينكرون وجود الله»[٣].

وكان الهراطقة يُحاكَمون في المحاكم ويُحكم عليهم بالإعدام، فظنَّ بعضُ المؤرّخين المعاصرين أنَّ هذا دليلٌ على أنهم كانوا مَلاحدة. ولكن ذكر بعضُ المؤرخين أنه لا يوجد دليلٌ من السجلّات القضائية في ذلك الوقت أنَّ هذا صحيح[٤].

وخلاصةُ ما توصَّل إليه الباحثون المتخصِّصون في تاريخ الإلحاد أنه لم يوجدْ ملاحدةٌ مشاهير بالمفهوم المعاصر في العصور الوسطى في أوروبا[٥].

---

(1) The God Delusion (100)

(٢) هرطقة: بدعة في الدِّين عند النصارى. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٣٤٣).

(3) The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (165)

(٤) انظر:

Zungen wie Schwerter. Blasphemie in altereuropaischen Gesellschafen, 1200-1650 G. Schweroff, (Konstanz: Universisverlag Konstanz)

(5) Atheism in Antiquity, The Cambridge Companion to Atheism (1)

ولذا اهتمَّ بعضُ المؤرخين الغربيّين لتاريخ الإلحاد بوجود الإلحاد في العالم الإسلامي؛ فذكروا أنه قد أطلقَ على بعضِ الناس في العالم الإسلامي في العصور الوسطى أنهم ملاحدةٌ أو زنادقة[1]. ولكنْ تنازع هؤلاء الباحثون إنْ كان المرادُ بهذه الكلمات أنهم كانوا مَلاحدة بالمفهوم المعاصر[2].

وقد تحدَّث عالمُ الفرق الشهرستاني عنْ هذا الأمر قبل ٩٠٠ سنة حين قال: «أمّا تعطيلُ العالم عنِ الصانع العليم، القادر الحكيم، فلستُ أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلّا ما نقلَ عن شرذمة قليلة من الدهرية[3] أنَّهم قالوا: كان العالم في الأزلِ أجزاءًا مبثوثة، تتحرَّك على غير استقامة، فاصطكَّت اتفاقًا؛ فحصلَ العالم بشكله الذي تراه عليه، ولستُ أرى صاحبَ هذه المقالة ممن ينكر وجودَ الصانع؛ بل هو يعترفُ بالصانع ولكنَّه يُحيل سببَ وجود العالم على البحث والاتفاق؛ احترازًا عن التعليل»[4].

ومعَ ذلك، فقد نُقلتْ هذه المقالة عن بعض الأشخاص، ولعلَّ ابن الراوندي هو أشهرُ مثالٍ لشخصية مشهورة في العالم الإسلامي في العصور الوسطى اتُّهم بإنكار الخالق؛ فقد «ألَّف عدةَ كتب في تثبيت الإلحاد وإبطال التوحيد وجحد الرسالة وشتم

---

(١) زندقة: مذهبُ مَن يقول بأزليَّة العالم، وأطلق على الزّرادشتيّة والمانويّة وغيرهم من الثَّنَوية، وتُوُسِّع فيه فأطلقَ على كلِّ شاكٍّ أو ضالٍّ أو ملحد. انظر: معجم اللغة العربية (٢ / ١٠٠٠).

(٢) انظر: The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (165)

(٣) الدهرية: فرقةٌ ماديّة ظهرت في العهد العبَّاسي، جحدت الصانع المُدبِّر وقالت بقدم الدَّهر، وبأنَّ العالم لم يزل موجودًا كذلك بنفسه، كما أنكرت أيَّ شيء لا يمكن إدراكُه بالحواس. انظر: معجم اللغة العربية (١ / ٧٧٦). ويلاحظ على هذا التعريف أن أصحاب المعجم عرّفوا الدهريةَ بأنها فرقة تنكرُ وجودَ الخالق، بينما ذهب الشهرستاني إلى أنَّهم لم ينكروه. والظاهر أنَّ عددهم كان قليلًا جدًّا، ولم يتركوا مؤلفات، فصعبَ على علماء الفرق والأديان أن يحدِّدوا حقيقة معتقدهم.

(٤) نهايةُ الإقدام في علم الكلام (٧٤)، لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، (دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ، ت. أحمد فريد المزيدي).

النَّبيين عليهم السلام، والأئمة الهادين، وهي كتبٌ مشهورة معروفة. فمنها: كتاب يعرف «بكتاب التاج» أبطلَ فيه حدثَ الأجسام، ونفاه، وزعم أنَّه ليس في الأثر دلالة على مؤثِّر، ولا في الفعل دلالة على فاعل، وأنَّ العالم بما فيه...[١] وقمره وجميع نجومه قديم لم يزل ولا صانعَ له، ولا مدبِّر، ولا محدِث له ولا خالق، وأنَّ مَن ثبَّت للعالم خالقًا قديمًا ليسَ كمثله شيء فقد أحالَ وناقض»[٢].

فهذا نصٌّ واضح أنَّ ابن الراوندي تبنّى الفكرَ الإلحادي بمفهومه المعاصر. ولكن الإشكال معَ ابن الراوندي بالذات أنه قد تنقَّل بين الأديان والمذاهب؛ فيقال إنه من أصلٍ يهودي، ثمَّ صار معتزليًّا، ثمَّ رافضيًّا، ثمّ ألّف لليهود في الطَّعن في النبوة، وقيل إنه تابَ قبلَ موته[٣]. فهل يمكن أن نصنِّف ابن الراوندي أنه كان من الملاحدة بالمفهوم المعاصر؟ أو هل غايةُ ما نقول إنَّه ذهب إلى هذه المقولة في أحدِ مؤلفاته في إحدى مراحلِ حياته فقط؟ هذا ما يصعب تحديدُه، وقد ذهب بعضُ المؤرخين الغربيين إلى أنه قد ثبتَ أنَّه في الحقيقة كان يؤمن بالله[٤]. ومهْما يكن من شيء؛ فإنه ثمّة قدرًا مؤكّدًا في حالته؛ وهو أنه توقَّف في وقتٍ ما من حياته عند محطّة الإلحاد.

ولكنْ يبقى هناك سؤال مهمٌّ في هذه القضية، ألا وهو: لماذا اهتمَّ المتكلمون من المسلمين واللاهوتيّين من النصارى في تلك العصور بنقدِ الإلحاد، وصنّفوا في أدلة إثبات الصانع؟ هذا السؤالُ قد طرحه الباحثون الغربيون، ورآه بعضهم دليلًا على أن الإلحاد كان موجودًا في تلك العصور؛ وإلّا، فلماذا يهتمّون بنقد قضية غير واقعية[٥]؟

قد أجاب شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عن هذا السؤال إذ قال: «الناسُ متَّفقون على إثبات وجودٍ واجب، اللهم إلّا ما يُحكى عن بعض الناس قال: إن هذا

---

(١) كتب المحقق: (خرم وطمس في الأصل).

(٢) الانتصار والردُّ على ابن الراوندي الملحد (٣٢)، لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمد الخياط، (مكتبة الثقافة الدينية، تقديم ومراجعة: محمد حجازي، لم تذكر الطبعة ولا سنة النشر).

(٣) انظر: مقدمة المحقق لكتاب الانتصار (٢٢ - ٢٣)

(٤) انظر: The Medieval Period, The Oxford Handbook of Atheism (168)

(٥) المصدر السابق (١٧٠ - ١٧٢)

العالم حدثَ بنفسه، وكثيرٌ من الناس يقولون: إنَّ هذا لم تقله طائفة معروفة، وإنما يقدَّر تقديرًا كما تقدَّر الشبه السوفسطائية ليبحث عنها، وهذا مما يخطرُ في قلوب بعض الناس كما يخطرُ أمثاله من السفسطة[1]، لا أنَّه قول معروف لطائفة معروفة يذبّون عنه، فإنَّ ظهور فساده أبينُ من أن يحتاج إلى دليل»[2].

ويضاف إلى ذلك أنَّ المتكلِّمين الذين اعتنوا بإيراد الأدلة على وجود الخالق فعلوا ذلك بناءً على أصلٍ فاسد في علم الكلام؛ وهو أنَّ الإيمان لا يثبت إلّا بالنظر. قال شيخُ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «وقد ذهب كثيرٌ من أهل الكلام إلى أن اعترافَ النفس بالخالق وإثباتَها له لا يحصلُ إلا بالنظر»[3]. ثمَّ ردَّ على هذه المقولة بقوله: «والمقصود هنا أنَّ هؤلاء الذين قالوا: معرفة الرب لا تحصلُ إلّا بالنظر، ثمَّ قالوا: لا تحصلُ إلّا بهذا النظر هُم من أهل الكلام الجهمية القدرية ومَن تبعهم. وقد اتَّفق سلف الأمَّة وأئمتها وجمهورُ العلماء من المتكلمين وغيرهم؛ على خطأ هؤلاء في إيجابهم هذا النَّظر المعين، وفي دعواهم أنَّ المعرفة موقوفةٌ عليه. إذ قد علمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أنَّه لم يوجب هذا على الأمة ولا أمرهم به، بل ولا سلكَه هو، ولا أحدٌ من سلف الأمة في تحصيل هذه المعرفة»[4].

ولعلَّ هذا هو الحال عند اليهود والنصارى أيضًا. فمَن طالع مؤلفات فلاسفة اليهود كموسى بن ميمون[5] - ولا سيَّما كتابا المعرفة ودلالة الحائرين - يجد النفسَ

---

(١) سفسطة: قياس مركَّب من الوهميات، والغرض منه: تغليط الخصم وإسكاته. انظر: التعريفات (٧١)، للسيد الشريف الجرجاني (مرسسة الحسن، الطبعة الأولى، ١٤٢٧ هـ اعتنى به: مصطفى أبو يعقوب).

(٢) منهاج السنة (٣ / ١٧٤)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (جامعة الإمامن محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ت. الدكتور محمد رشاد سالم).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦ / ٣٢٨).

(٤) المصدر السابق (١٦ / ٣٣٠).

(٥) موسى بن ميمون: هو موسى بن ميمون الأندلسي، يهودي النحلة وكان رئيسًا عليهم بمصر. قرأ علم الأوائل بالأندلس وأحكم الرياضات وأخذ أشياء من المنطقيات وقرأ الطب. من مؤلفاته: دلالة الحائرين. توفي عام: ٦١٠ هـ. انظر: أخبار العلماء بأخيار الحكماء (٢٣٨ - ٢٤٠).

الفلسفي ظاهرًا[1]. وكبارُ المدافعين عن الديانة النصرانية في العصور الوسطى مثل: أغسطين[2] وتوما أكوينيا كانا متأثِّرين بالفلسفة اليونانية إلى حدٍّ كبير[3]. فموردُ المتكلِّمين المسلمين واللاهوتيّين من اليهود والنصارى واحد، وهو الفلسفة اليونانية. ولا يلزم ضرورة من اهتمامهم بأدلةِ إثبات وجود الخالق أنَّ الإلحاد كان منتشرًا في تلك العصور. ولا يُستبعد أنَّه ربما كان هناك بعضُ الأفراد أنكروا وجودَ الله - مثل ابن الراوندي في إحدى مراحل حياته -، ولكنه لم يتبلورْ كمذهب. وقد يكون سببُ ردود المتكلِّمين على الإلحاد أن الكتبَ الفلسفية اليونانية قد عرِّبت، وقد فهمَ المتكلّمون من كلام الفلاسفة في قدم العالم أنَّهم كانوا ملاحدة، فاشتغلوا بالردِّ عليهم من هذا الباب. ولكنّه قد سبق أن بعضَ فلاسفة اليونان وقعَ في الإلحاد بالمفهوم العام، وإن لم يتبنّوا الإلحاد بالمفهوم المعاصر.

---

(١) انظر: موسى بن ميمون (١١ - ١٢)، لتمار رودافسكي، ترجمة: جمال الرفاعي، (المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣ م).

(٢) أغسطين (Augustine of Hippo): لاهوتي نصراني، وأحدُ الآباء اللاتينيين للكنسية. وُلد وتربى على الديانة المانوية، ثمَّ تنصَّر وناظرَ المانويين. وقد تأثّر بفلسفة الأفلاطونية الحديثة وخلطها باللاهوت النصراني. ألّف عددًا من المؤلفات، ومِن أشهرها: مدينة الإله. توفي عام ٤٣٠م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (131)

(٣) انظر: الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١٠٩ - ١١٦)، لإتين جلسون، ترجمة وتعليق: أ. د. إمام عبد الفتاح إمام، (التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩).

المطلبُ الرّابع
عصرُ النهضة والإصلاح

إنَّ عصرَ النهضة هو العصرُ الذي تلا العصورَ الوسطى. وقد سبق في المطلب الماضي أنه يصعب تحديدُ نهاية العصور الوسطى وبدايةِ عصر النهضة، وأنَّ ذلك يختلف مِن بلدٍ إلى بلد. وقد ذكر بعضُ المؤرِّخين أنَّ عصر النهضة بدأ في إيطاليا في القرن الرابع عشرَ وانتهى في وسطِ القرن السابع عشر. وفي أثناءِ عصر النهضة حصل ما يسمَّى بعصرِ الإصلاح البروتستانتي[١]. وبدأ هذا الإصلاحُ في بداية القرن السادس عشر إلى وسطِ القرن السابع عشر. فيمكنُ أن يقال إنَّ عصرَ النهضة يتضمَّن عصر الإصلاح[٢].

أهميةُ عصر النَّهضة في الفكر الإلحادي:

بينما يتنكَّر المفكِّرون الغربيون للعصورِ الوسطى فإنَّهم يمجِّدون عصر النهضة. وكما أنَّ تسمية العصور الوسطى بعصور الظلام دليلٌ على هذا التنكُّر؛ فإنَّ تسمية هذا العصر بالنهضة دليلٌ على موقفهم الإيجابي تجاهَه.

---

(١) البروتستانت: أحدُ فروع النصرانية الرئيسة. ظهرتِ الحركة البروتستانتية في القرن السادس عشر معارضةً للكنيسة الكاثوليكية. وتوجد فرقٌ عديدة مُنتسبة إلى البروتستانتية، وبينها تباينٌ كبير في المعتقدات والطقوس، ولكن يجمعهم الإيمانُ بأنَّ كتابَ النصارى المقدَّس لديه أعلى سلطة في قضايا الإيمان والتنظيم - بخلاف الكاثوليك الذين يقدِّمون أقوال البابوات -، وكذلك يركِّزون على أنَّ الخلاص يأتي عن طريق نعمة إلهية وليس عن طريق عمل الإنسان. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1556)

(٢) انظر:
http://hubpages.com/education/The-European-Renaissance-14th-17thcen-turies-PartI

قدْ تسلَّطت الكنيسة الكاثوليكية[1] على الراعي والرعية بشتى أنواع الظلم في العصور الوسطى، واستطاعتْ أوروبا أن تتخلَّص من هذا الظلم إلى حدٍّ كبير في عصر النَّهضة. سبقَ في المطلب الماضي أنَّ طغيان الكنيسة الكاثوليكية وظلمَها ظهرَ في أمور عديدةٍ، مثل: الدين، والسياسة، والفكر، والاقتصاد، والعلم. وفي عصر النهضة حصلَ تغيُّرات كبيرة واهتزَّ عرشُ الكنيسة الكاثوليكية وضعفت سلطتُه على الناس.

وإنْ كان التخلُّص من طغيان وظلم الكنيسة الكاثوليكية أمرًا إيجابيًّا من ناحية، فإنَّ الغربيّين اقتربوا بهذا التخلُّص إلى العلمانية والإلحاد من ناحيةٍ أخرى؛ وبيان ذلك كما يلي:

- **الأوَّل: التخلُّص من الطغيان الديني:**

قد ظهر عددٌ من المحاولات لإصلاحِ الكنيسة في العصور الوسطى، ولكنها كلها باءتْ بالفشل حيث قمعتِ الكنيسةُ هذه المحاولات بقوة. وفي عصر النهضة ظهرتْ حركاتٌ نصرانية إصلاحية كثيرة. وكلُّها يطلق عليها المذهب البروتستانتي[2].

وعارضَ المذهب البروتستانتي احتكارَ البابا ومَن معه من رجال الدين لتفسير كتابهم المقدَّس. وبذلك ضعفتْ سلطة الكنيسة في روما، وفُتح بابُ نقدها، بعدما كان بابًا مغلَقًا فيما سبق. وكان لهذا الأمر آثارٌ نفسية كارثية على الديانة النصرانية؛

---

(١) الكاثوليك: أصلُ هذه الكلمة من (Katholikos) باليونانية بمعنى العام العالمي. وتتبع هذه الكنيسة النظامَ البابوي، يرى أتباعُها أنَّ البابا هو المشرّعِ بعد عيسى (عليه السلام)، فهو معصوم ولا يصدرُ عنه خطأ، وإرادته إرادةٌ إلهيَّة يجب اتِّباعها بدون المناقشة والجدل. ومن معتقداتها: أن روحَ القدس نشأ من الأب والابن معًا، وأنَّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين، أي: اللاهوتية والناسوتية، وأنَّ صلوات كهنة الكنيسة ترفع العذاب عن النفوس المؤلمة. انظر: دراسات في اليهودية والمسيحية وأديان الهند (٤٦٦ - ٤٧٥).

(٢) انظر: طوائف الكنيسة البروتستانتية وعقائدها (٥٦ - ٦٢)، للدكتورة إنعام بنت محمد عقيل، (مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤٣٥ هـ).

فهذه الكنيسة الكاثوليكية تدَّعي أنَّ الحقَّ المطلق معها، والبابا هو خليفة المسيح في الأرض، وهو معصومٌ في تصريحاته وأوامره[١]. وكان للبابا حقٌّ في لعْن مخالفيه ورميهم بالهرطقة والزَّندقة. ولا يكاد يجرؤ أحدٌ على مخالفته إلّا واضمحلَّ ذكرُه. وفي هذا العصر ظهرت حركاتٌ كثيرة متعارضة - ولكلِّ حركة أتباعٌ كثيرون - وتدَّعي كل حركة أنَّ أتباع الكنيسة الأخرى زنادقة؛ فاهتزَّت ثقةُ الناس بسلطة الكنيسة على امتلاك الحق المطلق[٢].

- **الثّاني: التخلُّص من الطغيان السياسي:**

قدْ تفكَّكت أوروبا كثيرًا في نهاية العصور الوسطى إلى دولٍ مُتعادية؛ بل دولةٌ واحدة مثلَ إيطاليا قد انقسمتْ إلى دويلاتٍ كثيرة تسمَّى «دول - مدن إيطالية»، يعني المدن الكبيرة في إيطاليا وما حولها من القرى كانت دولًا مستقلَّة. وبعض هذه الدويلات كانت تابعةً لنفوذ البابا وتسمَّى الدول البابوية، وبعضُها لم تكنْ تابعة لنفوذ البابا. وقد ظهرتِ النهضةُ والمذهب الإنساني[٣] في الدول غير التابعة للبابا مثل: جمهورية فلورنسا[٤].

ولمّا ظهر المذهبُ البروتستانتي تبنَّاه بعض الملوك في شمال أوروبا كمذهب رسمي للدولة. ثمَّ وقعت حروبٌ طاحنة بين الدول البروتستانتية والدول الكاثوليكية. وأشهرُ هذه

---

(١) انظر: الطائفة الكاثوليكية وأثرها على العالم الإسلامي (١٢٩ - ١٣٠)، لمحمد بن علي آل عمر الزلعي، (مجلة البيان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ).

(٢) انظر: Atheism in Modern History, The Cambridge Companion to Atheism (34)

(٣) المذهب الإنساني: النزعةُ الإنسانية هي اتجاهٌ فكري عامٌّ تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية، ظهرتِ النزعةُ الإنسانية في عصر النهضة. ومن فلسفاته: الثقة بطبيعة الإنسان وقابليته للكمال، وإمكان حدوث التقدم المستمر. ومن أسماء الرّواد الأوائل للمذهب الإنساني بوجيو وبروني، والمحامي البارز مونتبلشيانو. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والجماعات المعاصرة (٢/ ٧٩٩ - ٨٠٢).

(٤) انظر: Västerlandets filosofi (282 - 283)

فلورنسا: مدينةٌ في وسط إيطاليا، وكانت بين القرن الرابع عشر والسادس عشر من أعظم مدنِ أوروبا. كما أنها كانت جمهوريةً مستقلة. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (683)

الحروب هي «حربُ الثلاثين عامًا» بين ١٦١٨ – ١٦٤٨ م. ودخلت معظمُ الدول الأوروبية في هذه الحرب إمّا في معسكر الدول البروتستانتية وإمّا في معسكر الدول الكاثوليكية. وكانت نتيجةُ هذه الحروب كارثية، فقد هلكَ على سبيل المثال ما بين ٢٥ إلى ٤٠ ٪ من سكّان ألمانيا في هذه الفترة بسبب القتلِ والجوع والأمراض الوبائية الناتجة من الحرب[١]. وكان من أبرز نتائجِ هذه الحروب ضعفُ نفوذ الكنيسة الكاثوليكية على شمال أوروبا[٢].

- **الثّالث: التخلُّص من الطغيان الاقتصادي:**

بدأ مارتن لوثر[٣] معارضتَه للكنيسة الكاثوليكية بانتقاد طغيانها الاقتصادي؛ فكتب رسالة «القضايا الخمس والتسعين» (Disputatio pro declaratione vir-tutis indulgentiarum) إلى رئيس الأساقفة ألبريكت عام ١٥١٧م. وكانت هذه الرسالةُ تحتوي على النقد اللّاذع لصكوك الغفران المنْتشرة في الطائفة الكاثوليكية. وتؤرِّخ بدايةَ عصر الإصلاح بهذه الرسالة[٤].

ولمّا انتشرَ المذهب البروتستانتي تعالتْ أصوات الشعوب في نقد طغيان الكنيسة الاقتصادي. وفي عام ١٥٢٤م، انطلقت حربُ الفلّاحين الألمانية، وهي ثورة شعبية قام بها الفلّاحون الألمان ضدَّ أمراء مناطق جنوب ألمانيا. وكان سببُ اشتعال الثورة أن الكنيسةَ الكاثوليكية فرضت ضرائبَ خيالية على أمراء المناطق، ولكي يتمَّ الحصولُ على هذه المبالغ الطائلة فرَضَ الأمراءُ ضرائبَ على عامة الناس، فانتفض الفلّاحون وحصلت الثورة. وقد هلكَ في هذه الثورة ما بين مائة إلى ثلاثمائة ألف فلّاح[٥].

---

(١) انظر: "The Demography of the Thirty Years War Re-revisited: Günther Franz and his Critics". German History. 15 (1): 1-21

(٢) انظر: http://www.articlemyriad.com/consequences-effects-thirty-years-war/

(٣) مارتن لوثر (Martin Luther): راهبٌ ألماني، وقسيس وأستاذ اللاهوت. وهو مؤسسُ المذهب البروتستانتي النصراني. توفي عام: ١٥٤٦ م. انظر:
http://www.newadvent.org/cathen/09438b.htm

(٤) انظر: Nordisk Familjebok (1487 - 1488)

(٥) انظر: The Revolution of ١٥٢٥: The German Peasants War from a New Perspective (165), by Peter Blickle, Hopkins University Press, 1981.

وكانت هذه الثورة حاضرةً في أذهان المعارضين للكنيسة قرونًا بعد وقوعها؛ فقد ألَّف فريدريك أنجلز[1] - أحدُ مؤسّسي المذهب الشيوعي الإلحادي - كتابًا خاصًّا عن الثورة سمَّاه: «حرب الفلّاحين في ألماني» (Der deutsche Bauernkrieg). وحلّل فيه أسبابَ وقوعِ هذه الثورة الشعبية، معَ المقارنة بثورات عام ١٨٤٨م في أوروبا. وقد خصَّص أنجلز بعضَ الفصول من الكتاب لنقدِ رجال الدين في الكنيسة واستغلالهم للطبقات العاملة والفقيرة.

- **الرّابع: التخلُّص من الطغيان العلمي:**

مِن أهمِّ قضايا عصر النهضة: الصراعُ القائم بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية، حيث كان العلمُ الطبيعي شبهَ حكْرٍ على رجال الدين في أديرتهم في العصور الوسطى. وكان كتابُ النصارى المقدَّس أهمَّ مصدر للعلوم الطبيعية حيث لا تجوز معارضتُه بأي حال. وأمّا في عصر النهضة فبدأ غيرُ رجال الدين بالاشتغال بهذه العلوم، وتوصَّلوا إلى نتائجَ مخالفةٍ لتعاليم الكنيسة في بعض الأحيان؛ فوقعَ صراع بين الكنيسة والعلماء. ومن أهمِّ مسائل الصراع بينهم في عصر النهضة هي مسألةُ مركزية الشمس أو الأرض. وقد تبنَّت الكنيسة الكاثوليكية نظريةَ مركزية الأرض. وذلك لأسبابٍ دينية كإشارةِ بعض الآيات في كتابِ النصارى المقدَّس تضيف الحركةَ إلى الشمس، وأنَّ الأرض ثابتة[2]. ولكنْ لم يكنْ هذا هو السببَ الوحيد، بل القول بمركزية الأرض هو ما قرَّر كبار الفلاسفة اليونان، مثل: أفلاطون وأرسطو، كما أنَّ دوران الشمس حول الأرض هو الظاهرُ عندما يشاهد الإنسانُ طلوع الشمس وغروبها.

وكان نيكولاس كوبيرنيكوس[3] أوَّلَ معارضٍ مشهور في عصر النهضة لهذه النظرية. وبدأ يؤسِّس لنظرية مركزية الشمس في بداية القرن السادس عشر، قرَّر

---

(١) فردريك أنجلز (Friedrich Engels): فيلسوفٌ اشتراكي ألماني. تأثّر بفلسفة هيجل في صغره، ثمَّ تعرَّف على كارل ماركس. وألَّف معه بيانَ الحزب الشيوعي. وبعد وفاة ماركس كان أنجلز أكثرَ مَن نشرَ أفكاره. توفي عام١٨٩٥م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (621 - 622)

(٢) انظر على سبيل المثال: أخبار الأيام الأوَّل (١٦: ٣٠)، والمزامير (٩٣: ١) و(٩٦: ١٠).

(٣) نيكولاس كوبيرنيكوس (Nicholas Copernicus): عالمٌ فلكي بولندي. اشتهرَ بآرائه عن مركزية الشمس، وأنَّ الأرض تدور. توفي عام ١٥٤٣ م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (462-463)

ذلك في كتابه: «حول دوران الأجرام السماوية» (De revolutionibus orbium coelestium) الذي طبع في عام وفاته ١٥٤٣م. ولم يقصدْ كوبيرنيكوس معارضةَ الكنيسة، بل أهدى كتابه هذا للبابا في الفاتيكان. وكان يرى أنَّ مسألة دوران الشمس أو الأرض ليست مسألةً دينية تتلقَّى من الكتاب المقدَّس؛ بل هي مسألةٌ تُبحث إلى علم الرياضيات والحساب(١). ولم تثرْ نظريتُه ضجةً كبيرة في حينها.

وقد تأثَّر العالمُ الفلكي غاليليو غاليلي(٢) (Galileo Galilei) بآراء كوبيرنيكوس، وفي عام ١٦١٠م أصدرَ كتابه: «رسالة فلكية» (Sidereus Nuncius) وقرَّر فيه نظرية مركزية الشمس. وقد أدَّى هذا الكتاب إلى محاكمته عام ١٦١٦م في محاكم التفتيش، وحكمتِ المحكمة بأنَّ هذا الرأي يعتبر هرطقة، ومنعتْ غاليليو من نشره. وقد أقرَّ بذلك في بداية الأمر، ولكنْ سرعان ما نقض عهدَه وأصدر كتابًا جديدًا عام ١٦٣٢م سمّاه: «حوارٌ حول النظامين الرئيسين للكون» (Dialogo sopra i due massimi sistemi del mondo) مما أدَّى إلى محاكمته مرَّة ثانية في محاكم التفتيش عام ١٦٣٣م، وقضت المحكمةُ بحبسه في بيته إلى أنْ مات عام ١٦٤٢م(٣).

وانتشرت آراؤه كثيرًا بعدَ موته، حتى تلقّاه معظمُ الفلكيين بالقبول. ويقدِّم الملاحدة هذه المحاكمة باعتبارها رمزًا للصراع المزعوم بين العلم والدين.

وقد عارضَ البروفسور جون لينوكس(٤) هذا الرأي. وذكر أنَّ الصراع الحقيقي في ذلك الوقت كان بين علماءِ الفلك أنفسهم، وليس بين الكنيسة والعلم. واستشهد بذلك أنَّ غاليليو قد ذكر أنَّ المعاصرين له من علماء الفلك المتبنِّين لنظرية مركزية

---

(١) انظر كتابه: Dedication of the Revolutions of the Heavenly Bodies to Pope Paul III, وهو منشورٌ إليكترونيًّا على الرابط: http: / /www.bartleby.com /39 / 12.html

(٢) غاليليو غاليلي (Galileo Galilei): عالم فلك ورياضيات وفيزياء إيطالي. وهو أوّلُ مَن درس الأجرام السماوية عن طريق المنظار. توفي عام ١٦٤٢ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (728)

(٣) انظر: God’s Undertaker-Has Science buried God?-(23-26)

(٤) جون لينوكس (John Lennox): بروفسور الرياضيات في جامعة أكسفورد. وأحدُ أبرز علماء الغرب المعْتنين بنقدِ الإلحاد المعاصر. سيأتي تعريفٌ مفصَّل به في مطلب: تاريخُ نقد الإلحاد المعاصر.

الأرض هُمُ الذين وشوْا به عند الكنيسة، وليس العكس. وقد بقيَ غاليليو متديّنًا ومؤمنًا بالله إلى آخر حياته[1].

ومهْما كان من أمر، فإنَّ هذه المحاكمة قد تركت آثارًا سلبية كبيرة في أوروبا على الدين عمومًا، وعلى الكنيسة الكاثوليكية خصوصًا، حيث يرى كثيرٌ من الغربيين أن الدينَ مانعٌ من التقدُّم والتطوّر العلمي.

- **الخامس: التخلُّص من الطغيان الفكري:**

ظهرَ في هذا العصر ثلاثةُ مذاهب مهمَّة في الفكر الغربي:

الأوَّل: المذهبُ الإنساني: نشأ هذا المذهبُ في جمهورية فلورسنا في إيطاليا في القرنِ الرابع عشر. وهو مذهبُ أعرض عنِ الديانة النصرانية وهيمنتها الفكرية إلى حدٍّ ما، واهتمَّ بالتراث الأوروبي القديم كالحضارة اليونانية والرومانية. واعتمد روّاد هذا المذهب على مؤلَّفات الفلاسفة والمفكِّرين اليونانيِّين والرومان، ولم يهتمّوا كثيرًا بتعليمات رجال الدين. وكذلك قاموا بعلْمنةِ الأخلاق غيرَ مُعتمدين على تعليمات الديانة النَّصرانية[2]. وقد ذكر بول كورتز[3] - المعروف بأبي المذهب الإنساني العلماني المعاصر - في بيانِه المشهور للمجمع الإنساني العلماني (Council of Secular Humanism) أن المذهب الإنساني في عهدِ النهضة تبنَّى رؤية مادية علمانية للكون التي أنهت الرؤية الدينية في عصور الظلام، وأنَّ هذه الرؤية الجديدة أثَّرت في عصر التنوير[4].

---

(١) انظر: المصدر السابق.

(2) The Encyclopedia of Unbelief 692; 437
Tom Flynn, (Prometheus, 2007)

(٣) بول كورتز (Paul Kurtz): بروفسور الفلسفة في جامعة نيويورك بالولايات المتّحدة. وقد شاركَ في تأليف أكثرَ من أربعين كتابًا ومئات المقالات العلمية. ويعتبر أحدَ أشهر دعاة المذهب الإنساني في الولايات المتحدة. توفي عام ٢٠١٢ م. انظر: /http: / /kurtz.pragmatism.org

(4) A Secular Humanist Declaration

وهذا البيانُ موجود في موقع: www.secularhumanism.org

ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أنَّ الإنسانيين في عصر النهضة كانوا ملاحدة، بل كان بعضُهم من رجال الدين النصراني - وإن قلَّ اهتمامُهم بالدين -. ومع ذلك فقد وقعت نفرةٌ بينهم وبينَ الكنيسة الكاثوليكية في كثيرٍ من الأحيان. ومن الأمثلة على ذلك محاكمةُ الفيلسوف الإنساني لوسيولو فانيني[1] في فرنسا عام ١٦١٩م. كان لوسيولو قد درسَ علمَ اللاهوت وبدأ يتبنَّى آراءً مخالفةً للكنيسة مثلَ القول بوحدة الوجود. فقضت المحكمةُ بأنَّه زنديق يجبُ قتله؛ فتمَّ تعذيبُه وقتله، وقطعُ لسانه وتحريقه[2]. وخلاصةُ الأمر أنَّ لوسيلو لم يكن ملحدًا بالمفهوم المعاصر، ولكنّه كان فيلسوفًا إنسانيًّا يدعو إلى آراء مخالفةٍ للكنيسة كالقول بوحدة الوجود.

وإنْ لم يكن الإنسانيون في عصر النهضة مَلاحدة، فقد اعتبر بعضُ الباحثين أنهم كانوا مسئولين عن ولادةِ العلمانية والإلحاد في عصورٍ متأخرّة[3]. وإلى يومنا هذا يفضِّل الملاحدة أنْ يتسمّون بالإنسانيّين، ويسمّون جمعياتِهم بالجمعيات الإنسانية. وذلك لكوْن هذا الاسم محبوبًا لدى النفوس ولا يلحقُه العار مثلَ لفظ الملحد. فإحدى أكبر المنظَّمات المظلية الإلحادية في العالم اسمُها: «الاتِّحاد الإنساني والأخلاقي الدولي» (International Humanist and Ethical Union)، وتضمُّ هذه المنظمة جمعياتٍ إلحادية في أنحاء العالم.

الثّاني: مذهبُ الشكّ النهضوي (Renaissance Skepticism): كان فلاسفةُ اليونان روّادَ مذهب الشكِّ في عصرهم. وقد تجدَّد هذا المذهب في عصر النهضة على يدِ بعض الفلاسفة. ويُعد من أشهرُ فلاسفة الشكِّ في عصر النهضة: ميشيل دي مينتن[4]

---

(١) لوسيولو فانيني (Lucilio Vanini): فيلسوفٌ وطبيب ومفكِّر حرٌّ إيطالي. توفّي عام ١٦١٩م. انظر: http://dbpedia.org/page/Lucilio_Vanini

(٢) انظر: http://www.theodora.com/encyclopedia/v/lucilio_vanini.html

(٣) انظر: Renaissance and Reformation, The Oxford Handbook of Atheism (182)

(٤) ميشيل دي مينتن (Michel De Montaigne): أحدُ رجال الحاشية الملكية والكاتب الفرنسي. ألَّف عددًا من الرسائل والكتب. توفي عام ١٥٩٢ م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (1286-1287)

وفرانسيسكو سانشيس[1]. كان ميشيل فيلسوفًا فرنسيًّا ملقَّبًا بأبي مذهب الشكِّ المعاصر. وقدْ زعم أنَّه لا يوجد أيُّ أمرٍ متيقَّن، بل يمكن التشكيكُ في كلِّ شيء. ولذا فإنَّه ينبغي للإنسان أنْ يبقى على الديانة التي تربَّى عليه، ولا يحيد عنه. وميشيل كان نصرانيًّا كاثوليكيًّا فبقيَ على هذه الديانة، معَ أنه رأى أنَّه إيمانه غيرُ مبنيٍّ على أدلة يقينية، وإنما هو مجرَّد تقليد الآباء[2].

وأمّا فرانسيسكو فهوَ فيلسوفٌ يهودي برتغالي، وقد كتب كتابه: «لا يُعلم شيء» (Quod nihil scitur)، وطبعَه عام ١٥٧١م. وهذا الكتابُ من أهمِّ مصادر كتب مذهب الشكِّ في عصر النهضة. وقد طوَّر مذهب الشكِّ أكثرَ من سلفه حتى صدّر هذا الكتاب بقوله: «لا أدري حتَّى عن هذه المقولة: إنني لا أدري»[3].

وفلسفةُ الشكِّ أثَّرت كثيرًا في بعض المشكِّكين في عصر التنوير مثل ديفيد هيوم[4]، كما أنَّه أثَّر في كبار دعاةِ الإلحاد في القرن التاسع عشر مثل فريديك نيتشيه[5].

---

(١) فرانسيسكو سانشيس (Francisco Sanches): يهودي من البرتغال، وأصبح بروفسور الفلسفة والطبِّ في جامعة تولو بفرنسا. واشتهر بأنَّه تبنَّى فلسفة الشكِّ، وألَّف في هذه الفلسفة بعضَ المؤلفات. توفي عام ١٦٢٣ م. انظر: /https: / /plato.stanford.edu /entries /francisco – sanches

(2) Med Tanke på Gud (63-64)

(3) That Nothing is Known (170), by Francisco Sánchez
Edited and translated by Elaine Limbrick, and Douglas F. S. Thomson, Cambridge 2008

(٤) ديفيد هيوم (David Hume): فيلسوفٌ ومؤرِّخ واقتصادي أسكتلندي. كان أحدَ أشهر فلاسفة الشكِّ في القرن الثامن عشر، وأثَّرت فلسفتُه تأثيرًا بالغًا في الفكر الغربي الحديث. من مؤلفاته: رسالة في الطبيعة البشرية، ومحاورات فلسفية في الفاهمة البشرية. توفي عام ١٧٧٦ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (908)

(5) Med Tanke på Gud (63)

فريدريك نيتشه (Freidrich Nietzsche): فيلسوفٌ وناقد ثقافي ولغوي ألماني. كان من أشهر فلاسفةِ الإلحاد في القرن التاسع عشر، وألَّف عددًا من المؤلفات المشهورة مثل: ما وراء الخير والشَّر، وهكذا تكلّم زرادشت. توفي عام ١٩٠٠ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1362)

وقد تركَ مذهبُ الشكِّ أثرًا في المذهب العقلاني الكلاسيكي في عصر النهضة كذلك كما سنقرأ الآن:

الثّالث: المذهبُ العقلاني الكلاسيكي: سبقَ في البحث أنَّ المذهب العقلاني نشأ في العصر اليوناني، ثمَّ امتزج بعلمِ اللاهوت النصراني في العصور الوسطى. أمّا في نهايةِ عصر النهضة نشأ ما يسمَّى بالمذهب العقلاني الكلاسيكي؛ وهو العقلانيةُ بثوبها الجديد. مؤسسُ هذا المذهب هو الفيلسوفُ الفرنسي رينيه ديكارت[1]. والطابع العامُّ لهذا المذهب هو مبدأ الشكِّ في كلِّ شيء لكي يوصِّل الإنسان إلى اليقين. «وهناك خطواتٌ للشكِّ عند ديكارت، وكيف قادتْه لليقين».

أوّلًا: الشكُّ في الحواس: يرى ديكارت أنَّ كلَّ ما تلقّاه وأدركه ووثقَ به كان عن طريقِ الحواس، ولكنَّه وجد الحواس خدَّاعة، ومن الحكمة أن لا نطمئنَّ لمن خدعونا ولو مرَّة واحدة...

ثانيًا: الشكُّ في الحياة الشعورية: إنَّنا كثيرًا ما ننام ونحلم ونعتقدُ أنّنا في الحقيقة ولكنَّا نستيقظ ونجدُه حلمًا، فما أدرانا أننا لسْنا نحلم الآن؟

ثالثًا: الشكُّ في العقل: شكَّ ديكارت في العقل على لسان الشيطان الماكر فيقول: إنَّ هناك شيطانًا ماكرًا يضلِّله ويجعل عقلَه يوقعه في الظنون؛ فشكَّ في المعرفة العقلية»[2].

وبعدَ هذه الخطوات في الشكِّ توصَّل ديكارت إلى ثلاثةِ أنواع من اليقين:

١) **اليقينُ الأوَّل**: وجودُ النفس «الكوجيتو»: تحليلُ عملية الشكِّ في كلِّ الحقائق يؤدِّي بنا إلى ضرورةِ وجود فاعلٍ يشكُّ، أو ذات مفكِّرة تقوم بعملية الشكِّ؛

---

(١) رينيه ديكارت (Rene Descartes): فيلسوفٌ ورياضي وفيزيائي فرنسي، وملقَّب بأبي الفلسفة الحديثة. ألَّف عددًا من المؤلفات المشهورة مثل: تأمُّلات في الفلسفة الأولى، وتوفي عام ١٦٥٠ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (536)

(٢) ديكارت (٥١)، لمجدي كامل، (دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٣).

لأنه لا يمكن أن يحدثَ الشكُّ أو يظهرَ بدون تلك الذات المفكِّرة الشاكة، وإلّا فمَن يقوم بهذا الشك؟!

٢) **اليقينُ الثّاني: وجودُ الله:** استخدم ديكارت الحقيقةَ اليقينية السابقة «وجود النفس» ليجعلها ركيزةً ينطلق منها لإثباتِ حقيقة يقينية ثابتة مُرتبطة بها، هي وجود الله.

٣) **اليقينُ الثّالث: وجودُ العالم:** انتقلَ ديكارت من الحقيقةِ الثانية (وجود الله وكماله) إلى إثباتِ الحقيقة اليقينية الثالثة وهي (وجود العالم)... وهكذا استطاع ديكارت أن ينتقلَ من الشكِّ المؤقت إلى اليقين الدائم...»[١].

قد لُقِّب ديكارت بأبي الفلسفةِ الحديثة، وأكثرُ فلاسفة أوروبا في عصر التنوير عالةٌ عليه. كان ديكارت مؤمنًا بوجودِ الله، وانتسبَ إلى الكاثوليكية، ولكنَّ ميراثه الفلسفي كان كارثيًّا على الإيمان بالله في أوروبا. وذلك أنَّه كان يبني إيمانه على الشكّ. ثمَّ درج مِن هذا الشكِّ إلى اليقين المزعوم على وجودِ الله. وقد اعتمدَ في إيمانه على وجود الله على الدَّليل الأنطولوجي. وقد نقدَ فلاسفةُ عصر التنوير – مثل: إيمانويل كانت[٢] – هذا الدليلَ الضعيف؛ فديكارت وإنْ كان يريد أن يصلَ إلى اليقين بوجود الله بهذا الدليل، فإنَّه في الحقيقة قد أصَّل للشك في وجود الله[٣].

الملاحدةُ في عصر النهضة:

رغمَ هذه المعارضات للكنيسة التي بدأتْ في عصر النهضة، يبقى سؤال مهمٌّ: هل كانَ في هذا العصر مَلاحدة؟ لا شكَّ أنَّ أتباع المذهب البروتستانتي لم يكونوا

---

(١) المصدر السابق (٦٣ – ٦٥).

(٢) إيمانويل كانت (Imannuel Kant): فيلسوفٌ ألماني، ومهتمٌّ بالكتابة عن نظرية المعرفة. وفلسفته مؤثِّرة إلى حدٍّ كبير في الفكر الغربي المعاصر. وقد ألَّف عددًا من المؤلفات المشهورة مثل: نقد العقل المجرَّد، ونقد العقل العملي. توفي عام ١٨٠٤ م. انظر: Britanni-ca Concise Encyclopedia (1015)

(٣) انظر: 25 filosofer (٣٨), Gunnar Fredriksson, (Nordstedts, 2009)

ملاحدة، بل كان الغرضُ الأساس لمؤسِّسي البروتستانتية مثل مارتن لوثر إصلاح الكنيسة وإرجاعها إلى أصل رسالة المسيح.

وأتباعُ المذهب الإنساني تبنَّوا رؤية مادية للعالم، ولكن لا يعني ذلك بطبيعة الحال أنَّهم نسبوا أنفسَهم إلى الإلحاد؛ بل كان بعضُهم من رجال الدين في الكنيسة. وكان غيرُهم من الدعاة إلى القولِ بوحدة الوجود، مثل: لوسيولو فانيني كما سبق؛ فلا يقال إنَّ الإنسانيين في ذلك الوقت كانوا ملاحدةً بالمفهوم المعاصر.

قدِ انتشرت الزندقةُ في هذا العصر، والآراءُ غير المتوافقة مع تعليمات الكنيسة الكاثوليكية، وكانوا يسمّون ذلك بالإلحاد؛ فعلى سبيل المثال ذكرَ الفيلسوف مرين ميرسين[١] عام ١٦٢٣م أنَّه يمكن أن يجدَ خمسين ألفَ ملحدٍ في باريس فقط[٢]. ولكن، هل كان هؤلاء ملاحدةً بالمفهوم المعاصر؟ الظاهر أنَّ الأمر لم يكن كذلك؛ فقد ذكر الفيلسوفُ الفرنسي المشهور فولتير[٣] أنَّ هؤلاء تبنّوا فلسفاتٍ مخالفةً لتعاليم الكنيسة ولم يكونوا ينكرون الخالق[٤].

---

(١) مرين ميرسين (Marin Mersenne): فيلسوفٌ ورياضي ولاهوتي فرنسي. اشتهر بنظرياته في الرياضيات. توفي عام ١٦٤٨ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Marin-Mersenne

(٢) انظر:

Questions celebrrimae in genesim cols: 235-462, Marian Mersenne (Paris: S. Cramoisy)

(٣) فولتير (Voltaire): اسمه: فرانسو ماري آروويه. كاتبٌ وفيلسوف فرنسي، وتبنَّى المذهب الربوبي. وعُرِف بنقده الساخر، ولا سيَّما للأديان والمتديّنين. ألَّف عددًا من المؤلفات، منها: الرسائل الفلسفية. توفي عام ١٧٧٨ م. انظر:

Britannica Concise Encyclopedia (2015-2016)

(٤) انظر:

Renaissance and Reformation, The Oxford Handbook (179-180)

وقد كتبَ دينيس روبيشود[1] بحثًا متعمِّقًا عنِ الإلحاد في عصري النهضة والإصلاح، وتوصَّل إلى أنَّه لم يكنْ في ذلك العصر مَن تبنَّى الفكر الإلحادي بوضوح، وأنه لا بدَّ أن نفرِّق بين مَن اتُّهم بالإلحاد، ومَن تبنّى الفكرَ الإلحادي لنفسه. ويمكن أن يقال إنَّه كان هناك عددٌ من الأشخاص أخفوا إلحادَهم، ولا ندري عنهم بالتفصيل[2].

---

(١) دينيس روبيشود (Denis Robichaud): أستاذٌ مساعد في جامعة نوتردام بالولايات المتّحدة، وهو متخصِّص في تاريخ الفلسفة. انظر:
https://pls.nd.edu/faculty-and-staff/denis-robichaud/

(٢) انظر: المصدر السابق (١٨٠).

المطلبُ الخامس

عصرُ التَّنوير

كما هو الحال معَ أكثر عصورِ التاريخ الأوروبي، فقد وقعَ الاختلافُ في تحديد عصرِ التنوير، وإنْ كان الاختلاف يسيرًا. ولكنْ مما ذكره كثيرٌ من المؤرِّخين أنَّ هذا العصر استمرَّ خلال القرنين السابع والثامن عشر[1]. وهذه الفترةُ كانت مليئةً بالأحداث المهمَّة في تاريخ أوروبا على الصَّعيد العلمي والسياسي والاقتصادي والفكري. وبيانُ ذلك كما يلي:

أهميةُ عصر التَّنوير في الفكر الإلحادي:

عصرُ التَّنوير من أهمِّ العصور في بروز الفكر الإلحادي، وقد وقعَ في هذا العصر عددٌ من الأمور ساهمتْ في بروز الإلحاد بين بعض المثقَّفين. ومن أهمِّ هذه الأمور:

الثورةُ الفرنسية:

كانت فرنسا من أهمِّ دول أوروبا في عصر التنوير، فكان لهذه الدولة تأثيرٌ كبير من ناحيةِ العلم والفلسفة والسياسة. وبين عام ١٧٨٩ إلى ١٧٩٩ وقعتِ الثورة الفرنسية وتبعاتها، وكان من أهمِّ الأحداث المساهمة في نشر الفكر العلماني ثمَّ الإلحادي في أوروبا. وقد وقعتْ هذه الثورة لأسبابٍ كثيرة، أهمها سببان:

الأوَّل: السببُ الاقتصادي: كانت فرنسا تمرُّ بأزماتٍ اقتصادية في القرن الثامن عشر؛ فبيْن ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ خاضتْ فرنسا في «حرب السنوات السبع» التي شاركتْ فيها أغلبُ دول أوروبا، وذهبت أموالٌ طائلة في هذه الحرب. كما أنَّ فرنسا تدخَّلت في

---

(١) انظر بحث: What was the Enlightenment?
http://www.livescience.com/55327-the-enlightenment.html

حربِ الاستقلال الأمريكية بين ١٧٧٥ - ١٧٨٣، وكانت حربًا مكلفة أيضًا[1]. ولم يجدِ الملك لويس السادس عشر طريقًا لجمْع الأموال سوى فرض ضرائب عالية على الطبقة الوسطى[2]. كان عددُ سكان فرنسا عام ١٧٨٠م ٢٦ مليون نسمة، منهم ٢١ مليون يعيشونَ على الزراعة. وكانوا يدفعون ضرائبَ عالية لطبقة النبلاء المالكة للأراضي المتحالفة معَ الملك. كما أنَّ هؤلاء كلهم اضطرّوا إلى دفع ضرائب زائدة على ذلك للكنيسة ورجالِ الدين. فهذا ما جعل الطبقاتِ الوسطى والفقيرة يحقدون على الملك والطبقاتِ العليا والكنيسة[3]. فكان الوضعُ متهيئًا لثورةِ هذه الطبقات الدنيا على الطبقات العليا.

الثّاني: السببُ الفكري: قد عدَّ بعضُ الباحثين أنَّ من أسباب الثورة أنه قد انتشرتْ فلسفاتٌ سياسية وعقلانية في فرنسا قبلَ الثورة[4]. كانتْ أهمُّ الفلسفات الفكرية المهدِّدة للنظام في ذلك الوقت فلسفتيْن:

الفلسفةُ الأولى: نظريةُ العقد الاجتماعي: كان الفيلسوف جان جاك روسو[5] مِن أكبر الدُّعاة إلى هذه النظرية التي تقلِّل من صلاحيات الحاكم. وكان روسو يجادل أنَّ حقَّ التشريع والتقنين يجب أن يكون بيدِ الشعب. وهذا مما يعارض النظامَ الحاكم في ذلك الوقت، إذْ كان ملكُ فرنسا ملكًا مستبدًّا بالحكم[6].

---

(1) French Revolution 34, Peter McPhee, Melbourne U 2015

(2) Europe Since Napoleon (24-25),

(3) The French Revolution 29-30

(٤) انظر: The age of the Democratic Revolution: a political history of Europe and America, 1760 - 1800 (2nd ed. 2014) pp 177 - 213, by, R.R. Palmer

(٥) جان جاك روسو (Jean – Jacques Rousseau): فيلسوفٌ وأديبٌ وعالم نباتٍ سويسري وفرنسي. وكان مِن أشهر فلاسفة عصر التنوير. من مؤلفاته: العقد الاجتماعي. توفي عام: ١٧٧٨ م. انظر: (Britannica Concise Encyclopedia (1647)

(٦) انظر المقال: The French Revolution: Ideas and Ideologies
http://www.historytoday.com/maurice-cranston/french-revolution-ideas-and-ideologies

الفلسفةُ الثّانية: المذهبُ الربوبي[1]: كان هذا المذهبُ يظهر كبديل للكنيسة المتحالفة معَ العائلة الملكية في فرنسا. والكلامُ على هذا المذهب بحاجةٍ إلى نوع ما من البسْط، وسيأتي الكلام عنه لاحقًا في هذا المطلب.

بدأتِ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وفي عام ١٧٩٢م أعلن الثوّارُ أن فرنسا جمهورية، ونزعوا آخرَ تاجٍ عن ملك في تاريخ فرنسا. وفي عام ١٧٩٣م أعدم الثوّار الملك، وتلَا هذا الإعدامَ ما يسمَّى بعهد الإرهاب الذي أعدم فيه عددٌ هائل من مُعارضي الثورة خلال سنةٍ واحدة. وقدَّر المؤرّخون هؤلاء القتلى في هذا العهد بتقديرات مُتفاوتة تصلُ إلى ٥٠٠ ألف قتيل[2]. وقد قُتل كثيرٌ من الرهبان والقساوسة في هذا العهد، مما يعبِّر بشدَّة عن حقد الثوّار على الكنيسة ورجال الدين؛ فقُمعت الكنيسة الكاثوليكية بحدِّ السيف الذي طالما استعملوه ضدَّ معارضيها في العصور الوسطى وعصرِ النهضة. وبعدَ الثورة الفرنسية - وإلى يومنا هذا - أصبحت فرنسا من أكثر الدول الدَّاعية إلى العلمانية.

وينبغي أن يُشار إلى أمرٍ ذي أهمية في هذا الباب، ألَا وهو دور الماسونية[3] في هذه الثورة ثمَّ في نشر العلمانية؛ حيث كان «غراند أورينت دي فرانس»

---

(١) المذهب الربوبي: الإيمانُ بالإله مبنيٌّ على العقل المجرَّد وليس بناءً على الوحي أو اعتناق دين معيَّن. ويعبّر عنه بالدين الطبيعي. قد ظهر المذهب الربوبي في بريطانيا في القرن السابع عشر لمعارضة المعتقدات النصرانية التقليدية. وكان هذا المذهب منتشرًا إلى حدٍّ كبير بين المفكّرين في القرن الثامن عشر، وقد تبنّاه عددٌ من رؤساء الولايات المتحدة. انظر:

Britannica Concise Encyclopedia (527)

(٢) انظر البحث عن الإرهاب في الثورة الفرنسية:

The Terror in the French Revolution, by Dr Marisa Linton

وهو موجود في:

http://www.port.ac.uk/special/france1815to2003/chapter1/interviews/file-todownload,20545،en.pdf

(٣) الماسونية: أكبرُ منظَّمة سريَّة في العالم. تأسَّس أوَّلُ محفلٍ ماسوني عام ١٧١٧م في لندن، ولكن جذور الماسونية أقدمُ من ذلك. وقد انتشرتِ الماسونية في في أنحاء العالم وفتحت محافل ماسونية كثيرة في أوروبا والولايات المتّحدة. وتعاليمهم وطقوسهم محاطةٌ بكثير من السرية والغموض. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (710)

(Grand Orient de France) أهمَّ محفلٍ ماسوني شاركَ في الثورة الفرنسية. وكان هذا المحفلُ يدير اليعاقبة(١)، وهُم المسئولون عن عهدِ الإرهاب بما فيه من القتل والترويع(٢). وهذا المحفلُ لا يزال نشيطًا للغاية في فرنسا بالدَّعوة إلى العلمانية، وكان المسئولَ الأوَّل عن فصل الدين عن الدولة هناك(٣).

انتشارُ المذهب الربوبي:

سبقَ في هذا المطلب أنَّ الربوبيين من أهمِّ المعارضين للكنيسة الكاثوليكية في عصر التنوير؛ فيحسُن الوقوف عند هذا المذهب قليلًا.

وقد ذكر الباحثون عددًا من التعريفات للمذهب الربوبي، ولكن من أدقِّها - والله أعلم - أنَّه: «نظام معتقدٍ يفترض أنَّ وجود الإله هو سببُ كلِّ شيء، ويقرُّ بكمال الإله، ولكنْ يجحد الوحي الإلهي وسلطته [في الكون]، مع الزعم أنَّ القوانين الطبيعية كافية»(٤).

وقد ظهرَ هذا المذهب - بهذا المفهوم - في نهايةِ عصر النهضة، ولكن هذا المذهب لم ينتشرْ إلّا في عصر التنوير؛ فقدِ انتشرَ في هذا العصر انتشارًا كبيرًا بين الفلاسفة والمفكِّرين والساسة. ومِن فلاسفة المذهب الربوبي كبارُ مفكِّري فرنسا في عصر التنوير مثل: فولتير، وجان جاك روسو. كما أنه أثَّر في الطبقة السياسية في الولايات المتحدة(٥).

---

(١) انظر: Paris, the Provinces and the French Revolution, By Alan Forrest, 2004, Oxford University Press, page 108

(٢) انظر:
Stephen J. Lee (2008). Aspects of European History 1789-1980. Routledge. pp. 22-23.

اليعاقبة: هُم أعضاء النادي اليعقوبي، وهو أشهرُ حركةٍ سياسية في الثورة الفرنسية، وقادوا الحكومة الثورية بينَ عامي ١٧٩٣ - ١٧٩٤م. ويقدّر عددُ أعضائه بحوالي ٥٠٠ ألف. وكانوا مسئولين على المجازر بعدَ الثورة. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /Jacobin – Club

(٣) انظر: Page 162, Religion, Politics and Preferment in France Since 1890, Maurice Larkin, 1995, Cambridge University Press

(4) http://jewishencyclopedia.com/articles/5049-deism

(٥) انظر: http://www.adherents.com/largecom/fam_deist.html

فهذا المذهبُ كان له تأثيرٌ كبير على النُّخبة المثقَّفة في هذه الحقبة الزمنية. وكان لانتشار هذا المذهب أسبابٌ كثيرة، منها:

السببُ الأوَّل: أنه وقعت حروبٌ دينية طاحنة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستانتية ممّا جعل بعضَ المفكِّرين يبتعدون عن الديانة النصرانية. وقد اشمئزَّ كثيرٌ من المفكِّرين من الجرائم الحربية التي وقعتْ باسْم الدين في تلك الحروب[١].

السببُ الثّاني: نشأ في عصر التنوير علمٌ يسمَّى بالنقد الكتابي[٢] «Biblical Criticism». وكان الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا[٣] «Baruch Spinoza» من أشهر نقّاد الكتاب المقدَّس في عصر التنوير؛ فألَّف: «رسالة في اللاهوت والسياسة» (Theological Political Essay)، وتوصّل فيها أنَّ للعهد القديم عددًا من المؤلِّفين بخلفيات مختلفة، وليس نبي الله موسى ﷺ هو المؤلِّف الحقيقي لهذا الكتاب[٤]. وكان هذا العلمُ له تأثير في تنكُّر الربوبيين للوحي الإلهي.

السببُ الثّالث: ظهرتْ نظرياتٌ جديدة مصْحوبة باكتشافات علمية حديثة في هذا العصر. وكان إسحاق نيوتن[٥] أهمَّ عالمٍ في هذا العصر. وقد اكتشف نيوتن أنَّ

---

(١) انظر: http://nationalhumanitiescenter.org/tserve/eighteen/ekeyinfo/deism.htm

(٢) النقد الكتابي: فرعٌ من المعرفة الذي يدرس الأسئلة النَّصية والتركيبية والتاريخية المحيطة بالعهدين القديم والجديد للكتاب المقدَّس. انظر:
https://www.britannica.com/topic/biblical-criticism

(٣) باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza): فيلسوفٌ هولندي من أصولٍ يهودية. وكان من أشهرِ فلاسفة المذهبِ العقلاني في القرن السابع عشر، ولكنه خالفَ الفيلسوف العقلاني ديكارت في جُملة من المسائل الفلسفية. وتوفي في عام ١٦٧٧ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1802)

(٤) انظر المقال: Biblical Criticism by Bernard Spinoza في:
http://www.fsmitha.com/h3/spinoza-bible.htm

(٥) إسحاق نيوتن (Isaaq Newton): عالمُ الفيزياء والرياضيات من بريطانيا. وكان بروفسورًا في جامعة كامبردج، وكان رئيسَ الجمعية الملكية في لندن. ومِن أشهر مؤلفاته: الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية، وكتب فيه عنْ قوانين الحركة، ومن ذلك: قانون الجاذبية. توفي عام: ١٧٢٧م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1357)

الكون يسيرُ بنظام مُتقن يمكن تفسيرُه وفقَ الرياضيات. ومِن أبرز هذه الاكتشافات: اكتشافُ قانون الجاذبية. وظلَّ نيوتن مؤمنًا بالله، ومتديّنًا بالديانة النصرانية طوالَ حياته، وألَّف ٤٠٠ رسالة في علم اللاهوت(١). ولكنْ وجد الربوبيون بغيتَهم في اكتشافات نيوتن، فاعتقدوا أنَّ الخالق خلقَ الكون وفقَ القوانين الطبيعية، ثمَّ أهمله بعد ذلك، ولا يتدخَّل في شئون خلقه(٢).

ومما يجدرُ ذكرُه أنَّ المذهب الربوبي ليس مذهبًا إلحاديًّا - بمفهوم الإلحاد المعاصر - ؛ فالربوبي يؤمن بوجودِ إله، وأنه خالقُ كلِّ شيء. ومعَ ذلك فقد اقترب الفكر الأوروبي خطوةً نحو الإلحاد بهذا المذهب. فكأنما المذهبُ الربوبي هو في منزلةٍ بين منزلتين؛ بين الإلحاد والإيمان بالله الخالق المدبِّر لهذا الكون، وإنْ اجتمعَا في الكفر بالرسالات والأديان والقدر.

ولكنْ أخذَ هذا المذهب يندثرُ في أواخر القرن الثامن عشر لعدَّة أسباب، ومن أهمّها سببان:

١) نقدُ أدلة وجود الله على يدِ ديفيد هيوم وإيمانويل كانت.

٢) انتشارُ المذهب الطبيعي والمادي، ومن ثمَّ الإلحاد.

وتفصيلُ الكلام عن هذيْن السببين كما يلي:

السببُ الأوَّل: نقدُ أدلة وجود الله:

اشتهرَ بعضُ الفلاسفة في عصر التنوير بنقدِ أدلة وجود الله، وأشهرهم:

الفيلسوفُ الأوَّل: ديفيد هيوم. وهو فيلسوفٌ إسكتلندي تبنَّى مذهب الشكّ. ولعلَّ هيوم من أهمِّ الفلاسفة المؤلِّفين في نقدِ أدلة الإيمان بوجود الله. وقد نقد هيوم

---

(١) انظر: Vetenskap och Tro (٦٠)

(٢) انظر:
http://www.encyclopedia.com/philosophy-and-religion/philosophy/philosophy-terms-and-concepts/deists

الدليلَ الكسمولوجي ودليلَ التصميم[١] في: «رسالة عن الطبيعة» (Treatise on Nature). كما أنه كتبَ في استحالة وقوع المعجزات في: «رسالة في الفهم البشري» (An Enquiry Concerning Human Understanding). ونظّر لمعضلة الشَّر في كتابه: «محاورات في الدين الطبيعي» (Dialogues Concerning Natural Religion). وقد زعزع هيوم المفاهيم الدينية في وقتِه، ويعتبرُ إلى يومنا هذا من أهمِّ المنتقدين لأدلةِ وجود الله؛ فقد استشهدَ ريتشارد دوكينز بكلامٍ وتنظيرات هيوم في خمسةِ مواضع من كتابه: وهمُ الإله[٢]. اتُّهم هيوم بالإلحاد في زمانه، ولكنِ اختلفَ الباحثون المعاصرون في معتقده كثيرًا، وذلك لوجود أقوالٍ مُتضاربة من هيوم نفسِه في كتبه. ولكن توصَّل الباحثون في فلسفة هيوم الدينية أنَّه كان ربوبيًّا، ولم يكن ملحدًا[٣].

الفيلسوفُ الثاني: إيمانويل كانت: وهو فيلسوفٌ ألماني مشهور. وقد نظَّر «كانت» لفلسفاتٍ عديدة، وقد اهتمَّ بنقد أدلةِ وجود الله على وجه الخصوص. فقد وجَّه نقدًا حادًّا للدليل الأنطولوجي[٤] - الذي اعتمد عليه ديكارت - في رسالته: «نقد العقل المجرَّد» (Critique of Pure Reason)[٥]. وقد استند الملاحدة المعاصرون على هذا النَّقد كما فعل ريتشارد دوكينز في كتابه «وهم الإله»[٦]. ومعَ هذا الردِّ على دليل وجود الله فقد ترجَّح لدى الباحثين أنَّ «كانت» لم يكنْ ملحدًا

---

(١) سيأتي الحديثُ عن هذين الدليلين في الباب الثاني إن شاء الله.

(٢) انظر: The God Delusion (107, 110, 116, 139, 187)

(3) Routledge Philosophy Guide Book to Hume on Religion (11, 19), by David O'Connor, 2013

(٤) سيأتي الحديثُ عن هذا الدليل في الباب الثاني إن شاء الله.

(٥) انظر المقال: Kant's Philosophy of Religion في موسوعة ستانفورد الفلسفية: https://plato.stanford.edu/entries/kant-religion/#KanPreCriDisGod

(٦) انظر: The God Delusion (107)

بالمفهوم المعاصر، بل إنَّه كان مؤمنًا بالله - ولكنّ إيمانَه ضعيف - أو أنه كان لاأدريًّا[1][2].

السببُ الثّاني: انتشارُ المذهب المادي والطبيعي:

المذهبُ المادي والمذهبُ الطبيعي من المذاهب الفكرية التي انتشرت في عصرِ التنوير، وتعريفُهما فيما يأتي:

المذهبُ الطبيعي (Naturalism): وهو نظرية تقول «إنَّ كلَّ شيء في العالم والحياة مبنيٌّ على أسباب وقوانين طبيعية، لا روحية أو ما وراء الطبيعة»[3].

المذهبُ المادي (Materialism): «الاعتقادُ أنه لا يوجد سوى الأشياء المادية»[4]. ومؤدَّى هذين التعريفين في الحقيقة واحد، وهو الإقرارُ بأنَّه لا يوجد سوى هذه الطبيعة أو المادة، ولا يوجد شيءٌ وراء ذلك، مثل: الخالق، أو الروح أو غير ذلك.

وقد قسَّم بعضُ الباحثين المذهبَ المادي والطبيعي إلى قسمين: الجانب الأنطولوجي والجانب المنهجي. والجانب الأنطولوجي يبحث في عالم الوجود، أي: هل يوجد شيء سوى هذه المادة أو الطبيعة؟ الجواب عندَ أتباع هذين المذهبين: لا.

أمّا الجانبُ المنهجي فمحلُّه في البحث العلمي ومنهجيته، ولا يتعلَّق بعالم الوجود؛ فلا يجوز تفسيرُ الظواهر المادية أو الطبيعية إلّا بالمادة أو الطبيعة وفقَ هذا المنهج. ولكن لا يعني ذلك أنَّه لا يوجد شيء وراء المادة أو الطبيعة؛ فالذي يتبنَّى المذهبَ المادي أو الطبيعي المنهجي قد يؤمنُ بالله والروح، ولكنَّه في مجال البحث العلمي لا يفسِّر

---

(١) انظر:
Atheism in Modern History, in The Cambridge Companion to Atheism (35-36)

(٢) سيأتي الكلامُ المفصَّل عن شبهات هيوم، وكانت لهذه الأدلةِ في الباب الثاني في الكلام عن أدلة وجود الله.

(3) Oxford English Dictionary (848)

(٤) المصدر السابق (٧٨٩)

الظواهر الطبيعية بذلك. وهذا الجانبُ المنهجي هو المتَّبع في جميع الدراسات العلمية في الأوساط الأكاديمية الغربيَّة اليوم تقريبًا. وذلك لا ينفي أنَّ كثيرًا من هؤلاء العلماء يؤمنون بالله والغيبيّات كما سيأتي الكلام عنه مفصَّلًا في الباب الثاني من هذه الرسالة.

وكان توماس هوبز[1] مِن أوائل مَن دعا إلى المذهب المادي في القرن السابع عشر، ووضعَ له الأسسَ والقواعد. لكن كان أهمُّ مَن نظَّر ودعا إلى المذهب المادي في عصر التَّنوير فلاسفة فرنسا[2] أمثال: دنيس ديدرو[3]، وجوليان أوفراي[4]، وبارون دي هولباخ[5]. وكان هؤلاء الثلاثة هُم روّادَ الإلحاد في عصر التنوير - كما سيأتي ذكره -. بذلك تتبيَّن الصلة الوثيقة بينَ المذهب المادي الطبيعي والفكر الإلحادي. والمذهب المادي أثَّر كثيرًا في تكوين الفكر الشيوعي في القرن التاسع عشر كذلك. وحسب التتبُّع والاستقراء ظهرَ أنَّ جلَّ الملاحدة المعاصرين يتبنّون المذهبَ الطبيعي المادي بلا استثناء.

---

(١) توماس هوبر (Thomas Hobbes): فيلسوفٌ ومنظِّر سياسي بريطاني. تخرَّج من جامعة أكسفورد المشهورة، وألَّف كتبًا في السياسة، ممّا جعلَ ملك بريطانيا يطلبه، فهربَ إلى فرنسا ولم يعدْ إلّا بعدَ وفاة الملك. توفي عام: ١٦٧٩. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (881)

(٢) انظر المقال: Materialism في موسوعة بريتانيكا على الرابط:
https: / /www.britannica.com /topic /materialism – philosophy

(٣) دنيس ديدرو (Denis Diderot): فيلسوفٌ فرنسي تعلَّم على يد اليسوعيين الكاثوليك، ثمّ واصلَ دراسته في جامعة باريس. كان المحرِّر الأوَّل للموسوعة الفرنسية في ٣٥ مجلّدًا التي كان من أهمِّ الكتب في عصر التنوير في فرنسا. توفي عام: ١٧٨٤ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (543)

(٤) جوليان أوفراي (Julien Offray): طبيبٌ وفيلسوف فرنسي، وكان من أوائل الماديين، وينكر وجودَ الروح. توفي عام ١٧٥١ م. انظر:
https://www.newworldencyclopedia.org/entry/Julien_La_Mettrie

(٥) بارون دي هولباخ (Baron d'Holbach): واسمه الحقيقي: بول هنري ثيري. وكان فيلسوفًا ومترجمًا وناشطًا اجتماعيًّا مشهورًا في عصر التنوير في فرنسا. توفي عام ١٧٨٩ م. انظر:
https://plato.stanford.edu/entries/holbach/

الملاحدةُ في عصر التنوير:

وقد تبنَّى كثيرٌ من فلاسفة عصرِ التنوير المذهب الربوبي، وأعرضوا عن الديانة النَّصرانية، ثمَّ لمّا انتشرتْ فلسفات هيوم و«كانت» النقديةُ لأدلة وجود الله، والمذهب الطبيعي المادي فتح باب الإلحاد على مصراعيه. ومع ذلك بقيت ظاهرةُ الإلحاد قليلة ونادرة في عصرِ التنوير. وأشهر مَن عُرف بالإلحاد في هذا العصر أربعةُ مفكِّرين، كلهم من فرنسا:

الملحدُ الأوَّل: جان ميسلر[١]: كان ميسلر أوَّلَ ملحدٍ بالمفهوم المعاصر في تاريخ أوروبا. ومِن الغريب في الأمر أنَّه كان قسيسًا، وظلَّ كذلك إلى أن مات عام ١٧٢٩م. ولكن بعدَ وفاته اكتشفتْ في بيته مخطوطةٌ في ٦٣٣ صفحة. وهذه المخطوطة بمثابة وصيتِه، وأنكرَ فيها وجودَ الله كما يؤمن به النصارى والربوبيون معًا[٢]. وكانت معضلة الشَّر هي عمدةَ الشبهة لديه التي أوقعته في مستنقع الإلحاد[٣]. فميسلر لم يدعُ إلى الإلحاد في حياته، ووصيتُه لم تشتهر كما اشتهرتْ كتبُ الملاحدة الآخرين في عصر التنوير.

الملحدُ الثّاني: جوليان أوفراي: بدأ أوفراي حياتَه العلمية بدراسة علم اللاهوت، ثمَّ ملَّ منه، فاتَّجه نحو دراسة الطبّ، وبرزَ فيه حتى ألَّف عددًا من المؤلفات الطبّية. وصدرَ أشهر مؤلَّفاته: «الإنسان آلة» (L'homme Machine) عام ١٧٤٧م. وأنكر فيه أن الروحَ له طبيعة غيرُ مادية. كانت كتاباتُ أوفراي علمية ومبنيَّة على الفلسفة

---

(١) جان ميسلر (Jean Meslier): قسيسٌ كاثوليكي فرنسي، ألَّف وصية ظهرتْ بعد وفاته، وفيها أفكارٌ إلحادية وثورية، ومُعادية للديانة النصرانية. توفي عام: ١٧٢٩ م. انظر:
https://www.encyclopedia.com/humanities/encyclopedias-almanacs-transcripts-and-maps/meslier-jean-1664-1729

(2) انظر: "Arguments for the existence of God: the continental European debate", pp. 734-735, in Haakonssen, Knud. The Cambridge History of Eighteenth-Century Philosophy, vol. 2. Cambridge University Press

(3) "The problem of theodicy", pp. 766, in Haakonssen, Knud. The Cambridge History of Eighteenth-century Philosophy, vol. 2. Cambridge University Press.

المادية. وهذه الفلسفة هي أساسٌ مِن أسس الإلحاد، ويفهم مِن كلامه أنَّه يُنكر الخالقَ وإن لم يصرِّح به بوضوح[١].

الملحدُ الثّالث: دنيس ديدرو: تأثَّر ديدرو في أوَّل حياته بفلسفة فولتير الربوبية، ثمَّ اتَّجه نحوَ الإلحاد وألَّف كتابه: «مشي الشكّاك» (La Promenade du sceptique) على طريقةِ مناظرة بين ربوبي ومُلحد وقائل بوحدةِ الوجود. ويظهر من كتابه أنه انتصرَ للإلحاد في نقدِ السّاخر من الإيمانِ بالله. ولهذا عدَّه بعضُ المؤرخين لظاهرة الإلحاد أوّلَ ملحدٍ صريح في إلحاده[٢]. وذكرَ ديديرو أنَّه بنى إلحادَه على توصيل الفيزياء الرياضية لديكارت، والميكانيكية الكونية لنيوتن، إلى نهايته العقلانية بتجريدهما من الميتافيزيقية. وتوصَّل في الأخير إلى مبدأ أنَّ كلَّ شيء طبيعة خلَّاقة، وأنَّ المادة نفسها مبدعة لجميع التغيُّرات والتصميمات[٣].

الملحدُ الرّابع: بارون دي هولباخ: كان الفيلسوف دي هولباخ من الطبقة الأرستقراطية، ولديْه صالون أدبي مفتوحٌ للمثقَّفين والفلاسفة في أوروبا لمناقشة القضايا الفلسفية[٤]. ألَّف دي هولباخ كتابه: «نظام الطبيعة» (Systeme de la nature) عام ١٧٧٠م. وقرَّر فيه أنَّ الحياة نتيجة للطبيعة وخاضعة تمامًا لقوانينها، كما أنه أنكر وجودَ الله بوضوحٍ في

---

(١) انظر:

Atheism for Beginners: A Coursebook for Schools and Colleges (22), by Michael Palmer

(٢) انظر:

At the Origins of Modern Atheism (249), by: Michael J. Buckley, (Yale University Press, 2009)

(٣) انظر:

Atheism in Modern history, in The Cambridge Companion to Atheism (30)

(٤) انظر:

The Forgotten Radicalism of the European Enlightenment. Basic Books, New York, (2010), pp. xi, xii,

هذا الكتاب[1]. وكان لهذا الكتاب بالغُ التأثير فيمَن بعده حتى يسمَّى بـ«الكتاب المقدَّس للملاحدة»[2].

ومع ظهورِ الإلحاد بالمفهوم المعاصر في عصر التنوير فإنه لم يزلْ منحصرًا في أوساط بعضِ المثقَّفين والفلاسفة في فرنسا. ولم ينتشرِ الإلحادُ إلى طبقات متفاوتة من المجتمع، وفي بلدان أخرى، إلّا في القرن التاسع عشر.

---

(١) انظر:
The Age of Enlightenment, in The Oxford Handbook of Atheism (208)

(٢) انظر:
Atheism for Beginners (23)

المطلبُ السّادس
القرنُ التاسع عشر

أهميةُ القرن التاسع عشر في الفكر الإلحادي:

انتهى عصرُ التنوير في أوروبا معَ دخول القرن التاسع عشر. وهذا القرن من أهمِّ العصور في تنظير الفكر الإلحادي فلسفيًّا وعلميًّا. كما أنَّ أوروبا شهدت تغيّرًا جوهريًّا على الصَّعيد السياسي بظهور الديمقراطية[1] وحرية الرأي. كتب البروفسور ديفيد ناش[2] بحثًا عنِ الإلحاد في هذا القرن وسمَّاه: «القرن التاسع عشر (الطويل)» (The (Long) Nineteenth Century)[3] إشارة إلى وقوعِ أحداثٍ كثيرة ومهمَّة في الفكر الإلحادي في هذا القرن. وكانت فرنسا وبريطانيا، وألمانيا، أقوى الدول الأوروبية في هذا القرن من الناحية الفكرية، والعلمية والسياسية؛ بل بسطتْ هذه الدول الثلاث سيطرتها على معظمِ الدول الأوروبية، كما أنها استعمرتْ كثيرًا من الدول خارج أوروبا. وكبار فلاسفة الإلحاد ودعاته كانوا مِن هذه الدول الثلاث؛ ولذا سوف يتمُّ استعراضُ الإلحاد في هذه الدّول الثلاث في هذا القرن، معَ بيان أهمِّ دعاة الإلحاد والأحداث المساهمة في نشر الإلحاد وأخيه العلمانية:

---

(١) الديمقراطية: إحدى صورِ الحكم، تكون السِّيادةُ فيها للشعب، وتمارَس إمَّا مباشرة أو عن طريق نوَّاب عن الشعب. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٧٩٥).

(٢) ديفيد ناش (David Nash): بروفسور التاريخ في جامعة أكسفورد المشهورة ببريطانيا، وألّف كتبًا عنِ العلمانية منذ أكثر من ٢٥ سنة. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xic)

(٣) انظر: The Oxford Handbook of Atheism (212)

الإلحادُ في فرنسا:

سبقَ الحديث عن أثرِ فرنسا في نشْر الإلحاد ومحاربة الدين في عصر التنوير. وتبيّن أنَّ هذا الأمر يرجع إلى الفلسفة الفرنسية المعادية للدين، وحصول الثورة الفرنسية وعمل الماسونية الدؤوب في هذا المجال. والقرن التاسع عشر امتدادٌ لهذا العصر، وبيانُ ذلك ما يلي:

الأحداثُ السياسية في فرنسا في هذا القرن:

كان نابليون من أهمِّ رجال السياسة الذين حاربوا الدينَ، ونشروا العلمانية في القرن التاسع عشر. وُلد نابليون عام ١٧٦٩م، وانضمَّ إلى الجيش الفرنسي وأصبح ضابطًا ذا رتبةٍ رفيعة(١). وكان نابليون يتبنَّى المذهب الربوبي، وهذا أدَّاه إلى صراع دائم مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد اختلفَ الباحثون في انتمائه إلى الماسونية، والأظهر أنَّ الأمر كذلك لشدَّة تأييده لهم(٢). علاَ شأنُه في الجيش الفرنسي في السنوات التي تلت الثورة الفرنسية وبدأ يغزو أعداء فرنسا؛ فقرَّر في عام ١٧٩٦م أنْ يغزو الدويلات الإيطالية واستطاع أن يهزمَ الجيش الموالي للبابا في الفاتيكان، وسعى بعدَ ذلك إلى علمنة إيطاليا. ثمَّ واصل غزواتِه إلى مصر فغزاها عام ١٧٩٨م، وسرعانَ ما أسَّس فيها محافلَ ماسونية، وسعى إلى نشْر العلمنة(٣).

استمرَّت غزواته في غرب وجنوب ووسط أوروبا، وسعى تدريجيًّا إلى الحكم في فرنسا حتَّى أصبح أوَّل إمبراطور للإمبراطورية الفرنسية عام ١٨٠٤م. وواصل الغزوات ونشْر العلمنة إلى أنْ أصيب بجنون العظمة، وحاول السيطرةَ على روسيا عام ١٨١٢م، ولكن باءتْ هذه المحاولة بالفشل، فاضطرَّ إلى ترك الحكم عام ١٨١٤م(٤). تقوَّت

---

(١) انظر: http: / /www.history.com /topics /napoleon

(٢) انظر مثلاً: Napoleon & Empire Freemasonary under the French First Empire
http://www.napoleon-empire.com/freemason.php

(٣) انظر المقال السابق.

(4) http://www.history.com/topics/napoleon

الماسونية كثيرًا في عهده، وزادَ عددُ المحافل الماسونية من ٣٠٠ إلى ١٢٠٠ في هذه الفترة القصيرة[١].

هلكَ نابليون عام ١٨٢١م، واضطربتِ الأحداثُ السياسية في فرنسا بعده، ولكنها بقيتْ دولةً ذاتَ نفوذ واسع، كما أنَّ العلمانية بقيت قويةً طيلة هذا القرن. وكان لدى الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية مستعمراتٌ في أنحاء العالم في هذا القرن، واستطاعت أنْ تنشر العلمانية بينَ تلك الدول. ويلاحظ - إلى يومنا هذا - أنَّ الدول التي عاشت تحتَ الاستعمار[٢] الفرنسي أكثرَ ميلاً إلى العلمانية من الدول التي استعمرتها دول أخرى.

الفلسفةُ الفرنسية في هذا القرن:

كان أكبرُ فلاسفة أوروبا في عصر التنوير من فرنسا. وأمّا في القرن التاسع عشر فقدْ قويت الفلسفةُ الألمانية على حساب الفلسفة الفرنسية كما سيأتي بيانه لاحقًا. ومع ذلك وُجد بعضُ الفلاسفة ذوو التأثير في هذا القرن. وأهمُّ فيلسوف فرنسي في هذه الحقبة الزمنية كان أوغست كونت[٣]. قد وُلدَ كونت في أسرةٍ كاثوليكية متديّنة عام ١٧٩٨م، ولكن تغيَّر فكرُه عند دراسته نحوَ الفكر المادي الإلحادي. وقد أسّس

---

(١) انظر المقال: Napoleon & Empire Freemasonary under the French First Empire
http://www.napoleon-empire.com/freemason.php

(٢) الاستعمار: ظاهرةٌ سياسية اقتصادية وعسكرية ظهرتْ بظهور الإمبرطوريات منذ العصر القديم. وظهرتْ في أوروبا في العصر الحديث بظهور القوميات وحركة الكشوف الجغرافية وقيام المذهب التجاري، متأثّرة في أصولها الفكرية برواسبِ الفلسفة الأرسطية في العقلية الأوروبية، حيث نبرةُ استعلاء الجنس الآري، وتميُّزه، ومَن عداه فهو عبدٌ، وله عقلية العبيد. انظر: الموسوعة الميسرة ٢ / ٩٥٣).

(٣) أوغست كونت (Auguste Comte): الفيلسوفُ الفرنسي، ومؤسِّسُ علم الاجتماع بأسس فيلسوفية، كما أنَّه أسَّس المذهبَ الوضعي. وقد أثَّرت فلسفته في عددٍ من الفلاسفة بعده. توفِّي عام ١٨٥٧ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (445)

كونت المذهبَ الوضعي[1] الذي يعتبر أحدَ أهمِّ المذاهب الفكرية في القرن التاسع عشر وأكثرها انتشارًا. خلاصةُ فكْر كونت هي أنَّ البشرية مرَّت بثلاثِ مراحل:

١) **المرحلةُ اللاهوتية:** «يرى «كونت» أنَّ هذه الحالة أو المرحلة كانت البشرية تحاول فيها التعرُّف على ما حولها. وكان العقلُ الإنساني يبحث في هذه المرحلة عن كنْه الأشياء وحقيقةِ الظواهر، وكان يحاول إرجاعَ كلِّ طائفة من الظواهر إلى علة أو مبدأ مشترك»[2]. وهذا المبدأ المشتركُ هوَ الإيمان بتعدُّد الآلهة أو إله واحد. وكانت هذه المرحلةُ فيما قبل عصر التنوير.

٢) **المرحلةُ الميتافيزيقية:** «وفي هذه الحالة يحاول العقلُ الإنساني - أيضًا - أن يكتشفَ حقائقَ الأشياء وأصولها ومصائرها، ولكنَّه في هذه الحالة بدلًا من أن يبحث عنْ علل مفارقة للظواهر كما فعلَ في الحالة الأولى، فإنه يرفض العللَ المفارقة، ويبحث عنْ علل وأهدافٍ في ذات الأشياء وبواطن الظواهر، ففي هذه الحالة لا يرجع العقلُ الإنساني حقائقَ الظواهر أو الأحداث إلى عللٍ مفارقة، وإنما يرجعها إلى نظم وقوانين وأسباب داخل الأشياء ذاتها»[3]. وكانت هذه المرحلة في عصر التنوير.

٣) **المرحلةُ الوضعية:** «يرى «كونت» أنَّ العقل الإنساني في المرحلتين السابقتين كان يعيش حالاتٍ من الأوهام الذاتية والخرافات المتوارثة التي لا صلة لها بالواقع. ولذلك كان يتخبَّط من الحالة اللاهوتية... ثمَّ الحالة الميتافيزيقية. لكنَّ الأمرَ لا يستمرُّ على ذلك؛ بل إنَّ العقل يتنقَّل من هذه الأوهام الذاتية

---

(١) المذهب الوضعي: مذهبٌ فلسفي مُلحد يرى أنَّ المعرفة اليقينية: معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيَّما تلك التي يتيحها العلم التجريبي. وينطوي هذا المذهب على إنكار وجودِ معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولا سيَّما فيما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والجماعات المعاصرة (٢/ ٨١١ - ٨١٤).

(٢) مذاهب فكرية معاصرة (٢٢١).

(٣) المصدر السابق (٢٢٣).

إلى حقائق الحالة «الوضعية». والعقلُ في هذه الحالة الثالثة التي أطلق عليها كونت «الوضعية» يتخلَّص نهائيًّا من أوهام اللاهوت والميتافيزيقا، ويدرك الأشياءَ على حقيقتها كما هي في الواقع والموضوع»[1].

وبعدَ تقريرِ كونت لهذه المراحل الثلاث أسَّس ما سمَّاه بـ«دين الإنسانية»، وهي ديانةٌ إلحادية لا تؤمنُ بالخالق، وإنَّما تؤمن بالإنسان وتقدِّس العلم التجريبي. بل وصل به الأمرُ إلى تأسيس «كنائس الإنسانية». وقد أثَّر المذهبُ الوضعي في الطبقة المثقَّفة في أوروبا تأثيرًا عظيمًا[2]. ومازال الملاحدةُ المعاصرون ينتسبونَ إلى المذهب الإنساني ويقدِّسون العلمَ التجريبي أيَّما تقديس. وإن لم يكن «كونت» أوّلَ مَن قرَّر المذهب الإنساني ولا أوَّل مَن دعا إلى المذهب التجريبي، ولكنَّه ساهم كثيرًا في تقرير وتطوير هذيْن المذهبين.

الإلحادُ في بريطانيا:

أوَّلُ كتابٍ إلحادي باللغة الإنجليزية:

بعدَ انتهاء الثورة الفرنسية انتقل الإلحادُ إلى بريطانيا. وحين كان بيرسي بيشي شيلي[3] كان طالبًا في جامعة أكسفورد كتب كتابًا سمّاه: «ضرورة الإلحاد» (Necessity of Atheism) عام ١٨١١م، أهدى شيلي هذا الكتابَ لجميع عُمداء كليات الجامعة، فأدَّى ذلك به إلى فصلِه من الجامعة. ولكن أصرَّ شيلي على دعوته إلى الإلحاد، وأعاد طباعةَ الكتاب عام ١٨١٣م[4]. وهذا أوّلُ كتابٍ في الدعوة إلى الإلحاد باللغة الإنجليزية. ثمَّ تلا هذا الكتاب مرحلة من الدعوة المتحمِّسة إلى الإلحاد واللادينية في بريطانيا.

---

(١) المصدر السابق (٢٢٤).

(٢) انظر: The (Long) Nineteenth Century, in The Oxford Handbook of Atheism (221)

(٣) بيرسي بيشي شيلي (Percy Bysshe Shelley): شاعرٌ إنجليزي رومانتيكي. وقد اشتهر شعرُه كثيرًا، واعتبِرَ من أفضل الأشعار باللغة الإنجليزية. وكان مِن أوائل الملاحدة في بريطانيا، وقام بنشْر الإلحاد. توفي عام ١٨٢٢ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Percy-Bysshe-Shelley

(4) http://www.feedbooks.com/book/6701/the-necessity-of-atheism

دعوةُ كارليل الإلحادية:

في عام ١٨١٧م، بدأتْ مجلَّة «القزامة السوداء» (The Black Dwarf) تصدر في بريطانيا. وكانت مجلة سخرية، وكانت تخصُّ الديانة النصرانية بهذه السخرية لتضعف قيمتَها في نفوس الناس. وصارَ لهذه المجلة رواجٌ كبير إلى أن أغلقت عام ١٨٢٤م. وكان مِن أنشط مَن يقوم بتصديرها وتوزيعها رجلٌ اسمُه: ريتشارد كارليل[١]. وكان كارليل يحمل حقدًا عجيبًا على التديُّن، حتَّى كان يردِّد عبارة ديدرو أنه يتمنَّى أن: «آخر ملك يخنق بأحشاء آخر قسيس»[٢].

في عام ١٨٢٩م، بدأ كارليل جولةً دعوية يدعو فيها إلى الإلحادِ والكفر مع صديقه روبيرت تايلر[٣] الملقَّب بـ(كاهن الشيطان). وكانت جامعة كامبردج مِن الأماكن التي زاراها في جولتهما. وكان تشارلز داروين طالبًا في تلك الجامعة خلالَ هذه الفترة، وتركت جولتهما أثرًا في نفسه بعد ذلك[٤].

أسّس كارليل دارًا في لندن عام ١٨٣٠، وكان ملاحدةُ عصره يجتمعون فيها ويستمعونَ إلى محاضراته عنِ الإلحاد، ثمَّ دوَّنت هذه المحاضرات ووُزِّعت على الناس بالآلاف[٥]. سُجنَ كارليل العديدَ من المرّات بسبب زندقته، ولكنَّه واصل

---

(١) ريتشارد كارليل (Richard Carlile): صحفي بريطاني، ومن دعاة حرية التعبير في الصحافة، إضافةً إلى دعوته للعلمانية وإلغاء الملكية في بريطانيا. توفي عام: ١٨٤٣ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Richard-Carlile

(2) The (Long) Nineteenth Century, in The Oxford Handbook of Atheism (215)

(٣) روبيرت تايلر (Robert Taylor): رجلُ دينٍ بريطاني، تحوَّل إلى متطرِّف في محاربة الدين، حتى لقِّب بكاهن الشيطان. توفي عام: ١٨٤٤ م. انظر:
https://www.geni.com/people/Robert-Taylor/6000000078518986056

(٤) انظر:
“Darwin Correspondence Project-Letter 1924-Darwin, C. R. to Hooker, J. D.,13 July (1856) (70-73)”

(٥) انظر: https: / /thethingsthatcatchmyeye.wordpress.com /tag /richard – carlile /

دعوته إلى وفاتِه عام ١٨٤٢م. وقد تركَ آثارًا كبيرة في الدعوة إلى الإلحاد في بريطانيا، حتى وصلت آثارُ دعوته إلى الولايات المتحدة[١].

نظريةُ تشارلز داروين:

وفي عام ١٨٥٩م، نشرَ تشارلز داروين كتابه: «أصل الأنواع» (Origins of Species). وإنْ كان الفكرُ التطوُّري وُجدَ قبلَ ذلك، إلّا أنَّ داروين كان أوّلَ مَن دلَّل على هذه النَّظرية بطريقةٍ علمية وفقَ آليات ماديةٍ محضَة. وقد خصَّصت مبحثًا في الفصل الثاني مِن الباب الثالث لهذه النظرية. وسردتُ تاريخها وأبرزَ ردود علماء الغرب عليها هناك؛ فلا حاجةَ للتفصيل هنا.

انتخابُ أوَّلِ ملحدٍ في البرلمان البريطاني:

وصلَ الإلحاد إلى سُدَّة الحكم عام ١٨٨٠م؛ حيث تمَّ انتخاب النائب تشارلز برادلوغ[٢] في البرلمان البريطاني. وهذه أوّلُ مرَّة يحصل فيها ذلك في التاريخ البريطاني. ولكنَّ برادلوغ امتنعَ من الحلف بالله، فسُجن فترة[٣]، ثمَّ عاد إلى البرلمان عام ١٨٨٨م حينَ صدر قانونٌ بعدم إلزام الحلفِ عندَ دخول البرلمان. وبعد ذلك تتابع دخولُ الملاحدة إلى مناصبِ الحكومة في بريطانيا[٤]. وفي الفترة بين ١٨١٥ إلى ١٩١٤م، كانتِ الإمبراطورية البريطانية في عزِّ نفوذها، واعتبرت أقوى دولة في

---

(١) انظر: The (Long) Nineteenth Century, in The Oxford Handbook of Atheism (215)

(٢) تشارلز برادلوغ (Charles Bradlaugh): ملحدٌ بريطاني متطرِّف، ومتأثِّر بفلسفة فولتير، تمَّ انتخابُه إلى البرلمان البرطاني عام ١٨٨٠ م. وتوفي عام: ١٨٩١ م. انظر:
www.britannica.com/biography/Charles-Bradlaugh

(3) "Report from the Select Committee on the Parliamentary Oath" HCP 159 (1880) (76-77)

(٤) انظر:
http://www.parliament.uk/about/living-heritage/transformingsociety/private-lives/religion/overview/religionc19th-/

العالم؛ حيث امتدَّت مساحتها على ٢٦ مليون كيلو مربَّع، ويسكن فيها حوالي ٤٠٠ مليون نسمة[١]. وانتشرتِ الفلسفاتُ والنظريات العلمية الموجودة في بريطانيا إلى دول أخرى.

الإلحادُ في ألمانيا:

فلاسفةُ الإلحاد في ألمانيا: انتشرَ الإلحادُ في ألمانيا في بداية القرن التاسع عشر. وكان أهمُّ فلاسفة الإلحاد في هذا القرن مِن هذا البلد خاصَّة. وهؤلاء الفلاسفة تركوا آثارًا كبيرة في أوروبا، ومازالت فلسفاتُهم تؤثِّر في المذاهب الفكرية الإلحادية الموجودة في أوروبا إلى هذا العصر. وأخصُّ بالحديث خمسةً من هؤلاء الفلاسفة، وهُم أعظمُ المفكِّرين تأثيرًا في الفكر الإلحادي في القرن التاسع عشر، وهُم:

الفيلسوفُ الأوَّل: جورج فيلهلم فريدريش هيغل[٢]. وُلد هيغل عام ١٧٧٠م، في أسرةٍ ألمانية ثرية، وتوفِّيت أمُّه وهو صغير[٣]. واتَّجه إلى دراسة علم اللاهوت في بداية عمره، وكتب بعضَ الكتب عن النصرانية. ثمَّ بدأ يدرس الفلسفة، وبرع فيها، وأصبح بروفسورًا فيها عام ١٨١٦م[٤]. كانت فلسفةُ هيغل - المشتهرة بالفلسفة الهيغيلية - معقَّدة يصعب فهمُها، ولا سيَّما في القضايا الميتافيزيقية؛ فانقسمَ أتباعُه إلى قسمين: الأوَّل: اليمينيّون، وكانوا نصارى أصوليّين، وتمسَّكوا بكتب هيغل اللاهوتية القديمة.

---

(١) انظر:

The British Imperial Century 1815/1914: A World History Perspective (3), by: Timothy Parsons, (Rowman & Littlefield, 1999)

(٢) جورج فيلهلم فريدريش هيغل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel). فيلسوف ألماني متأثِّر بإيمانويل كانت، وعملَ كأستاذٍ في جامعة برلين. وكان أحدَ مؤسِّسي الفلسفة المثالية الألمانية. وأثَّرت فلسفته كثيرًا على الفلاسفة بعدَه. توفي عام: ١٨٣١ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (٨٥٥ - ٨٥٦)

(٣) انظر:

Hegel: A Biography (3), by: Terry Pinkard, (Cambridge University Press, 2001).

(٤) انظر: Västerlandets Filosofi (451)

والثّاني: اليساريّون الملاحدة، وتمسَّكوا بانتقادِ هيغل للنصرانية التقليدية[1]. وقد تأثّر كبارُ فلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر - أمثال فيورباخ وماركس - بهذا القسم الثاني من الفلسفة كما سيأتي ذكره.

الفيلسوفُ الثاني: أرثور شوبينهاور[2]. وُلد شوبينهاور عام ١٧٨٨م، في أسرةٍ ألمانية ثرية. واتَّجه إلى دراسةِ الفلسفة في سنٍّ مبكِّر، ونالَ شهادة الدكتوراه عام ١٨١٤م، بعنوان: «العالم كإرادة وتمثيل» (Die Welt als Wille und Vorstellung) - وهو أشهرُ كتبه -، وقد تأثَّر شوبينهاور بفلسفةِ إيمانويل كانط، ولكنَّ شوبينهاور أعلن إلحاده صراحةً بخلاف كانط، كما أنَّه خالفَه في مسائل فلسفية أخرى. ومن أخطر الفلسفات التي نظَّر لها شوبينهاور: الفلسفة التشاؤمية. وبعضُ هذه الفلسفة أخذها من الفلسفة البوذية التشاؤمية. وخلاصةُ هذه النظرية أنَّ الحياة ليس فيها إلّا الألم والمرض والشرّ، وأنَّه يجب على الإنسان أن يقبلَ الحياة كما هي، ويخلِّص نفسَه من أوهام وتمنّيات غير عقلانية. وكان يرى أنَّ مِن أخطر الأوهامِ هو الدين[3]. وفلسفةُ شوبينهاور أثّرت كثيرًا في فلسفاتِ كبار الملاحدة في القرن التاسع عشر والعشرين أمثال: كارل ماركس، وفريدريش نيتشي، وسيغموند فرويد[4].

---

(١) انظر المقال: Was Hegel Christian or atheist? By: Paul E. Trejo
http://philosophy.eserver.org/hegel-christianity.html

(٢) أرثور شوبينهاور (Arthur Schopenhauer): فيلسوفٌ ألماني، حاصل على الدكتوراه في الفلسفة. وقد تأثَّر بالفلسفة الهندوسية، إضافةً إلى فلسفة أفلاطون وإيمانويل كانت. ولكثرة تشاؤمه اشتهرَ بفيلسوف التشاؤم. توفي عام ١٨٦٠ م. انظر: (Britannica Concise Encyclopedia (1701

(3) http://www.thecritique.com/articles/what-is-pessimism-the-philosophy-at-the-heart-of-true-detective/

(4) https://plato.stanford.edu/entries/schopenhauer/#8
سيغموند فرويد: هو طبيبٌ نمساوي من أصل يهودي، اختصَّ بدراسة الطب العصبي، ويعتبر مؤسِّس التحليل النفسي. توفي عام: ١٩٣٩ م. انظر: / http: / /www.iep.utm.edu /freud

الفيلسوفُ الثّالث: لودفيغ فيورباخ[1]. وُلِد فيورباخ عام ١٨٠٤م، في أسرة مشهورةٍ بالعلم والثقافة. أقبلَ على دراسة الفلسفة وتأثّر بفلسفة هيغل، وفي عام ١٨٤١م، أصدر كتابه: «جوهر المسيحية» (Das Wesen des Christentums). وهذا الكتاب من أهمِّ الكتب الإلحادية في القرن التاسع عشر حيث انتقدَ جوهر النصرانية في إيمانِهم بوجود الله. وقد أثَّرت فلسفتُه النقدية للدين في مؤسِّس المذهب الشيوعي كارل ماركس[2].

الفيلسوفُ الرابع: كارل ماركس: وُلِد ماركس في عائلة من أصل يهودي في ألمانيا عام ١٨١٨م، وبدأ يدرسُ الفلسفة في سنٍّ مبكِّر، وتأثَّر بالفلسفة الهيغلية اليسارية الإلحادية. ولمّا بلغ ماركس التاسع عشرة من عُمره التقى بفيورباخ، وتأثَّر بفلسفته المعادية للدين[3]؛ فأصبح من أشدِّ المنتقدين لجميع أشكال التديُّن. وفي عام ١٨٤٤م، كتب مقالًا ضمَّ فيه أحدَ أشهر العبارات المنتقدة للأديان في التاريخ وهو قوله: «الدين هو تنهُّد المخلوق المستضعف، القلب في عالم بلا قلوب، والروح في الأحوال التي لا روح فيها. **إنَّه أفيون الشعوب**»[4].

وفي عام ١٨٤٨م، أصدرَ «بيان الحزب الشيوعي» معَ صاحبه فريدريك أنجلز. وكان صدورُ هذا البيان بدايةَ انطلاق المذهب الشيوعي[5]. وقد نشأت عصاباتٌ شيوعية في بلدانٍ أوروبية مختلفة في أوروبا، ولكنْ لم ينتشر هذا الفكر بقوَّة إلّا في القرن العشرين حينَ تبنَّته

---

(١) لودفيغ فيورباخ (Ludwig Feuarbach): فيلسوفٌ ألماني، درس على يد هيغل، ولكن تركَ الفلسفة المثالية واعتنقَ المذهبَ المادي. واشتهرَ بنقده الشَّديد للديانة النصرانية. وأثّرت فلسفتُه في كارل ماركس وفريدريك إنجلز. توفي عام: ١٨٧٢ م. انظر:
Britannica Concise Encyclopedia (669)

(٢) انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /ludwig – feuerbach /

(٣) انظر:
Karl Marx: a biography (25-27), by David McLellan, Palgrave MacMillan (2006)

(4) Karl Marx: Selected Writings [1844] (64). (Oxford University Press 1990)

(٥) انظر:
https://www.marxists.org/archive/marx/works/1848/communist-manifesto/

دولٌ عظمى، وعلى رأسها الاتِّحاد السوفيتي. ولم يساهم مذهبٌ من المذاهب الفكرية في نشْر الإلحاد مثلَ الشيوعية، وسيأتي الحديثُ المفصَّل عن ذلك في المطلب القادم.

الفيلسوفُ الخامس: فريدريك نيتشي: وفي هذا الجوِّ الفلسفي وُلد فريدريك نيتشي عام ١٨٤٤م. واتَّجه إلى دراسة علم اللاهوت في أوّل عمره ليكون قسيسًا، ولكنَّه اكتشف العديدَ من الأخطاء التاريخية في الديانة النصرانية ففقدَ إيمانَه في وقت مبكِّر؛ حيث جاهرَ بذلك وعُمره ثمان عشرة سنة فقط[١]. اتَّجه إلى دراسة الفلسفة عام ١٨٦٥م، وتأثَّر كثيرًا بفلسفةِ شوبينهاور الإلحادية والتشاؤمية، وبدأ يصنِّف مصنَّفات عديدةً في الفلسفة الإلحادية. وقد اشتهرَ نيتشي بعبارة: «الإله قد مات»[٢] التي تعبّر عن الوقاحةِ التي وصلَ إليها الفلاسفة في آخر هذا القرن في مجاهرتهم بالإلحاد. وفلسفة نيتشي كانت لها أثرٌ بالغ في المذاهب الفكرية في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومِن الأمثلة على هذه المذاهب: الفاشية[٣]، والصهيونية[٤]. كما أنه أثّر في فكْر زعيم النازيين أدولف هتلر[٥]

---

(١) انظر: The Cambridge Companion to Nietzsche (99)

(2) 41 Thus Spoke Zarathustra

(٣) الفاشية: فلسفةٌ سياسية، أو حركة، ظهرتْ في إيطاليا في العشرينيّات من القرن المنصرم، وهي تمجِّد الحكومة، وتدعو إلى طاعةٍ عمياء للحاكم، معَ قمع قسري للمعارضة. وقد تبنَّت الحكومة الإيطالية، والإسبانية واليبانية الفاشية في فترة من القرن العشرين انظر: Britannica Concise Encyclopedia (659)

(٤) الصهيونية: هي حركةٌ سياسية عنصرية متطرِّفة، ترمي إلى إقامةِ دولة لليهود في فلسطين. ظهرت هذه الحركةُ على يدِ النمساوي تيودور هرتزل في القرن التاسع عشر. وهي الإيديولوجية التي تسودُ دولةَ إسرائيل اليوم. ولها مئاتُ الجمعيات في أمريكا وأوروبا في مختلف المجالات، وتعمل لمصلحةِ دولة إسرائيل. انظر الموسوعة الميسرة (١ / ٥١٨ - ٥٢٦).

(٥) أدولف هتلر (Adolf Hitler): زعيمُ الحزب النازي وحاكم ألمانيا بين ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥م. أشعلَ الحربَ العالمية الثانية التي راح ضحيتها عشرات الملايين من البشر. ولما قاربت الحربُ نهايتها انتحرَ عام ١٩٤٥ م. انظر: https://www.britannica.com/biography/Adolf-Hitler

ومؤسِّس التحليل النفسي[1] سيغموند فرويد[2]. ولا يشكُّ عاقلٌ فيما كان لهذه المذاهب، وهؤلاء الأفراد، مِن الأثر البالغ في نشر العلمانية والإلحاد في القرن التاسع عشر، كما أنَّ سجلَهم الإجرامي لا يخفَى على أولي الألباب.

الصِّراعُ الثقافي في ألمانيا:

كانت ألمانيا مقسَّمة إلى دويلاتٍ في فترة طويلة من تاريخها، ولكنِ استطاع أوتو فون بسمارك[3] أنْ يوحِّد هذه الدويلات إلى الإمبراطورية الألمانية عام ١٨٧١م. وامتدَّت هذه الإمبراطورية على مساحةٍ واسعة تشمل ألمانيا المعروفة اليومَ مع أجزاء من بولندا، وفرنسا، وروسيا، وهولندا، والدنمارك، وبلجيكا، والتشيك، وليتوانيا. كما أنه كان لهذه الإمبراطورية عددٌ من الدول المستعمرة في أفريقيا وغيرها[4].

وفي ظلِّ انتشار الإلحاد والفلسفات العلمانية تعالتِ الأصواتُ في هذه الإمبراطورية بفصْل الدين عن الدولة؛ فبدأ ما يسمَّى بالصراع الثقافي (Kulturkampf) عام ١٨٧١م. واستمرَّ إلى عام ١٨٧٧م. وكان الغرضُ من هذا الصراع إضعافَ الكنيسة الكاثوليكية وفصلَ الدين عن الدولة، وقد نجحَ بسمارك في ذلك إلى حدٍّ كبير[5]. كان للمحافل الماسونية الأثرُ الفعَّال في هذا الصراع[6].

---

(١) التحليل النفسي: فرعٌ من الطِّب النَّفسي الحديث، يبحث في العقل الباطن محاولاً إبرازَ ما فيه من عُقدٍ ورغبات مكبوتة تمهيدًا لعلاجها. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ٢٢٥٦).

(٢) انظر المقال: Influence and Reception of Friedrich Nietzsche
http://www.worldlibrary.org/articles/influence_and_reception_of_friedrich_nietzsche

(٣) أوتو فون بسمارك (Otto Von Bismarck): رئيسُ وزراء منطقة بروسيا في ألماني لما يقرب من ٣٠ سنة، ثمَّ حاكم الإمبراطورية الألمانية لما يقرُب من ٢٠ سنة. وفي عهده تقوَّى نفوذُ ألمانيا كثيرًا. توفي عام ١٨٩٨ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Otto-von-Bismarck

(٤) انظر: http://www.allempires.com/article/index.php?q=german_empire

(٥) انظر: https://www.newworldencyclopedia.org/entry/Kulturkampf

(٦) انظر: New Catholic Encyclopedia, 1967 ed, Volume 6، p 135

والخلاصةُ بعدَ هذا الاستعراض المختصَر لتاريخ الإلحاد في القرن التاسع عشر أنَّ هذا القرن «كان طويلًا» كما عبَّر به الباحث ديفيد ناش. وخلاصتُه أنَّ الإلحاد ظهر في هذا القرن بقوَّة من الناحية الفكرية، كما أنَّ العلمانيين المعادين للدين وصلوا إلى سدَّة الحُكم؛ فانتقلَ الإلحاد من فكرةٍ مجرَّدة إلى مذهبٍ قد تدعمه سلطةٌ وقوّة.

المطلبُ السّابع

القرنُ العشرون

إذا كان القرنُ التّاسع عشر من أهمِّ القرون في تنظير الفكر الإلحادي، فإنَّ القرن العشرين أهمُّ قرنٍ في تطبيقه؛ فقد تطوَّرت الفلسفات الإلحادية في هذا القرن، ولكن أغلبُ هذه الفلسفات والمذاهب الفكرية كانت امتدادًا لفلسفات القرن المنصرم.

أحداثُ هذا القرن متشعِّبة وكثيرة، ولكن حيث إنَّ المقام لا يتَّسع الاستطراد في بيانِ هذه الأحداث، فيلخَّص بما يأتي:

الثورةُ الروسيةُ وقيامُ الاتِّحاد السوفيتي:

لعلَّ الثورةَ الروسية وقيام الاتحاد السوفيتي أهمُّ حادثة في تاريخ الفكر الإلحادي على مرِّ العصور. وقد وُلد لينين[١] - زعيم هذه الثورة وقائدها - عام ١٨٧٠م، في أسرةٍ روسية ثريَّة. وقد توفِّي والدُه وعمرُه ستُّ عشرة سنة من نزفٍ دماغي، ممّا جعل هذا الشاب مضطربًا نفسيًّا، وأدَّاه هذا الاضطراب إلى إنكار وجود الخالق[٢]. كان أخو لينين اشتراكيًّا ثوريًّا، وخطَّط عام ١٨٨٧م لقتلِ قيصر الإمبراطورية الروسية، ولكن قبض عليه قبلَ التنفيذ، وحُكم عليه بالإعدام؛ فقُتل خنقًا[٣]. وقد تأثّر لينين بإعدامِ أخيه وتطرّف وانخرطَ في العمل الثوري عام ١٨٨٧م، وترقّى في المناصب إلى أنْ صار رئيس الحزب الشيوعي البولشفيكي. ولمّا بدأتِ الحرب العالمية الأولى ضعفتِ الدولة الروسية القيصرية واستغلَّ لينين والحزبُ الشيوعي هذا الضعفَ

---

(١) لنين (Lenin): اسمه الحقيق: فلاديمير أليتش أوليانوف (Vladimir Ilyich Ulyanov): زعيمُ الثورة البولشفيكية على القصير، ثمّ أصبح الحاكم الأوّل للاتحاد السوفيتي. توفي عام: ١٩٢٤م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1096)

(٢) انظر: Lenin: A Biography (50 - 51), Service, Robert London: Macmillan (2000)

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٢ - ٥٨)

بالقيام بثورة ضدَّ القيصر، واستطاع الوصولَ إلى الحكم عام ١٩١٧م، وأقام أوّلَ وأقوى دولة شيوعية في التاريخ الإنساني[١].

وكان الاتحادُ السوفيتي أوّلَ دولةٍ في العالم أعلنت أنَّ من أهدافها الإستراتيجية: القضاءَ على الأديان واستبدالَها بالإلحاد العالمي[٢]. وطبّق الاتّحاد السوفيتي هذه الإستراتيجية بحذافيرها، ولا سيَّما في عهد ستالين[٣]. ونقص عددُ الكنائس من ٥٠ ألفٍ في بداية قيام الاتِّحاد إلى ٥٠٠ عام ١٩٣٩م[٤]. ومِن الأمثلة على إجرامه أنه قبض على أكثرَ من ١٦٠ ألف مِن رجال الدين النصراني بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٣٨ وأعدم منهم ١٠٠ ألف[٥]. وأغلقتِ الحكومة السوفيتية ١٢ ألفَ مسجد بين ١٩١٧ إلى ١٩٣٠، ومنعوا بين ٩٠ - ٩٧ ٪ من أئمَّة المساجد والمؤذنين من ممارسة عملهم[٦].

ولم يتوقَّفْ مدُّ الشيوعية على حدود الاتِّحاد السوفيتي، بل انتشر في كثير من أقطار الأرض؛ فقدِ استولى الحزبُ الشيوعي بزعامة ماو تسي دونغ[٧] على الحكمِ في الصين

---

(١) انظر: http://www.biography.com/people/vladimir-lenin-9379007#the-revolution-of-1905-&-wwi

(٢) انظر: Religious Policy in the Soviet Union (٤)، Ramet, Sabrina Petra, Cambridge University Press

(٣) ستالين (Stalin): واسمه الحقيقي: جوزيف فيساريونوفيتش جوغاشفيلي (Iosif Vissarionovich Dzhugashvili). تربّى في أسرةٍ دينية، ولكنّه انضمَّ إلى مجموعات شيوعية قبل الثورة الشيوعية، وترقَّى في المناصب بعدَ الثورة إلى أنْ صار الحاكم المستبدَّ بعد وفاة لينين. وحكم الاتّحادَ السوفيتي بقبضةٍ حديدية، وتوفي بسببِ سياسته الظالمة ملايين من البشر. توفي عام ١٩٥٣ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1096)

(٤) انظر: https: / /www.loc.gov /exhibits /archives /anti.html

(٥) انظر:- A Century of Violence in Soviet Russia (165), Alexander N. Yakovlev, Yale University Press (2002)

(٦) انظر: https://biblicalstudies.org.uk/pdf/rcl/18-3_196.pdf

(٧) ماو تسي دونغ (Mao Zedong): قائدُ الثورة الشيوعية في الصين، ثمَّ أصبح الحاكمَ المطلق بعد استيلائه على الحكم عام ١٩٤٩م. وحكم بلدَه بوحشية، وماتَ بسببه ملايين من البشر. توفي عام ١٩٧٦ م. انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1189)

عام ١٩٤٩م[١]. وأعلنَّ أنَّ الإلحاد هو الديانة الرسمية للدولة. وبين ١٩٦٦ - ١٩٧٦ أعلنَ ماو الثورةَ الثقافية في الصين بنشْر الشيوعية عند جميع طبقات الشعب الصيني. وكان من أهداف هذه الثورة القضاءُ على جميع أشكال التدين، وطبَّقوا ذلك عمليًّا بإغلاق المعابد، واعتقال رجال الدين وقتلهم[٢].

ووصلَ الشيوعيون إلى الحكم، وحاربوا الأديان والتديُّن، ونشروا الإلحاد في عددٍ كبير من دول العالم؛ فالاتِّحاد السوفيتي كان يضمُّ ١٤ دولة، كما أن عشرات الدول الأخرى في العالم كانت تحتَ قبضة الشيوعية[٣]. وبهذه الطريقةِ الاستبدادية القمعية انتشر الإلحادُ في تلك الدول. كتبَ مجموعةٌ من الأكاديميين الغربيين كتابًا سمّوه: «الكتاب الأسود للشيوعية» (The Black Book of Communism) عن جرائم الشيوعيين في القرن العشرين، وتوصَّلوا إلى أنَّ عددَ مَن مات بسبب هذا المذهب الإلحادي الإجرامي وصل إلى ٩٤ مليون في القرن التاسع عشر؛ فهذا المذهبُ الإلحادي بلغ أقصى الحدود في الإجرام وسفْك الدماء، وإجبارِ الناس على هذا المذهب الإلحادي الخبيث.

الإلحادُ في الدول الغربية:

لم يقتصرِ انتشارُ الإلحاد على الدول الشيوعية في القرن العشرين، بل انتشر كثيرًا في الدّول الغربية المناهضة للشيوعية أيضًا. وقد كتب البروفسور كالوم برون[٤] بحثًا علميًّا محكَّمًا عن الإلحاد في القرن العشرين، وذكرَ عددًا من أسباب انتشار الإلحاد في هذا العصر ضمنيًّا، وخلاصتها كالآتي:

---

(١) انظر: http: / /www.biography.com/people/mao - tse - tung - 9398142

(٢) انظر:

Local Religion in North China in Twentieth Century (51), Daniel Overmyer, Handbook of Orientalist Studies, Volume 22, Brill 2009

(٣) انظر:

http://study.com/academy/lesson/communist-countries-past-present.html

(٤) كالوم برون (Callum Brown): بروفسور التاريخ الأوروبي الحديث في جامعة غلاسغوف في بريطانيا. انظر: The Oxford Handbook of Atheism (xi – xii)

السببُ الأوَّل: ضعفُ مكانة الدين: ضعفتْ مكانةُ الدين والاهتمام به عند الغربيّين من عام ١٩٥٠م، فما بعد. بدأتْ هذه الظاهرة في بريطانيا بين ١٩٥٠ - ١٩٦٠م، ثمَّ انتشرت إلى هولندا، وبلجيكا، وألمانيا، وفرنسا، والسويد، والنرويج، والدنمارك. فقلَّ عددُ روَّاد الكنائس إلى حدٍّ كبير جدًّا في هذه الفترة. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ عددَ روّاد الكنائس في مدينة كبيك[١] الكندية عام١٩٥٠م كانوا٩٠ ٪، وفي عام ١٩٧٥ كانوا ٣٠ ٪[٢]. وهناك تلازمٌ بينَ قلَّة الاهتمام بالشعائر الدينية وانتشار اللّادينية؛ فحسبَ الإحصائيات الكندية أجابَ ٠,٥٢ ٪ من المشاركين في الإحصاء بأنَّهم لادينيّون عام ١٩٦٠م، وأعيدَ الإحصاءُ عام٢٠٠٠م، فكان عددهم ١٥,٧٩ ٪[٣].

السببُ الثّاني: انتشارُ المذهب الليبرالي: انتشرَ المذهب الليبرالي في الدول الغربية انتشارًا كبيرًا في القرن العشرين، بل الطابع العام على السياسية الغربية هو الاتِّجاه الليبرالي. وذكر البروفسور كالوم برون أنَّ انتشار الليبرالية من أسباب ظهور الإلحاد؛ فالليبراليةُ من المذاهب العلمانية التي تعظِّم حرية الفرد، وتسعى للفصل بين الدين والدولة والاستقلال من السلطة الدينية[٤].

السببُ الثّالث: نفوذُ الاشتراكيين[٥] في الغرب: كانتِ الدول الغربية تتبنّى المذهبَ الرأسمالي في الغالب، ومع ذلك وُجد عددٌ غيرُ قليل من الاشتراكيين في

---

(١) كبيك (Quebeck): مدينة في جنوب شرق كندا، وهي إحدى أقدم المدن الكندية، وعاصمة مقاطعة كيوبيك. انظر: https: / /www.britannica.com /place /Quebec

(٢) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (230)

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٣٢).

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها (١٥٣ - ١٥٦)، للدكتور عبد الرحيم بن صمايل السلمي، (مركز التأصيل للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ).

(٥) الاشتراكية: مذهبٌ سياسي واقتصادي، يقوم على سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج وعدالة التَّوزيع والتَّخطيط الشَّامل. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢ / ١١٩٤). هكذا يقال في تعريفِ هذا المذهب الفكري العلماني، إلّا أنَّ الواقع المشاهد في الدول الاشتراكية أنَّ الدولة لا تقومُ بالتوزيع العادل، بل وقع فيها من الظلم ما الله به عليم!

الغرب. وقد كانتِ الأحزابُ الشيوعية والاشتراكية نشطةً في جميع الدول الغربية الأوروبية، ولها نفوذٌ واسع بين الشعوب. وكان الاشتراكيون مِن أكثر ناشري الإلحاد في هذه الدول[١].

السببُ الرّابع: **ردَّةُ رجال الدين الكاثوليك**: طغتِ الموجة الإلحادية على الدول الأوروبية حتَّى تأثّر بها رجال الدين. وبين ١٩٦٠ - ١٩٧٠ م. ارتدّ كثير من رجال الدين، ولا سيَّما من الكاثوليك. وكان لهذا الأمر صدمةٌ في الغرب، وساهم في انتشار الإلحاد[٢].

السببُ الخامس: **علمنةُ التَّعليم في الغرب**: كان مؤسِّسو العلم التجريبي في الغرب متديِّنين، ويؤمنون بوجود الخالق[٣]، ولكن تغيَّر هذا الأمر في القرن العشرين وتبنَّتِ الحكومات الغربية المذهبَ الطبيعي المنهجي في تعليم العلم التجريبي. وهذا المنهجُ كما سبق ذكرُه لا يسمح بذكر الخالق كتفسيرٍ لأيِّ ظاهرة طبيعية. وكان هذا المنهجُ التجريبي العلماني من أسباب ظهور الإلحاد بين العلماء التجريبين[٤].

السببُ السّادس: **الإلحادُ في الإعلام**: ظهرَ الإلحاد في الإعلام بقوة في القرن العشرين. وكان ظهورُ الإلحاد بأشكالٍ مختلفة بشخصياتٍ ذوي توجّهات متفاوتة. كان للفيلسوف برتراند راسل[٥] حضورٌ قويٌّ في الإعلام البريطاني في الأربعينيّات من القرن المنصرم، واكتسب شهرةً وشعبية واسعةً بين الشعب البريطاني.

---

(١) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (234)

(٢) انظر: المصدر السابق (٢٣٥).

(٣) انظر: God's Undertaker (8)

(٤) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (239)

(٥) برتراند راسل (Bertrand Russell): الفيلسوفُ وعالمُ المنطق والرياضيات والتاريخ البريطاني. ويعتبر أحدَ أشهر فلاسفة القرن العشرين. من مؤلفاته: تاريخ الفلسفة الغربية. توفي عام: ١٩٧٠ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Bertrand - Russell

وكانتْ مارغريت نيت[1] أوّلَ امرأةٍ إعلامية ملحدة في الإعلام البريطاني. وكانت تنشرُ نشراتٍ تدعو إلى الإلحاد في قناة بي بي سي المشهورة عام ١٩٥٥م[2].

وكان كارل ساغان - عالمُ الكون الأمريكي - يقدِّم برنامج: الكون - رحلة شخصية - (Cosmos: A Personal Voyage) عام ١٩٨٠ في ١٣ جزءًا. وهو برنامج شعبي يتحدَّث فيه عن الكون، وأصلِ الحياة من منظور إلحادي. وقد اشتهر هذا البرنامج اشتهارًا واسعًا حتَّى شاهده ٥٠٠ مليون شخص في ٦٠ دولة[3].

أشهرُ الملاحدة في القرن العشرين:

كان القرنُ التاسع عشر أكثرَ تنظيرًا للفكر الإلحادي، والقرن العشرين أكثر تطبيقًا له. ومعَ ذلك وُجد بعضُ منظِّري الفكر الإلحادي في القرن العشرين ذوي التأثير الكبير. ومِن أهمِّ هؤلاء الملاحدة:

المُلحدُ الأوَّل: سيغموند فرويد: كان فرويد مِن أشهر منظّري الإلحاد في بداية القرن العشرين. وقد وُلِد في عام ١٨٥٦م، في عائلةٍ يهودية، والتحق بالجامعة ودرس الطبّ. وكان أحدُ أساتذة فرويد في الجامعة من أنصار نظرية التطوّر ودعاته مما جعل فرويد يعتنقُ هذه النظرية في وقت مبكِّر[4]. وكان فرويد يقرأ كتبَ الفيلسوف الملحد نيتشي في

---

(١) مارغريت نيت (Margaret Knight): عالمة نفسٍ وصحفية بريطانية. عملت في محطة بي بي سي عدَّة عقود، وقدَّمت برامج إلحادية ومعادية للدين. توفيت عام ١٩٨٣ م. انظر:
https://archiveshub.jisc.ac.uk/search/archives/1465bf2e-72cd-3c00-88ad-ce10d9501640

(٢) انظر: Twentieth Century, The Oxford Handbook of Atheism (241)

(٣) انظر:
http://starchild.gsfc.nasa.gov/docs/StarChild/whos_who_level2/sagan.html

(٤) انظر:
Freud, Biologist of the Mind, beyond the Psychoanalytic Legend (160), by: Frank J. Sulloway, (Harvard Univesity Press 1979).

أيام دراسته[١]. وكانت هذه النظرياتُ والفلسفات الإلحادية تؤثّر في فكر فرويد، حتّى أصبح من دعاة الإلحاد فيما بعْد. تخصَّص فرويد بعد تخرّجه في دراسة الطبِّ العصبي، وأسَّس نظريةَ التحليل النفسي، وهو منهجٌ وأسلوب في معالجة الأمراض النفسية. وفي عام ١٩٢٧م، كتبَ فرويد كتابه المشهور: «مستقبل الوهم» (Die Zukunft einer Illusion) وحلَّل في هذا الكتاب أصلَ ونشأة الأديان بتحليل نفسي، وما سيؤول إليه الأديان في المستقبل. كان فرويد يرى أنَّ الدين عبارة عن أوهام وأمنيات، وأن الإله هوَ مظهرٌ طفولي للإنسان يريد البقاءَ مع أبيه[٢]. ساهمتْ هذه النظرية في انتشار الإلحاد، ولا يزال فرويد يعدُّ أحدَ أشهر منظّري الإلحاد في القرن العشرين.

المُلحدُ الثّاني: برتراند راسل: وُلِد راسل عام ١٨٧٢م، في أسرةٍ بريطانية من الطبقة الأرستوقراطية؛ فجدُّه شغلَ منصبَ رئيس وزراء بريطانيا، وأبوه كان عضوًا في البرلمان البريطاني، ومناضلًا ضدَّ الديانة النصرانية. توفّيت أمُّه وعمرُه سنتان، ثمَّ أبوه وعمرُه أربع سنوات، فكان يشعرُ بالقلق في تربيته، وأرادَ أن ينتحر[٣]. وبسبب هذه الاضطراباتِ النفسية فقدَ إيمانَه بالنصرانية وعمرُه ١٥ سنة فقط، ثمَّ أعلن إلحادَه وعمرُه ١٨[٤]. درسَ راسل الرياضيات في جامعة كامبردج، وأمضى ثلاث سنوات في دراسته، ثمَّ بدأ يدرسُ الفلسفة، وبرعَ فيها حتّى أصبح من أشهر الفلاسفة الغربيين في القرن العشرين؛ فقد ألَّف راسل ٧١ كتابًا وكتيّبًا، ومقالاتٍ لا تحصى في الفلسفة، وغيرها من العلوم[٥]. ومِن أشهر كتبِه في الدعوة إلى الإلحاد:

---

(١) انظر: Returns of the French Freud: Freud, Lacan, and Beyond (13), Paul Roazen, (Routledge Press, 1997)

(٢) انظر:
The Future of an Illusion (18), by: Sigmund Freud, (Norton and Company (1990)

(٣) انظر:
Bertrand Russell Autobiography (38), by: Bertrand Russell. (Psychology Press, 1998)

(٤) انظر: المصدر السابق (٣٦ – ٣٧).

(٥) انظر: برتراند راسل مقدِّمة قصيرة جدًّا (١٤ – ١٧)، لأي سي جرايلينج، ترجمة: إيمان جمال الدين الفرماوي، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤ م).

١) **مقالة: لماذا أنا لستُ مسيحيًّا؟** أصلُ هذه المقالة محاضرةٌ ألقاها راسل في «الجمعية العلمانية الوطنية: (National Secular Society) عام ١٩٢٧ م، ثمّ طبعت. احتوتْ أغلبُ هذه المقالة على نقدِ أدلة وجود الله، مثل: الحجة الكونية، ودلالة قوانين الطَّبيعة على الخالق، وحجَّة التصميم، والحجَّة الأخلاقية[١]. وإن كانت ردودُ راسل ضعيفةً وهزيلة فإنَّ هذه المقالة ترجمتْ إلى لغات مختلفة، وطُبعت كمطويَّة ووزِّعت بأعداد كبيرة.

٢) **مقالة: هل هناك إله؟** ألَّف راسل هذه المقالة عام ١٩٥٢م. ومِن أشهر ما حوتْه هذه الرسالة ما يسمَّى بإبريق راسل؛ وهو تشبيهٌ صاغه راسل هادفًا إلى دحْض فكرةِ أنَّ هناك عبءَ إثباتٍ فلسفي يقع على المشكِّكين لإثبات عدم صحة ادِّعاءات الأديان بأنَّها خاطئة. والتشبيهُ الذي ذكرَه خلاصتُه: أنَّه لو ادّعى أحد أنه يوجد إبريقٌ مصنوع من الخزف الصيني يدور حولَ الشمس فلا يمكن لأحدٍ أن يدحض هذا الافتراض. ولكنَّ عبء الإثبات على المدّعي، لا على مَن أنكر ذلك؛ فالخلاصة أنَّ الأصل أنه لا يوجد إله، وليس للمُلحد أنْ يثبت عدمَ وجوده؛ لأنَّ هذا هو الأصل. رغمَ سخافة هذا التشبيه فإنَّه مُنتشر بين الملاحدة المعاصرين اليوم، ويستخدمه زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز في كتبِه مثل «وهم الإله»[٢]، وفي مناظراته. وسيأتي النقدُ المفصَّل لهذه الشبهة في الباب الثالث - إن شاء الله -.

المُلحدُ الثّالث: جان بول سارتر[٣]: وُلِد سارتر عام ١٩٠٥م، في عاصمة فرنسا. ولمّا كان عمرُه ١٥ سنة بدأ يدرسُ الفلسفة، وبرعَ فيها حتى أصبح بروفسورًا في هذه

---

(١) انظر: ?Why I am not a Christian
http://www2.fiu.edu/~sabar/enc3311/Why%20I%20Am%20Not%20A%20Christian%20-%20Bertrand%20Russell.pdf

(٢) انظر: The God Delusion (٧٤, ٧٥, ٧٦, ٧٧, ٩٤)

(٣) جان بول سارتر (Jean - Paul Sartre): بروفسور الفلسفة الفرنسي، وأديب، وناشط سياسي. كان أحد روّاد الفلسفة الوجودية الإلحادية. توفي عام ١٩٨٠. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Jean - Paul - Sartre

المادَّة عام ١٩٣١، وعمرُه ٢٦ سنة فقط[١]. وفي عام ١٩٤٣، ألّف أحدَ أهمِّ كتبه، وهو: «الوجود والعدم» (L'Être et le néant)، ويعتبر هذا الكتابُ نقطةَ انطلاق الفلسفة الوجودية الإلحادية[٢]. المؤسسُ الحقيقي للفلسفة الوجودية في الغرب هو سورين كيركغور[٣]، وكان متأثِّرًا بالمبادئ النصرانية، ويؤمنُ بوجود الله[٤]. ولكنَّ سارتر طوَّر هذه الفلسفة إلى فلسفةٍ إلحادية إباحيَّة يتحلَّل فيها الإنسان من القيم وينطلق لتحقيق رغباته وشهواتِه بلا قيد[٥]. واشتهرتْ هذه الفلسفة كثيرًا في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية ولم تؤثِّر في الفلسفة فحسب؛ بل كان لها بالغُ الأثر في الثقافة الغربية كالمسرحيات، والفنّ، والأدب[٦]. كما أنَّ كثيرًا من الأفلام الغربية مبنية على هذه الفلسفة الإلحادية الإباحية[٧].

---

(١) انظر:

http://www.nobelprize.org/nobel_prizes/literature/laureates/1964/sartre-bio.html

(٢) الوجودية (Existensialism): اتجاهٌ فلسفي يغلو في قيمة الإنسان، ويبالغ في التأكيد على تفرده، وأنَّه صاحبُ تفكير وحرية وإرادة واختيار، ولا يحتاج إلى موجِّه. وهي فلسفةٌ عن الذات أكثر منها فلسفةً عن الموضوع. ومِن أعلام هذه الفلسفة: سورن كيركجورد وجان بول سارتر. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢ / ٨١٨ - ٨٢١).

(٣) سورين كيركغور (Søren Kierkegaard): فيسلوفٌ ولاهوتي وشاعر دنماركي. يعتبر الأبَ الروحي للفلسفة الوجودية. وأثّرت فلسفته في الحداثة. توفي عام: ١٨٥٥ م. انظر:

https://plato.stanford.edu/entries/kierkegaard/

(٤) انظر: رسائل في مذاهب فكرية معاصرة (٢٤٦)

(٥) الموجَز في الأديان والمذاهب المعاصرة (١٢٤)، للدكتور ناصر بن عبد الله القفاري والدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، (كنوز إشبيليا، ١٤٢٦ هـ).

(٦) انظر:

Existentialism: basic writings (p. Xiii)، Guignon and Pereboom, Derk, Charles B, Hackett Publishing (2001)

(٧) انظر المقال: ٢٠ Great Existential Films You Need to Watch

http://www.tasteofcinema.com/2014/20-great-existential-films-you-need-to-watch/

ومِن الأمور المهمَّة في حياة سارتر أنَّه كانت لديه علاقة ودِّية مع الكاتبة والناشطة السياسية النِّسوية(١) سيمون دي بوفوار(٢). وكانت دي بوفوار تتبنّى الفلسفة الوجودية الإلحادية كصديقِها، كما أنَّها كانت من أشهر الدعاة إلى مساواة الرجل بالمرأة(٣). وقد ارتبطتِ الحركةُ النسوية بالعلمانية والإلحاد في كثير من البلدان، ويرون أن الأديان بأجمعِها تتنافى مع حقوق المرأة(٤).

المُلحدُ الرّابع: أنطوني فلو(٥): كان أبوه كاهنًا نصرانيًّا من الطائفة الميثودية، ويحمل شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد، وكان رئيسَ كرسي لغات وأدبيات العهد الجديد في جامعة كامبردج. وُلِد له ابنٌ واحد، وهو أنطوني فلو عام ١٩٢٣م، ولكن حينَ بلغ أنطوني خمسَ عشرة سنة ألحدَ بسببِ شبهة مشكلة الشرّ. أخفى هذا الإلحاد عنْ أبيه إلى أنْ وصل له الخبرُ بإلحادِ ابنه بعدَ سبع سنوات. درس أنطوني الفلسفة إلى أنْ أصبح بروفسورًا وأستاذًا في عددٍ من الجامعات البريطانية المشهورة. وقد نذر حياته الفلسفية للدعوةِ إلى الإلحاد ونقدِ الأديان. وهناك «ثلاث دراسات تعتبر علاماتٍ بارزة وضعَها فلو في مسار الفلسفة الإلحادية، وهذه الدراسات هي:

---

(١) النسوية (Feminism): حركةٌ فكريَّة مُهتمَّة بحقوق المرأة، تنادي بتحسينِ وضعها وتأكيد دورها في المجتمع. انظر: معجم اللغة المعاصرة (٣/ ٢٢٠٧). وهكذا تعرَّف هذه الحركة في القواميس، إلّا أنَّها تهدمُ حقوق المرأة بمحاولة جعلها مثلَ الرجل في كلِّ شيء، مع مخالفة ذلك لفطرتها.

(٢) سيمون دي بوفوار (Simone De Beauvoir): فيلسوفةٌ وجودية وناشطة نِسَوية فرنسية. من مؤلَّفاتها: الجنس الآخر، وهو من أشهر الكتب النسوية على الإطلاق. توفيت عام ١٩٨٦ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Simone – de – Beauvoir

(3) http: / /www.biography.com/people/simone-de-beauvoir-9269063#synopsis

(٤) انظر المقال: Why Secularism Needs Feminism

http://www.instituteforscienceandhumanvalues.com/index_htm_files/Why_secularism_needs_feminism.htm

(٥) أنطوني فلو (Antony Flew): بروفسور الفلسفة البريطاني. كان من أشهر دعاة الإلحاد في القرن العشرين، ولكنَّه أعلن أنَّه ربوبي في نهاية حياته. توفي عام: ٢٠١٠ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Antony - Flew

١) **زيفُ علم اللاهوت (Theology and Falsification)**: هو بحثٌ قدَّمه أنتوني فلو عام ١٩٥٠، حاولَ فيه نسفَ قضية الإيمان من أساسها بأن أكَّد خواءَ المقولات الدينية من أيِّ مفاهيم وأفكارٍ ذات معنى. ودعَا في الوقت نفسِه إلى فتح باب الحوار بينَ الملاحدة والمتديِّنين. وقد صار هذا البحثُ من أكثر الدراسات الفلسفية انتشارًا في القرن العشرين.

٢) كتاب «**الإله والفلسفة** (God and Philosophy)»: يؤكّد فيه فلو أنه لا ينبغي إصدارُ الحكم في قضية «هل هناك إله؟» قبلَ أن يطرح المتديّنون تصوّرًا واضحًا لصفات هذا الإله (ما معنى أنْ يصفَ المتديّنون الخالقَ بأنه الروح، كلي الوجود، كلي العلم).

٣) كتاب **فرضية الإلحاد** (The Presumption of Atheism): وفيه يدير فلو الدفةَ تمامًا ليجعلَ الكرةَ في ملعب المتديِّنين، فيضعُ على عاتقهم مهمَّة إثبات وجود الإله، بعدَ أن كان التناولُ الفلسفي السابق يطالب الملاحدةَ بإثبات عدم وجود الإله»[1].

استمرَّ فلو بدعوتِه إلى الإلحاد حوالي خمسين سنة، وكان أبرزَ دعاة الإلحاد في النِّصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، ولكنَّه تحوَّل فجأة في عام ٢٠٠٤م، واعتنق المذهبَ الربوبي بناءً على أنَّ الأبحاث العلمية الحديثة – ولا سيَّما ما يتعلَّق بأصل الكون وأصل الحياة – تشير إلى ضرورة وجود الخالق. وفي عام ٢٠٠٧م، أصدر كتابه: «هناك إله» (There is a God)، وردّ فيه على الفكر الإلحادي، ولا سيَّما الإلحاد الجديد. ثمَّ توفِّي فلو عام ٢٠١٠م[2].

وهذا التحوُّل يعبِّر عن التحوُّل في الساحة العلمية والفلسفية في الغرب في بداية القرن العشرين؛ فكما أنَّ الإلحاد الجديد أخذَ في الانتشار فإنَّ رفضَ الإلحاد والردود عليه في تزايدٍ مستمرٍّ كما سيأتي بيانه في المطالب القادمة.

---

(١) رحلة عقل (٤٢ – ٤٣)، للدكتور عمرو شريف (مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م).

(٢) انظر المقال: Former leading atheist argues for the existence of God
http://creation.com/review-there-is-a-god-by-antony-flew

المطلبُ الثّامن

القرنُ الحادي والعشرون

مقدِّمة عن الإلحاد الجديد:

في نهايةِ القرن العشرين زالَ عرشُ الاتِّحاد السوفيتي[1]، ثمَّ تلا هذا الزوال سقوطُ أكثرِ الأنظمة الشيوعية الإلحادية في العالم. وعقبَ هذا السقوط رجع كثيرٌ من أهل تلك الدول إلى أدْيانهم الأصلية، وضعف نفوذ الإلحاد. ولكنْ في بداية القرن الواحد والعشرين حصلتْ حادثةٌ غيَّرت التاريخَ الحديث من جوانب مختلفة، وهي حادثة الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م؛ فقد كان لهذه الجريمة كثيرٌ من العواقب السيئة - ولا سيَّما على المسلمين -، ولكنْ من أخطر الآثار - من الناحية الدينية - أنَّ هذه الحادثة كانت بدايةَ انطلاق حركةِ الإلحاد الجديد. وقد صرَّح رموزُ هذه الحركة أن السببَ الأساس الذي دفعهم إلى الدَّعوة المتحمِّسة إلى الإلحاد هو حصولُ هذه العملية الإرهابية - كما سيأتي بيان ذلك -. بدأ سام هاريس يكتب كتابه: «نهاية الإيمان» (End of Faith) بعدَ هذه الحادثة، ولكن تأخَّرت طباعةُ الكتاب إلى عام ٢٠٠٤م. وبعد صدورِ هذا الكتاب تتابع بقيةُ رموز الإلحاد الجديد بكتابة كتبهم الداعية إلى الإلحاد؛ فأصدرَ دانيال دينيت[2] كتابه: «فكُّ السحر: الدين كظاهرة طبيعية» (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon)، وريتشارد دوكينز كتابه: «وهم الإله» (The God Delusion) عام ٢٠٠٦م. وعندما كتبتْ مجلة «الناشر الأسبوعي» (Publishers Weekly) مراجعةً لكتاب دوكينز أطلقتْ على هذه الدعوة: «الإلحاد الجديد» (New Atheism)[3]، ثمّ تتابعت الصحفُ والمجلات على

---

(١) تفكّك الاتّحادُ السوفيتي عام ١٩٩١م.

(٢) دانيال دينيت (Daniel Dennett): بروفسور الفلسفة الأمريكي، وأحدُ دعاة حركة الإلحاد الجديد. سيأتي تعريفٌ مفصَّل عنه في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين.

(٣) انظر: Publishers Weekly, 21 August, 2006

استخدام هذا المصطلح. وفي عام ٢٠٠٧م، عندما أصدر كريستوفير هيتشن[١] كتابه: «الإله ليس بعظيم: لماذا يسمّم الدين كلَّ شيء» (God is not Great: Why Religion Posions Everything)، انضمَّ إلى هؤلاء الدُّعاة الثلاثة، وأُطلق عليهم: الفرسان الأربعة[٢]. ويعتبر هؤلاء الأربعة هُم أكبرَ دعاة الإلحاد في هذا العصر، وإنْ وُجد دعاةٌ آخرون يدعون إلى هذا الإلحاد الجديد.

للتعرُّف على الإلحاد الجديد ينبغي فهمُ السِّمات الخاصة التي يتميّز بها عن الإلحاد القديم، ومن ثمَّ ذكر أبرز رموز هذه الحركة مع التعريف المختصر بكتبهم الدعوية.

سماتُ الإلحاد الجديد:

الإلحادُ الجديد تميَّز بسماتٍ خاصَّة عن الإلحاد القديم في أوروبا الغربية - وإن كانت بعضُ هذه السمات موجودة في الدول الشيوعية - ؛ وهي كالتالي:

- **السِّمةُ الأولى: العداوةُ الشديدة لجميع أشكال التديُّن - ولا سيَّما الإسلام - :**

كان الملاحدةُ الشيوعيون يستخدمون العنفَ في نشر الإلحاد كما سبق ذكره. وأمّا الملاحدةُ الغربيون في القرن العشرين - مثل: راسل، وسارتر، وفرويد، وفلو - فكانوا يدْعون إلى الإلحاد، ولكنهم لا يعادون أصحابَ الديانات عداوة شديدة، ولا يدعون إلى استخدام العنف. ولكنَّ الملاحدة الجدد يبْدون عداوةً شرسة لجميع أشكال التديّن، ولا سيَّما الإسلام، حتَّى أُطلق عليهم في الدوائر الغربية: «مليشيات الإلحاد» (Militant Atheists)[٣]. وتظهر هذه العداوة في كثير من كتاباتهم حتَّى وصل بهم الأمرُ إلى جنون الارتياب لكلِّ ما يتعلَّق بالأديان؛ فقد قال كريستوفير هيتشين في مقدّمة كتابه: «الإله ليس عظيمًا (God is Not Great) - تعالى اللهُ

---

(١) كريستوفير هيتشن (Christopher Hitchens)، صحفي ومؤلف بريطاني. سيأتي تعريفٌ مفصَّل عنه في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين.

(٢) انظر: New Atheism, The Oxford Handbook of Atheism (251)

(٣) انظر على سبيل المثال هذا المقال:
http://www.telegraph.co.uk/comment/personal-view/3638990/Militant- atheists-too - clever - for - their - own - good.html

عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - : «وأنا أكتبُ هذه الكلمات، وأثناء قراءتك لها، فإنَّ أصحاب الإيمان يخطّطون لتدميرك وتدميري، وتدمير كلِّ المنجزات المستحقَّة للبشرية، والتي مرَّت عليها. الدين يسمِّم كلَّ شيء»[1]. وبالتالي فإنَّ مِن أمنياتهم الأساسية أنَّ الدين يزول بالكلية، كما قال ريتشارد دوكينز: «أتمنَّى حقًّا أنْ يزول الدين تمامًا»[2]. وقد تجاوزَ الأمرُ مجرَّدَ التمنِّيات إلى الإرادةِ الجازمة أنَّهم لو مُكِّنوا من القضاء على الأديان لفعلوا ذلك، كما قال سام هاريس: «لو كان بإمكاني الحصولُ على عصًا سحرية، واستطعت القضاءَ إمّا على الاغتصاب أو الدين؛ لما تردَّدت أبدًا في القضاء على الدين»[3]. ويرى هاريس أنَّه يمكن أن يبرِّر قتلَ بعض الناس بسبب معتقداتهم، إذْ قال: «بعضُ المسائل من الخطورة بمكانٍ حيث يمكن أن يكون قتلُ مَن يعتقدها أخلاقيًّا»[4]، كما أنه يؤيِّد استخدام التَّعذيب[5]. ويخصِّص الملاحدة الجدد - ولا سيَّما هاريس - الإسلام بمزيدٍ من الحقد والعداوة، فيصرِّح بأنَّ الدول الغربية اليوم في حالة حرب بالدين الإسلامي إذ قال: «حانَ الوقت أن نعترفَ أنَّنا لسنا في حالة حرب مع الإرهاب. نحن في حرب مع الإسلام. لا يعني ذلك أنَّنا في حرب معَ جميع المسلمين، ولكن لا شكَّ أننا في حرب معَ منظور الحياة الذي هو مذكورٌ لجميع المسلمين في القرآن»[6]. ولا يمانع من استخدام السلاح النووي ابتداءً إذا حصلت دولةٌ إسلامية على القنبلة النووية؛ فيقول: «في مثل هذه الحالة فإنَّ الخيار

---

(1) God is Not Great (13)

(2) https://newrepublic.com/article/115339/richard-dawkins-interview-archbishop-atheism

(3) http://thesunmagazine.org/issues/369/the_temple_of_reason?page=2

(4) The End of Faith (52)

(٥) انظر:
http://www.huffingtonpost.com/sam-harris/in-defense-of-torture_b_8993.html

(6) http://www.washingtontimes.com/news/2004/dec/1/20041201-090801-2582r

الوحيد لضمان بقائنا قد يكون أنْ نبدأ نحن بضربة نووية أوَّلًا. لا ريبَ أنَّ هذه جريمة غيرُ منطقية - لأنه يؤدِّي إلى قتل عشرات الملايين من المدنيِّين في يوم واحد - ولكن قد يكون الخيارُ الوحيد لنا إذا علمنا ما يعتقده الإسلاميون»[1]؛ فهذا يبيِّن أنَّ الإلحاد الجديد هو إلحادٌ متطرِّف وعدواني، يشبه الشيوعية في عدوانيَّتها، ولكنَّ الفرق أنَّ الشيوعيين تمكَّنوا من الحكم، وحمل الناس على مُعتقداتهم بقوَّة، وأمّا الملاحدة الجدد فلم يتمكَّنوا من السلطة.

- **السِّمةُ الثّانية: الحماسةُ في الدعوة إلى الإلحاد:**

الملاحدةُ الإلحادَ السلبي لا ينشطون في الدعوة إلى الإلحاد، بل يكتفون بعدم الاقتناع بوجود الله، بخلاف الملاحدة الإلحادَ الإيجابي يحاولون إقامةَ الأدلة على عدم وجود الله. وأمّا الملاحدة الجدد فإنَّهم يزيدون على ذلك بأنهم يتحمَّسون حماسةً شديدة في الدَّعوة إلى الإلحاد؛ وذلكم أن: «الإلحاد في سياقِه التاريخي إجمالًا يمثِّل خطابًا ميالًا نسبيًّا إلى قدرٍ من الحيادية من الموقف الديني، ولم يكنْ لديه تلك الحماسة الكبيرة لممارسةِ الدعوة والتَّبشير بقضية الإلحاد، بل كانت قضيةُ الإيمان في حسِّه قضيةً شخصية متعلِّقة بالأفراد، لا تستفزُّ الملاحدة كثيرًا، ولسانُ حال الواحد منهم أن قضيةَ الإيمان والكفر مسألةٌ شخصية، ومادام هذا المتديِّن لم يكسرْ لي رجْلًا أو يفقأ لي عينًا فليؤمن وليتديَّن كيف شاء. ولكنْ لحظة اصطدام الطائرتين ببرجي التجارة العالمي تغيّرت المعادلة تمامًا، وترسَّخ في وعي كثيرٍ من الملاحدة أنَّ قضية الإيمان والتديّن باتت مهدّدًا حقيقيًّا للبشرية، وأنَّ التزام ذلك الهدوء والحيادية من الدين لم يعدْ خيارًا مقبولًا، وأن من المتعيّن على الملاحدةِ اليوم السعيَ جدِّيًّا في استئصال مبدأ التديُّن من الحياة البشرية، وإحلال قضية الإلحاد كخيارٍ مُنقذ»[2]. فنجدُ الملاحدة الجدد ينشطون نشاطًا عظيمًا في نشر الإلحاد بطرقٍ ووسائل مختلفة. وقد خُصِّص المبحث القادم لبيان هذه الطرق والوسائل.

---

(1) End of Faith (128 129)

(٢) مليشيا الإلحاد (٢١).

- **السِّمةُ الثّالثة: الخطابُ الجماهيري:**

كان دعاةُ الإلحاد في القرنين الثامن والتاسع عشر في الغالب من الفلاسفة، وكانوا ينظِّرون للإلحاد بكتابة كتبٍ فلسفية عميقة لا يكاد يفهمُها إلّا المتخصِّصُ في الفلسفة. وكانتِ الأمية منتشرة جدًّا في تلك القرون؛ فعلى سبيل المثال كانت نسبة الأمية في العالم عام ١٨٢٠م ٨٨ ٪[١]. ولذلك لم تصلْ دعوة الإلحاد إلى عامة الناس إلاّ في بدايةِ القرن العشرين على يدِ الشيوعيين تحت ظلِّ البندقية. وأمّا في النصف الثاني من القرن العشرين فإنَّ الإلحاد بدأ ينتشر بين عامَّة الناس في الدول الغربية كما سبق ذكره. ولكنْ كان الإلحادُ في هذا القرن في الغالب مرتبطًا بمذهب من المذاهب الفكرية مثل: الوجودية، أو الاشتراكية أو الشيوعية. وأمّا الملاحدة الجدد فإنهم يدعون إلى الإلحاد بدون ربطِه بمذهبٍ فكري معيَّن؛ فالمهمُّ عندهم أنَّ الناس يكفرون بالله والأديان كلها بغضِّ النظر عنِ انتقاله إلى مذهب فكري معيَّن. ومن أدلِّ الأدلة على ذلك أن كريستوفر هيتشن أصدر كتابًا باسْم: «الملحد المتنقِّل: القراءات الأساسية لغير المؤمن» (The Portable Atheist: Essential Readings for the Non - Believer) وضمَّ فيه رسائل كثيرة للمَلاحدة في نقد الأديان. ومِن ضمن هؤلاء الملاحدة على سبيل المثال: كارل ماركس - وهو مؤسِّس الشيوعية -، وبرتراند راسل - وكان من دعاة الليبرالية-، وسام هاريس - وهو من أكبر المؤيِّدين لحرب الولايات المتحدة في العراق[٢] -، وستيفن هاوكينغ[٣] - وهو

(١) انظر: https: / /ourworldindata.org /literacy /

(٢) انظر:
http://mondoweiss.net/2012/09/sam - harris - in - full - court - intellectual - mystic - and - supporter - of - the - iraq - war/

(٣) ستيفن هاوكينغ (Stephen Hawking): بروفسور علمِ الكون في جامعة كامبردج سابقًا. وكان متردِّدًا في مواقفه تجاهَ الإيمان بالخالق، إلّا أنَّه أعلن إلحادَه الصريح في الأخير، ودعا الناسَ إلى ذلك في كتبه. توفي عام ٢٠١٨ م. وسيأتي تعريفٌ مفصَّل به في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين.

يصفُ حربَ الولايات المتحدة في العراق بأنها جريمة حرب[1] -. فهؤلاء الكتَّابُ لم يجمعْهم مذهبٌ فكري أو موقف سياسي، وإنما جمعهم الكفرُ بالله والأديان. وهذا أهمُّ شيء عند هيتشن ودعاة الإلحاد الجديد.

ولعلَّ مِن أسباب انفتاحهم على مذاهبَ فكرية متباينة مع التركيز على الدعوة إلى الإلحاد أنَّهم يريدون إيصالَ أصواتهم إلى جميع فئات المجتمع بغضِّ النظر عن الانتماء السياسي. ويلاحظ أنَّهم يستخدمون وسائلَ متنوِّعة ومبسَّطة للوصول إلى عامة الناس. فهُم ينشطون كثيرًا في وسائل التواصل بكتابةِ تغريدات تشكيكية عن الإيمان بالله. كما أنَّهم يعلِّقون لوحاتٍ دعائية للإلحاد في الشوارع وعلى الباصات في الدول الغربية. فبينما كان الملاحدةُ المتقدِّمون يدْعون إلى الإلحاد بنوع من العمق الفلسفي مستهدفين المفكِّرين في المجتمع فإنَّ الملاحدة الجدد يحاولون مخاطبةَ الجماهير بدعوتهم الإلحادية.

- **السِّمةُ الرّابعة: المغالاةُ الشديدة في العلوم التجريبية:**

كان أغلبُ دعاة الإلحاد في القرن التاسع عشر فلاسفة - مثل: شوبينهاور، وفيورباخ، وماركس، ونيتشي -، وكان إلحادُهم مبنيًّا على شبهات فلسفية. وكذلك كان حالُ كثيرٍ من دعاةِ الإلحاد في القرن العشرين - مثل: راسل، وفلو، وسارتر -. ولكن بعضُ دعاة الإلحاد في القرن العشرين - ولا سيَّما في النصف الثاني - كانوا من علماء العلم التجريبي، مثل: عالم النفس سيغموند فرويد، وعالم الكون كارل ساغان. ومع ذلكَ فإنَّهم لم يكونوا يغالون في قدرة العلم التجريبي كما حصل عند المتأخرين.

وأمّا الملاحدةُ الجدد فإنَّهم يركّزون كثيرًا على جانب العلم التجريبي، ويغالون في قدراتِه أيَّما مُغالاة. ويطلق على هذا الغلو: العلموية[2]. وهي مبنيَّة على المذهب

---

(١) انظر:
http://usatoday30.usatoday.com/news/world/2004-11-03-hawking-iraq_x.htm

(٢) العلموية: ثقةٌ مبالَغ فيها في فعالية أساليب العلوم الطبيعية المطبَّقة في جميع مجالات البحث (كما في الفلسفة والعلوم الاجتماعية والإنسانيات. انظر: قاموس ماريام ويبستر على الرابط:
https://www.merriam-webster.com/dictionary/scientism

الطبيعي والمادي، ولكنَّها تفوقه بمحاولة تفسير غير العلوم الطبيعية بالمنهجي التجريبي العلمي؛ قال داعي الإلحاد الجديد بيتر أتكنز: «لا داعي أن يُزعم أنَّ العلم التجريبي لا يستطيع أن يتعاطَى معَ جميع قضايا الوجود»[١]. ولهذا نجد الملاحدة الجدد يحاولون تفسيرَ كلِّ شيء بالعلم التجريبي؛ فقد ألَّف دانيال دينيت كتابه: «فكّ السحر: الدين كظاهرة طبيعية» (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon) وحاول تفسير التديُّن والإيمان بالله بالعلم التجريبي. وحاولَ سام هاريس أن يؤسِّس فلسفته الأخلاقية بالعلم التجريبي في كتابه: «المشهد الأخلاقي» (The Moral Landscape).

ويركِّز الملاحدة الجدد - ولا سيَّما ريتشارد دوكينز - كثيرًا على نظرية التطوّر، ويصف مَن لم يؤمنْ بها بأقبح الأوصاف؛ فقدْ قال: «إنه لمن الآمنِ تمامًا أنْ تقول إنَّ أي شخصٍ تقابله ممَّن يدَّعي عدم الإيمان بالتطوّر؛ أنَّ هذا الشخص إمّا أن يكون جاهلًا، أو غبيًّا، أو مجنونًا، أو شريرًا، لكنِّي أفضِّل عدمَ اعتبار الوصف الأخير»[٢]. فدوكينز ومَن معه يروْن أنَّ معارضة هذه النظرية مساويةٌ للجنون والغباء والجهل؛ فهذا يدلُّ على شدَّة مغالاته في النظريات العلمية عمومًا، ونظرية التطوُّر خصوصًا.

---

(1) Nature’s Imagination: the Frontiers of Scientific Vision (125), ed. John Cornwell, Oxford University Press (1995)

(2) Book Review of Donald Johanson and Maitland Edey’s Blueprint. The New York Times. Section 7, 34

المبحثُ الرّابع

خطورةُ الإلحاد

أَلَّف داعي الإلحاد الجديد كريستوفير هيتشن كتابَه: «الإله ليس عظيمًا - كيف يسمِّم الدين كلَّ شيء -»، وحاول أن يبرهنَ على خطورة الأديان على البشرية. ولكن عندَ النظر والتأمُّل يفهم الإنسانُ أنه لا يوجد شيء أخطرُ على البشرية من الإلحاد. والإلحادُ هو الذي يسمِّم كلَّ شيء؛ فإنَّ الإلحاد يمثِّل خطورة على العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلم، والأخلاق والإنسانية جمعاء. وبيان ذلك كالآتي:

خطورةُ الإلحاد على العقيدة:

الإلحادُ أسوأ درجاتِ الكفر وأخطرُه وشرُّه على الإطلاق؛ لأنَّ الملحد ينكر جميعَ أركان الإيمان؛ فالإيمانُ كما قال رسول الله (ﷺ): «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيرِه وشرِّه»[1]، وأمّا الملحدُ فإنه ينكر وجودَ الله، وبالتالي يكفر بملائكةِ الله وكتبه ورسله، واليومِ الذي يحاسب اللهُ فيه العباد وقضائه وقدره.

إنَّ الله أخبرَ عن قومٍ يؤمنون بالله ولكن يكفرون ببعض الرسل، إذْ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٠] ولم ينفعهم إيمانهم بالله حيث حكمَ اللهُ عليهم بـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥١] فكيف بمن ينكرُ الله وجميعَ الرسل، بل ينكر جميعَ أركان الإيمان؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١)، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، (١ / ٣٦)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقال اللهُ تعالى عمَّن نسب إليه الولد: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴾ [مريم:٨٨ - ٩١]، فكيف بمَن أنكرَ وجود الله، ونسبَ إليه أعظم الشتائم، وجعل ديدنَه السخرية بمن يؤمن به؟

إنَّ الشركَ الأكبر أعظمُ مِن جميع الذنوب في الدنيا، ويترتَّب على الشركُ بالله ما لا يترتَّب على غيره من الذنوب، مثل:

١) فيَحرم صاحبَه من الجنة، يخلِّده في النار إنْ مات عليه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة: ٧٢].

٢) ويُحبِط جميعَ الأعمال؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

٣) ولا يُغفَر إلّا بالتوبة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

والإلحادُ تعطيلٌ محْض؛ فهو شرٌّ مِن الشرك كما قال الإمام ابن القيم: «والتعطيل شرٌّ من الشِّرك، فإنَّ المعطلَ جاحدٌ للذات أو لكمالها. وهو جحدٌ لحقيقة الإلهية»[(١)]. فكلُّ أحكامِ الشرك المذكورة تنطبقُ على الإلحاد من باب أولى. وذلك يدلُّ على شدَّة خطورة الإلحاد على العقيدة.

خطورةُ الإلحاد على الفطرة:

قد قال رسولُ الله ﷺ (كلُّ مولودٍ يولَد على الفطرة)[(٢)]، وهذه الفطرة قوةٌ تقتضي اعتقادَ الحقِّ والإقرار بوجود الخالق ومعرفته والإيمان به، كما أنَّها تقتضي محبَّته

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢ / ٢٣٨)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيِّم الجوزية، (دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١٣٨٥)، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، (٢/ ١٠٠). وأخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٨)، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، (٤ / ٢٠٤٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وإخلاصَ الدين له[١]. والدينُ الإسلامي موافقٌ لهذه الفطرة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، والفطرةُ المذكورة في هذه الآية هي الإسلام[٢]. وإذا كان الإسلامُ دينَ الفطرة، فإنَّ الإلحاد عكسُه تمامًا، بل لا يوجد معتقدٌ يخالف الفطرة أكثر من الإلحاد؛ لأنَّ الملحدَ لا يقرُّ بوجود الله ولا يعرفه ولا يؤمن به، وبالتالي لا يحبُّه ولا يخلص عمله له.

وكوْن الملحد بعيدًا عن فطرته يورِّث وحشة بين الروح والجسد والشعور بالكآبة والتعاسة. وقد صرَّح البروفسور الملحد بيتر أتكنز[٣] بالحقيقة المرَّةِ لمنظور حياة الملحد إذْ قال: «نحن أبناءُ الفوضى، والمكوِّن الأصيل لكلِّ تغيُّر هو الفناء، في الجذر ليس ثمَّ إلا الفساد، وامتدادُ الفوضى الذي لا يمكن اقتلاعه، الغايةُ ضائعة وما تبقى هو الطريق، هذه هي الكآبةُ التي يجب أن نتقبَّلها حين نمعنُ النظرَ بعمق وعقلانية في قلب الكون!»[٤]. فكيف يشعرُ الملحدُ بسعادةٍ بعد سماع هذا الكلام الذي تقشعر منه الجلود؟

وقد أجريت دراساتٌ علمية حديثة، وخلُصَت إلى أنَّ الإنسان المتديّن يشعر بسعادةٍ أكثر من الملحد[٥].

والسببُ الحقيقي لشعورِ الملحد سعادة أقلَّ من المؤمن هو بعدُه من الفطرة والجفاف الروحي؛ قال الإمام ابنُ القيم (رحمه الله): «ففي القلب شعث، لا يلمُّه إلّا الإقبالُ على الله.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل: (٨ / ٤٥٨ - ٤٥٩)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ، ت. محمد رشاد سالم).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٨ / ٧٥)، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، (وزارة عموم الأوقاف والشئون الإسلامية في المغرب، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، عام النشر: ١٣٨٧ هـ).

(٣) بيتر أتكنز (Peter Atkins): بروفسور الكيمياء في جامعة أكسفرود المشهورة ببريطانيا، وهو أحد دعاة الإلحاد، وسيأتي التعريف المفصَّل به في مبحث: أشهر دعاة الإلحاد المعاصر.

(4) Unweaving the Rainbow (4)

(٥) البحث: Is Faith a Delusion? (٨), by: Andrew Sims وهو منشور على الرابط:
https://www.rcpsych.ac.uk/docs/default-source/members/sigs/spirituality-spsig/is-faith-delusion-andrew-sims-editedx.pdf?sfvrsn=59a019c0_2

وفيه وحشةٌ لا يزيلها إلّا الأنسُ به في خلوته. وفيه حزن لا يُذهِبه إلّا السرور بمعرفته وصدق معاملته. وفيه قلقٌ لا يُسْكنه إلا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه. وفيه نيران حسرات لا يُطفئها إلّا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه. وفيه طلبٌ شديد لا يقفُ دونَ أن يكون هو وحده مطلوبه. وفيه فاقةٌ لا يسدّها إلّا محبته، والإنابة إليه، ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له. ولو أعطيَ الدنيا وما فيها لم تسدّ تلك الفاقة منه أبدًا»[(١)].

ويحاول الملاحدةُ سدَّ هذا الخواء الروحي والبعد عن الفطرة فيقعُ في أعظم أنواع التَّناقض، فـ«إنَّ هذا الخواء الروحي الذي يبتلع الإلحاد، قد جعل منه مسخًا بأيدي أتباعِه، فالملحدُ الذي هربَ من الأديان ذهبَ فنحتَ بيديه صنمًا من الصلصال يعبده، ليشبعَ هذه الصرخة التي تزلزل كيانه، ويروي هذه الروحَ العطشى في داخله، فإذا به قد تركَ الإله وعبدَ الطبيعة، وعصى الله وأطاعَ البشر، وزعم أنَّ الطبيعة أمُّه ثمَّ دار عليها يعقُّها ويهجوها، وهجرَ الشرائع واتَّبع فلسفة العلم، وكره علماءَ الدين وقدَّس كهنة الإلحاد، ونعَى على المتديِّنين التقليد، وباتَ معلّقًا قلبَه بما يقوله له روّاد المعامل، واستنكرَ الولاء والبراء، وكره مُعتنقي الأديان، واستنكرَ في الدين مخاطبة العواطف وذهب حائرًا يبحث عمّا يخاطب عاطفته، وادَّعى الثقة والجزعُ يملؤه، وأظهر اليقينَ والحنينُ يغزوه، ولو انعتقت روحُه من إسارِ جسده لصرخت في الناس تطلب النجاة»[(٢)].

خطورةُ الإلحاد على العقل:

يدندنُ الملاحدة حولَ كوْنهم يقدِّسون العقل، ويرفعون من شأنه، ويفضِّلون تسمية أنفسِهم بالعقلانيّين[(٣)].

ولكنْ عندَ النظر والتدقيق يرى الإنسان أنَّ الإلحاد يشكِّل خطورة على العقل، وذلكَ من ثلاثة أوجه:

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٥٦).

(٢) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (٣٣)، لحسام الدين حامد، (مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، ٢٠١٥ م).

(٣) انظر على سبيل المثال:

http://www.bbc.co.uk/religion/religions/atheism/types/rationalism.shtml

الوجهُ الأوَّل: عدمُ الثقة بالعقل: جميعُ الملاحدة الجدد يؤمنون أنَّ هذا الكون ظهر في الوجود مُصادفة، وأنَّ الإنسان وعقلَه نتيجة تطوُّر بالصدفة؛ فكيف يمكننا أن نثق بهذه العقول أصلًا؟! قال الدكتور جاسون ليزلي[١]: «حيث إنَّ الإله خلق الكون وخلق الذِّهن؛ فمِن المنطقي أنَّ عقولنا لديها القدرةُ على دراسة الكون وفهمه. لكن إذا كان الدماغُ مجرَّد نتيجةٍ لعملية تطوُّرية غير عاقلة تحمل نوعًا من قيمة البقاء على قيد الحياة في الماضي؛ فلماذا يجب أن نثقَ بنتيجتها؟ إذا كان الكونُ والعقول بكلِّ بساطة مجرّدَ نتائج للوقت والصدفة كما يؤكِّد الملحد؛ فلماذا نتوقَّع بأنَّ عقلنا يمكنه أن يجعل الكون ذا مغزًى؟ كيف ستكون العلوم والتقنية ممكنة؟»[٢].

وقد أدركَ تشارلز داروين - مؤسِّس نظرية التطوّر - هذه الخطورةَ حين كتب لأحد أصدقائه: «ينتابني دائمًا شكٌّ فظيع حولَ ما إذا كانت قناعاتُ عقل الإنسان - والذي بدوْره تطوَّر من عقول كائنات أدنى - تتمتَّع بأيّ قيمة، أو تستحقّ أدنى ثقة»[٣]. فالملحدُ قد يتظاهر بأنَّه عقلاني، ولكن مذهبه ينقض الثقةَ بالعقل أصلًا.

الوجهُ الثّاني: مخالفةُ الملاحدة لبديهةِ العقل: قسَّم علماءُ المنطق علمَ التصديق إلى قسْمين: الضروري البديهي والنَّظري الكسبي[٤]. والعلمُ الضروري هو الأصل الذي يبنَى عليه العلمُ النظري؛ «وأمّا القضايا الضرورية والبديهية؛ فقد اتَّفق علماءُ المعقول أنها رأسُ مال العقل، وأنَّ النظر إنما يرجى منه حصولُ المقصود ببنائه عليها،

---

(١) جاسون ليزلي (Jason Lisle): عالم فلكي أمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء الفلكية من جامعة كولورادو بالولايات المتَّحدة. وهو أحد علماء الغرب البارزين في نقد الخطاب الإلحادي. انظر: https: / /answersingenesis.org /bios /jason – lisle/

(2) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 69

(3) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.285

(٤) انظر: آداب البحث والمناظرة (٣ - ٤)، لمحمد الأمين الشنقيطي، (دار عالم الفوائد، الطبعة الثالثة، ١٤٣٣ هـ).

وإسناده إليها»[1]. ودليلُ السَّببية من أوضح المسلَّمات العقلية، لأنَّ العقل «ليس هو شيء أكثر مِن إدراكه الموجودات بأسبابها، وبه يفترقُ عن سائر القوى المدركة، فمَن رفع الأسبابَ فقد رفعَ العقل...[و] المعرفة بتلك المسبِّبات لا تكون على التمام إلا بمعرفة أسبابها، فرفعُ هذه الأشياء هو مبطلٌ للعلم، ورفعٌ له، فإنه يلزمُ أن لا يكون ها هنا شيء معلوم أصلًا علمًا حقيقيًّا، بل إنْ كان فمَظنون، ولا يكون ها هنا برهان، ولا حدَّ أصلًا... ومَن يضع أنَّه ولا علمٌ واحد ضروري[2]، يلزمُه أن لا يكون قولُه هذا ضروريًّا»[3]. ودليل السَّببية إحدى المقدِّمات لعددٍ من الحجج على وجود الله - كما سيأتي ذكرُه في الفصل الأوَّل من الباب الثاني إن شاء الله -. ولهذا يحاول الملاحدةُ أن يشكّكوا في دليل السَّببية. وكان ديفيد هيوم مِن أشهر مَن نظَّر للتشكيك في هذا البرهان العقلي الضَّروري، حيث قال: «إنَّ معرفتنا بالأسباب لم تحصَّل ألبتَّة من خلال البداهة العقلية، وهي تأتي دائمًا من تجربتنا في اكتشاف أنَّ أشياء مخصوصة ترتبط دائمًا بأخرى»[4].

وحين ظهرت نظريةُ التطوُّر، وسلَّم الملاحدة للحقيقة أن للكون بداية؛ فوقعوا في حرجٍ كبير، لأنَّه إذا كان للكون بدايةٌ فهوَ حادث، وكلُّ حادث لا بدَّ له من محدث. وللخروج مِن هذا المأزق شكَّكوا في دليل السببية؛ بل صنَّف البروفسور الملحد لورانس كراوس كتابه: «الكون من لا شيء» (Universe from Nothing) للتدليل على إمكانية حدوثِ الكون من العدم، مع أنه يخالف العقل الضروري.

---

(١) القائد إلى تصحيح الاعتقاد (٣٨).

(٢) هكذا في الأصل.

(٣) تهافت التهافت (٧٨٥)، لأبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي، (دار المعارف ١٩٧٣م، سليمان دنيا).

(4) An Enquiry Concerning Human Understanding (19), by David Hume, (Oxford University Press 2007).

وقد وصل الأمرُ بالملاحدة الجدُد إلى أنَّهم لا يشكِّكون في المسلّمات العقلية فحسْب، بل يشكِّكون في المسلَّمات الشعورية أيضًا مثل: الإرادة الحرّة والقدرة على الاختيار؛ فيروْن أنَّها مجرّدُ وهْم. وهذا ما ينظِّر لها سام هاريس في كتابه: «حرية الإرادة» (Free Will). وسيأتي مبحثٌ خاصٌّ عن هذه المسألة في الفصل الثالث من الباب الثالث بعنوان: سلب الإرادة.

والخلاصةُ أنَّ الإلحاد يشكِّل خطورة على البديهيات العقلية والشعورية.

الوجهُ الثّالث: المخدّرات: سبقَ الكلام عن أنَّ الإلحاد يخالف الفطرة، ويسبِّب فراغًا روحيًّا عظيمًا. ولملء هذا الفراغ الروحي يلجأ كثيرٌ من الملاحدة - بحسب بعض الدِّراسات العلمية - إلى استخدام المخدّرات لتخفيف الآلام النفسية؛ قال جون باسكيني[1] - الكاتب الأمريكي المشهور بنقد الإلحاد - : «قام التوجّه إلى النَّفس - الذي عزَّزته أداةُ الإلحاد التبشيرية المتمثِّلة في وسائل الإعلام - بخلق الذات الفارغة. ومع عدم وجودِ إلهٍ لملء ذلك الفراغ، أصبحت المخدّرات الاختيارَ الأكثر نشاطًا»[2].

وقامتْ دراساتٌ علمية عن استخدام المخدّرات؛ فوجد العلماءُ أنَّ الملاحدة أكثر استخدامًا لها مِن المؤمنين بالله. ومِن هذه الدراسات دراسةٌ علمية في سويسرا، وكانت خلاصةُ الدراسة كالآتي: «الشبابُ السويسريّون المؤمنون بالله أقلُّ عرضة لشرب الدخان وتعاطي حبوبِ إكستاسي[3] من الرجال السويسريين الملاحدة في السن نفسه. الإيمان عاملٌ حمائي للسلوك الإدماني»[4].

---

(١) جون باسكويني (John Pasquini): قسيس أمريكي كاثوليكي. قد ألّف عددًا من المؤلفات، ولكن من أبرزها كتاب: اضطراب شخصية الملحد. انظر التعريف به في الصفحة الخلفلية لكتاب: Atheist Personality Disorder.

(2) Atheist Personality Disorder (21)

(٣) إكستاسي (Ecstasy): مخدّر اصطناعي غير قانوني من نوع أمفيتامين، وينتج آثارًا بهيجة. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /ecstasy

(4) http://www.news-medical.net/news/20131004/Men-who-believe-in-God-less-likely-to-take-drugs-than-atheists.aspx

خطورةُ الإلحاد على العلوم:

إنَّ الملاحدة الجدُد يتظاهرون بالاهتمام بالعلم مثلَما يتظاهرون بالاهتمام بالعقل؛ فقدْ سمَّى ريتشارد دوكينز مؤسستَه الدعوية بـ«مؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم». ولكنْ كما أنَّ الإلحاد يخالف العقلَ الصريح ويشكِّل خطورة عليه، فإنه يخالف العلمَ ويشكِّل خطورةً عليه. وتتبيَّن خطورة الإلحاد على العلم من وجهين:

الوجهُ الأوَّل: إنكارُ أصل العلوم: الملحدُ ينكرُ وجود الله؛ والعلم بالله هو أعلى العلوم وأصلُها ومنتهاها؛ قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله) عن العلم بالله: «والعلم به أعلى العلوم، وغايةُ العلوم، ومنتهى العلوم، وتحقيقُ العلوم، وأصل العلوم. وإنْ كان العلمُ بغيره أسبقَ إلى بعضِ الأذهان من العلم به، أو يكون دليلًا على العلم به؛ فالعلمُ به معَ كونه أعلى وأكمل وأنْفع، فإنَّ الحاجة إليه ضرورية، وإنه لا صلاحَ للعبد إلّا به، ولا سعادة بدونه؛ فهو أصلٌ لتحقيق تلك العلوم التي به يستحقُّ أن تكون علومًا»[1].

ولذلك كان إنكارُ الخالق بمنزلة إنكار العلوم؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): «وتأمَّل حالَ العالم كله، علويِّه وسفليِّه، بجميع أجزائه: تجده شاهدًا بإثبات صانعه وفاطرِه ومليكه، فإنكارُ صانعه وجحدُه في العقول والفطر بمنزلةِ إنكار العلم وجحده، لا فرقَ بينهما»[2].

وقد تنبَّه بعضُ علماء الغرب إلى هذا الأمر، وذكروا أنَّ الإيمان بالله كان السببَ الرئيسَ للاكتشافات العلمية؛ قال البروفسور سي. أس. لويس[3]: «أصبح الناس

---

(١) شرح الأصبهانية (١١٠)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، (مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ، ت. محمد بن عودة السعوي).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١ / ٨٢).

(٣) سي أس لويس (C. S. Lewis): بروفسور الأدب في جامعة كامردج ببريطانيا، وأحد أشهر أدباء في القرن العشرين، وبيعت منها أكثر من ١٠٠ مليون نسخة. كان ملحدًا، ثمَّ تنصَّر وألَّف كتبًا كثيرة في الدعوة إلى النصرانية ونقد الإلحاد. توفي عام ١٩٦٣ م. انظر:
https://www.cslewis.com/us/about-cs-lewis/

علماء لأَنَّهم توقّعوا وجودَ قانون في الطبيعة، وسببُ توقُّعهم وجود القانون: إيمانُهم بوجود واضعٍ للقانون»[1].

وكان هذا هو الدافعَ الأساسي للنهضة العلمية التي شهدتها أوروبا؛ قال البروفسور جون لينوكس: «غليليو ومثله نيوتن وكذلك معظمُ آباء العلم الأوائل العظام الذين ساهموا بالنهضة الكبيرة للعلم وقتئذ؛ لم يجدْ أيٌّ منهم أنَّ الإيمان بالله خالقًا للكون يعيق عملَهم بأيِّ درجة من الدرجات، بل إنَّهم رأوا الإيمان محفِّزًا إيجابيًّا لعملهم العلمي. في الواقع اعتبر كثيرٌ منهم الإيمانَ بالله دافعَه الرئيسي للمضي في البحث العلمي»[2]. فإنكارُ الخالق إنكارٌ لأصل العلوم وجحدُ الدافع الرئيس لتعلّمها.

الوجهُ الثّاني: محاربةُ الملاحدة للعلماء وبعض النظريات العلمية: الملاحدة يدَّعون محبَّة العلم التجريبي وتعظيمَه. ولا تفترُ ألسنتَهم من التذمُّر من محاربة الكنيسة للعلماء في العصور الوسطى. ولكنَّ محبَّة الملاحدة للنظريات العلمية تقتصر على النَّظريات المبنيةِ على المذهب المادي الطبيعي. وأمّا إذا كانت نظرية من نظريات العلم التَّجريبي تخالف المذهبَ المادي فإنَّهم يحاربونها بشدَّة، بل يحاربون العلماء بما تشبه محاربة محاكم التفتيش في العصور الوسطى.

وقد وقعَ ذلك في أيام الشيوعية، كما أنه واقعٌ الآن بين الملاحدة الجدد؛ فلما استولى لينين على الحكم بدأ يحاربُ المثقَّفين والمتعلِّمين حيث رآهم معادين للطبقة العاملة؛ فبدأ بتهجيرهم من الاتِّحاد السوفيتي إلى ألمانيا عبرَ البحر بما يسمَّى «بواخر الفلاسفة»[3]. وكان الزعيمُ الملحدُ جوزيف ستالين يحرِّم جميعَ العلوم التي تتعارض مع الإلحاد؛ فقامَ بتحريم قوانين مندل للوراثة لأنَّها تتعارض مع الحتمية المادية الإلحادية[4].

---

(1) God's Undertaker: 21

(٢) المصدر السابق (١٠)

(٣) انظر: The_Philosophers_Ship/٣١/https://philosophynow.org/issues

(٤) انظر:

Science in Russia and the Soviet Union (130), by Loren R. Graham, (Cambridge University Press, 1993)

وكان الأمرُ أسوأ في الصين خلالَ الثورة الثقافية في أيام الزعيم الملحد ماو تسي تونغ؛ فماو هذا هو الذي افتخرَ بدفن ٤٦ ألف عالم وهُم أحياء. وكان يلزم أساتذةَ الجامعات بلبْس ملابس مُهينة وتغطية وجوههم بالحبْر. كما أنَّ بعضهم ضُرب حتى الموت، بل وأكلَ جنودُ ماو جثثهم بعد وفاتهم(١)!

وكان الملحدُ الشيوعي بول بوت يستهدفُ المثقَّفين والمتعلِّمين خاصَّة خلال حكمِه؛ فكان يمنعُهم من ممارسة العلم والتعليم، وهجَّر مليونين ونصف نسمة من عاصمة كامبوديا إلى الأرياف للعمل بالزراعة(٢).

ويواصل الملاحدةُ الجدُد محاربةَ العلماء المتبنِّين للنظريات العلمية المخالفة للمذْهب المادي الطبيعي - ولكنْ بأقلَّ وحشية من إخوانهم الشيوعيين -؛ فمحاربةُ الملاحدة الجدد للعلماء المتديِّنين محاربةٌ فكرية بفصلهم من وظائفهم الأكاديمية، ومنع مزاولةِ تدريس نظريات مخالفة لنظرية التطوُّر، والسخرية منهم، إلى غير ذلك. وقد ألَّف الدكتور جيري بيرغمان(٣) كتابَه: «ذبح المنشقِّين.. الحقيقة الصادمة عن حقيقةِ قتلِ مهن المتشكِّكين في الداروينية» (Slaughter of dissidents.. the shocking truth about killing the careers of Darwin Doubters) في ٤٢٢ صفحة واصفًا الإرهاب النفسي الذي يمارسه الملاحدةُ الجدد تجاهَ معارضيهم في الأوساط العلمية. وقد بنى هذا الكتاب على مقابلة ثلاثمائة عالم وأكاديمي وطالبٍ جامعي في دراسات العلوم، وما منهم أحدٌ إلّا واشتكى مِن الإقصاء في الجامعات الغربية بسبب عدم موافقتهم للمذهب الدارويني.

---

(١) انظر:
http://www.heritage.org/asia/commentary/the - legacy - mao - zedong - mass - murder

(٢) انظر: http: / /www.history.com /topics /pol – pot

(٣) جيري بيرغمان (Jerry Bergman): عالم أمريكي وحامل تسع شهادات جامعية، منها الدكتواه في علم الأحياء. وهو أحد علماء الغرب البارزين في نقد خطاب الإلحاد المعاصر. وقد ألَّف في ذلك عددًا من الكتب والمقالات المهمة، منها: الكتابُ المشار إليه. انظر:
https://creation.com/dr - jerry - bergman

وعلاوةً على ذلك فقد أنتجَ أنصارُ نظرية التصميم الذكي الفيلم الوثائقي: «مطرودون - غير مسموح بالذكاء» - (Expelled: No Intelligence Allowed) عن الإقصاء في المجتمع العلمي الإلحادي في الغرب. وقد انتشرَ هذا الفيلم الوثائقي كثيرًا حتى تمَّ عرضُه في ١٠٥٢ مسرحًا في الولايات المتحدة، وهذا ما لم يحدث لأيِّ فيلم وثائقي قبلَه[1]؛ فدلَّ على الجوِّ المرعب الذي يعيشه المتعلِّمون المتديِّنون في الولايات المتحدة.

خطورةُ الإلحاد على الأخلاق:

يشكِّل الإلحاد خطورةً كبيرة على الأخلاق والقيم، لأنه « يمثِّل رؤية فلسفية مُتكاملة المعالم، ترفض الارتكانَ إلى أيَّة قوة غيبية، لكنَّها فقط تسلِّم بمعطيات العالم المادي! وفي هذا الإطار، تختفي القيمةُ والمعنى والمعيارية لكلِّ شيء في الوجود، وتسود الحتميَّة المادية الصارمة... وهنا لن يستوعبَ العقل المعنى ولا القيمة؛ لأنَّ العقل هو الآخرُ يتكوَّن من نفس الذرَّات التي يتكوَّن منها العالم المادي، وتحكمه نفسُ الحتميات المادية التي تحكم كلَّ ذرةٍ في هذا الوجود المادي الصّامت الخالي من الغاية والهدف والمعنى والقيمة»[2]. وأيُّ قيمة تبقى للإنسان إذا كان يعتقدُ ما يقوله الملحدُ ستيفن هوكينج: «الجنسُ البشري هو مجرَّد وسخٍ كيميائي، موجودٌ على كوكب متوسِّط الحجم»[3]؟

ولا يعترف الملاحدةُ الجدد بالأخلاق الموضوعية؛ فقد قال زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز: «الكونُ في حقيقته بلا تصميم، ولا غاية، **ولا شرٌّ ولا خير**، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية»[4].

وهذا الأمرُ يفتح البابَ أمام شرٍّ لا أوّلَ له ولا آخر، وتكون الأخلاق اعتباطيةً

---

(١) انظر: https: / /ncse.com /book /export /html/ ٤٨٩٦

(٢) الإلحاد يسمّم كل شيء (١٦ - ١٧)، لهيثم طلعت علي سرور، (دار نيو بوك للنشر والتوزيع، ٢٠١٦ م).

(3) (1995) From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(4) River Out of Eden (131-132)

ويكون كلُّ شيء مباحًا. وقد أدرك الأديبُ الروسي فيودر دوستويوفكسي هذا الأمرَ جيِّدًا فكتبَ في روايته الشهيرة الإخوة كارامازوف على لسانِ السجين (ميتا): «ولكن ما الذي سيصيرُ إليه الإنسان في هذا كلِّه بغير إله، وبغير حياةٍ آخرة؟ وإذًا، فمعنى هذا أنَّ كلَّ شيء سيكون مُباحًا بعد الآن، وأنَّ في وسْع الإنسان أن يفعل ما يشاء»[١]. ولا يعني ذلك أنَّ جميعَ الملاحدة ينكرونَ الأخلاق، بل بعضهم يهتمُّ بها ويعامل الآخرين بمعاملةٍ حسنة، وبعضُهم بعكس ذلك. ولكنْ لا يمكن في حقيقة الأمر أنْ ينكر أحدهما على الآخر بأنَّ هذا الأمر خطأ موضوعيًّا – وإنْ كان خطأً في نظر المنكر –. ونجد هذا الأمرَ واضحًا في تقريرات الملاحدة، فيقول البروفسور آرثر ألين ليف[٢]: «لا توجد طريقةٌ لإثبات أنَّ حرق الأطفال بقنابل النابلم هو شيء سيِّئ»[٣]. ويقول ريتشارد دوكينز: «اعتقادُك بأنَّ الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تمامًا»[٤].

كثيرٌ من الملاحدة لا يروْن جوازَ حرق الأطفال بالنابلم، ولا أن الاغتصاب، ولكن لا يمكنُهم القول بأنَّه خطأ موضوعي، وإنما هو خطأ في رأيه وهو خطأ حسب قانون البلد. فإذا اختلفَ القانون والعرف في البلد، فما المانع من ممارسة هذه الجرائم؟ ومن الأمثلة على ذلك أنَّه لما استولى الاتِّحاد السوفيتي الشيوعي الملحد على ألمانيا في آخر الحرب العالمية الثانية اغتصبَ الجنودُ الروس مليوني امرأة ألمانية[٥]. ولم يقمْ بهذا الاغتصاب ألفٌ ولا ألفا جندي، بل اشترك فيه أعدادٌ هائلة من ملاحدة

---

(1) The brothers Karamazov (788)

(٢) آرثر ألين ليف (Arthur Allen Leff): بروفسور القانون بجامعة ييل المشهورة بالولايات المتَّحدة، ودرَّس فيها ١٣ سنة إلى أن توفي عام ١٩٨١م. انظر:

https://www.nytimes.com/1981/11/04/obituaries/arthur - a - leff - is - dead - at - 46 - professor - at - yale - law - school.html

(3) Economic Analysis of Law Some Realism about Nominalism (454)

(4) http://www.anthonysmith.me.uk/2008/11/06/dawkins-on-rape/

(5) The Hour of the Woman: Memories of Germany's "Crisis Years" and West German National Identity". American Historical Review. 101 (2): 354-395

الروس. فحين وُجدَ التنظير الإلحادي بعدمِ وجود القيم والأخلاق الموضوعية، وفُتح بابُ الاغتصاب أمامَهم، واختفت المراقبةُ الأمنية قاموا بهذه الأفعال البشعة.

خطورةُ الإلحاد على الإنسانية:

إنَّ الإلحادَ لا يشكِّل خطورةً على عقيدة الإنسان، وفطرته، وعقله، وعلمه، وأخلاقه فحسب، بل إنَّه يشكِّل خطورةً على البشرية أجمع؛ فالتنظير الإلحادي بعدم وجود القيمِ والأخلاق الموضوعية معَ عدم الإيمان بمراقبة الله ومحاسبته للمجرمين في الآخرةِ يفتح البابَ على مصراعيه أمامَ القتلة والظالمين. وقد سبق في المبحث عن تاريخ الإلحاد أنَّ أوّلَ ما استولى الملاحدةُ واللادينيون على الحكم عقبَ الثورة الفرنسية أقاموا عهدَ الإرهاب الذي هلك فيه ما يقدّر بخمسمائة ألف من البشر.

وبعدَ صراعٍ طويل بين الدين والعلمانية في أوروبا نجحت الأخيرةُ في الوصول إلى الحكم في معظم دول العالم في القرن العشرين. وانقسمتِ العلمانية إلى ثلاثة مذاهب رئيسة في هذا القرن، وهي: الشيوعية، والنازية والرأسمالية[1]. وكلُّ هذه المذاهب تشترك في أصولٍ كلية مثل: فصل الدين عن مظاهر الحياة العامة - ولا سيَّما السياسة -، وتبنَّى المذهب المادي، والإيمان بنظرية التطوَّر[2]. وإن كانت هذه المذاهب تختلف في بعض القضايا السياسية كما أنها متفاوتةٌ في تطرُّفها تجاه الدين. وهذه المذاهب الثلاثة مسئولة عنْ أعظم المجازر التي عرفها البشرية؛ وبيان ذلك كالآتي:

النازية: وصلَ الزعيم النازي أدولف هيتلر إلى سدَّة الحكم عام ١٩٣٣، وانتحر عام ١٩٤٥. وخلالَ هذه الفترة استطاع أن يشعل الحربَ العالمية الثانية التي مات فيها حوالي ٤٨ مليون نسمة، منهم ٢٧ مليون مدني[3].

---

(١) ولا يعني ذلك أنَّ كلَّ مَن تبنّى هذه المذاهب الثلاثة ملاحدة، ولكنَّ هذه المذاهب الثلاثة اشتركت في أسسٍ إلحادية كثيرة، منها: أنها مبنية على المذهب المادي، ونظرية التطوّر، وفصل الدين من مظاهر الحياة العامة.

(٢) سيأتي مبحثٌ مستقلٌّ عن بيان علماء الغرب للشرور المترتبة على الإلحاد في الباب الأول، فلن أطيل هنا.

(٣) انظر: http: / /warchronicle.com /numbers /WWII /deaths.htm

الشيوعية: أقامَ لينين أوَّلَ دولة شيوعية عام ١٩١٧م، ثمَّ توالت الدول الشيوعية في مشارق الأرض ومغاربها. وفي عام ١٩٩٧م، أصدر مجموعة من الباحثين «الكتاب الأسود للشيوعية» (The Black Book of Communism) وأحصوا عددَ مَن هلك تحت حُكم هذه الدول مبلغ ٩٤ مليون نسمة.

الرأسمالية[1]: قد خاضتِ الدّول الرأسمالية - وعلى رأسها الولايات المتحدة - عددًا مِن الحروب، كما أنَّها تمارس السياسة الاستعمارية الاستغلالية للدول الفقيرة بناءً على القاعدة الداروينية: البقاءُ للأصلح. وقد أحصى بعضُ الباحثين عددَ القتلى بسبب سياساتِ الدول الرأسمالية الغربية بعد الحرب العالمية الثاني إلى عصرنا هذا أنه وصل ما بين ٥٠ - ٥٥ مليون نسمة[2].

فكان مجموعُ مَن مات بسبب سياساتِ هذه المذاهب الفكرية العلمانية الثلاثة في القرن العشرين ما يُقارب مائتي مليون نسمة. ولمّا انقرض هذا القرن الدموي ووقعت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر فكشَّرت حركة الإلحاد الجديد عن أنيابها مدّعين أنهم يريدون إنقاذَ البشرية مِن شرور الأديان. فكأنَّ هؤلاء نسوا أو تناسوا ما ترتّب على الإلحاد والعلمانية من الشُّرور في القرن المنصرم، وإلّا فكيف يقارن بين الألفين الذين ماتوا في تلك الأحداث الإرهابية والمائتي مليون الذين ماتوا بسبب الجرائم الإلحادية والعلمانية؟!

ولا يقف الأمرُ عند ذلك، بل سام هاريس الذي أشعلَ شرارةَ هذا المذهب يقترح إطلاقَ القنبلة النووية تجاه بلدٍ يستولى عليه إسلاميون نظرًا لخطورة ما يعتقدون، وإن ماتَ فيه عشرات الملايين في يوم واحد - كما سبق ذكره -.

فلا شكَّ ولا ريبَ إذًا أنَّ الإلحاد أعظم خطر على البشرية، لأنه يستهدف العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلم، والأخلاق، بل الإنسانية بأجمعها.

---

(١) الرأسمالية: نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، يقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الضرورية والكمالية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعًا في مفهوم الحرية، معتمدًا على سياسة فصل الدين نهائيًّا عن الحياة. انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب والجماعات المعاصرة (٢/ ٩١٠ - ٩١٨).

(٢) انظر: Noam Chomsky and Andre Vltchek on Western Terrorism from Hiroshima to Drone Warfare (1)

المبحثُ الخامس
أشهرُ دعاة الإلحاد الجديد

قد تقدَّم الحديثُ عن تاريخ الإلحاد في القرن الحادي والعشرين، وذكرت أنَّه يطلق على أشهرِ دعاة الإلحاد: فرسان الإلحاد الأربعة. ولهذا سأركِّز الحديثَ عنهم في هذا المبحث، ثمَّ أذكر بعضَ دعاة الإلحاد الآخرين غيرهم أيضًا.

فرسانُ الإلحاد الأربعة:

قدْ كثر دعاةُ الإلحاد في القرن الواحد والعشرين، ولكنِ اشتهرَ أربعة منهم أكثر من غيرهم بسببِ نشاطهم الدَّعوي المكثَّف، ويطلق عليهم الفرسان الأربعة (تشبيهًا بقصة فرسان رؤيا يوحنّا الأربعة المذكورة في العهد الجديد[1])[2]. وهؤلاء الأربعة هم: ريتشارد دوكينز، ودانيال دينيت، وكريستوفير هيتشن، وسام هاريس. وفيما يـأتي تعريف مختصرٌ بكلِّ واحد مِن هؤلاء الذين وُصفوا بالفرسان، معَ ذكر أهمِّ كتبهم في الدعوة إلى الإلحاد:

- **الأوَّل: ريتشارد دوكينز:**

ريتشارد دوكينز أكبرُ فرسان الإلحاد سنًّا، وأكثرهم شهرة، وأنشطهم دعوة. وُلد دوكينز عام ١٩٤١م في مدينة نيروبي[3] في دولةِ كينيا المستعمرة من قبل بريطانيا. انتقل دوكينز معَ والديه إلى بريطانيا وعمرُه ٨ سنوات. وقد تعرَّض لتحرُّش جنسي

---

(١) انظر: رؤيا يوحنا (٦: ١ – ٨).

(٢) انظر: New Atheism, The Oxford Handbook of Atheism (254)

(٣) نيروبي (Nairobi): عاصمة كينيا وأكبر مدنها. تقع هذه المدينة في جنوب وسط البلاد. انظر: https://www.britannica.com/place/Nairobi

من قبلِ المعلِّم في أيام الدراسة، وهو أمرٌ لا يزال يذكرُه وهو في السبعينيّات من عمره مما يدلُّ على أنه تركَ أثرًا في نفسيته[١]. تربَّى دوكينز في أسرةٍ نصرانية متديِّنة، وذكر أنَّه كان يؤمن بالله وهوَ صغير، وكان إيمانه مبنيًّا على دليلِ التصميم. وحين وصلَ عمره حوالي ١٥ سنة بدأ يقرأ عنْ نظرية التطوُّر، ورأى أنَّ لهذه النظرية تفسيرًا أحسن للتصميم في الطبيعة مِن الإيمان بالله، فألحدَ بسبب ذلك[٢]. التحقَ دوكينز بجامعة أكسفورد ودرس علم الحيوان، ونالَ شهادة الدكتوراه عام ١٩٦٦م[٣]. وقد تخصَّص في نظرية التطوّر حتى أصبحَ أشهرَ مدافعٍ لها في النصف الثاني من القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين. وقد نشر دوكينز - حتَّى هذا الوقت - ثلاثة عشَر كتابًا؛ عشر منها عن نظرية التطوّر، واثنين عن سيرة حياته، وواحدًا عن إنكار وجود الخالق.

ألَّف دوكينز كتابه الأوّل: «الجين الأناني» (The Selfish Gene) عام ١٩٧٦م. وتحدَّث هذا الكتابُ عن التطوُّر الثقافي لدى الإنسان، وأحدث ما يسمَّى بـ(مصطلح الميم)، وهو وحدةُ المعلومات الثقافية التي تنتقل من إنسانٍ إلى آخر كما ينتقل الجينات. ومِن الأمثلة على الميم: المعتقدات، والموضة، وأنماط اللباس. ويرى أنَّ بعض المعتقدات الموروثة مثل: الإيمان بالله أشبهُ ما يكون بفايروس منتقلٍ بين الأجيال. واشتهر هذا الكتابُ بهذه النظرية كثيرًا حتَّى بيعَ منه أكثرُ من مليون نسخة وترجم إلى ٢٥ لغة.

ولكنْ ظهرت انتقاداتٌ شديدة لهذه النظرية معَ مرور السنين، وتراجع شعبيتُه، حتى لا يكاد يظهرُ هذا المصطلح في الأبحاثِ العلمية اليوم[٤]. وقد كتب البروفسور

---

(١) انظر:
https://www.theatlantic.com/international/archive/2013/09/richard-dawkins-defends-mild-pedophilia-again-and-again/311230/

(٢) انظر:
https://www.theguardian.com/world/2003/feb/10/religion.scienceandnature

(٣) انظر: http: / /www.thefamouspeople.com /profiles /clinton – richard - dawkins - 2646.php

(٤) انظر:
http://science.jrank.org/pages/10160/Meme-Criticism-Memetic-Theory.html

أليستر ماكغراث[1] كتابًا في الردِّ على دوكينز، سمَّاه: «إله دوكينز - الجينيات، والميميات والهدف من الحياة -» (Dawkins' God, Genes, Memes, and the Meaning of Life) وخصّص بابًا من الكتاب لنقدِ هذه النظرية. وقد تلقِّيَ هذا الكتابُ بالقبول حتى أثنى عليه بعضُ كبار الملاحدة مثلَ مايكل روس[2].

واصلَ دوكينز مسيرةَ كتاباته، وأشهرُ هذه الكتب: «صانع الساعات الأعمى» (The Blind Watchmaker) عام ١٩٨٦م، و«صعود الجبل المستحيل» (Climbing Mount Improbable) عام ١٩٩٦م، و«كاهن الشيطان» (Devil's Chaplain) عام ٢٠٠٣م. كانت هذه الكتبُ تركِّز على الدعوة إلى الداروينية، والردِّ على القائلين بمذهب الخلق. وكانت لهجةُ النقاش هادئة نوعًا ما، ولكنَّه غيَّر هذه اللهجة عام ٢٠٠٦م حين أصدر كتابه: «وهمُ الإله» (The God Delusion). وقد خصَّص هذا الكتاب في الدعوة إلى الإلحاد، والردِّ على المعتقدات الدينية. وقد اهتمَّ بنقدِ أدلة وجود الله اهتمامًا كبيرًا كما أنَّه حاول أن يبيِّن للقارئ أنَّ الأديان خطيرة على البشرية؛ فلا بدَّ من الوقوف في وجهِها. ولذلك كانت لهجةُ دوكينز العدوانية في هذا الكتاب أشدَّ بكثير من لهجته في الكتب السابقة، وصُنِّف هذا الكتاب من ضمنِ كتب حركة الإلحاد الجديد. ولعل هذا الكتابَ أشهرُ كتابٍ داعٍ إلى الإلحاد في تاريخ البشرية؛ فقد تُرجم إلى ٣٥ لغة - منها اللغة العربية -، وقد بيعَ أكثرُ من ٣ مليون نسخة بلغته الأصلية. ولشهرة هذا الكتاب فقدْ تصدَّى له النصارى أكثرَ من أيِّ كتاب آخر؛ فقد كُتب عدد من الكتب في الردِّ عليه إضافة إلى عشرات المقالات.

ودوكينز لم يقتصرْ على كتابةِ الكتب فقط، بل هو نشيطٌ في مجالات أخرى مثل: عقد المناظرات مع النصارى؛ فقد ناظرَ البروفسور جون لينوكس مرّتين، والبروفسور أليستر ماكغراث، والبروفسور وليام لاين كرايغ، وغيرهم كثير.

---

(١) أليستر ماكغراث (Alister McGrath): عالم ولاهوتي بريطاني، بروفسور في تاريخ علم اللاهوت وحامل شهادة الدكتوراه في الفيزياء الحيوية. وهو من علماء الغرب البارزين في نقد الخطاب الإلحادي. انظر: http: / /alistermcgrath.weebly.com /biography.html

(٢) انظر:
http://eu.wiley.com/WileyCDA/WileyTitle/productCd-1405125381.html

وهو مسئول عن «مؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم» (The Richard Dawkins Foundation for Reason and Science) وهي مؤسسة تدعو إلى الإلحاد، ويدير موقعًا في إنترنت يعتبر أحدَ أشهر المواقع الإلحادية باللغة الإنجليزية.

شاركَ دوكينز في ١٤ فيلمًا وثائقيًّا، ولعلَّ أشهرها: أصلُ جميع الشرور؟ (The Root of All Evils?)، وهو فيلم وثائقي في جزئين كتبه وقدَّمه دوكينز نفسه. الجزء الأوّل كان في نقدِ الإيمان بالله، والجزءُ الثاني في التحذير من خطورة الإيمان والأديان.

- **الثاني: دانيال دينيت:**

دانيال دينيت أصغرُ مِن دوكينز بسنة، وأقلُّ منه شهرة ونشاطًا وكاريزما. وُلد دينيت عام ١٩٤٢م في الولايات المتّحدة، ولكنَّه انتقل إلى لبنان لأنَّ أباه كان عميلًا في الاسْتخبارات في السفارة الأمريكية هناك. لمّا بلغ دينيت خمس سنوات توفّي والده في حادثٍ غامض، فاضطرَّ أن يرجع إلى الولايات المتحدة مع أمِّه، ونشأ في ظلِّ حادث والده. بدأ يهتمُّ بالفلسفة وعمرُه ١١ سنة، ودرسها في جامعة هارفارد، ثمَّ أخذ شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد[١].

قد ألَّف دينيت سبعةَ عشَر كتابًا في الفلسفة، أوَّلها: «العواصف الذهنية: مقالات فلسفيَّة عن العقل وعلم النفس» (Brainstorms: Philosophical Essays on Mind and Psychology) عام ١٩٨١م، ثمَّ تتابعت كتبُه إلى يومنا هذا[٢]. ومدارُ هذه الكتب على أربعة موضوعات: حرية الإرادة، وحقيقة الوعي وفقَ المذهب المادي، ونظرية التطوّر، ونقد الأديان.

وفي عام ٢٠٠٦م، انضمَّ إلى الفرسان الأربعة وألَّف كتابه: «فكُّ السحر: الدين كظاهرة طبيعية» (Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon)، وهو أشهر كتبِه في نقد الأديان. قسَّم دينيت هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر: Daniel Dennett: Autobiography, part 1
https://philosophynow.org/issues/68/Daniel_Dennett_Autobiography_Part_1

(٢) انظر: http: / /ase.tufts.edu /cogstud /dennett/

الأوّل: جادلَ فيه أنه لا بدَّ أن تتمَّ دراسة الدين عن طريق العلم التجريبي.

الثّاني: استخدمَ فيه علم التطوُّر الثقافي (الميم) الذي أحدثه ريتشارد دوكينز لتفسير ظاهرة الدين.

الثّالث: حلَّل فيه آثارَ الأديان في العالم اليوم بطريقة نقدية؛ فهذا الكتاب يشبه كتابَ فرويد عن نشأة الأديان من بعض الوجوه. التحليلُ يختلف، ولكن يشتركان في تفسيرِ نشأة الأديان بطريقة مادية بحتة.

- **الثّالث: كريستوفير هيتشن:**

ثالثُ الفرسان الأربعة هوَ الصحفي البريطاني كريستوفر هيتشن. وُلد عام ١٩٤٩م، في بريطانيا مِن والديْن يهوديَّين[١]. وحينَ بلغ ١٨ من عمره بدأ يدرس في جامعة أكسفورد موضوعاتٍ مختلفة، مثل: الفلسفة، والسياسة والاقتصاد. وانضمَّ في هذه الفترة إلى جماعةٍ شيوعية؛ ففقدَ إيمانه وترك التديُّن مطلقًا[٢]. تخرَّج هيتشن في جامعة أكسفورد، وعملَ مراسلاً لجماعتِه الشوعية، ثمّ تنقَّل في العمل الصحفي بين الصحف والمجلات. وكان يهتمُّ بكتابة المقالات السياسية بمنظورٍ يساري اشتراكي. كما أنه ألَّف ثلاثةَ عشَر كتابًا في موضوعاتٍ مختلفة. تغيَّرت حياة هيتشن عندَ حادثة الحادي عشر من سبتمبر فغيَّر فكرَه السياسي وتركَ الاشتراكية - وإنْ كان محافظًا على تعظيم كارل ماركس[٣] - وأيَّد الاحتلال الأمريكي لأفغانستان والعراق لأنَّه رأى أنَّ الإسلام «المتطرِّف» هو أكبرُ تحدٍّ للعالم الديمقراطي[٤].

---

(١) انظر:
http://www.slate.com/articles/news_and_politics/fighting_words/features/2010/hitch22/the_commander_my_father_eric_hitchens.html

(٢) انظر: http: / /www.nytimes.com/2011 / 12 / 16/arts/christopher - hitchens - is - dead - at - 62 - obituary.html

(٣) انظر: https: / /www.theatlantic.com/magazine/archive/2009 / 04/the - revenge - of - karl - marx/307317/

(٤) انظر:
http://www.salon.com/2016/02/14/christopher_hitchens_last_years_islam_the_iraq_war_and_how_a_man_of_the_left_found_his_moment_by_breaking_with_the_left/

وإذا كان هيتشن ملحدًا من أيامِ دراسته فإنَّه تطرَّف أكثر في إلحاده بعد أحداث ٢٠٠١م، حتَّى انضمَّ إلى ركب الفرسان الأربعة عام ٢٠٠٧م بإصدار كتابه: «الإله ليس عظيمًا: كيف يسمّم الدين كلَّ شيء» (God is not Great: How religion poisons everything). وقد عدَّد في هذا الكتاب ما رأى أنَّه من الآثار السيئة والخطيرة للأديان، ثمَّ ختمَه بخلاصة أنَّنا بحاجةٍ إلى عصر تنويري جديد تتخلَّص فيه البشرية من الأديان. وقد اشتهرَ هذا الكتاب كثيرًا حتى أصبح بعدَ أسبوع من إصداره ثاني أكثر الكتب مبيعًا على موقع أمازون[1] - وهو أكبرُ موقع تجاري في العالم -، وكان الأوّلَ في قائمة نيو يورك تايمز لأكثرِ الكتب مبيعًا - وهو يعتبر أشهرَ قائمة أكثر الكتب مبيعًا في الولايات المتَّحدة - ؛ فدلَّ ذلك على شدَّة انتشار هذا الكتاب ومدى رواجه في العالم عامة، وفي الولايات المتَّحدة خاصة.

وبعدَ إصدار هذا الكتاب بأشهرٍ صدرَ كتابه الثاني في الدعوة إلى الإلحاد، وهو: «الملحدُ المتنقِّل: قراءات أساسية لغير المؤمن» (The Portable Atheist: Essential Readings for the Non - Beliver). وهو كتابٌ جمع فيه هيتشن أشهر المقالات في الدعوة إلى الإلحاد، ونقدِ الأديان معَ كتابة مقدِّمة مختصرة لكلِّ مقال. ويعتبر هذا الكتاب من أخطرِ الكتب الإلحادية المعاصرة - حيث جمعَ فيه كلام الملاحدة السابقين واللاحقين - وإن كان أقلَّ رواجًا من كتابه السابق.

كان هيتشن كثيرَ التَّدخين وشرب الكحول وأصيب بالسرطان حتى هلك عام ٢٠١١ م[2].

- **الرابع: سام هاريس:**

وُلِد سام هاريس عام ١٩٦٧م، في الولايات المتَّحدة من أب نصراني وأم يهودية. درسَ في جامعة ستانفورد وبدأ يتعاطى حبوبَ إكستاسي، وشعرَ بأنه يصل إلى بصيرة نفسيَّة قوية بهذه المخدِّرات. وهذا الأمرُ جعله يفكِّر في الروحانيات وكيف يصل إلى

---

(١) انظر: https: / /www.amazon.com/dp/0446579807

(٢) انظر: http://www.bbc.com/news/uk - 16214466

التبصُّر الروحاني بدون استخدام المخدِّرات؛ فسافرَ إلى الهند والنيبال لتعلّم طقوس التأمُّل. قضى هاريس عشرَ سنوات يدرسُ الدين والفلسفة، ثمَّ رجعَ إلى جامعة ستانفورد ليكملَ دراسة البكالوريوس في الفلسفة عام ٢٠٠٠، ثمَّ اتّجه إلى دراسة علم الأعصاب فحصلَ على شهادة الدكتوراه في هذا العلم عام ٢٠٠٩ من جامعة كاليفورنيا[١].

لمّا حصلت أحداثُ الحادي عشر سبتمبر تغيَّرت نظرة هاريس للأديان، واعتقد أن الدينَ يقف وراءَ الشرور في العالم ولا سيَّما الإرهاب، ولم يكتف بمهاجمة المتطرفين المتديِّنين، بل تجاوزَ ذلك إلى مهاجمة المعتدلين أيضًا حيث قال: «استطعت أنْ أقول إنَّ المشكلةَ تكمّن في التطرُّف الديني العاشر من سبتمبر، ولكنْ بعد الحادي عشر من سبتمبر فهمتُ أنَّ الاعتدال الديني يلعب دور التغطية للأصولية»[٢].

وقد ألَّف هاريس ستةَ كتبٍ في نقد الأديان والدعوة إلى الإلحاد؛ وهذا تعريف مُختصر بكلِّ كتاب:

كتابُه الأوَّل: «نهاية الإيمان» (End of Faith)، بدأ يؤلِّف هذا الكتابَ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ولكنَّه لم يصدر حتى عام ٢٠٠٤م، وتصدَّر هذا الكتاب قائمة نيويورك تايمز لأكثرِ الكتب مبيعًا لأكثر من ٣٣ أسبوعًا[٣]. وخلاصة هذا الكتاب تتمحورُ حولَ التصادم بين الاعتقاد الديني والتفكير العقلاني والشرور المترتبة على الأديان والتديُّن. ويعتبر صدورُ هذا الكتاب هو نقطةَ انطلاق حركة الإلحاد الجديد كما سبق.

الكتابُ الثّاني: «رسالة إلى أمَّة مسيحية» (Letter to a Christian Nation)، صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٦م، وكانَ الكتاب السابع في قائمة نيويورك تايمز لأكثر

---

(١) انظر: Atheist Evangelist
http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/10/25/AR2006102501998_pf.html

(٢) انظر المصدر السابق.

(3) Sunday Book Review, 2005-07. New York Times

الكتب مبيعًا[١]. وهذا الكتاب رسالةٌ مفتوحة إلى النصارى - ولا سيَّما المحافظين - في الولايات المتَّحدة للردِّ على المزاعم المنطقية والأخلاقية للنصارى على حدِّ تعبيره. ويركِّز في هذا الكتاب على نقدِ الأخلاق النصرانية، ونقدِ نظرية التصميم الذكي، ويقرِّر لشبهة معضلة الشَّر.

الكتابُ الثَّالث: «المشهدُ الأخلاقي» (The Moral Landscape)، ألّف هاريس هذا الكتاب عام (٢٠١٠)، وكان الكتاب التاسع في قائمة نيويورك تايمز لأكثر الكتب مَبيعًا[٢]. قدَّم هاريس رؤيته في الأخلاق خلالَ هذا الكتاب؛ فذكر أنَّ رؤيته وسط بين المتديِّنين الذين يروْن أنَّ الأخلاق محدَّدة من الله خلالَ الوحي، وبين العلمانيين المتبنِّين لفلسفة النسبية الأخلاقية.

الكتابُ الرّابع: «حرية الإرادة» (Free Will)، صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٢م، وقدَّم هاريس فيه نظريتَه عن حرية الإرادة. فهو يرى أنَّ حرية الإرادة مجرَّد وهْم، وليست حقيقيَّة. وذلك أنَّ الإنسان يتصرَّف حسبَ جينياته، وليسَ بإرادته الحرة. ومع ذلك يرى هاريس أنَّ نظريته في الإرادة الحرَّة لا تتنافى مع المسئوليات الأخلاقية.

الكتابُ الخامس: «الاستيقاظ: دليل إلى الروحانية بدون دين» (Waking Up: A Guide to Spirituality Without Religion). ألّف هاريس هذا الكتاب عام ٢٠١٤م، لتقديمِ رؤيته في الروحانية العلمانية (Secular Spirituality). وقد بنى نظريته الروحانية على طقوسِ البوذية، ولكنْ بدون الإيمان بالغيبيّات[٣]. وبذلك يقرب هاريس من جعل الإلحاد الجديد دينًا ذا طقوس، ولكنْ بدون إيمان بالله، ولا الغيبيات.

---

(١) انظر:
http://www.nytimes.com/2006/10/08/books/bestseller/1008besthardnonfiction.html

(2) http://www.nytimes.com/books/best-sellers/2010/10/24/hardcover-non-fiction/

(3) https://www.amazon.com/Waking-Up-Spirituality-Without-Religion-ebook/dp/B00GEEB9YC

الكتابُ السّادس: «الإسلامُ ومستقبل التسامح» (Islam and The Future of Tolerance). صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٥م، وهوَ حوارٌ بينه وبين أحد دعاة الإسلام اللِّيبرالي». وهاريس شديدُ النقد للأديان عمومًا، وللإسلام خصوصًا؛ فيبيِّن في هذا الكتاب أنَّ عقائد الإسلام نفسَها تهدِّد المجتمعات اليوم، بينما يقول المسلم الليبرالي إنَّ الإسلام مفتوحٌ للتغيُّرات لكي يتناسب مع العالم العلماني الحديث[١].

تعريفٌ مُختصر بدعاةِ الإلحاد الجديد سوى الفرسانِ الأربعة:

ثمَّة عددٌ من دعاة الإلحاد الجديد غير هؤلاء الفرسانِ الأربعة، ومِن أشهرهم:

الأوَّل: لورانس كراوس: هوَ عالم كوْن أمريكي مشهور من أصل يهودي. ألّف أكثرَ من ثلاثمائة بحثٍ علمي وعشْرة كتب في علم الكون والفيزياء النظرية. وأحدُ هذه الكتب كتابُه: «الكون من لا شيء» (Universe from Nothing) الذي صدر عام ٢٠١٢م، وقدْ جادل فيه كراوس لإثباتِ أنَّ هذا الكون نشأ مِن لا شيء، وأنه لا حاجة لخالق لإيجادِه[٢]. وينشط كراوس في مناظراتٍ معَ عدد من المؤمنين بالخالق.

الثّاني: أيان هرسي علي[٣]: هي امرأةٌ وُلدت في الصومال عام ١٩٦٩م، ونشأت نشأةً إسلامية متديِّنة. سافرتْ إلى هولندا عام ١٩٩٢م، وبدأ يتزعزع إيمانها شيئًا فشيئًا في هذا البلد الجديد إلى أنْ حصلت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر واستمعت إلى مَن يستدلُّ على مشروعية العمليات الإرهابية بالقرآن والسنة، فارتدَّت عن الإسلام وألحَدَت[٤] وأصبحت أحدَ أكبر المناوئين لهذا الدين الحنيف. ألَّفت أيان خمسة

---

(1) https://www.goodreads.com/book/show/25151238-islam-and-the-future-of-tolerance

(٢) انظر: http: / /krauss.faculty.asu.edu /biography /

(٣) أيان هرسي علي: ناشطة سياسية هولندية أمريكية من أصل صومالي. وُلدت في أسرة مسلمة ثمَّ ارتدَّت ونشطت في نقد الإسلام، وألَّفت عددًا من الكتب في ذلك، وبيعت بنسخ كثيرة جدًّا. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Ayaan – Hirsi – Ali

(٤) انظر: https: / /thehumanist.com /magazine /january - february - 2008/ features /absolute – infidel – the – evolution – of – ayaan – hirsi – ali

كتب مُناهضة للإسلام، وشاركت في العديد من البرنامج التليفزيونية في هذا المجال. ولنشاطها الكبير في الدعوة إلى الإلحاد ونقدِ الإسلام لقِّبت بالفارسة، وحلَّت محلَّ هيتشن بعد وفاتِه بين الفرسان الأربعة(١).

الثّالث: ميشال أونفراي(٢): هو فيلسوفٌ فرنسي، ويعتبر أحدَ أنشطِ دعاة الإلحاد في فرنسا. تربَّى في أسرة كاثوليكية ولكنَّه اعتنق المذهب الشيوعي وألحد. نال شهادةَ الدكتوراه في الفلسفة، وألَّف عشرات الكتب الفلسفية(٣). من أهمِّ إسهاماته في الدعوة إلى الإلحاد: كتابه: «بيانٌ إلحادي» (Atheist Manifesto) الذي صدر عام ٢٠٠٥م، دعا أونفراي في هذا الكتاب إلى الإلحادِ ودافع عنه، وخصَّص الإسلام واليهودية والنصرانية بالنَّقد والردِّ من بين سائر الأديان. وقد انتشر الكتابُ كثيرًا وبيع منه ٢٠٠ ألف نسخة.

الرّابع: ستيفن هوكينغ: هو أحدُ أشهر علماء الفلك والفيزياء في هذا الزمان، وقد نظَّر للعديد من النظريات العلمية. وقد أصيبَ بمرض تصلُّب جانبي ضموري (Amyotrophic lateral sclerosis)، فكان مشلولًا تمامًا ولا يتكلَّم إلّا عبر مكينة صوتية(٤). وقد مرَّ هوكينغ في مواقفه الدينية على مرحلتين:

---

(١) انظر:
www.quora.com/Who-can-replace-Christopher-Hitchens-if-Dawkins-Harris-and-Dennett-decide-to-do-another-Four-Horseman-Hangout

(٢) ميشال أونفراي: (Michel Onfray): فيلسوف فرنسي، درّس الفلسفة أكثر من ٢٠ سنة، وألَّف أكثر من ثمانين كتابًا، وقد ترجمت هذه الكتب إلى أكثر من ٣٠ لغة. انظر:
https://www.forum - avignon.org/en/who - is - michel - onfray

(٣) انظر: http: / /newpol.org /content /introductory – note – onfray

(٤) انظر:
http://www.independent.co.uk/news/science/mind-over-matter-how-stephen-hawking-defied-motor-neurone-disease-for-50-years-6286313.html

المرحلةُ الأولى: أَلَّف هوكينغ كتابه: تاريخ موجز للزمن (A Brief History of Time) عام ١٩٨٨م، وقد بيعَ منه أكثرُ من عشرة ملايين نسخة[١] وتُرجم إلى ٣٥ لغة[٢]. وفي هذا الكتاب يذكر الإله والخالق في عددٍ من المواضع[٣]، وإن كان يميل إلى عدم وجوده.

المرحلةُ الثّانية: في عام ٢٠١٠م، أصدرَ كتابًا آخر مع الفيزيائي ليوناردو ملودينو[٤]، وهو: «التصميمُ العظيم» (The Grand Design). وتصدّر قائمة أمازون لأكثرِ الكتب مبيعًا أيامًا بعد صدوره[٥]. وقد طرح في بداية الكتاب السؤال: «هل الكونُ بحاجة إلى خالق؟»[٦]، وحاولَ أن يدلِّل على عدم وجوده، وكتب في نهاية الكتاب: «لأنَّ هناك قانونًا مثل الجاذبية، فإن الكون يمكنه أن يخلق نفسه من لا شيء»[٧].

هوكينغ يوافق دعاةَ الإلحاد الجديد في إلحاده، ولكنَّه يخالفهم في عدم إبداء العداوة ضدَّ الأديان والمتديِّنين. ومعَ ذلك، فإنَّه يمثّل خطرًا كبيرًا في نشر الإلحاد حيث أنه يتبوأ منزلةً علمية مرموقة[٨] ويقبل كثيرٌ من الناس كلامه في المسائل الكونية والفيزيائية كحجة.

---

(١) انظر: http: //www.telegraph.co.uk/news/worldnews/1549770/Hawking - to - experience - zero - gravity.html

(٢) انظر: http://news.bbc.co.uk/2/hi/science/nature/1599719.stm

(٣) انظر: A Brief History of Time (8 - 9), (140 - 141), (193), by: Stephen Hawking, (Bantam, 1988)

(٤) ليوناردو ملودينو (Leonard Mlodinow): بروفسور الفيزياء الأمريكي من أصول بولندية يهودية. قد أَلَّف عددًا من الكتب والأبحاث العلمية في الفيزياء. انظر:
https://leonardmlodinow.com/leonard - mlodinow - biography/

(٥) انظر: http://observer.com/2010 / 09/hawkings - book - shoots – to – top /– of – amazon – sales – after – he – denies – gods – existence

(6) The Grand Design (5), by Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, (Bantam Press 2010)

(٧) المصدر السابق (١٨٠).

(٨) كان على سبيل المثال أستاذ الكرسي اللوكاسي للرياضيات في جامعة كامبردج بين ١٩٧٩ إلى ٢٠٠٩م. وهو الكرسي العلمي الذي شغله الفيزيائي إسحاق نيوتن في القرن السابع عشر.
http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/england/cambridgeshire/8282358.stm

المبحثُ السّادس
وسائلُ نشْر الإلحاد

ظهرتِ الدَّعوة إلى الإلحاد في القرن الثامن عشر في فرنسا. ولم يشتهر بهذه الدعوة سوى أربعة أشخاص في ذلك القرن كما سبقَ بيانه. وكانت وسائلُ دعوتهم منحصرة في أمريْن: الأوَّل: تأليف الكتب، والثّاني: المناقشات في الصالون الأدبي التابع لبارون دي هولباخ. دخلَ القرن التاسع عشر وتوسَّعت الدعوةُ إلى الإلحاد من ناحية الجغرافيا، ومِن ناحية الوسائل. فانتشرَ الإلحاد في بريطانيا وألمانيا ودول أوروبية أخرى وابتكرت وسائل جديدة للدعوة إلى الإلحاد - لا سيَّما في بريطانيا - ؛ فكانت مجلةُ القزامة السوداء السّاخرة من الأديان تصدَّر وتوزَّع في بريطانيا، كما أنَّ ريتشارد كارليل وصديقه روبيرت تايلر خرجَا لجولة دعوية يدعونَ فيها إلى الكفر والإلحاد في مدن بريطانيا وجامعاتها. وكان كارليل يلقي محاضراتٍ إلحادية في لندن، ودوَّنت محاضراته ووزِّعت بالآلاف - كما سبق ذكرُه -.

لمّا دخل القرن العشرون تمكَّن العلمانيون والملاحدة من الحكم في كثيرٍ من دول العالم، وإنْ كانوا متفاوتين في عَدائهم للدين؛ فكان الإلحاد يُفرض على الشعوب بالقوة في الدُّول الشيوعية؛ بينما فُتحَ المجال للدعوة إلى الإلحاد على مصراعيه في الدول الرأسمالية الليبرالية باسْم حرية الرأي والتعبير. والقرن العشرون هو قرن الاختراعات والابتكارات فظهرت وسائلُ جديدة لنشْر الأفكار مثل: التلفاز (وما فيه من وسائل النَّشر كالأفلام السنيمائية، والأفلام الوثائقية، ونشر الأخبار، إلخ)، والإذاعة، والإنترنت. وقد اغتنمَ الملاحدةُ هذه الوسائل في نشر الإلحاد بين عامة الناس بينما كادَ الإلحادُ أن يكون منحصرًا في الفئة المثقفة قبل ذلك.

ولمّا ظهرتْ حركة الإلحاد الجديد في بداية القرن الواحد والعشرين استغلَّ دعاتها جميعَ الوسائل القديمة والجديدة في نشْر الإلحاد والكفر. ولا تكاد تجدُ وسيلة من

وسائل النَّشر إلّا وقد استثمرها الملاحدةُ الجدد. ولا يمكن حصرُ هذه الوسائل في مبحث، وسأذكر هنا أهمَّ وسائل نشر الإلحاد في هذا الزمان مع بعض الأمثلة التوضيحية:

الوسيلةُ الأولى: تأسيسُ المؤسَّسات الإلحادية:

كانت الدعوةُ إلى الإلحاد في القرنين الثامن والتاسع عشر يعتمد على جهود فردية من قبَل بعض الفلاسفة والمفكِّرين في الغالب. ثمَّ تطوَّر الأمرُ في القرن العشرين حيث تبنَّت الدول الشيوعية - وعلى رأسها الاتّحاد السوفيتي - الدعوة إلى الشيوعية الإلحادية. ولا يصلُ حزبٌ شيوعي إلى السلطة في بلدٍ من البلدان إلّا بدعم من الاتّحاد السوفيتي، كما أنَّه كانت للاتِّحاد صلةٌ بثمانين حزبًا شيوعيًّا في الدول غير الشيوعية[١]. ولكن مع زوالِ الاتِّحاد السوفيتي انتهى الدعمُ لهذه الأحزاب، وبالتالي ضعف نفوذها. ومع ضعفِ نفوذها ضعفتِ الدعوة إلى الإلحاد الشيوعي.

وأمّا في العالم الغربي، فكانت الدعوةُ إلى الإلحاد في الغالب تتسمَّى بالدعوة إلى الإنسانية[٢]. وظهرَ في آخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين العديد من المؤسسات والجمعيات الإنسانية. وفي عام ١٩٥٢م، تكوَّن الاتِّحادُ العالمي الإنساني والأخلاقي (The International Humanist and Ethical Union)، وضمّ في هذا الاتّحاد هذه المؤسسات الموجودة في الدُّول الديمقراطية، ومقرُّها عاصمة بريطانيا[٣]. والغرضُ الأساس من هذا الاتِّحاد هو الدعوةُ إلى الإلحاد والدفاع عن حقوق الملاحدة واللادينيين. وقد تقوّى نفوذه كثيرًا في القرن الواحد والعشرين. وفي عام ٢٠١٦م، ضمَّ هذا الاتِّحاد ١٢٥ مؤسسة في ٤٧ دولة[٤]. وبعضُ هذه المؤسَّسات التابعة للاتِّحاد هي مؤسسات قوية ونشطة،

---

(١) انظر:

The Soviet Union and Non-Ruling Communist Parties (III), https://www.cia.gov/library/readingroom/docs/DOC_0000496805.pdf

(٢) وذلك لأنَّ الإنسانية كلمة محبوبة لدى الناس بخلافِ الإلحاد كما سبق ذكره.

(٣) انظر: http: / /www.iheu.org /about

(4) http:// iheu.org/ membership/ our-members/ ?page=CiviCRM&q=civicrm/ profile&page=CiviCRM&gid=4&force=1&crmSID=4_u&crmRowCount=25&crmPID=1

وتعمل بشكل منظَّم في الدَّعوة إلى الإلحاد، فعلى سبيل المثال: الرابطة البريطانية الإنسانية (British Humanist Association) لها ٧٠ فرعًا محليًّا في بريطانيا مع ٥٥ ألف عضو[1].

ومِن المؤسَّسات الإلحادية الكبرى: «الاتِّحاد الإنساني الأوروبي» (European Humanist Federation)، الذي أُسس عام ١٩٩١م؛ سعيًا للمزيد من علمنة أوروبا، ومقرُّها بروسل. وقد بلغ عددُ المؤسسات المنضمَّة تحتَ هذا الاتِّحاد ٦٣ مؤسسة في ٢٥ دولة أوروبية[2].

ومِن المؤسَّسات الإلحادية الكبيرة: الاتّحاد العالمي الإلحادي، الذي أسّس عام ١٩٩١م، في الولايات المتَّحدة. ويهتمُّ هذا الاتِّحاد بحقوق الملاحدة في العالم.

وهذا يدلُّ على أنَّ الدعوة إلى الإلحاد ليست دعوة فردية، بل تقوم عليها مؤسساتٌ واتِّحادات ورابطات.

الوسيلةُ الثّانية: تأليفُ الكتب:

كان تأليفُ الكتب أوّلَ وسيلة دعوية إلى الإلحاد، ومازالت من الوسائل المنتشرة بينَ دعاة الإلحاد. والكتبُ الإلحادية تنقسم إلى قسميْن من حيث العموم:

الأوَّل: الكتبُ الإلحادية العلمية: وقد سبقَ بيان عددٍ من هذه الكتب في مبحث: تاريخ الإلحاد، ومبحث: دعاة الإلحاد الجديد. وهذه الكتبُ تدعو إلى الإلحاد، وتنتقدُ الأديان بشكل مباشر.

الثّاني: الرواياتُ الإلحادية: والروايات تختلفُ عن الكتب العلمية حيث تقدِّم الرسالة والهدف للقارئ بشكلٍ غير مباشر. وحيث أنَّ الإلحاد أمرٌ شاذٌّ ومرفوض لدى غالبية البشرية اهتمَّ الملاحدة بتأليف الروايات للترويج للإلحاد. من الأمثلة القديمة على ذلك أنَّ الفيلسوف الملحد نيتشي عبَّر عن فكرة (الإله قد مات) أوّلًا في كتابه الفلسفي العلمي: «علم السعادة» (Die fröhliche Wissenschaft)، ولكنّ

---

(1) https://humanism.org.uk/about/

(٢) انظر: http: / /www.humanistfederation.eu /membres.php

هذه الفكرة لم تنتشر إلا خلالَ روايته الفلسفية: هكذا تكلّم زرادشت (Also sprach Zarathustra) ويعبّر بها فيها على لسان بطل الرواية زرادشت[1].

ومازال الملاحدةُ ينشطون في تأليف الروايات الإلحادية المنتقدة للأديان بالله. من الأمثلة المعاصرة لهذه الروايات: كتاب «الاتّصال» (Contact) لكارل ساغان - عالم الكون وأحدُ أشهر دعاة الإلحاد المعاصرين -. وبطلةُ الرواية امرأة إليونور أروفاي، وهي مهتمَّة بالعلم وناقدةٌ للأديان، وتتناقشُ في الرواية مع اثنين من رجال الدين. وتُظهر القصة تعارضَ الدين مع العلم، معَ تفوُّق العلم عليه. وبهذا الطريقة استطاعَ ساغان أن يوصِّل رسالة إلحادية خفية للقراء.

الوسيلةُ الثّالثة: عقدُ المناظرات:

قد وقعتْ مناظرات كثيرة ومهمَّة بين دعاةِ الإلحاد الجديد ومُخالفيهم من اليهود والنَّصارى والمسلمين. والمناظراتُ تختلف كثيرًا عن تأليفِ الكتب وإلقاء المحاضرات حيث يسمح للطَّرفين بالكلام، وإبداءِ وجهات النظر. وسوف يتمُّ استعراضُ أهمِّ هذه المناظرات لاحقًا في الرسالة، ويتبيَّن خلال هذا الاستعراض أنَّ الغلبة كانت للمؤمنين بالله وليستْ للملاحدة. ولكنْ يبقى هناك إشكالٌ كبير في هذه المناظرات - وإن كانت الغلبةُ للمؤمنين بالله -، وهي أنَّ مهمَّة الملحد في المناظرات هي هدمُ العقائد، وإلقاءُ الشبهات والشَّك، وليست مهمَّته في الغالب الاستدلالَ على عقيدته. ومن القواعد المقرَّرة في المناظرات أنَّ الهدم أسهلُ من البناء؛ قال الراغب الأصفهاني: «واعلم أنَّ سبيلَ إنكار الحجة والسعي في إفسادها أسهلُ من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها، ولهذا يتحرَّى الجدِلُ الخصيم أبدًا بالدفاع لا المعارضة بمثلها، وذلك أنَّ الإفساد هدم وهو سهل، والإتيان بمثله بناء وهو صعب، فإنَّ الإنسان كما يمكنه قتلُ النفس الزكية وذبحُ الحيوانات وإحراقُ النبات، ولا يقدرُ على إيجاد شيء منها يمكنُه إفساد حجة قوية بضربٍ من الشُّبه المزخرفة، ولا يمكنه الإتيان بمثلها»[2].

---

(1) http://www.gradesaver.com/thus-spoke-zarathustra/study-guide/the-death-of-god-and-modern-theology

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (١٨٨)، للحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، (دار السلام، ١٤٢٨ هـ، ت. الدكتور أبو اليزيد العجمي).

ولهذا يلجأ الملاحدةُ الجدد – ولا سيَّما كبيرُهم دوكينز – في كثيرٍ من المناظرات إلى التهكُّم والسخرية من الخصْم هادفًا إلى هدمِ عقائده أمام المستمعين. وقد أوصى دوكينز أتباعَه باستخدام السخرية والتهكُّم بالخصوم حين قال في إحدى محاضراته: «اسخروا منهم، واستهزؤوا بهِم علانية، إيّاكم أن تقعوا في العُرف الدارج أننا مؤدَّبون جدًّا لنتحدَّث عن الدين. الدينُ ليس مرفوعًا عن الطاولة، ولا هو خارجٌ عن حدود النقد، الدين يقدِّم تصوُّرات معيَّنة عن الكونِ والتي تحتاج إلى التثبُّت منها، ينبغي تحدِّيها والسُّخرية منها باحتقار»[1]. ومِن المعلوم أنَّ المؤمن بأيِّ دين كان لا يقرأ كتب الملاحدة أو يستمع لمحاضراتهم في الغالب، وبالتالي لا يتعرَّض لشبهاتهم. ولكن المتديِّن قد يرغب في الاستماع إلى مناظرةٍ حيث يشارك في هذه المناظرة أحدُ دعاة الإيمان بالله. ولكن بالإصغاءِ إلى هذه المناظرات يعرِّض نفسَه أن يسمعَ هذه السخرية والتهكُّم والاستهزاء؛ فقدْ يقع في شكٍّ أو ريب بسببِه. وبذلك تكون المناظراتُ وسيلة خطيرة وخبيثة للدعوة إلى الإلحاد.

الوسيلةُ الرّابعة: إنتاجُ الأفلام الوثائقية:

الإنسانُ بطبيعته يحبُّ المعرفة والاطِّلاع والثقافة. والأفلام الوثائقية أصبحت من أهمِّ وسائل نشْر الثقافة والمعرفة في هذا الزمان؛ فهذه الأفلام جذابةٌ ومثيرةٌ للانتباه. وقد انتشرتْ هذه الأفلام أوَّلًا عن طريق القنوات الفضائية، وازدادَ انتشارها كثيرًا مع تدشين موقع يوتيوب؛ فقد أصبح موقع يوتيوب ثاني أكبر محرِّك للبحث في الشبكة العنكبوتية بـ١٥,٧ ترليون زيارة عام ٢٠١٥م[2]. ويجتهدُ الملاحدة في نشر إلحادهم خلال هذه الأفلام الوثائقية؛ ويمكن تقسيمُها إلى قسمين:

---

(1) Transcript of Richard Dawkins' speech from Reason Rally 2012
https://ladydifadden.wordpress.com/2012/03/28/transcript - of - richard - dawkins - speech - from - reason - rally - 2012/

(2) http://www.telegraph.co.uk/technology/2016/02/01/youtube - is - now - more - popular - than - googlecom - on - desktop - computers/

١) **أفلام وثائقية تدْعو إلى الإلحاد بشكلٍ غير مباشر:** وهي كلُّ فيلم وثائقي يتحدَّث عن الطبيعة وفقَ المذهب الطبيعي المادي والنظريات الإلحادية مثل: نظرية التطوُّر. وهذه الأفلام تبَثُّ في الغالب من قبَل قناتين:

الأولى: قناة ناشيونال جيوغرافيك (National Geographic Channel). هذه القناة كبيرةٌ وواسعة الانتشار. فهي تبَثُّ لـ٤٤٠ مليون بيتٍ في ١٧١ دولة بـ٤٥ لغة (منها اللغة العربية)[١].

الثانية: ديسكفري كوميونيكيشنز (Discovery Communications). هي شركة أمريكية تبثُّ ١٠٠ قناة، منها ثلاثُ قنوات علميَّة؛ وهي: ديسكفري وورلد شانيل (Discovery World Channel) وهي تبثُّ لـ٤٣١ مليون بيتٍ في ١٧٠ دولة بـ٣٣ لغة (منها اللغة العربية). وديسكفري ساينس شانيل (Discovery Science Channel) وهي تبَثُّ لـ٧٥ مليون بيتٍ في الولايات المتَّحدة. أنيمال بلانيت شانيل (Animal Planet Channel) وهي تبثُّ لـ٩٤ مليون بيتٍ في الولايات المتَّحدة[٢].

فكثيرٌ من الأفلام الوثائقية في هذه القنوات تروِّج لنظرية التطوُّر مثلًا باعتبار أنها نظريةٌ علمية ثابتة لا تقبلُ الجدل[٣]. وبعدَ قبول هذه النظرية يفتح الباب أمام الإلحاد على مصراعيه.

---

(١) انظر: http: / /press.nationalgeographic.com /boilerplates /

(٢) انظر: http: / /tvbythenumbers.zap2it.com/reference/list - of - how - many - homes - each - cable - network - is - in - as - of - february - 2015 / 366230/

(٣) ومن الأمثلة على ذلك في قناة ناتشيونال جيوغرافيك:

Human Evolution: History of Humanity Documentary,

الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=hRltNBpLSX4

وفي قناة ديسكوفيري:

Human Evolution: Evidence of our Ancestors,

الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=gl-40H6d3Jl

٢) **الأفلامُ الوثائقية الداعية إلى الإلحاد بشكلٍ مباشر:** هذه الأفلام أقلُّ عددًا من القسم الأوَّل، ولكنَّها أشدُّ خطورة على العقيدة. وريتشارد دوكينز هو أنشط الملاحدة المنتجين لهذه الأفلام الوثائقية؛ فقد أنتجَ وشارك في ١٤ فيلمًا وثائقيًّا من عام ١٩٨٦ إلى ٢٠١٣، وكلُّها تدعو إلى الإلحاد بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. ومن أخطر هذه الأفلام: «أصلُ جميع الشرور» (The Root of All Evil) ثمَّ سمّي بوهم الإله (The God Delusion) مطابقًا لاسْم كتابه. وقد حصلَ هذا الفيلم على أكثر من مليونين ونصف مشاهدة في يوتيوب. وتُرجِم إلى اللغة العربية، وحصلَ على أكثر من ٧٠ ألف مشاهدة معَ الأسف. وستيفن هوكينج من المنْتجين للأفلام الوثائقية الإلحادية أيضًا؛ ومن الأمثلة على هذه الأفلام: «هل خلق اللهُ الكون؟» (Did God Create Universe?)، و»الهدف من الحياة» (The Meaning of Life)، وهي أقلُّ انتشارًا من أفلام دوكينز الوثائقية حيث حصل الأوَّل على ٥٩ ألف مشاهدة، والثاني على ٢٤ ألف.

الوسيلةُ الخامسة: الأفلامُ السنيمائية:

هناك نوعٌ آخر من الأفلام يستخدمها الملاحدةُ في ترويج الإلحاد - مما قد لا يتنّبه له بعضُ الناس - وهي الأفلام السنيمائية. وكثيرٌ من هذه الأفلام تروِّج للإلحاد بشكل غيرِ مباشر. وهذه الأفلامُ خطيرة لأنها تخاطبُ اللاوعي عند الإنسان ويؤثّر فيه من حيث لا يشعر. وقد أحسنَ صاحبُ كتاب: (الميديا والإلحاد السينما واللاوعي الخطاب الشَّعبي للإلحاد) حيث استخرجَ من الأفلام السنيمائية كثيرًا من الأمثلة على الدعوة إلى الإلحادِ بشكل غير مباشر. وقسَّم طرقَ التمرير للأفكار الإلحادية إلى ثمانية أقسام؛ وهي:

الأوَّل: استغلالُ ثغرات النفس والعقل والخيال. **الثاني:** الإغراقُ في عرض الشهوات والعُري وتحبيبِ الزنا والخيانة - «وهو بابٌ من أوسع الأبواب المؤدية إلى رفض الأديان

نفسيًّا - على المدى القريب أو البعيد - وبالتالي إنكار الخالق نفسه»[1]. **الثالث**: تصويرُ الوجود والحياة بمظهرِ العدميَّة والعبثية واللاغائية. **الرابع**: المغالاةُ في الخيال العلمي لتهميشِ قدرات الإله الخالق. **الخامس**: استغلالُ لامعقوليات النصرانية والأديان المحرَّفة كذريعةٍ للإلحاد. **السّادس**: تمثيلُ الإله بصورة غير مباشرة لخلع الرؤى الإلحادية عليه. **السّابع**: استغلالُ أكاذيب التطوُّر كبوَّابة للإلحاد. **الثامن**: خلعُ صفة العقل على الذكاء الاصْطناعي[2]. وقال مفسِّرًا للنقطة الأخيرة: «قابلنا بالفعل شبابًا مخْدوعين بمجال (الذَّكاء الاصطناعي) وبما يشيعُه الملحدون والتطوُّريون من أكاذيب عنه مستقبلًا، حيث بعدَ هذه الأكاذيب يعيدون إسقاطَ ذلك المستقبل (الذي لم يقع أصلًا بعد ولن يقع!) على أضعفِ نقاط الإلحاد والتطوُّر لتدعيمها أولًا، وهو: معضلةُ نشأة والوعي وحرية الاختيار»[3].

وبذلك يتبيَّن كثرةُ أساليبِ نشْر الأفكار الإلحادية عبر الأفلام السينمائية، ودلَّ على أنَّه من أخطر وسائل نشْر الإلحاد نظرًا لمخاطبته اللاوعي، وكثرة إقبالِ الناس على هذه الأفلام.

الوسيلةُ السّادسة: إلقاءُ المحاضرات:

ينشطُ الملاحدةُ الجدد نشاطًا عظيمًا في إلقاء المحاضرات - ولا سيَّما على طلاب الجامعات وطالباتها -. وفرسانُ الإلحاد الأربعة عندهم عددٌ كبير من المحاضرات مصوَّرة في يوتيوب. وتكون موضوعاتُ محاضراتهم في الغالب في مجالات تخصصاتهم وموضوعات كتبهم. ومِن الأمثلة على هذه المحاضرات[4]:

ريتشارد دوكينز: قد ألقَى دوكينز عشرات المحاضرات المصوّرة في يوتيوب عن الإلحاد ونظرية التطوُّر، ومن أشهرها محاضرة «وهم الإله» (God Delusion)

---

(١) الميديا والإلحاد السينما واللاوعي، الخطاب الشعبي للإلحاد (٥٩)، لأحمد حسن، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ).

(٢) انظر: المصدر السابق (٤٥ - ١٢٤).

(٣) المصدر السابق (١١٩ - ١٢٠).

(٤) عدد المشاهدات المذكورة هو إلى ديسمبر عام ٢٠٢٠م.

في كلية راندولف (Randolph College). وقد حصل على أكثر من ١٦٧ ألف مشاهدة في يوتيوب[1].

دانيال دينيت: قد ألقى دينيت العديدَ من المحاضرات المصوّرة في يوتيوب عن نظرية التطوُّر، وحرية الإرادة، ونقدِ الأديان. ومِن هذه المحاضرات محاضراته في جامعة إدينبورغ (University of Edinburg) عن كتابه: فكُّ السحر. وقد حصلت على أكثر من ٨٢ ألف مشاهدة[2].

كريستوفير هيتشن: اهتمَّ هيتشن بالمناظرات أكثر من المحاضرات. وأكثر محاضراته الموجودة في إنترنت تتعلَّق بالسياسية - وهو تخصُّصه الأساس - وليس بالإلحاد. ومع ذلك فقد ألقى بعضَ المحاضرات عن الإلحاد، منها: محاضرة: «الإله ليس عظيمًا» (God is not Great). وقد حصلت على أكثر من ٣,٨ مليون مشاهدة في يوتيوب[3].

سام هاريس: لعلَّ هاريس أكثرَ الفرسان الأربعة نشاطًا في إلقاء المحاضرات. وهو يُلقي المحاضرات عن نقدِ الأديان، وحرية الإرادة، والموت، والذكاء الاصطناعي وغيرها من الموضوعات. وأشهرُ هذه المحاضرات هي محاضرته: «حريَّة الإرادة» (Free Will). وقد حصلتْ على أكثر من ١,٤ مليون مشاهدة في يوتيوب[4].

---

(١) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=5sRBGGzdsl8

(٢) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=5WhQ8bSvcHQ

(٣) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=sD0B-X9LJjs

(٤) انظر:

https://www.youtube.com/watch?v=pCofmZlC72g

الوسيلةُ السّابعة: النشاطُ في وسائل التواصل:

قد انتشرت وسائلُ التواصل انتشارًا عظيمًا في القرن الواحد والعشرين، وأنواعها كثيرة جدًّا. ولهذا ينشط الملاحدةُ خلال هذه الصفحات ما لا ينشطون في غيرها.

هذه الصفحاتُ تتَّفق في كثير من الأمور مثل: إمكانية وضع مقاطع، وصور، وكتابة تعليقات، والحوار بين المشتركين، وإمكانية كتابة هاشتاك. وهي تختلف من جوانب؛ فتويتر يتميَّز بالكلام المختصر حيث لا يمكن أن تتعدَّى التغريدة ٢٨٠ حرفًا. وانستغرام تركِّز على الصور والمقاطع المختصرة نفسها، وأمّا الكلام المكتوب فهو أمر جانبي. وأمّا فيسبوك فهو أكبرُ هذه الصفحات من حيث المتابعين، وتتميَّز بإمكانية كتابة كلام مطوَّل، ووضع مقاطع مرئيَّة مطوّلة، وكذلك البثّ المباشر وغير ذلك.

والملاحدةُ ينشطون خلالَ هذه الصفحات الثلاث نشاطًا كبيرًا جدًّا، ولا يمكن حصرُ هذا النشاط في هذه الأسْطر القصيرة، ولكن يتبيَّن نشاطهم خلال هذه الأمثلة:

نشاطُ الملاحدة في فيسبوك:

للملاحدةِ في فيسبوك مئات الصفحات باللغة الإنجليزية تحمل اسمَ الإلحاد، منها إحدى عشرة صفحة يتعدَّى عددُ المتابعين فيها ١٠٠ ألف شخص[١]. أكبرُ هذه الصفحات صفحة (Atheist Republic) أكثر من ٢٫٣ مليون متابع. كما أن هناك صفحاتٍ شخصيةً لرموز الإلحاد مثل: ريتشارد دوكينز، وسام هاريس، ودانيال دينيت.

أمّا الملاحدةُ العرب فيهتمُّون بفتح المجموعات المغلقة في فيسبوك أكثرَ من النشر في الصَّفحات. وفي هذه المجموعات المغلقة ينشرون إلحادَهم ويتناقشون فيما بينهم. وهناك أكثرُ من مائة مجموعةٍ باللغة العربية تنشر الإلحاد. بعضُ هذه المجموعات خاصة ببلدان عربية معيَّنة، وبعضها عامَّة. ويوجد تسعُ مجموعات إلحادية عربيَّة مغلقة بأكثر من ألف مشترك.

---

(١) انظر:

https://www.facebook.com/search/top/?init=quick&q=atheist&tas=0.9368660481446072

نشاطُ الملاحدة في تويتر:

للملاحدةِ صفحاتٌ تحمل اسمَ الإلحاد في تويتر أيضًا، ولكن المتابعين أقلُّ بكثير من فيسبوك. فصفحة: جمهورة الإلحاد (Atheist Republic) لديها ١٣٠ ألف متابع في تويتر، بينما عددُ متابعيها في فيسبوك ٢,٣ مليون كما سبق. ولكنْ لصفحات الملاحدة الشخصية أكثرُ متابعين في تويتر من فيسبوك؛ فبينما عندَ ريتشارد دوكينز أكثر من ٦٦٠ ألف متابع في فيسبوك عنده أكثر من ٢,٩ مليون في تويتر. ولسام هاريس أكثر من ٥٤٠ ألف متابع في فيسبوك، وأكثر من ١,٤ مليون في تويتر.

وطريقةُ الملاحدة في تويتر تختلف نوعًا ما عن طريقتهم في فيسبوك حيث يكتبون تغريداتٍ مختصرة ساخرة من الإيمان بالله أو الدين والمتديِّنين. وحيث تكون التغريدات لا تتعدَّى ٢٨٠ حرفًا، فيصعب الردُّ عليهم بكلام مفصَّل. وبذلك تكون دعوة الملاحدة في تويتر بمثابة بثِّ السُّم مع صعوبة علاجِه للمؤمنين. من الأمثلة على ذلك تغريدة في حساب (Think Atheist) حيث ينقل كلامًا لداعي الإلحاد كريستوفر هيتشن وهو يخاطب أحدَ المتيديِّنين قائلًا: «الدين يجعل الإنسانَ العادي الأخلاقي يفعل أفعالًا دنيئة وسيئة، وأنتَ قد بيِّنت لي ذلك الآن»[1]. هذا كلامٌ مختصر وخطير؛ فقد يبقى في نفوس بعض الناس إذا التقى بشخص متديِّن يتصرَّف بتصرُّفات خاطئة؛ فيلوم الدينَ بسببه. ومَن أرادَ أن يردَّ على هذا الكلام المختصر السيِّئ يحتاج أن يفصِّل كلامًا أطول هذا الكلام المختصر.

نشاطُ الملاحدة في انستغرام:

أكبرُ حساب إلحادي - حسب ما وجدت - هو حساب (Atheist republic)، ولديه أكثرُ من ١٢٥ ألف متابع، وهو عددٌ قليل مقارنة مع الصفحات الإلحادية في فيسبوك. ومعَ ذلك فإنَّ الدعوة إلى الإلحاد ظاهرة قويَّة في انستغرام من قبل الحسابات الفردية. وهُم ينشرون الصورَ الإلحادية والساخرة من الأديان عبر الهاشتاكات؛

---

(١) انظر: https: / /twitter.com/ThinkAtheist/status/834607429291753473

فقد نشر عبرَ هاشتاك (Atheist#) أكثر من ١,٣ مليون صورة. وهذا واحد ضمن هاشتاكات إلحاديةٍ كثيرة. والصورُ التي ينشرها الملاحدةُ قد تؤثِّر كثيرًا في نفس المؤمن فتهتزُّ مشاعرها الإيمانية. وأغلبُ الصور الإلحادية المنشورة في انستغرام هي صور ساخرة من الإله، أو الأنبياء، أو شعيرة من شعائر الدين أو المتديِّنين. وهذا مما يجعل دعوة الملاحدة في انستغرام في غاية الخطورة.

الوسيلةُ الثّامنة: صنعُ اللوحات الدعائية في الشوارع:

«مِن مظاهر الدعوة للإلحاد وتطبيع حضورِه في الواقع، الدعوة للإلحاد عبر اللوحات الدَّعائية في الشوارع، حيث يقوم الملاحدةُ في كثيرٍ من المدن باستئجار اللوحات الدعائية الصغيرة والكبيرة، وكتابة العبارات الدعوية الإلحادية عليها»(١). فاستغلَّ الملاحدة حريةَ التعبير في الدول الديمقراطية لهذا الغرض. وتقوم المؤسسات الإلحادية بطباعةِ هذه اللوحات الدعائية بالدعوةِ للإلحاد في الولايات المتَّحدة، وينفقون عليها أموالًا ضخمة. وهذه اللوحاتُ الدعائية تتضمَّن في الغالب كلامًا مختصرًا، مع الإحالة إلى موقعِهم لمواصلة القراءة عن الإلحاد. ومن الأمثلة على هذه اللوحات أنهم يكتبون باللُّغتين الإنجليزية والعربية: «الله. تعرفون أنَّها خرافة.. ولكم أيضًا حرية الاختيار» (٢). ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر يدلُّ على سفاهةِ ودناءة الملاحدة الجدد، ومع ذلك يخشى أن يتأثَّر له ضعاف النفوس.

الوسيلةُ التّاسعة: إنتاجُ الموسيقى الإلحادية:

الموسيقى من البلاء التي ابتلي بها كثيرٌ من البشر، وهي من أكبر وسائل الشيطان لنشْر الشرِّ والفساد؛ قال الإمام ابنُ القيم (رحمه الله): «والغناء أشدُّ لهوًا، وأعظم ضررًا مِن أحاديث الملوك وأخبارهم، فإنه رقيةُ الزنا، ومنبتُ النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصدُّه عنِ القرآن أعظم من صدِّ غيره من الكلام الباطل؛ لشدَّة ميل النفوس إليه،

---

(١) مليشيا الإلحاد (٤٠).

(2) https://www.atheists.org/activism/billboards

ورغبتها فيه»[١]. ولرغبةِ النفوس في الغناء استغلَّها الملاحدة في ترويج أباطيلهم. ولعلَّه لا توجد وسيلةٌ من وسائل نشر الإلحاد أعظم من وسيلة الموسيقى الإلحادية. ومما يدلُّ على ذلك أنَّ الموقع الإلحادي (Common Sense Atheism) نشر أشهر الأغاني الإلحادية العشر، وكلُّها أغنية مشهورة ومتداولة. ومن ضمنِها أغنية: (تخيَّل)، وتعتبر من أشْهر الأغنية في التاريخ[٢]. وقد وضعت هذه الأغنية في يوتيوب مرّات عديدة، ويتجاوز عددُ المشاهدين في مقطع واحد ٤٥ مليون[٣]. ويقول المغنِّي جون لينون[٤] في هذه الأغنية: «تخيَّل أن ليس هناك جنة، من السَّهل لو تجرب، ليس هناك جهنم تحتنا، وفوقنا فقط السماء، تخيَّل أن كلَّ الناس يعيشون من أجل اليوم، تخيّل أن ليس هناك بلدان، ليس من الصعب فعلُ هذا، لا شيء لتقتل أو تموتَ من أجله، ولا دين أيضًا، تخيَّل أنَّ كل الناس يعيشون في سلام، بإمكانك أنْ تقول إني حالم، ولكني لست الوحيدَ آمَل أن تنضمَّ إلينا يومًا، وسيصبح العالم كواحدٍ». فهذه الأغنية فيها كفرٌ صريح وإلحادٌ قبيح، ومع ذلك قد انتشرت في الآفاق.

وقد تبيَّن خلال هذا المبحث أنَّ الملاحدة يستخدمون كلَّ وسيلة ممكنة في نشر إلحادِهم وكفرهم وخبثهم. وهذا مما يستوجبُ على أهل الإيمان التصدِّي لهذه الظاهرة بكلِّ وسيلة مُباحة وممكنة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١ / ٢٤٠).

(2) http://www.rollingstone.com/music/lists/the-500-greatest-songs-of-all-time-20110407/john-lennon-imagine-20110516

(3) https://www.youtube.com/watch?v=DVg2EJvvlF8

(٤) جون لينون (John Lennon): مغني ومؤلف بريطاني. كان مؤسِّس فرقة البيتلز، وهي من أشهر الفرق الموسيقية الغربية في القرن العشرين. توفي عام ١٩٨٠م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/John - Lennon

المبحثُ السّابع

تاريخُ نقدِ الإلحاد

تاريخُ نقد الإلحاد موضوعٌ واسع ومهمٌّ، وقد مرَّ على مراحل كثيرة ومهمَّة. ولا يمكن فهمُ الرُّدود المعاصرة على الإلحاد - وما يحصل فيها من الخلل أحيانًا - فهمًا دقيقًا إلّا بإعطاء هذا الموضوع حقَّه. وقد تبيَّن فيما مضى أنَّ الإلحاد بمفهومه الفلسفي المعاصر لم يظهرْ إلّا في القرن الثامن عشر في أوروبا. ولهذا كان جلُّ اهتمام المتقدِّمين مُنصبًّا في إقامةِ الأدلة على وجود الخالق، وليس في نقد الإلحاد كمذهب. ومع ذلك فقد وُجد مَن نسب الربوبية إلى أنفسِهم في أزمان متقدِّمة، فتصدَّى لهم بعضُ المرسلين؛ فهذا نوعٌ من أنواع نقد الإلحاد.

وكان فلاسفةُ اليونان والرومان يهتمُّون بإقامة أدلةٍ وبراهين فلسفية على وجود ذكاء وعلى لهذا الكون قبلَ أن يتبلور الفكر الإلحادي. ثمَّ لما ظهرت النصرانية المحرَّفة كان علماءُ اللاهوت عندهم يكتبون أدلةً وبراهين على وجود الله ضمن كتبهم اللاهوتية.

كما أنَّ تاريخَ المسلمين حافلٌ بنقد الإلحاد، والاهتمام بإقامة أدلةٍ على وجود الله من قبَل طوائف مختلفة.

ولمّا ظهر الإلحادُ في أوروبا وتصدَّى له علماءُ الغرب استفادوا ممن سبقهم، ولكنَّهم طوَّروا هذه الأدلة والبراهينَ بصياغات جديدة، كما أنهم تأثَّروا بما كان عند السابقين من الانحرافاتِ العقدية. ولذلك يحسُن تقسيمُ هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب: تاريخ نقد الإلحاد في العصور المتقدِّمة، وتاريخ نقد الإلحاد عندَ النصارى المتقدِّمين، وتاريخ نقد الإلحاد المعاصر.

المبحثُ السّابع

تاريخُ نقد الإلحاد

وفيه ثلاثةُ مطالب:

المطلبُ الأوَّل: تاريخُ نقدِ الإلحاد في العصور المتقدِّمة.

المطلبُ الثّاني: تاريخُ نقدِ الإلحاد عند النصارى المتقدِّمين.

المطلبُ الثّالث: تاريخُ نقدِ الإلحاد المعاصر.

المطلبُ الأوَّل

تاريخُ نقدِ الإلحاد في القديم

دعوةُ الأنبياء والمرسلين:

كان آدم عليه السلام أوّلَ إنسانٍ على وجه الأرض، وكان مؤمنًا وموحّدًا ونبيًّا. وكانت ذريّته على التوحيد الخالص عشرةَ قرون؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، قال عبدُ الله بن عبّاس (رضي اللهُ عنهما): (كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون، كلهم على شريعةٍ من الحق)[١]. وحدثَ أوّلُ انحراف عقدي في البشرية في قوم نوح حين عكفوا على قبور صالحين وعبدوهم؛ فبعث اللهُ رسوله - نوحًا عليه السلام - يدعوهم إلى التوحيد؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا ﴾[نوح: ٢٣]، (كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباعٌ يقتدون بهم، فلمّا ماتوا قال أصحابُهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوقَ لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلمّا ماتوا، وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنَّما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر؛ فعبدوهم)[٢].

وبعدَ هلاك قوم نوح حصلَ ما أخبر اللهُ به: ﴿ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢ - ٤٤]. وكان الأنبياء والرسلُ يدعون أقوامَهم إلى توحيد الألوهية كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، ولم يحصلْ من أحدٍ منهم إنكارُ وجود الله أو نسبة الربوبية إلى غير الله.

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣/ ٦٢١).

(٢) المصدر السابق (٢٣ / ٣٠٣)، والأثر لمحمد بن قيس (رحمه الله).

إبراهيمُ مع نمرود:

وأوَّلُ مرَّة ذكر الله أنَّ أحدًا نسبَ الربوبية لنفسه كانت في قصة الذي حاجَّ إبراهيم في ربّه حين قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقد ذُكر في كتب التَّفسير أنَّ هذا الملك كان ينسبُ الربوبية لنفسه؛ فقد قال التابعي الجليل زيدُ بن أسلمَ (رحمه الله): (هو نمرود، كان بالموصل والناس يأتونه، فإذا دخلوا عليه، قال: مَن ربكم؟ فيقولون: أنت! فيقول: أميروهم. فلمّا دخل إبراهيم، ومعه بعيرٌ خرج يمتار به لولده، قال: فعرضهم كلهم، فيقول: مَن ربكم؟ فيقولون: أنت! فيقول: أميروهم! حتى عرض إبراهيم مرَّتين، فقال: مَن ربك!؟ قال: ربيَ الذي يحيي ويميت! قال: أنا أحيي وأميت، إنْ شئت قتلتك فأمتُّك، وإن شئت استحييتك...)[1].

ولكنْ خليلُ الله إبراهيم أقام عليه أبلغَ الحجَّة إذ قال: ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

موسى مع فرعون:

وقد تبعَ فرعون منهجَ نمرود في طغيانه وجبروته ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤]. ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾[الزحرف: ٥٤]، وكلُّ ذلك مع أنَّ فرعون وقومه كانوا مقرِّين في قرارة أنفسِهم بأنَّ الله ربَّهم وخالقهم كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]. ولكنّ الله أرسلَ رسوله موسى ﷺ وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الأعراف: ١٠٤ - ١٠٥]، فأقام موسى الحجة عليهم وألقى العصا ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٥٧٣).

مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٤]. إلى أنْ خرج موسى بقومه من أرض مصر، وقال اللهُ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]. فاعترف فرعون بما أضمر في نفسِه في آخر لحظات حياته بعد أن أقام موسى عليه السلام عليه الحجة البالغة؛ ولكنّ ذلك الاعتراف لم ينفعْه. فكان إبراهيم وموسى أوَّل مَن أقام الأدلة والبراهين على مَن نسب الربوبية إلى غير الله تعالى.

نقدُ الإلحاد في العصر اليوناني:

قدْ سبق البيان المفصَّل عن الإلحاد في العصر اليوناني، وتبيَّن خلالَ ذلك المطلب أن اليونانيّين وقعوا في أنواعٍ من الإلحاد بالمفهوم العام، ولكنَّه لا يُعرف عن أحد من فلاسفتهم أنَّه كان ملحدًا بالمفهوم الخاص. وظهرَ في العصر اليوناني أوَّلُ محاولاتٍ لإقامة أدلةٍ وبراهين فلسفية على وجود علَّة ومصمِّم لهذا الكون. وكان أشهرُ الحجج التي أوردَها فلاسفة اليونان: الحجة الغائية، المحرِّك غير المتحرِّك؛ وبيانُ ذلك كما يلي:

الحجَّة الغائية (Teleological argument):

هذه الحجةُ تعتمد على أنَّ النظام في الطبيعة يدلُّ على وجود غاية وتصميم، ووجود غايةٍ وتصميم يدلُّ على وجود مصمِّم[1]. وكان الفلاسفة اليونانيون يهتمون بهذه الحجَّة غاية الاهتمام، وارتبطتْ هذه الحجة كثيرًا بفلسفتهم وأبحاثهم العلمية. ظهرت هذه الحجةُ في وقت مبكِّر في العصر اليوناني، حيث نسبَها أرسطو إلى الفيلسوف هيروموتيموس[2] الذي عاشَ في القرن السادس قبلَ الميلاد، ثمَّ ذكره

---

(١) انظر:

https://en.oxforddictionaries.com/definition/teleological_argument

(٢) هيروموتيموس Hermotimus: فيلسوف يوناني عاش في القرن السادس قبل الميلادي، وقيل إنَّه أوَّل فيلسوفٍ يوناني اقترح استخدم الحجة الغائية. والمعلومات عن حياته شحيحة. انظر: https://peoplepill.com/people/hermotimus-of-clazomenae/

الفيلسوف أناكساغوراس[١]، ولكن أوَّل مَن اشتهر به هو الفيلسوف سقراط[٢]. وكان سقراط يأخذ تلاميذَه إلى السوق، ويسألهم ما هي الأشياءُ التي تبدو مصمَّمة وما التي تبدو عشوائية، ثمَّ يقيس هذا على الطبيعة، وأنه لا يمكن أنها نتيجةٌ لعشوائية عمياء[٣].

وكان الفيلسوف أرسطو يستخدمُ هذا الدليل كثيرًا في الردِّ على الماديين، ويبيِّن أن الطبيعةَ لا يمكن أن تفسِّر نفسَها بنفسها. وكان يهتمُّ بهذه الحجة في علم الأحياء بالذات، ودراسة الغائية في الكائنات الحية؛ فذكر أمثلةً كثيرة على الغائية الملاحظة في الحيوانات في كتابه: «تاريخ الحيوانات» (Τῶν περὶ τὰ ζῷα ἱστοριῶν)[٤].

المحرِّكُ الذي لا يتحرَّك:

كان أفلاطون أوّلَ مَن ذكر هذه الحجة في كتابه: «القوانين» (Νόμοι)[٥]، حيث ذكرَ أنَّ الكون بأكمله في حركة متنقِّلة، وهذه الحركةُ بحاجة إلى محرِّك يحرِّكُها ويحافظ على حركتها، وكان يسمِّيه: المحرِّك الأوَّل[٦].

---

(١) انظر: Metaphysics I.4.984b
http://www.perseus.tufts.edu/hopper/text?doc=Aristot.+Met.+1.984b

(٢) انظر: A Companion to Socrates, Ahbel - Rappe, S. and Kamtekar, R, by: (45), (John Wiley & Sons, 2009)

(3) (273-275), McPherran, Mark, (The Pennsylvania State University Press, 1996) The Religion of Socrates

(4) http://classics.mit.edu/Aristotle/history_anim.1.i.html#223

(٥) انظر: The Laws (X)
http://classics.mit.edu/Plato/laws.10.x.html

(٦) انظر: The Cosmological Argument from Plato to Leibniz (1), by: William Lane Craig, (Wipf & Stock Pub, 2001)

وأفاضَ تلميذه أرسطو الكلامَ على هذه الحجة، ودلَّل عليها في كتابه: «السماع الطبيعي» (Φυσικὴ ἀκρόασις)[(١)] وكتابه: «ما وراء الطبيعة» (τὰ μετὰ τὰ φυσικά)[(٢)]. وكان يسمِّي هذا السبب والمحرِّك الأوّل بالمغيِّر الذي لا يتغيَّر؛ فكان يرى أنَّ هذا المحرّك هو كائنٌ سرمدي، لا يتغيَّر، والمسئول الأساس للكمال والنِّظام في العالم المشاهد[(٣)].

ولكنَّ مفهوم أرسطو للإله - الذي ذكرَه في هذا الكتاب - يختلف كثيرًا عن مفهوم الخالق الذي يؤمنُ به أتباعُ الأديان. وخلاصةُ مفهومه للمحرِّك الأوَّل أنه: علةٌ تامَّة قديمة أزليَّة، ومعلولُها معها قديم؛ يعني أنَّ العالم معه أزلي. وكان يصف المحرّك الأوّل بصفتيْن أساسيتين:

«**الصفةُ الأولى**: أنه لا يتحرَّك، فهوَ ثابت، ويحرِّك فقط، ومعنى هذا: أنَّ هذا المحرّك يتحرَّك بذاته، لأنه لو تحرَّك بغيره فمعنى هذا أنه يوجد شيء آخر يحرِّكه؛ فهو لا يمكن أن يكون محرِّكًا بغيره بل محركًا بذاته.

الصفةُ الثّانية: أنه أبديٌّ لا ينقسم، لأنَّه إذا انقسم تعدَّد، ولو تعدَّد لأصبح له أجزاء، وعندها لا نستطيع أن نعرفَ الحركة من أيِّ جزء، وهو لا ينقسم لأنَّه خالٍ من المادة»[(٤)].

ففلاسفةُ اليونان أوَّل مَن تكلَّموا عمّا يشبه الحجة الكونية[(٥)]، ولكن كان اعتقادُهم مبنيًّا على القول بقدم العالم، وأنَّ الإله علةٌ تامَّة قديمة، ومعلولُها قديم. وهذا الاعتقاد أثَّر كثيرًا في الفلاسفة المنتسبين إلى النصرانية والإسلام. كما أنَّ هذه العقيدة أثَّرت في عقيدة

---

(١) انظر: Physics VIII, 4 - 6 , by: Aristotle

http://classics.mit.edu/Aristotle/physics.8.viii.html

(٢) انظر: Metaphysics XII, 1 - 6

http://classics.mit.edu/Aristotle/metaphysics.12.xii.html

(3) Internet Encyclopedia of Philosphy

http://www.iep.utm.edu/aris-met/#H9

(٤) أرسطوطاليس ومعتقداته الفلسفية (٨ – ٩)، لمريم مصطفى علي برناوي. والبحث منشور في: http: / /www.alukah.net /library/ ٠ / ٤٩٩٦٠/

(٥) سيأتي الكلام المفصَّل عن هذه الحجة لاحقًا.

اللاهوتيين من النصارى والمتكلّمين من المسلمين الذين قالوا بحدوثِ العالم معَ التسليم لبعض مقدِّمات الفلاسفة - كما سيأتي بيانه مفصَّلًا -.

نقدُ الإلحاد في العصر الروماني:

كان أغلبُ سكّان الروم وثنيِّين، كما أنهم كانوا متأثِّرين بالفلسفة اليونانية إلى حدٍّ كبير. وكانت أشهرُ الفلسفات في الإمبراطورية الرومانية: الفلسفة الرّواقية والفلسفة الأفلاطونية المحدثة. ولكلٍّ من هاتين الفلسفتين تأثيرٌ كبير على اللاهوتيين النصارى فيما بعْد؛ وبيانُ ذلك كما يلي:

الفلسفةُ الرُّواقية[١]:

كانت الفلسفةُ الرُّواقية من أهمِّ المدارس الفلسفية في الإمبراطورية الرومانية. والفلسفةُ الرُّواقية مذهبٌ فلسفي ظهرَ في اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد، ولكنَّ هذا المذهب ازدهرَ في الإمبراطورية الرومانية[٢]. وكان الفيلسوف سيسيرو أحدَ روَّاد هذه المدرسة، وكان يهتمُّ بإقامة الأدلةِ على وجود خالق؛ وقد استدلَّ على ذلك بالحجة الغائية قائلًا: «عندما ترى مزولة[٣] أو ساعة مائية تعرف أنَّها تذكر الوقت بسبب التَّصميم، وليس بسبب الصدفة. فكيف تتخيَّل أنَّ الكون بأكمله خالٍ عن الغائية والذكاء، عندما يشمل كلّ شيء، بما في ذلك هذه المصنوعات وصانعيها»[٤]. والاستدلالُ بهذا المثال انتقلَ إلى النصرانية فيما بعد، وسيأتي تفصيلُ ذلك في الفصل الأوَّل من الباب الثاني - إنْ شاء الله -.

---

(١) الرواقية: مذهبُ أتباع زينون الفيلسوف اليوناني؛ لأنَّه كان يعلِّمهم في رواق، ويُسمَّون أصحاب المظلَّة، وهُم يرون أنَّ السَّعادة في الفضيلة، وأنَّ الحكيم لا يبالي لذة ولا ألمًا. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٢ / ٩٦٢).

(٢) انظر: Britannica Concise Encyclopedia (1825)

(٣) المزولة هي أداة توقيت نهاري، كانت تستخدَم في تحديد الوقت قديمًا.

(4) De Natura Deorum, ii. 34, M.T.CiceroDe natura Deorum(the nature of the gods),book II,XXIV

الأفلاطونيَّةُ المحدثة[1]:

الأفلاطونيةُ المحدثة من أهمِّ الفلسفات في العصر الروماني. وكان أفلوطين[2] يثبت واجبَ الوجود، مثل: أفلاطون وأرسطو، ولكنَّه لا يصفُه إلّا بالصفات السلبية، وتصدرُ الموجودات من واجبِ الوجود صدورًا ضروريًّا عن طريق الفيض[3] أو الإشعاع النوراني[4]. وغايةُ الفلسفة لديْهم الإرشاد إلى الطريق الذي يصلُ الإنسان إلى إفناء ذاته في هذه الوحدةِ الإلهية، ويكون هذا الإفناءُ بتصفية الروح[5]. فطريقةُ العلم بواجبِ الوجود يحصل عنْ طريق تصفية النفس، لا عنْ طريق إقامة براهين وأدلة علمية وفلسفية.

وهذه الفلسفةُ أثَّرت تأثيرًا عظيمًا في معتقدات بعض المنتسبين إلى النصرانية والإسلام - ولا سيَّما الصوفية -. ومِن ضمن هذا التأثير موقفُهم من أدلة وجود الله - كما سيأتي بيانه مفصَّلًا -.

---

(١) الأفلاطونية المحدثة: نظامٌ فلسفي وديني، نشأت على يدِ أتباع أفلوطين في القرن الثالث. وقد جمعَ بين آراء أفلاطون، وأرسطو، وبيتاغوراس، والفلسفة الرّواقية انظر:
http://www.oxfordreference.com/view/10.1093/oi/authority.20110803100228443

(٢) أفلوطين (Plotinus): فيلسوف يوناني عاش في مصر في القرن الثالث بعد الميلاد. وهو مؤسس الأفلاطونية المحدثة. توفي عام ٢٧٠ م. انظر: https: / /www.britannica. com /biography /Plotinus

(٣) الفيض: مذهبٌ يقول بأنَّ جميع الموجودات التي يتألّف منها العالم تفيض عن مبدأ واحد أو جوهرٍ واحد من دونِ أن يكون في فِعْل هذا المبدأ أو الجوهر تراخٍ أو انقطاع. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٧٦٠).

(٤) انظر: موسوعة الفلسفة (١ / ١٩٩)، للدكتور عبد الرحمن بدوي، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر،١٩٨٤م).

(٥) انظر: المصدر السابق (١ / ١٩٦).

المطلبُ الثّاني
تاريخُ نقدِ الإلحاد عندَ النَّصارى المتقدِّمين

ظهورُ النَّصرانية المحرَّفة:

قدِ اصطفى اللهُ بني إسرائيل على العالمين في فترةٍ من الزمن كما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[البقرة: ٤٧]. وكان من ضمن هذا التَّفضيل أن الله خصَّهم بإرسال الأنبياء والرسل، وكان عيسى - عليه السلام - آخرَ الرسل من بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ ﴾ [الصفّ: ٦]. وبعدما رُفع عيسى إلى السماء حرَّف بعضُ المنتسبين إلى دينه - وعلى رأسهم بولس - دينَه، وتطوَّر هذا الدين المحرَّف إلى أنْ صارت النصرانية المعروفة اليوم. وقد تضمَّن كتابهم المقدَّس جزئين: العهد القديم والعهد الجديد. وكلا العهدين لا يتحدَّث كثيرًا عن أدلة وجود الله، بل كتاب النصارى المقدَّس يتحدَّث عن وجود الإله بديهة؛ فأوَّل آية في العهد القديم:)في البدء خلق الله السماوات والأرض)[1]. وكان الناسُ في زمن تدوينِ العهد القديم إمّا موحِّد وإمّا مُشرك. بينما يوجد تركيزٌ كبير على توحيدِ الألوهية - ولا سيَّما في العهد القديم، بل أوَّل وصايا بني إسرائيل: (أنا الرب إلهك الذي أخرجَك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكنْ لك آلهة أخرى أمامي)[2]. ولا تكادُ توجد أيُّ إشارة إلى ملاحدةٍ في كتابهم المقدَّس سوى النَّزر اليسير مثل الجملة: (يقول الجاهل في قلبه: ليس [هناك] إله)[3].

---

(١) سفر التكوين (١ / ١).

(٢) سفر الخروج (٢٠ / ٢ - ٣).

(٣) المزامير (١٤ / ١).

ونشأتِ النصرانية المحرَّفة في الإمبراطورية الرومانية، وهي بيئة وثنية تسود فيها الفلسفةُ اليونانية والأفلاطونية الحديثة. وقد أثَّرت الوثنية الرومانية والفلسفة الموجودة كثيرًا في تكوينِ عقيدة النصرانية المحرَّفة، كما أنَّ علماء اللاهوت كانوا يرجعون إلى هذه الفلسفات الوثنية لإقامةِ الأدلة على وجود الله - لشبه خلوِّ كتابهم المقدَّس من هذه الأدلة -. وفيما يأتي ذكرُ أهمِّ علماء اللاهوت من النصارى وتأثيرهم في العقائد النَّصرانية عمومًا، وأدلة وجود الله خصوصًا[١]:

القدِّيس أغسطين:

كان القدِّيس أغسطين أهمَّ لاهوتي نصراني في العصور المتقدّمة، وأثّر في التفكير النَّصراني تأثيرًا عظيمًا، وكانت فلسفتُه سائدة في تلك العصور[٢]. وكان أغسطين متأثرًا بالفلسفة الرُّواقية والأفلاطونية المحدثة؛ وظهرَ هذا التأثّر خلال كتاباته[٣]. وكان من آثار تأثُّره بهذه الفلسفات تأويلُه للنصوص الواردة في كتابهم المقدَّس، ومن ذلك أنه كان يؤول قصةَ الخلق؛ فكان يرى أنَّ الله لم يخلق الخلقَ في ستَّة أيام، وإنما خلقها دفعة واحدة. ورأى أنَّ فهمَ قصَّة الخلق حرفيًّا يتنافَى مع العقل، ويؤدِّي إلى السخرية بالخالق[٤].

ويستدلُّ القائلون بالأرض القديمة (Old – Earth Creationists)[٥] في هذا الزمان بآراء أغسطين في تأويل قصَّة الخلق في كتابهم المقدَّس[٦].

---

(١) وقد سبقَ أنَّ قرنَ الإلحاد لم يطلع في هذه العصور المتقدِّمة، ولذلك يكون جلُّ هذا المطلب عن أدلةِ وجود الله عند النصارى المتقدِّمين.

(٢) نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (١١).

(٣) انظر: /https: / /plato.stanford.edu /entries /augustine

(٤) انظر: The Literal Interpretation of Genesis 1:19 - 20، Chapt. 19

(٥) وهُم يستندونَ إلى النظريات العلمية السائدة مثل: نظرية الانفجار العظيم.

(٦) ممَّن استدلَّ بآراء أغسطين في تأويل قصة الخلق: جون لينوكس، وهو من أشهر المنتقدين الغربيين للإلحاد في هذا العصر. انظر:

Seven Days That Divide the World (31 - 32). By: John Lennox, Zondervan (2011)

وكان يرى أنَّ اللغة عاجزةٌ عن التعبير والإيصال، وإنما تصلح لمجرَّد تعبير عن مضْمون النفس[١]. و«لما كانت اللغةُ عاجزة عن إيصال الحقيقة وبالتالي استحالة التعلُّم عنْ طريق التلقين؛ لم يبقَ إذن إلّا أن تنكشف الحقائق في النفس بالتأمُّل والعكوف على الذات؛ وبذلك ينحصر دورُ اللغة في التَّنبيه على الأشياء التي يراها المتأمّل بعين بصيرته، ويدركُها بحدْسِه، ويلمسها بشعوره، ويحياها بنفسه»[٢]. وهذا ما كان يسمّيه بالنظرية الإشراقية، وهي طريقُ الوصول إلى العلم بالله والسعادة. ويتمُّ هذا الإشراق عن طريق المعلِّم الداخلي، وهو المسيح الذي هو غيرُ محدود في مكان أو زمان، بل داخل الإنسان نفسِه[٣]. فيتبيَّن بذلك أنَّ عقيدة أغسطين تشبه عقائد الصوفية الحلولية[٤] وقولهم بالكشف الإلهي[٥].

يوحنا النحوي:

وقعَ نقاشٌ حارٌّ بين فلاسفة الأفلاطونية المحدثة وبعض اللاهوتيين من النصارى في قضيةِ قِدم العالم. وكان فلاسفةُ الأفلاطونية المحدثة ينتصرون لآراء أفلاطون وأرسطو. وألَّف الفيلسوف برقلوس[٦] كتابه: «عن قدم العالم» (De Aeternitate Mundi) وذكر ثماني عشْرة حجة على قدم العالم[٧].

---

(١) نصوص من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط (٢١).

(٢) المصدر السابق (٣٠).

(٣) المصدر السابق (٣٢ - ٣٤).

(٤) الحلولية: المرادُ بالحلول هو: حلولُ الله في مخلوقاته أو بعض مخلوقاته. ومِن القائلين بحلول الله في بعضِ مخلوقاته: النَّصارى، والنصيرية، وبعض فرق الصوفية. ومن القائلين بحلول الله في جميع الخلق: صوفية الجهمية. انظر: مصطلحات في كتب العقيدة - دراسة وتحليل - (٤٠ - ٤٢).

(٥) الكشف: هو في مصطلح الصوفية: الاطلاعُ على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقيَّة وجودًا وشهودًا. انظر: التعريفات (١٠٣) للجرجاني.

(٦) برقلس (Proclus): فيلسوفٌ يوناني من أتباع الأفلاطونية المحدثة. كان معارضًا للنصرانية، ولكنَّ فلسفته أثَّرت في لاهوتيّين نصارى، كما أنَّها أثَّرت في بعض المتفلسفة المنتسبين إلى الإسلام. توفي عام: ٤٨٥ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Proclus

(7) On the Eternity of the World, introduction by: Lang, Helen (2), University of California Press (2001)

وكان اللاهوتي النصراني يوحنّا النحوي يهتمُّ بفلسفة أرسطو في أوّلِ عُمره ويعلِّق على كتبه، ولكنْ تغيَّر موقفه من الفلسفة اليونانية وردَّ على كتاب برقلس بكتاب سمَّاه: «عن قدم العالم ضدَّ برقلس» (On the Eternity of the World Against Proclus)[1]. وقد ذكرَ بعضُ الباحثين أنَّ يوحنا النحوي هو أوَّل مَن دوَّن الحجَّة الكونية على وجود الخالق، ولكنَّها أخذت صيغتها الكاملة على أيدي المتكلِّمين من المسلمين واليهود في العصور الوسطى[2]. وخلاصةُ الحجَّة الكونية تقول: «إنَّ جميعَ الأشياء في الطبيعة بحاجةٍ إلى شيء آخر لوجودها، وإنَّ الكون بأكمله يعتمد بنفسِه على كائنٍ لإيجاده بالاستقلال أو الضرورة»[3]. والحجة الكونية من أشهر الأدلة على وجود الله، ويستدلُّ بها المشتغلون بنقد الإلحاد كثيرًا في هذا الزمان - كما سيأتي بيانه -.

قف أنسلم كانتربري[4]:

كان الأسقف أنسلم كانتربري من المفكِّرين النصارى المشهورين في العصور الوسطى. ويعتبرُ أنسلم أحدَ مؤسسي المدرسية (Scholasticism)[5]، وهي مدرسة فلسفية مزجتْ بين العقائد النصرانية والفلسفة - ولا سيَّما فلسفة أرسطو والأفلاطونية المحدثة - وتقدِّم منهجًا علميًّا لإقامة العقائد النصرانية باستخدام القياس والجدل.

---

(1) https://plato.stanford.edu/entries/philoponus/

(٢) انظر:

Analytic philosophy of religion: its history since 1955 (165), by Stephen Duncan, Humanities EBook (2016)

(3) https://en.oxforddictionaries.com/definition/us/cosmological_argument

(٤) أنسلم كانتربري (Anselm of Canterbury): فيلسوف ولاهوتي نصراني، وُلد في إيطاليا، ثمَّ دخل دير في فرنسا، وتعلَّم اللاهوت النصراني وبرز فيه. أصبح رئيس الأساقفرة في كانتبري في بريطانيا. ويعتبر مؤسّس الطريقة المدرسية النصرانية. توفي عام ١١٠٩ م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Saint-Anselm-of-Canterbury

(٥) انظر:

by: Rolf Toman, Tandem Verlag (2007) The Art of Gothic: Architecture, Sculpture, Painting

فهذه الفلسفة أقربُ ما يكون إلى علمِ الكلام عند بعض الطوائف المنتسبة إلى الإسلام[1].

كان أنسلم يريد أن يؤسِّس إيمانه على المعرفة والفهم، وكان شعاره: «الإيمان باحثٌ عن العقل» (Fides quaerens intellectum)[2]. وقد ألّف عددًا من الكتب المتعلِّقة بهذا، ولكنْ أهمُّها كتابًا: «مونولوجيون» (Monologian)، و«بروسولوجيون» (Prosologion).

وذكرَ في الكتاب الأوَّل دليلًا على وجود الله من التفاضل؛ وخلاصتها: أن الخيرية في الأشياء تتفاضلُ في درجات، وهذه الأشياءُ تكسب خيريتها من غيرها، ولا بدَّ أن تستندَ إلى كائنٍ مُطلق الخير. وهذا الكائن لا بدَّ أن يكون مطلقًا في عظمته، وهذا الكائن هو الله[3].

وقد ألَّف كتابَه الثاني على طريقة مناجاةِ الله ومخاطبته، وأوردَ ضمن هذه المناجاة ماباتَ يُعرف بالحجَّة الوجودية على وجود الله (Ontological Evidence). وسيأتي مبحث خاصٌّ عن هذه الحجَّة بعنوان: الحجة الوجودية في الفصل الأوّل من الباب الثاني – إن شاء الله –.

توما الأكويني:

وكان توما أشهرَ لاهوتي نصراني في العصور الوسطى. وكان متأثّرًا إلى حدٍّ كبير بالفلسفة اليونانية، ولا سيَّما فلسفة أرسطو. كما أنه كان متأثِّرًا بشرّاح كتب أرسطو من المنتسبين إلى الإسلام مثل: ابن سينا وابن رشد.

وقد ذكرَ توما الأكويني خمسةَ أدلة على وجود الله في كتابه: «الخلاصة اللاهوتية» (Summa Theologica)؛ وهي كالتالي:

---

(١) انظر: http://www.philosophybasics.com/movements_scholasticism.html

(٢) انظر: / http: / /www.iep.utm.edu /anselm

(٣) انظر: https://plato.stanford.edu/entries/anselm/#ArgMon

- **الدَّليلُ الأوَّل: المحرِّك غيرُ المتحرِّك:**

خلاصةُ هذا الدليل: أننا نشاهدُ في العالم أنَّ الأشياء متحرِّكة. وكلُّ شيء متحرّك فلا بدَّ له من مُحرِّك. وهكذا ننتهي إلى محرِّك غير متحرِّك؛ وهو الله.

- **الدَّليلُ الثّاني: السببَ الأوَّل:**

خلاصةُ هذا الدليل: أنَّ الطبيعة تؤكِّد على وجود علَّة سببية للمعلولات. ويستحيل الرجوعُ إلى ما لا نهاية له من الأسباب؛ فلا بدَّ من التوقُّف عند العلة الأولى؛ وهو الله(١).

والطريقُ الأوَّل والثاني مأخوذان عن أرسطو في كتابيه: السماع الطبيعي، وما وراء الطبيعة كما سبق ذكره.

- **الدَّليلُ الثّالث: واجبُ الوجود وممكنُ الوجود:**

خلاصةُ هذا الدليل: أنَّ في العالم كائناتٍ معرَّضةً للزوال؛ فهي ممكنةُ الوجود لأنها قابلةٌ للزوال. فإذا تسلسلتِ الكائناتُ كلها من ممكناتٍ فقط لاستوجب هذا الأمرُ حدوثَ فراغ، أو عدم لم يكنْ فيه أيُّ موجود. ولهذا فلا بدَّ أن يكون هناك واجبُ الوجود ينتهي إليه ممكناتِ الوجود؛ وواجبُ الوجود هو الله(٢).

وهذا الدليلُ استفاده توما الأكويني من الفيلسوف ابن سينا؛ فقد ذكر ابن سينا هذا الدليلَ في كتابه: النَّجاة؛ حيث قال: «لا شكَّ أنَّ هناك وجودًا، وكل وجود: فإمّا واجبٌ وإمّا مُمكن، فإنْ كان واجبًا فقد صحَّ وجودُ الواجب، وإن كان ممكنًا فإنّا نوضِّح أنَّ الممكن ينتهي وجودُه إلى واجب الوجود»(٣). والتشابهُ بين الدليلين واضح، وقد سبقَ أنَّ توما الأكويني كان متأثِّرًا بالفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام أمثال ابن سينا.

---

(1) Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٢) المصدر السابق.

(٣) النجاة (٢٣٥)، لحسين بن عبد الله بن الحسن، المعروف بابن سينا، (الطبعة الثانية، ١٩٣٨م).

- **الدَّليلُ الرابع: دليلُ التفاضل:**

خلاصةُ هذا الدليل: أنَّ الصفات العامَّة التي تحمل فيها إمكان أن تكون مطلقة، كالخير والجمال، أي: الصفات الروحية الملازمة لكثيرٍ من الكائنات بنسَبٍ متفاوتة تحملُ كلُّها صفةً خاصَّة؛ وهـي أنها تعني غايةً بعيدة تشدُّ بها نحو المطلق. هذه الغاية البعيدة هي غايةُ الغايات لكلِّ الصفات، أي كمالها المطلق. هـذا الكمالُ المطلق يكون علَّة لها. وهذه العلة هي الله[1].

وهذا الدليلُ أخذه توما الأكويني من القدِّيس أنسلم في كتابه: مونوجوجيا، كما سبق بيانه.

- **الدَّليلُ الخامس: قابليةُ الطبيعة للتوجيه:**

خلاصةُ هذا الدَّليل: أننا نشاهد أنَّ الأشياء الفاقدة للعقل مثل الأجسام الطبيعية تهدفُ إلى غايةٍ بدون أن تدركَ هذه الغاية بنفسِها. وهذه الغاية تضيفُ الأفضل للطَّبيعة، فتكون صادرةً عن قصدٍ وليس عن مجرَّد مصادفةٍ عمياء. وكلُّ ما ليس له عقل لا يمكن أن يهدفَ إلى نهايةٍ إلّا بموجِّه ذي عقلٍ وذكاء مثل السهم المرمى نحو الهدف مِن الرامي. ولهذا فلا بدَّ من وجودِ كائنٍ ذكي الذي يصوِّب الأشياء نحو الهدف؛ وهذا الكائنُ هو الله[2].

وهذا الدليلُ مُشابه للحجَّة الغائية، التي نشأت في العصر اليوناني كما سبق بيانه.

فقد جمعَ توما الأكويني أدلةَ مَن سبقه على وجود الله وصاغها بطريقته. وقد اشتهرَ توما الأكويني بهذه الأدلة أكثرَ من غيره، مع أنه لم يأتِ بها من نفسه. وقد سبق

---

(1) Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

(٢) هذه الطرق كلها مذكورة بالتفصيل في:
Summa Teologica, Question 2. The Existence of God. Article 3. Whatever God exists?
http://www.newadvent.org/summa/1002.htm#article2

في المبحثِ عن تاريخ الإلحاد أنَّ توما الأكويني لم يرَ أنَّ هذه الأدلة يقينية، بل هي أشبهُ بالطرق التي يتوصَّل بها الفلاسفةُ إلى معرفة الله. وهذه الأدلةُ بهذه الصياغة هي في الحقيقةِ ضعيفة، وليست موصِّلة لليقين. وقد اهتمَّ فلاسفةُ الشكِّ في القرن التاسع عشر أمثال: إيمانويل كانت وديفيد هيوم في نقدِ هذه الأدلة[1]، فاهتزَّت الأرضية التي قام عليها المؤمنون بالخالق في الدُّول النصرانية، وفُتح البابُ على الملاحدة في القرن التاسع عشَر على مصراعيه. ولكنَّ النصارى المعاصرين قاموا بإعادة صياغة الأدلة على وجودِ الله بطريقةٍ أقوى وأكثر إفادةً لليقين كما سيأتي بيانه.

---

(١) انظر:
http://www.catholicapologetics.info/catholicteaching/philosophy/kant.htm

المطلبُ الثّالث
تاريخُ نقدِ الإلحاد المُعاصر

هذا المبحثُ يتضمَّن نقدَ علماء الغرب للإلحاد في العصور المتأخِّرة، وهذه العصور تشمل: عصري النهضة والتنوير، والقرن التاسع عشر، والقرن العشرين، كما أنه يشملُ هذا القرن. وبيان ذلك كما يأتي:

نقدُ الإلحاد في عصر النهضة والتنوير:

لمّا انتهتِ العصور الوسطى، وبدأ عصرُ النهضة، ثمَّ عصر التنوير؛ ضعفتْ سلطة الكنيسة الكاثوليكية. ويتمثَّل هذا الضعف في التغيُّرات الكبرى التي وقعت في ثلاثة مجالاتٍ رئيسة، وهي: الفلسفة، والعلم التجريبي، والفكر السياسي.

وقد سبقَ في الكلام عن تاريخ الإلحاد أنَّ هذه التغيُّرات كانت من أسباب ظهور الإلحاد. ولكنْ في المقابل، فقد كان روَّاد هذه المجالات الثلاثة من أكبر المنتقدين للإلحاد. وبيانُ ذلك كما يلي:

المجالُ الأوَّل: الفلسفة:

انقسمتِ التَّيارات الفلسفية في عصري النهضة والتنوير إلى قسمين رئيسين: المذهب العقلاني، والمذهب التجريبي.

القسمُ الأوَّل: المذهبُ العقلاني: هذا المذهبُ يتَّخذُ من العقل والاستنباط معيارًا للحقيقة بدلًا من المعايير الحسِّية. وكان رينيه ديكارت مؤسِّس المذهب العقلاني الكلاسيكي وأكبرَ فلاسفته. وكان ديكارت يبني مذهبَه على الشَّك في الحواس والحياة الشُّعورية والعقل. وقد اتَّهمه بعضُ المعاصرين بأنه ملحدٌ بسبب هذه الشكوك[1].

ولكن ديكارت لم يكن ملحدًا، بل انتقدَ الإلحاد في كتابه: التأملات، وكان يرى أنَّه بعدَ هذه الشكوك يصلُ إلى اليقين بوجود الله، والنفس والعالم. كما أنه رأى أنه

---

(١) انظر: False Truths: The Error of Relying on Authority (16), by: Edward C. Mendler

لو لا وجودُ الله فلا يمكن اليقين بأيِّ شيء. فاللهُ هو أصلُ جميع العلوم حيث أنه قد غرسَ هذه المبادئ الفطرية في الإنسان، وتؤسِّس بقية العلوم عليها[1].

وقد انتشرتْ فلسفةُ ديكارت كثيرًا في دول أوروبا القارية مثل: فرنسا، وألمانيا، وهولندا، وإيطاليا، بينما لم تنتشر في بريطانيا[2].

ومِن فلاسفة المذهبِ العقلاني أيضًا: الفيلسوف الألماني غوتفريد ليبنز[3]، ولم يكن ملحِدًا أيضًا، بل كان مِن أكثر المدافعين عن الإيمان في عصر النهضة. وقد اشتهر بأنه أحيا الحجَّة الكونية بصياغتها صياغةً جديدة - كما سيأتي بيانه في الباب الثاني إن شاء الله -، كما أنه ألَّف رسائلَ مشهورة عن مشكلة الشَّر باللغة الفرنسية بعنوان: «رسائل ثيوديسيا عن خيريةِ الإله، وحريَّة الإنسان، وأصل الشر» (Essais de Théodicée sur la bonté de Dieu, la liberté de l'homme et l'origine du mal). فأكبر فلاسفة المذهب العقلاني كانوا مؤمنين بوجود الله، ويردُّون على الإلحاد.

القسمُ الثّاني: المذهبُ التجريبي[4]: بينما يعتمد المذهبُ العقلاني على العقل والمنطق، فإنَّ المذهب التجريبي يعتمدُ على الحواس والخبرة[5]. ورغم شدَّة اعتماد روّاد هذا المذهب على الحواس لم يكونوا ملاحدة، بل كانوا ينتقدون الإلحادَ بقوَّة.

---

(١) انظر: ديكارت (٥١).

(٢) انظر:

Copleston, Frederick Charles (2003). A History of Philosophy, Volume 4. Continuum International. p. 174.

(٣) غوتفريد ليبنز (Gottfried Leibniz): الفيلسوف، واللاهوتي، وعالم الرياضيات والمنطق الألماني. يعتبر أحدَ أبرز المفكرين الغربيين في عصر التنوير. توفي عام ١٧١٦م. انظر:
https: / /www.britannica.com /biography /Gottfried – Wilhelm – Leibniz

(٤) المذهب التجريبي: مذهبُ مَن يُقيم المعرفة على ما تدركه الحواسُّ وحدها، وينكر وجود مبادئ فطريَّة في النفس وقوانين صادرة عن العقل، ويقابل المذهب العقلي. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١ / ٣٥٧).

(٥) انظر: The Routledge Companion to Philosophy of Science (129 - 138), by a number of authors, (Routledge 2010)

ومِن هؤلاء المنتقدين: فرانسيس باكون[1] الذي لُقِّب بأبي المذهب التجريبي، وهو الذي وضع أساسَ المنهج العلمي لدراسة العلوم التجريبية، الذي اشتهر بالمنهج الباكوني (Baconian Method)[2]. وكان باكون مِن أشدِّ المعارضين للإلحاد، وألَّف رسالة في نقد الإلحاد بعنوان: «عن الإلحاد» (On Atheism)، وبيَّن أنَّ الإلحاد جهلٌ مركَّب، هو القائل للمقولة الشهيرة: «في الحقيقة، فإنَّ قليلًا من الفلسفة يقود ذهنَ الإنسان نحو الإلحاد، ولكنَّ التعمُّق في الفلسفة يقود ذهنَ الإنسان نحو الدين»[3].

ومِن روَّاد المذهب التجريبي أيضًا: جورج بيركلي[4]، الذي كان أسقفًا في الكنيسة الأنجليكية، ومؤمنًا بالله. وقد خشي أنَّ المذهب التجريبي قد يقود إلى الإلحاد، فألَّف: «رسالة عن مبادئ العلم الإنساني» (A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge)، وردَّ فيه على الإلحاد، وكان مما قاله فيه: «لا يمكن أن يوجد شيء أظهر من وجود الله، لمنْ يستطيع أن يتأمَّل بأدنى أنواع التأمّل»[5]. فبيركلي رأى أنَّ وجود الله أظهرُ مِن كونه يحتاج إلى الاستدلال.

فتبيَّن أنَّ روَّاد فلسفة المذهب التجريبي كانوا مؤمنين بوجود الله، ومُنتقدين للإلحاد[6].

---

(١) فرانسيس باكون (Francis Bacon): الفيلسوف والمحامي والسياسي البريطاني. يعتبر أحدَ أبرز المفكِّرين الغربيين الذين وضعوا المنهجَ العلمي المتَّبع في العلوم التجريبية. توفي عام ١٦٢٦م. انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /francis – bacon/

(٢) انظر: https: / /www.britannica.com /science /Baconian – method

(3) The Essays of Lord Bacon (64), (Longman and Green, 1875)

(٤) جورج بيركلي(George Berkeley): الفيلسوف والأسقف والعالم البريطاني. يعتبر أحد أبرز رموز المذهب الحسِّي في الغرب. توفي عام ١٧٥٣م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /George – Berkeley

(5) (Section 149) A Treatise Concerning the Principles of Human Knowledge

(٦) ومن روَّاد المذهب التجريبي أيضًا: جون لوك، وقد أخَّرت الحديث عنه إلى الحديث عن المجال الثاني لأنه كان مؤسِّس المذهب الليبرالي أيضًا.

المجالُ الثّاني: السياسة:

انتشرَ مذهبان مشهوران في السياسية في عصر التنوير، وهما: الليبرالية والمحافظة[١].

وكان الذين أسَّسوا هذين المذهبين ينتقدون الإلحاد والملاحدة. وبيانُ ذلك كما يلي:

المذهبُ الأوَّل: الليبرالية: هذا المذهبُ مبنيٌّ على الحفاظ على حرّية الفرد[٢]. ورغمَ دعوة مؤسِّس هذا المذهب جون لوك[٣] إلى التسامح معَ الآخرين، فإنَّه رأى أنه لا يمكن التسامحُ مع الملاحدة إطلاقًا؛ حيث قال: «الوعودُ والعهود والأيْمان هي ما تربط المجتمعَ الإنساني، لا يمكن أن يقوم بها الملحدُ. إلغاء الإله، حتى ولو كان في الفكر، يحلِّل كلَّ شيء»[٤]. وحثَّ الحكوماتِ على عدم التسامح مع الملاحدة؛ لأنَّ إنكارَ وجود الإله يقوِّض الثوابتَ الاجتماعية، ويؤدِّي إلى فوضى[٥].

المذهبُ الثّاني: المحافظة: الذي وضعَ البذرات الأولى لهذا المذهب: ريتشارد هوكير[٦]، الذي كان من أشهرِ قساوسة بريطانيا من الكنيسة الإنجليكية. وكان هوكير يعارضُ الإلحادَ بشدَّة، ويلقِّب الملاحدة بـ«جماعة ملعونة»[٧].

---

(١) المحافظة: مذهبٌ فكري يقوم على المبدأ السياسي الذي يؤكِّد على قيمة المؤسسات والممارسات التَّقليدية. ظهر هذا المذهب في بريطانيا كردَّة فعل للأفكار الثورية في فرنسا. ويعتبر إيدمنود بورك وريتشارد هوكير من مؤسسي هذا المذهب في نهاية القرن الثامن عشر، وقد انتشر إلى حدٍّ كبير في القرن التاسع عشر والعشرين. انظر: https: / /www.britannica.com /topic /conservatism

(٢) انظر: https: / /www.britannica.com /topic /liberalism

(٣) جون لوك (John Locke): الفيلسوف البريطاني، واحد مؤسسي المذهب التجريبي، إضافةً إلى تأسيسِه لليبرالية. وقد ألَّف عددًا من المؤلفات المؤثرة في الفكر الغربي مثل: مقال خاص بالفهم البشري. توفي عام ١٧٠٤م. انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /locke/

(4) A Letter on Toleration (135), by: John Locke, (Clarendon Press: 1968)

(٥) انظر: God, Locke, and Equality: Christian Foundations in Locke's Political Thought (211), by: Jeremy Waldron, (Cambridge University Press, 2002)

(٦) ريتشارد هوكير (Richard Hooker): الأسقف والفيلسوف البريطاني، واشتهر بدفاعه عن المذهب الأنجليكاني ضدَّ الكاثوليكية. وقد وضع البذرات الأولى للمحافظة. توفي عام ١٦٠٠م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Richard – Hooker

(7) The Works of Mr. Richard Hooker in Eight Books of the Laws of Ecclesiastical Polity (1/68-69), (Printed for W. Clarke, 1821)

ومِن روَّاد هذا المذهب أيضًا: إيدموند بورك(1)، وكان مؤمنًا بوجود الله، ويردُّ على الإلحاد. وكتبَ عن الإنسان أنَّه: «بطبعه حيوانٌ متديِّن. ولذلك يكون الإلحاد ليس ضدَّ تفكيرنا المنطقي فحسب؛ بل ضدَّ غرائزنا أيضًا، ولهذا لا يمكن أن يبقى طويلًا»(2).

والمحافظةُ من المذاهب السياسية المشهورة التي انتشرت كثيرًا في بريطانيا بعد الثورة الفرنسية كردَّة فعلٍ للأفكار الثورية، ومازالت منتشرةً في الدول الغربية إلى هذا اليوم(3).

المجالُ الثّالث: العلمُ التجريبي:

كان معظمُ العلماء التجريبيّين في هذه العصور مؤمنين بالله، ويرون أن العلمَ التجريبي هو مِن أعظم دوافع اهتمامِهم بهذا العلم. ومِن الأمثلة على هؤلاء العلماء: غاليليو غاليلي - العالم الفلكي الإيطالي - وإسحاق نيوتن - العالم الفيزيائي البريطاني المشهور، وغيرهما كثير(4).

وهؤلاء العلماء كانوا روَّادَ العلم التجريبي في تلك الحقبة الزمنية، ولم يكونوا مؤمنين بالله ومُتديِّنين فحسب؛ بل ردُّوا على الإلحاد، واعتبروه مِن أبطل الأباطيل؛ فقال إسحاق نيوتن على سبيل المثال: «حيث أنَّ الإلحاد أخرقُ وبغيضٌ إلى البشرية فلم يكن له أتباعٌ كثر [عبر التاريخ]»(5).

---

(١) إيدموند بورك (Edmund Burke): رجلُ دولة بريطاني، ومفكِّر سياسي مؤثِّر في تكوين الأفكار السياسية في بريطانيا. وهو أحدُ مؤسِّسي المحافظة بعد الثورة الفرنسية. توفي عام ١٧٩٧م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Edmund - Burke - British - philosopher - and - statesman

(2) Reflections on the French Revolution (152), by: Edmund Burke, (The Harvard Classics. 1909-14)

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /topic /conservatism

(٤) انظر: God's Undertaker (8)

(٥) مقال: A Short Shem of true Religion
http://www.newtonproject.ox.ac.uk/view/texts/normalized/THEM00007

فانتهتْ هذه العصور، وكان كبارُ العلماء والمفكِّرين مؤمنين بوجود الله، ويردُّون على الفكر الإلحادي.

نقدُ الإلحاد في القرن التاسع عشَر:

كان القرنُ التاسع عشر قرنَ تنظيرِ الفكر الإلحادي في الدول الغربية على صعيدَيْن: الفلسفة والعلم التجريبي. فعلى صعيدِ الفلسفة نظَّر كبار فلاسفة الإلحاد كماركس، وفيورباخ، وشوبنهاور، ونيتشي للإلحاد، بينما ظهرتْ نظريةُ التطوُّر في العلم التجريبي. ومعَ ذلك فقد تصدَّى علماءُ الغرب للفكر الإلحادي على هذين الصعيدين في هذا القرن أيضًا. وبيانُ ذلك كما يلي:

الفلسفة:

قدِ اشتهرت بعضُ المذاهب الفكرية الفلسفية بأنها مذاهبُ إلحادية؛ لأنَّ بعض المتأخِّرين من دُعاتها كانوا مَلاحدة. ومِن الأمثلة على ذلك: الوجودية والبراغماتية[1]. وعلى الرغْم من ذلك، فإنَّ روَّاد هذه المذاهب في القرن التاسع عشر كانوا مؤمنين بوجودِ الله ومتديِّنين. وبيانُ ذلك كما يلي:

الأوَّل: البراغماتية: كان شارلز ساندرز بيرس[2] من مؤسِّسي هذا المذهب، وكان متديِّنًا يؤمنُ بوجود الله، ولم يرفع للفكر الإلحادي رأسًا[3].

---

(١) البراغماتية: مذهبٌ فلسفي انتشر كثيرًا في الولايات المتَّحدة في القرن التاسع عشر، وهو مبني على أنَّ نجاح العمل أو الفكرة هو معيار حقيقة. انظر:

https://en.oxforddictionaries.com/definition/pragmatism

An approach that evaluates theories or beliefs in terms of the success of their practical application.

(٢) شارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce): الفيلسوف والعالم الأمريكي، ومؤسس البراغماتية. كان مكثرًا من التأليف حيث بلغت المخطوطات التي كتبها بيده أكثر من ٨٠ ألف صفحة. توفي عام: ١٩١٤م. انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /peirce /

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Charles – Sanders – Peirce

الثّانية: الوجودية: قد تقدَّم الحديثُ عن هذا المذهب، وأنه تيارٌ فلسفي ذو توجُّهات متعدِّدة يجمعها التركيزُ على الإنسان، وأنَّه الذي يسيِّر اتِّجاهات نفسه في الحياة. وقد اتَّخذت الوجوديةُ طابعًا إلحاديًّا في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ولهذا اشتهرَ بأنَّه من المذاهب الإلحادية[١]، ولكنَّ مؤسِّسَ هذا التيار في القرن التاسع عشَر هو الفيلسوف الدنماركي سورين كيركينغارد، ولم يكن ملحدًا، بل كان لاهوتيًّا بروتستانتيًّا[٢].

وكان فيودور دوستويفسكي من أعلامِ الوجودية أيضًا في القرن التاسع عشر، وهو مِن أشهر فلاسفة وأدباء روسيا في القرن التاسع عشر، بل انتشرتْ كتبُه في أنحاء العالم حتَّى تُرجمت إلى ١٧٠ لغة[٣]. وكان دوستويفسكي ينتقدُ الإلحاد في رواياته، ويحذِّر من أنَّه يؤدِّي إلى فقدان القيم والأخلاق كما سبق.

فتبيَّن أنَّ مؤسِّسي هذين المذهبين لم يكونوا ملاحدة، بل كانوا مؤمنين بوجود الله ومتدينين.

العلمُ التَّجريبي:

تطوَّر العلم التجريبي تطوُّرًا هائلًا في القرن التاسع عشر بسبب تطورات التكنولوجيا التي تساعد على البحث العلمي. وكان كبارُ علماء العلم الطبيعي مؤمنين بوجود الله ومتديِّنين. وأمّا دعاةُ الإلحاد في ذلك القرن، فكانوا فلاسفةً كما سبقَ التنبيه عليه. ومن الأمثلة على هؤلاء العلماء المتديِّنين: جريجور ميندل، ولويس باستور[٤]، ومايكل فراداي، وغيرهم كثير.

---

(١) انظر: https: / /plato.stanford.edu /entries /existentialism /

(٢) انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Soren – Kierkegaard

(٣) انظر:
https://www.thefamouspeople.com/profiles/fyodor-mikhaylovich-dostoyevsky-1441.php

(٤) لويس باستور (Louis Pasteur): عالم الكيمياء وعلم الأحياء الدقيقة الفرنسي. وقد كانت آثاره العلمية في العلوم والتكنولوجيا والطبّ كبيرةً جدًّا في الغرب. توفي عام ١٨٩٥. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Louis – Pasteur

وفي هذا القرن، ظهرتْ نظرياتٌ علمية جديدة، وارتبطت بعض هذه النظريات بالمذهب المادي ارتباطًا وثيقًا، وعلى رأس تلك النظريات: نظرية التطوُّر. وقد أدرك بعضُ علماء الغرب ارتباطَ هذه النظرية بالمذهب المادي، وأنَّها في الحقيقة نظرية تحاول تفسيرَ الإتقان في المخلوقات الحيَّة ماديًّا، وأنَّه لا داعي لوجود خالق لتفسير هذا الإتقان. وقد عارض العلماءُ التجريبيون الكبار هذه النظرية أوَّلَ ما ظهرت؛ بل عارض بعضُ أقرب الناس إلى داروين نظريتَه، ومن الأمثلة على ذلك: معارضة البروفسور آدم سيدجويك[1] للنظرية؛ فسيدجويك كان أستاذَ داروين في الجيولوجيا عام ١٨٣١م[2]، ثمّ لمّا قدَّم داروين نظريته عارضَه سيدجويك بقوَّة في مسألة الانتخاب الطبيعي. وقد أعطاه داروين كتابه، فكتب له رسالة وقالَ فيها: «قرأت كتابك بتألّم أكثر من سرور. أحترم جدًّا أجزاء منه، وأضحكُ من أجزاء حتَّى تقارب خاصرتي على التقرُّح من الضحك، وأجزاء أخرى أقرؤها بأسًى شديد؛ لأنّي أعتقد أنها زائفة تمامًا، وللأسف عابثة جدًّا... إنَّ كثيرًا من استنتاجاتك الواسعة مبنيَّة على افتراضات مجرَّدة...»[3]. فآدم سيدجويك بروفسور ومتخصِّص، وداروين عالمٌ هاوٍ وتلميذٌ لسيدجويك، ورغم ذلك لم يسمع داروين لانتقادات أستاذه.

وهكذا عارضَ كبارُ العلماء التجريبيين نظريةَ التطوُّر في القرن التاسع عشر، وكان كثيرٌ منهم متديِّنين، ولم يكونوا ملاحدة.

نقدُ الإلحاد في القرن العشرين:

استمرَّ السِّجال بينَ الملاحدة والمتديِّنين في القرن العشرين، وتمكّن التطوّريون من تدريس نظريتِهم في الولايات المتَّحدة بعدَ صدور القرار بمنع تدريسها؛ بل

---

(١) آدم سيدجويك (Adam Sedgwick): بروفسور الجيولوجيا البريطاني، وأوّل من وضع مصطلح الانفجار الكامبري المشهور في هذا العلم. وكان رئيس الجمعية الجيولوجية في بريطانيا. توفي عام ١٨٧٣م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography / Adam – Sedgwick – British – geologist

(٢) انظر: http: / /www.victorianweb.org /science /geology /sedgwick.html

(3) https://www.darwinproject.ac.uk/letter/DCP - LETT - 2548.xml

استطاعوا أن يجعلوها عمدةً في علم الأحياء[١]. وتقوَّت شوكةُ الملاحدة عند قيام الدول الشيوعية الملحدة التي نشرتَ الإلحاد بقوَّة السيف - كما سبق ذكره -. ولكنَّ العلماء في الدول الغربية - ولا سيَّما الولايات المتَّحدة وبريطانيا - واصلوا جهودهم في نقد الإلحاد في هذا القرن. وكانت هذه الجهودُ في صعيدين: الأوَّل: العلم التجريبي، والثاني: الفلسفة والأدب والخطابة.

الصَّعيدُ الأوَّل: العلمُ التجريبي:

كانت نظريةُ التطوُّر أهمَّ موضع النقاش بين الملاحدة والمتديّنين في العلم التجريبي. وكانت أقوى معارضة المتديِّنين لهذه النظرية في الولايات المتَّحدة في بداية القرن العشرين. واستطاع المتديِّنون منعَ تدريس هذه النظرية في ثلاثِ ولايات، ونوقش قرارُ منع تدريس النَّظرية في ٣٢ ولاية أخرى. ولكنَّ هؤلاء المتديّنين لم يستطيعوا تقديم نظرية علمية مُتكاملة معارضةً لنظرية التطوُّر، فقبلت النظرية أكثر فأكثر مع مرور الوقت[٢].

ولكنْ في الجزء الثاني من القرن العشرين ظهرت نظرية الخلق (Creationism)، ونظرية التَّصميم الذكي (Intelligent Design)[٣]. وأشهرُ علماء نظرية الخلق في القرن العشرين[٤]:

العالمُ الأوَّل: **هنري موريس** (Henry Morris): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة الهيدروليكية، ثمَّ أصبح رئيس قسم الهندسة المدنية في إحدى الجامعات الأمريكية عام ١٩٥٧م. أصدر كتابه الأوَّل: «طوفان سفر التكوين» (The Genesis Flood) عام ١٩٦١م، عن الأدلة العلمية التي تؤيّد حدوثَ طوفان

---

(١) انظر: http: / /www.counterbalance.org /history/creat1920 – frame.html

(٢) انظر: http: / /www.counterbalance.org /history /creat1920 – frame.html

(٣) سيأتي التفصيلُ عن هذين المذهبين في مبحث: إصلاح العلوم التجريبية، إن شاء الله.

(٤) هؤلاء أشهرُ علمائهم في القرن العشرين، وإلاّ فإنَّه يوجد أكثرُ من مائة جمعية علمية في الولايات المتَّحدة تتبنّى نظريةَ الخلق، وينضمُّ إليها أعدادٌ كبيرة من العلماء كما سيأتي بيانه - إن شاء الله -.

نوح. ثمّ كان مِن ضمن مؤسِّسي جمعية الأبحاث المختصَّة بالخلق عام ١٩٦٣م، وواصل كتاباته في مجالِ نقد الإلحاد، ومحاولة التوفيق بين العلم التجريبي والكتاب المقدَّس؛ فألَّف أكثر من ٦٠ كتابًا في هذا المجال، وتوفّي عام ٢٠٠٦م[١].

العالمُ الثّاني: جون موريس (John Morris): عالم أمريكي، وابنُ هنري موريس. حصلَ على شهادة الدكتوراه في الهندسة الجيولوجية، ثمّ أصبح بروفسورًا في الجيولوجيا. ألَّف عددًا من الكتب في بيانِ أنَّ الأرض فتية من الناحية العلمية، وليس كما يقوله التطوُّريون إنَّها أكثرُ من أربعة مليار سنة. وهذه النقطة مهمَّة في نقد نظرية التطوُّر، وكوْنه بروفسورًا في الجيولوجيا يساعده في نقد كلام التطوُّريين[٢].

العالِمُ الثّالث: راسل هومفري (Russel Humphrey): عالم أمريكي، حصل على شهادةِ الدكتوراه في الفيزياء عام ١٩٧٦م، ثمَّ تخصَّص في الفيزياء النووية. وألّف العديدَ من الكتب والأبحاث العلمية في البيان أنَّ الكون ليس حوالي ١٣,٧ مليار سنة كما يقولُه القائلون بنظرية الانفجار العظيم، وإنما هو بضعة آلاف سنة كما يدلُّ عليه كتابهم المقدَّس[٣].

العالِمُ الرّابع: دوان كيش (Duane Gish): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة كاليفورنيا عام ١٩٥٣م، وألَّف عشرات الكتب في نقدِ نظرية التطوُّر من داخل التطوُّر. وأصبحت بعضُ هذه الكتب مرجعًا أساسيًّا للخلقيّين بعده، كما أنه شاركَ في عدد من المناظرات المشهورة مع التطوّريين[٤].

---

(١) انظر:
http://www.notablebiographies.com/newsmakers2/2007-Li-Pr/Morris-Henry-M.html

(٢) انظر: http://www.icr.org/john_morris/

(٣) انظر: https://creation.com/d-russell-humphreys-cv

(٤) انظر https://upclosed.com/people/duane-gish/

الصَّعيدُ الثّاني: الفلسفةُ والأدب والخطابة:

لم يهتم علماءُ الغرب بنقد الإلحاد في القرن العشرين عبر العلم التجريبي فحسب، بل كان من أقوى ردودِهم على الملاحدة ما قرَّروه عبر الكتب الأدبية والفلسفية، وكذلك الخطابة. وبيانُ ذلك كما يلي:

كان مِن أشهر المدافعين عن الإيمان في بداية القرن العشرين هو الأديب البريطاني غلبرت كايث تشيسترتون[١]. وقد ألَّف تشيسترتون حوالي ٨٠ كتابًا، و٤٠٠ قصيدة، و٤٠٠٠ مقالة أدبية. وألَّف عددًا من الكتاب في الدفاع عن الإيمان بالله والنصرانية مثل: «الأرثوذكسية» (Orthodoxy) عام ١٩٠٥م، و»الرجل الأبدي: (The Everlasting Man) عام ١٩٢٥م. وقد أثَّرت كتب تشيسترتون في أكبر أدباء بريطانيا والمدافعين عن الإيمان في القرن العشرين.

وأشهرُ مَن تأثَّر بتشيسترتون هو الأديب سي أس لويس. وكان مؤلِّفًا مشهورًا، حتى ألَّف ٣٢ وبيعَ منها ١٠٠ مليون نسخة، وتُرجم إلى ٣٠ لغة[٢].واستعمل قلمه السيَّال في نقد الإلحاد عبرَ مؤلَّفاته. وكان يركِّز على قضيتين أصبحتا محلَّ جدلٍ كبير في القرن العشرين، وهمَا: مُعضلة الشرِّ وإمكانية حدوث المعجزات؛ فألَّف كتابه: «مشكلة الألم» (The Problem of Pain) عن مُعضلة الشَّر[٣]، وكتابه: «المعجزات» (Miracles)، عن إمكانية حدوث المعجزات[٤]. كما أنَّه ألَّف كتابًا في

---

(١) غلبرت كايث تشيسترتون (Gilbert Keith Chesterton): المؤلف والناقد البريطاني. وقد ألَّف بعضَ أشْهر الروايات في التاريخ البريطاني. تحوَّل من المذهب الأنجليكاني إلى الكاثوليكي، وصنَّف بعضَ الكتب في الدعوة إلى النصرانية. توفي عام: ١٩٣٦م. انظر: https://www.britannica.com/biography/G - K - Chesterton

(٢) انظر: https://www.bethinking.org/apologetics/the-relevance-of-cs-lewis

(٣) انظر: http: / /www.cslewis.com /the – problem – of – pain /

(٤) انظر: http://www.cslewis.com/us/books/paperback/miracles/9780060653019/

الدعوة إلى النصرانية بعنوان: «المسيحية المجرَّدة» (Mere Christianity)، وبيع منها ١١ مليون نسخة. وكان من الأسباب القويَّة في انتعاش النصرانية وتراجع الإلحاد في الغرب[١]. وعملت مجلة «المسيحية اليوم» (Christianity Today) استبيانًا بين المؤسّسات النصرانية عن أكثر الكتب النصرانية تأثيرًا في القرن العشرين، فكان كتاب لويس أوّلَها بلا منازعة[٢]. توفّي لويس عام ١٩٦٣، وترك أثرًا كبيرًا بين المفكِّرين الغربيين في بداية عودتهم للإيمان بوجود الخالق سبحانه[٣].

وبينما اشتهرَ لويس بالتأليف، اشتهر المبشِّر الأمريكي بيلي غراهام[٤] بالخطابة. وبدأ حملاتِه الصليبية - كما كان يسمِّيها - في الثلاثينيّات، وواصلَ هذه الحملات في ١٨٥ دولة، وحضرَ خطاباته الجماهيرية ما يقارب ٢١٠ مليون شخص في تلك الدول، بينما استمعَ لها مئاتُ الملايين الآخرين عبرَ التلفاز والإذاعة، وكان من أكبر أسباب عودةِ الناس إلى النصرانية وتركِ الإلحاد[٥].

وفي السِّتينيات بدأ الاهتمامُ بين الفلاسفة الغربيين تجاه الدين، وازداد في السَّبعينيات ثمّ الثمانينيَّات أكثرَ فأكثر[٦].

وكان أشهرُ الفلاسفة النَّصارى المدافعين عن الإيمان بالله في تلك الحقبة الزمنية: البروفسور ألفن بلانتنغا، والبروفسور ريتشارد سوينبورن، والبروفسور وليام

---

(١) انظر: https: / /www.bethinking.org /apologetics /the – relevance – of – cs – lewis

(٢) انظر: http://www.cslewisinstitute.org/Impact_of_Mere_Christianity

(٣) انظر: https: / /www.britannica.com /biography /C – S – Lewis

(٤) بيلي غراهام (Billy Graham): منصّر أمريكي، عمل في التنصير بإلقاء محاضرات ومشاركة في برامج تلفزيونية وإذاعية لأكثر من ٤٠ سنة. وتوفي عام ٢٠١٨م. انظر:
https://www.biography.com/religious - figure/billy - graham

(٥) انظر:
https://web.archive.org/web/20070131004400/http://www.billygraham.org/mediaRelations/bios.asp?p=1

(٦) انظر: https: / /www.bethinking.org /god /the – resurrection – of – theism

لاين كرايغ، ولا يزالُ هؤلاء الفلاسفة نشيطين في نقدِ الإلحاد إلى هذا العصر، وبيانُ ذلك كما يلي:

البروفسور الأوَّل: ألفن بلانتنغا (Alvin Plantinga). بدأ بلانتنغا بدراسة الفلسفة في جامعةِ هارفارد المرموقة، ثمَّ انتقلَ إلى جامعة يايل المرموقة وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٥٨م. ثمّ أصبحَ بروفسورًا في الفلسفة بعد ذلك. وكان له اهتمام كبيرٌ بلفلسفة الدين، وألَّف كتابَه المشهور: «الإله وأذهان أخرى» (God and other minds) عام ١٩٦٧ م وذكر الأدلةَ العقلية على وجود الله، وردَّ على شبهات الملاحدة. وقد وُصِف هذا الكتاب بأنه أحدُ أهمِّ المؤلفات في الفلسفة اللاهوتية في القرن العشرين[١]. ثمَّ ألَّف عشراتِ الكتب الأخرى في بيان أدلة وجود الله ونقد الشبهات الإلحادية. ومازال نشيطًا في هذا المجال في هذا العصر، حيث ألَّف كتابه المشهور: «أين يقع الصراعُ الحقيقي، العلم التجريبي، الدين والمذهب الطبيعي» (Where the Conflict Really Lies: Science, Religion and Naturalism) عام ٢٠١١م[٢].

البروفسور الثّاني: وريتشارد سوينبورن (Richard Swinburne). بدأ سوينبورن بدراسةِ الفلسفة في جامعة أكسفورد عام ١٩٥٤م، وواصلَ الدراسة إلى أن حصل على شهادةِ الدكتوراه. واتَّجه نحوَ دراسة فلسفة العلم التجريبي، وتخصَّص فيها، وألَّف فيها بعضَ الكتب. وأصبح بروفسورًا في الجامعات البريطانية مثل: جامعة أكسفورد المرموقة، وغيرها من الجامعات. وألَّف ثلاثة كتبٍ متتالية عن وجود الله ونقد الإلحاد، وهي: «تماسك اللاهوت» (The Coherence of Theism) عام ١٩٧٧م، و«وجود الله» (The Existence of God) عام ١٩٧٩م، و«الإيمان والمنطق» (Faith and Reason)

(١) انظر: The Journal of Philosophy, Vol. 67, No. 2 (Jan. 29، 1970)، pp 39 - 45

(٢) انظر: http://theor.jinr.ru/~kuzemsky/plantingabio.html

عام ١٩٨١م[١]. ووصفتْ هذه الكتب الثلاثة بأنَّها من أهمِّ الكتب في الدفاع عن الإيمان في الأزمان المتأخرة[٢].

البروفسور الثّالث: وليام لاين كرايغ (William Lane Craig). بدأ كرايغ مسيرته الأكاديميةَ بدراسة علم اللاهوت، وحصل فيه على شهادة باكلوريوس، والماجستير والدكتوراه من جامعات مختلفة، ثمّ حصلَ على شهادة الدكتوراه في الفلسفة أيضًا من جامعة برمنغهام في بريطانيا، إلى أن أصبح بروفسورًا في الفلسفة. وألَّف كتابه الأوَّل: «الحجَّة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmological Argument) عام ١٩٧٩م، ثمّ واصلَ الكتابة إلى يومنا هذا بكتابة نحو ثلاثين كتابًا في الدفاع عن الإيمان ونقد الإلحاد، كما أنه ناظرَ رؤوسَ الإلحاد[٣]. ويشتهر كرايغ بقوّة الحجّة في مؤلّفاته ومناظراته، وإن كان يغلبُ عليه العمق الفلسفي غير المحمود في بعض الأحيان، وسيأتي التنبيهُ على ذلك في الرسالة - إنْ شاء الله -.

نقدُ الإلحاد في القرن الواحد والعشرين:

انطلقتْ شرارةُ حركة الإلحاد الجديد في بداية القرن الواحد والعشرين بعد الأحداث الإرهابية ٢٠٠١ في الولايات المتَّحدة. ولكن كما تحمَّس الملاحدة الجدد في نشر الإلحاد، فإنَّ علماء الغرب ازداد نشاطهم في نقده أيضًا. فإن كانت المؤلَّفات في نقد الإلحاد كثيرةً في القرن العشرين؛ فإنها تضاعفت في القرن الواحد والعشرين.

---

(١) انظر: http://users.ox.ac.uk/~orie0087/

(٢) انظر:
William Hasker, "Is Christianity Probable? Swinburne's Apologetic Programme," Religious Studies 38 (2002), 253

(٣) انظر: http: / /www.famousphilosophers.org /william – lane – craig/

وقد تنوَّعت اهتماماتُ علماء الغرب في نقد الإلحاد تنوّعًا كبيرًا حسب مجالات اختصاصِهم. وهذه قائمة على أبرز المهتمّين بنقد الإلحاد في القرن العشرين غير الذين سبقَ ذكرهم، حسب تخصّصاتهم[1]:

نقدُ خطاب الإلحاد الجديد:

الإلحادُ الجديد لديه جاذبيةٌ أقوى من خطاب الإلحاد القديم، حيث أنه يخاطب عامَّة الناس، وهو أكثرُ جرأة في نقد الدين. ومع ذلك فإن هذا الخطاب مليء بالمغالطات المنطقية والتناقضات، كما أنه يتَّسم بالسطحية والضعف. ولخطورة هذا الخطاب – معَ ضعفه – فإنَّ بعض علماء الغرب اهتمُّوا بنقده وبيان عواره. ومن أبرز هؤلاء العلماء:

العالمُ الأوَّل: **ألستر ماكغراث (Alister McGrath)**: عالم بريطاني، درس علم الأحياء في جامعة أكسفورد حتَّى حاز على شهادة الدكتوراه، ثمّ تخصّص في دراسة علمِ اللاهوت حتَّى حاز على شهادة الدكتوراه في علم تاريخ اللاهوت، ثمّ درَّس في العديد من الجامعات البريطانية، إلى أنْ صار بروفسورًا في التوافق بين العلم التجريبي والدين في جامعة أكسفورد[2]. ويهتمُّ كثيرًا بنقد خطاب الإلحاد الجديد، وألَّف كثيرًا من الكتب في هذا المجال، وشارك في عددٍ من المناظرات مع كبار الملاحدة.

العالمُ الثّاني: **سكوت هون (Scott Hahn)**: لاهوتي كاثوليكي أمريكي. حصل على شهادةِ الباكالوريوس في ثلاث مواد: علم اللاهوت، والفلسفة والاقتصاد، ثمّ حصلَ على الماجستير والدكتوراه في علم اللاهوت. وقد ألَّف بعض الكتب عن الإيمان، ونقدِ خطاب الإلحاد الجديد[3].

---

(١) وسيأتي فصلٌ خاصٌّ عن وسائل علماءِ الغرب في نقد الإلحاد، مثل: تأليف الكتب، وعقد المناظرات، والبرامج المرئية.

(٢) انظر: http: / /alistermcgrath.weebly.com /biography.html

(٣) انظر: http: / /www.scotthahn.com /about – dr – hahn/

العالمُ الثّالث: بنيامين ويكر (Benjamin Wiker): لاهوتي كاثوليكي أمريكي، حصلَ على شهادة الباكالوريوس في فلسفة السياسة، ثمَّ الماجستير في الدراسات الدينية، ثمَّ الدكتوراه في الآداب اللاهوتية. ويعمل ويكر حاليًا كبروفسور في علم السياسة في جامعة فرانسيسكان[1]. وقد ألَّف مع الدكتور سكوت هون كتاب: الردُّ على الإلحاد الجديد، وهو مِن أفضل الكتب في نقدِ أطروحات ريتشارد دوكينز الإلحادية.

النَّقدُ الفلسفي للإلحاد:

الفيلسوفُ الأوَّل: جي بي مورلاند (J.P. Moreland): فيلسوف ولاهوتي أمريكي. حصلَ على شهادة الباكالوريوس في الكيمياء، وشهادتين في الماجستير، إحداهما في علم اللاهوت والثانية في الفلسفة. ثمَّ حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. وهو نشيطٌ في نقد الإلحاد من الناحية الفلسفية، فقد ألقى محاضرات، وشارك في مناظرات في ١٧٥ جامعة في الولايات المتَّحدة، كما أنه ألَّف العديد من الكتب الفلسفية النقدية للمذهب المادي والإلحاد[2].

الفيلسوفُ الثّاني: بول كوبان (Paul Copan): فيلسوف ولاهوتي أمريكي. حصل على شهادة الباكالوريوس في دراساتِ الكتاب المقدَّس، وشهادتين في الماجسيتر، إحداهما في فلسفة الدين، والثانية في علم اللاهوت. ثمّ حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة. يعمل كوبان حاليًا كأستاذٍ زائر في جامعة أكسفورد، وقد ألّف وشارك في تأليفِ أكثر من ثلاثين كتابًا، وكثيرٌ منها في نقدِ أطروحات الملاحدة فلسفيًّا[3].

الفيلسوفُ الثّالث: شاد ميستر (Chad Meister): فيلسوف ولاهوتي أمريكي. حصلَ على شهادة الماجستير في فلسفة الدين، ثمّ شهادة الدكتوراه في الفلسفة. يعمل حاليًا كأستاذٍ زائر في جامعة أكسفورد المرموقة. وقد ألَّف وشارك في تأليف

---

(١) انظر: http: / /www.benjaminwiker.com /benjamin – wiker.html

(٢) انظر: / http: / /www.jpmoreland.com /about /bio

(٣) انظر:

https://www.pba.edu/index.cfm?fuseaction=faculty.detail&contactID=795

العديد من الكتب، وتخصَّص في نقد معضلة الشَّر[١]، ويعتبر المرجعَ الأساس في نقد هذه الشبهة في الغرب في هذا الزمان.

توافقُ العلم التجريبي والدين:

مِن أعظم شُبهات الملاحدة الجدد التي يردِّدونها في كلِّ وقت وحين أنَّ الدين يعارضُ العلمَ التجريبي. وقد بنوا هذه الشُّبهة على عددٍ من المغالطات وتحريف التاريخ. وحيث إنَّ هذا العصر هو عصرُ العلم التجريبي ويتبوَّأ مكانة مرموقة لدى عامة الناس؛ تصدّى بعضُ علماء الغرب لهذه الشبهة، وكشفوا مغالطاتِ الملاحدة وتحريفهم للتاريخ، ومِن أبرز هؤلاء:

العالمُ الأوَّل: جون لينوكس (John Lennox): عالم من شمال إيرلندا، حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الرياضيات من جامعة كامبردج المرموقة، ثمّ حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد المرموقة أيضًا، إضافة إلى شهادة الماجستير في أخلاقيَّة علم الأحياء (Bioethics) من جامعة سرّي. وهو بروفسور متقاعد في الرياضيات مِن جامعة أكسفورد. وقد ألَّف العديد من الكتب في نقد الإلحاد، وبيان التوافق بين العلم التجريبي والدين، كما أنه ناظرَ كبارَ الملاحدة في هذا الموضوع[٢].

العالمُ الثّاني: وليام ديمبسكي (William Dembsky): عالم أمريكي، حصل على شهادةِ الباكالوريوس في علم النفس أوّلًا، ثمّ تخصَّص في الرياضيات والفلسفة، وحصل على شهادة الدكتوراه في هذيْن العلمين، إضافةً إلى دراسته علم اللاهوت في الدراسات العليا. وهو من روّاد نظرية التصميم الذكي، وقد ألَّف عددًا من الكتب المفيدة عن هذه النظرية، كما أنَّه بيَّن التوافق بين العلم التجريبي والدين[٣].

---

(١) انظر:
http://chadmeister.org/wp - content/uploads/2017/09/Chad - Meister - CV.pdf

(٢) انظر: / http: / /www.johnlennox.org /about

(٣) انظر: https: / /www.imdb.com /name/nm1745037 /bio

العالمُ الثّالث: ستيفن ماير (Stephen Myer): عالم أمريكي، درس الجيوفيزياء، ثمّ تخصَّص في تاريخ العلم التجريبي وفلسفته، وحصل على شهادة الدكتوراه في هذا العلم من جامعة كامبردج. وهو من روّاد نظرية التصميم الذكي، وصنَّف بعض المصنّفات في هذه النظرية. ويساعدُه في ذلك تخصُّصه في تاريخ العلم التجريبي وفلسفته، حيث أنه يُعطيه تصوّرًا عامًّا على نقاط القوّة والضعف في النظريات العلمية المعاصرة(١).

علمُ الكون والفيزياء الفلكية:

توجَد أدلةٌ كثيرة وبراهينُ واضحة على وجود الخالق في علم الكون والفيزياء الفلكية. كما أنَّ الملاحدة يوردون بعضَ الشُّبهات العلمية الإلحادية في هذا الباب. وأبرز العلماء المهتمين بهذه القضية:

العالمُ الأوَّل: جاسون ليزلي (Jason Lisle): عالم أمريكي، حصل على شهادة الباكالوريوس في الفيزياء وعلم الفلك، ثمَّ تخصَّص في الفيزياء الفلكية بعد ذلك وحصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في هذا العلم من جامعة كولورادو. ويهتمُّ ليزلي بإبراز الأدلة الكونية على وجود الخالق، ويردُّ على نظرية الانفجار العظيم بتفسيره الإلحادي، وصنَّف فيه مصنَّفات ومقالات. كما أنه ألَّف بعضَ الكتب في بيان المغالطات المنطقية عند الملاحدة بطريقة مبسَّطة وجيِّدة(٢).

العالمُ الثّاني: هيو روس (Hugh Ross): عالم كندي، حصل على شهادة الباكالوريوس في الفيزياء، ثمَّ حصل على شهادة الدكتوراه في علم الفلك من جامعة تورونتو المرموقة. ويهتمُّ كثيرًا بإبراز الأدلةِ على وجود الخالق خلال علم الفلك، وألقى محاضراتٍ في أكثر من ٣٠٠ جامعة في العالم. كما أنه ألَّف عددًا كبيرًا من الكتب في بيانِ أدلة وجود الله من علم الفلك(٣).

---

(١) انظر: http: / /www.stephencmeyer.org /biography.php

(٢) انظر: http: / /www.jasonlisle.com /about – lisle/

(٣) انظر: http: / /www.reasons.org /about /hugh – ross

علمُ الأحياء:

علمُ الأحياء مليء بأدلةٍ علمية مؤيِّدة لدليل الإتقان في المخلوقات الحيّة. كما أن الملاحدةَ التطوّريين أوردوا شبهاتٍ كثيرةً مؤيِّدة لنظرية التطوّر. ولهذا اهتمَّ علماء الغرب كثيرًا بهذا العلم، وبيَّنوا الأدلة العلمية على وجود الخالق، ردّوا على شبهات الملاحدة التطوُّريين. ومِن أبرز هؤلاء العلماء:

العالمُ الأوَّل: مايكل بيهي (Michael Behe): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه في علم الأحياء الجزيئي، ويعمل حاليًا بروفسورًا في جامعة ليغ. وقد ألَّف بعضَ الكتب المفيدة في نقدِ نظرية التطوّر من وجهة نظر علم الأحياء الجزيئي. وهو مؤيِّد لنظرية التصميم الذكي[1].

العالمُ الثّاني: جونثان ويلز (Jonathan Wells): عالم أمريكي، حصل على شهادة الدكتوراه مرَّتين: مرَّة في علم الأحياء الجزيئي من جامعة كاليفورنيا، ومرّة أخرى في الدراسات الدينية من جامعة يايل المرموقة. وهو مِن روَّاد نظرية التصميم الذكي، وصنَّف العديدَ من المصنَّفات المشهورة في نقد نظرية التطوُّر بطريقة علمية[2].

العالمُ الثّالث: جونثان سارفاتي (Jonathan Sarfati): عالم نيوزيلندي. حصل على شهادةِ البكالوريوس ثمَّ شهادة الدكتوراه في الكيمياء. وكتبَ عددًا من الأبحاث العلمية المشْهورة، منها مشاركتُه في كتابة بحثٍ علمي محكَّم في مجلة نيتشر المرموقة. ثمّ بدأ يفرِّغ وقتَه لنقد نظرية التطوُّر، وألَّف عددًا من الكتب المهمَّة في نقد هذه النظرية. وهو يتبنّى نظريةَ الخلق[3].

---

(١) انظر:
https://www.encyclopedia.com/arts/educational- magazines/behe - michael - j - 1952

(٢) انظر: /http: / /www.jonathanwells.org

(٣) انظر: https: / /creation.com /dr – jonathan – d – sarfati

العالمُ الرّابع: مايكل دينتون (Michael Denton): عالم بريطاني وأسترالي. حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من الكلية الملكية في بريطانيا. وقد نشرَ أبحاثًا علمية في بعض أشهر الدوريات والمجلات العلمية. وقد صنَّف عددًا من الكتب المهمَّة في نقد نظرية التطوُّر، مثل: التطوُّر - نظرية في أزمة (Evolution: A Theory in Crisis). وقد أثَّر هذا الكتابُ في عددٍ من رموز التصميم الذكي للتخلّي عن نظرية التطوُّر[1].

فهؤلاء مِن أشهر علماء الغرب المهتمِّين بنقد الإلحاد من جوانب متعدّدة. وإن كان عددُ المشتغلين بهذا الباب من علماء الغرب أكبرَ من ذلك بكثير.

خلاصةُ المبحث:

يتبيَّن في هذا المبحث أنَّه كما أنَّ الإلحاد انتشر كثيرًا في الدول الغربية، فإن علماء الغرب ردُّوا على الإلحاد. وكان أكبرُ العلماء في تلك العصور متديِّنين وينتقدون الإلحاد.

---

(١) انظر: https: / /www.discovery.org /p /denton /

البابُ الأوَّل

ردودُ علماءِ الغرب على أسسِ الإلحاد، وأساليبهم ووسائلهم

وفيه ثلاثةُ فصول:

الفصلُ الأوَّل: ردودُهم على أسسِ الإلحاد المُعاصر.

الفصلُ الثّاني: أساليبُهم في الرُّدودِ على الملاحدة.

الفصلُ الثّالث: وسائلهم في الرُّدودِ على الإلحاد.

الفصلُ الأوَّل

ردودُهـــــم

على أسسِ الإلحاد المُعاصر

وفيه ستَّةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: المذهبُ المادي.

المبحثُ الثّاني: تعظيمُ العلم التجريبي.

المبحثُ الثّالث: تعظيمُ العقل.

المبحثُ الرّابع: الشكُّ ونسبيةُ الحقائق.

المبحثُ الخامس: تعظيمُ الصدفة.

المبحثُ السّادس: نقدُ ردودِ علماء الغرب على أسس الإلحاد المعاصر.

المبحثُ الأوَّل
المذهبُ المادي

قدْ سبق الكلامُ على المذهب المادي (Materialism) عندَ الحديث عن تاريخ الإلحاد في العصر اليوناني وعصر التنوير. وتبيَّن أنَّ المذهب المادي والمذهب الطبيعي مؤدّاهما واحد. وذكر الباحثون أنَّ المذهب الطبيعي (Naturalism) ينقسم إلى قسمين رئيسين:

١) المذهبُ الطبيعي المنهجي (Methodological Naturalism): وخلاصته أنه لا يمكن نيْل العلم بحقيقة الوجود إلّا عن طريق التجارب العلمية[١].

٢) المذهبُ الطبيعي الوجودي (Ontological Naturalism): وخلاصته: أن حقيقة الوجود ليست سوى ما يمكن إدراكُه بالتجارب العلمية[٢].

فالمذهبُ الأوَّل هو منهجٌ علمي متَّبع عندَ كثير من العلماء في العلم التجريبي، ولا يتحدَّث عن حقيقة الوجود، وإنما يتحدَّث عن طريقة الوصول إلى العلم بالطبيعة.

وأمّا المذهبُ الطبيعي الوجودي فهو مذهبٌ فلسفي يتحدَّث عن حقيقة الوجود. وأتباعُ هذا المذهب يستندونَ إلى العلم التجريبي، ويحصرون المعرفة بحقيقة الوجود في هذا العلم؛ فما لم يتمّ رصدُه عن طريق العلم التجريبي فليس بحقيقة. ويرون أنه لا مجال للفلسفة - على سبيل المثال - للإجابة عن الأسئلة الوجودية الكبرى - فضلًا عن الوحي الإلهي -. وهذا ما صرَّح به كبارُ دعاة الإلحاد المعاصرين مثل: ستيفن هوكينغ وليونارد مولدينوو في بداية كتابيهما: التصميم العظيم، حيث قالا: «يُوجدُ كلٌّ منَّا لفترة وجيزة، نستكشف خلالها جزءًا ضئيلًا من الكون وحسب. لكنَّنا كبشرٍ كائناتٌ فضولية؛ نحن

---

(١) انظر: Naturalism – A Critical Response (9)

(٢) انظر: المصدر السابق (٤).

نتساءل ونُفتِّش عن الأجوبة. نحيا في هذا الكون الهائل الذي يُعدُّ بدوره رحيمًا وقاسيًا في الوقت نفسه، ونُحدِّق للأعلى باتِّجاه السماوات الشاسعة. وعادةً ما يسأل الناس عددًا من الأسئلة مثل: كيف يمكنُنا فَهمُ العالم الذي وَجَدْنَا أنفسنا فيه؟ كيف يتصرَّف الكون؟ ما حقيقةُ الواقع؟ مِن أين أتى كُلُّ ذلك؟ هل الكون كان بحاجةٍ لخالق؟ معظمنا يمضي وقتَه في قلقٍ بشأن تلك الأسئلة، لكنَّنا جميعًا قلقون بشأنها بعضَ الوقت. كانت تلك هي الأسئلة التقليدية للفلسفة، لكنَّ الفلسفة قد ماتت ولم تحافظ على صمودهما أمام تطوُّرات العلم الحديثة، وخصوصًا في مجال الفيزياء. وأضحى العلماء هم مَن يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة [(١)]».

هذا النصُّ يدلُّ على أنَّ هذه التساؤلات الفطرية حاضرة حتى عند الملاحدة المعاصرين، ولكنَّهم يحاولون الإجابة عليها وفق مذهبهم المادي فقط.

فهذا المذهبُ أحدُ أهمِّ أسس وركائز الإلحاد المعاصر، وذلك أن هذا المذهب يستبعد وجودَ خالق للمادة، ويرى أتباعُ هذا المذهب قديمًا وحديثًا أن «أصل الوجود كلّه مادة لها طاقة، أو طاقة تشكَّلت مادة. وهذه المادة عديمة الوعي والإرادة والتدبير، ليس وراءها عقلٌ يدبِّرها، ولا إرادة تهيمنُ عليها وتسيِّرها، ولا قصد يوجّه مسيرتها، ولا علمٌ يحيط بكلِّ ذرةٍ من ذرَّاتها، وكل حركة من حركاتها، وليس لها علةٌ من قبَل عليم حكيم مريد قد أبدعَها، ونظّم حركاتها، ووضع قوانينها»[(٢)].

وقد صرَّح دعاةُ الإلحاد المعاصرون بذلك؛ فقال كارل ساغان - عالم الكون وملحد مشهور - على سبيل المثال: إن «الكون هو كلُّ ما يوجد الآن، أو كان في السابق، أو سيكون في المستقبل»[(٣)]. فلا يوجد سوى هذا الكون، وهذا الكون لا

---

(١) التصميم العظيم - إجاباتٌ جديدة على أسئلة الكون الكبرى (١٣)، لستيفن هوكنغ وليونارد مولدينوو، (دار التنوير للطباعة النشر، ٢٠١٠ م، ترجمة: أيمن أحمد عياد).

(٢) كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة (٥١٤).

(3) Program: Cosmos is all that is
(https://www.youtube.com/watch?v=uLu1cTKBspI)

شيء سوى الذرَّات، كما قال زعيمُ الملاحدة ريتشارد دوكينز: «الكون لا شيء سوى مجموعة من الذرات المتحركة»[1].

كما أنَّ المذهب المادي الوجودي ينكر جميع أنواع الغيبيات، حيث إن الماديين يعرِّفون مذهبهم بأنه: «الفكرُ الذي يقوم على اليقين المطلق بعالم الحسّ، والثقة المطلقة في المادة التي يتكوَّن منها هذا العالم، ثمَّ الإنكار المطلق لما وراء العالم المادي من عوالم الغيب، وعدم الإقرار بشيء منها»[2]. فلهذا لا يكتفي الماديُّون بإنكار وجود الله، بل ينكرونَ جميعَ الغيبيات مثل: الملائكة، والجنّ، بل يفسِّرون الوعي الإنساني بتفسيرات ماديَّة بحتة، وينكرون الحديثَ عن الروح؛ قال الملحد فرانسيس كريك[3]: «أنت وسرورك، وحزنك، وذكرياتك، وطموحاتك، وشعورك بهويتك الشخصية، وإرادتك الحرة، ليس بالواقع سوى سلوك لتجمُّع شاسع من الخلايا العصبية وجزئياتها المرافقة»[4].

خلاصةُ المذهب الطبيعي الوجودي:

حصرُ الوجود فيما يتمُّ رصدُه بالحسّ والعلم التجريبي، ونتج عن ذلك:

١) أنَّ أتباعه لا يؤمنون بخالق لهذا الكون.

٢) أنَّهم لا يؤمنون بأيِّ شيء من الغيبيات كالجن، والملائكة والروح، لأن الإيمان بها غيرُ خاضع للحسِّ والتجارب العلمية.

وقد تصدَّى علماءُ الغرب للمذهب المادي، وفنَّدوه تفنيدًا من جوانب عديدة، لكنْ يمكن تلخيصها في هذه النقاط الثلاث:

---

(1) (http://hyperphysics.phy-astr.gsu.edu/nave-html/faithpathh/dawkins.html)"

(٢) مذاهب فكرية معاصرة - عرض ونقد - (٢٩).

(٣) فرانسيس كريك (Francis Crick): عالم الفيزياء الحيوية البريطاني، والحاصلُ على جائزة نوبل بسببِ اكتشافه الحمض النووي. وكان ملحدًا يجاهر بإلحاده. توفي عام: ٢٠٠٤م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Francis – Crick

(4) The Astonishing Hypothesis: 3

النقطةُ الأولى: حصرُ الوجود فيما يتمُّ رصدُه بالعلم التجريبي:

قد ردَّ علماءُ الغرب على هذه النقطة من ثلاثة أوجه:

- **الوجهُ الأوَّل: المذهبُ الطبيعي المنهجي ليس المنهج العلمي الوحيد:**

أتباعُ المذهب الطبيعي الوجودي يستدلُّون بالمذهب الطبيعي المنهجي على نفي الحقائق الغيبية. ولكنَّ غايةَ المذهب الطبيعي المنهجي أنه أحدُ المناهج العلمية لدراسة العلوم، وليس هو المنهجَ العلمي الوحيد. بل هناك كثيرٌ من علماء الغرب الذين لا يعتمدونَ على هذا المذهب، بل يتبنَّون إمّا مذهبَ الخلق وإمّا مذهب التصميم الذكي. وهذان المذهبان يُثبتان وجودَ الغيبيات. وتبنِّي هذين المذهبين ليس عائقًا أمام البحث العلمي، بل نجد أنَّ علماء في أرقى الجامعات الغربية ويحملون شهادات عليا يتبنّون هذين المذهبين[1]. وقد قال البروفسور جون لينوكس مبيّنًا لهذه النقطة: «الصراع الحقيقي ليس صراعًا بين العلم والإيمان أبدًا، ولو كان كذلك فالمنطق البسيط يقتضي أن يكون العلماء كلُّهم ملحدين، وغيرُ العلماء فقط هم المؤمنون بالله، ولكن كما شاهدنا ليس هذا واقع الحال، بل إنَّ الصراع الحقيقي يوجد بين رؤيتين متعاكستين تمامًا للعالم؛ المذهب الطبيعي والمذهب اللاهوتي، ولا بدَّ لهما أن يتصادما»[2].

بل آباءُ العلم التجريبي كانوا يروْن أنَّ المنهج العلمي الصحيح يستند إلى الإيمان بالخالق؛ قال البروفسور جون لينوكس: «غليليو ومثله نيوتن وكذلك معظم العلماء الأوائل العظام الذين ساهموا ببناء النهضة الكبيرة للعلم وقتئذ؛ لم يجد أيٌّ منهم أن الإيمانَ بالله خالقًا للكون يعيقُ عملهم بأيِّ درجة من الدرجات، بل إنهم رأوا الإيمان محفِّزًا إيجابيًّا لعملهم العلمي. في الواقع اعتبر كثيرٌ منهم الإيمان بالله دافعه الرئيسي للمضي في البحث العلمي»[3].

---

(١) وسيأتي المزيدُ من التفصيل عن ذلك عندَ الحديث عن محاولة علماء الغرب لإصلاح العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.

(2) God’s Undertaker (28-29)

(٣) المصدر السابق (١٠)

وقد يوردُ الملاحدة مغالطةً منطقية في هذا المقام قائلين: إن أكثر المجتمع العلمي اليوم قد تبنَّى المذهب الطبيعي المنهجي. وهذه المغالطة المنطقية تسمّى الاحتكام إلى الأغلبية، وقد بيَّن علماءُ الغرب فسادَ هذه المغالطة؛ فقال سكوت هوس - المتخصِّص في نقد نظرية التطوُّر - : «اعتقادُ أكثر الناس بصحة شيء معين لا يجعل منه صحيحًا، وتسمَّى هذه المغالطة مغالطة الاحتكام إلى الأكثرية، وهي خاطئة تمامًا لأن الحقائق العلميَّة لا تُبنى على التصويت، فيمكن أن تكون الأكثرية خاطئة تمامًا، بل لقد كانت هذه هي الحال في أحيانٍ كثيرة»[1].

فكوْن أغلب المجتمع العلمي اليوم يتبنَّى هذا المذهب ليس بحجَّة في حال من الأحوال، بل كان غالبُ المجتمع العلمي في السابق يؤمنون بالخالق ويبنون منهجهم العلمي على هذا الإيمان. وفي هذا الزمان بدأت حركةُ التصميم الذكي تتقوّى كثيرًا كما سيتجلَّى في البحث. فيجبُ على المادي أن يستدلَّ على صحة المذهب الطبيعي المنهجي قبل أن يبني عليه المذهب الطبيعي الوجودي، وأنّى له ذلك!

- **الوجهُ الثّاني: نطاقُ العلم التجريبي ضيق:**

على فرْض صحَّة المذهب الطبيعي المنهجي، وأنه المنهج العلمي الصحيح في دراسة العلوم؛ فإنَّ هذا المنهج له حدودٌ ومجالات ضيقة، ولا يمكنه الإجابة عن جميع أسئلة الحياة؛ قال البروفسور بيتر ميداوار[2]: «لا يوجد شيء أسرعُ في التسبب بالعار للعالم نفسه أو لمهنته مِن أن يعلن بطريقةٍ شاملة - وبالأخص عندما لا يوجد أي داع لهذا الإعلان - بأنَّ العلم يعرف، وسيعرف قريبًا، أجوبةَ كلِّ الأسئلة التي تستحق أن تسأل... إنَّ وجود حدود للعلم التجريبي شيء واضح من عجزه عن الإجابة على أسئلة من مستوى ما يسأله الطلابِ الابتدائي مما يتعلّق بأوّل الأشياء - أسئلة من نوع: كيف بدأ كلُّ شيء؟ لماذا نحن كلُّنا هنا؟ ما الغاية من الحياة؟»[3].

---

(1) The Collapse of Evolution (21)

(٢) بيتر ميدوار (Peter Medawar): بروفسور علم الحيوان البريطاني، وقد حصل على جائزة نوبل في الطب عام ١٩٦٠. توفي عام: ١٩٨٧م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Peter - Medawar

(3) Advice to a Young Scientist (31)

وسيأتي مزيدٌ من البيان لحدود العلم التجريبي في المبحث القادم. فالعلم التجريبي علمٌ مفيد في مجاله، ولكنَّ المشكلة تحدث عندما يتخطّى علم من العلوم حدوده، فيخوضُ في مجالات العلوم الأخرى.

- **الوجهُ الثّالث: لا تلازم بينَ المذهب الطبيعي المنهجي والمذهب الطبيعي الوجودي:**

قد خلطَ دعاةُ الإلحاد بين المذهب الطبيعي المنهجي والمذهب الطبيعي الوجودي، وجعلوا الأوّل مستلزمًا للآخر. وهذا غيرُ صحيح؛ فقد ردَّ البروفسور ألفن بلاتينغا على هذه الفرْية بقوله: «لا يجوز الخلطُ بين المذهب الطبيعي المنهجي مع الفلسفة أو المذهب الطَّبيعي الوجودي، حيث أنَّ الأخير يرى أنه لا يوجد شيء مثل الإله أو ما يشبه الإله، وأنَّه لا يوجد أيُّ شيء وراء الطبيعة. وأمّا مَن يتبنَّى المذهب الطبيعي المنهجي فلا يلزم أنَّه يتبنّى المذهبَ الطبيعي الوجودي... فإنَّ المذهب الطبيعي المنهجي لا يحصر دراسة الطبيعة؛ وإنما يذكر نوعيةَ البحوث التي تعدُّ علمية. إن كان أحد يريد أن يسلك طريقًا آخرَ إلى دراسة الطبيعية - وهناك طرق كثيرة - فلا يعارضه مَن يتبنَّى المذهب الطبيعي المنهجي...»»[1].

فعلى فرضِ صحَّة أن المذهب الطبيعي المنهجي هو منهج علمي صحيح، فليس هناكَ تلازم بينه وبينَ المذهب الطبيعي الوجودي الإلحادي. فالمذهب الطبيعي المنهجي منهجٌ ووسيلة إلى معرفة الطبيعة، ولا يتحدَّث أصلًا عما وراء الطبيعة (Metaphysics). وكوْن الإنسان يستعمل وسيلةً ما للوصول إلى الحقِّ في شيء ما لا يعني أنه لا توجد وسائل أخرى لمعرفة الحقائق عن أشياء أخرى.

وبذلك يبطل هذا المذهبُ من أصله، لأنَّ غاية ما يستدلّون به على مذهبهم هو أنَّ المنهج العلمي المبني على المذهب الطبيعي المنهجي - وهو أحدُ المناهج العلمية ضمن مناهج علمية أخرى - لم ترصدِ الغيبيّات، فإذا هي غير موجودة. ولكن العلم التجريبي المبني على هذا المذهب في الوقت نفسه يسكت عنْ وجود الغيبيات، ولا ينفيها.

---

(1) Where the conflict really lies-Science, Religion & Naturalism (169-170)

النقطةُ الثّانيـة: الكونُ شاهدٌ على وجود خالق:

المذهبُ المادي قائمٌ على إنكار وجود الخالق، وصاحب هذا المذهب يعلم جيّدًا أنَّه لو ثبت لديه أنَّ الخالق موجود فيسقط مذهبه من الأساس. وبذلك يمكن أن نقرِّر قاعدةً عامَّة، وهي أن: كلّ دليلٍ صحيح يدلُّ على وجود الخالق فإنه يبطل المذهب المادي الوجودي.

وقدْ خصَّصت البابَ الثاني من هذه الرسالة في استدلالات علماء الغرب على وجودِ الله. وجميعُ هذه الأدلة التي يوردونها تصلح براهينَ علمية في نقد المذهب المادي، ولا حاجة إلى ذكرها هنا.

ولكنَّ علماء الغرب قد خصَّصوا دليلين من أدلة وجود الله بمزيد من العناية في نقد المذهب المادي؛ فقد كتب جمعٌ مِن علماء الغرب كتابًا مستقلًّا في نقد المذهب الطبيعي وسمّوه: «المذهب الطبيعي: تحليل نقدي» (Naturalism: A critical analysis) وهذا الكتاب حوَى عشرةَ أبحاث علمية في نقد هذا المذهب. ومن ضمن هذه الأبحاث بحثان مخصَّصان في نقد هذا المذهب باثنين من أدلة وجود الله، وهما: الدليل الكوني، ودليل التَّصميم. ولكونهم خصّوا هذيْن الدليلين في بحثين مستقلَّين في نقد هذا المذهب، يحسن الوقوفُ عندهما في هذا المقام:

البحثُ الأوَّل: المذهب الطبيعي وعلم الكون (Naturalism and cosmology)، الذي ألَّفه البروفسور وليام لاين كرايغ. وخلاصة هذا البحث: أن كرايغ ذكر النظريات المعاصرة لأصلِ الكون، وردَّ على النظريات القائلة بأنه ليس للكون بداية، ورجَّح للكون بداية، وأنَّ أحسنَ نظرية في تفسير ذلك هي نظرية الانفجار العظيم. وبعدما توصّل إلى ذلك استدلَّ بهذه النظرية على وجود خالق للكون. وقد استدلَّ بالدليل الكوني الكلامي على وجود الخالق ما قال في آخر البحث: «يمكننا تلخيصُ حجَّتنا بالتالي:

كلُّ شيء له بداية فلا بدَّ له من سبب.

الكونُ له بداية.

بالتالي فلا بدَّ للكون من سبب لإيجاده»[1].

---

(1) Naturalism and cosmology, Naturalism a critical analysis (244)

واستدلَّ بعددٍ من الأدلة العقلية على أنَّ هذا السبب هو الرب الخالق. وسيأتي كلامُه بالتفصيل في موضعه من هذا البحث، ولكنَّ محلَّ الشاهد أن علم الكون المعاصر يشير إلى أنَّ للكون بداية، وكلُّ ما له بداية فلا بدَّ له من سببٍ خارج عن هذا الكون لإيجاده. وهذا ما يبطل المذهبَ المادي من أصله.

البحثُ الثّاني: المذهبُ الطبيعي والتصميم (Naturalism and design)، الذي ألّفه الدكتور وليام ديمبسكي. والغرضُ من هذا البحث هو إبطالُ المذهب الطبيعي بدليل التَّصميم. وصاحبُ البحث من روّاد مذهب التصميم الذكي، وقد ألَّف عددًا من الكتبِ عن هذا المذهب. وتوصَّل في هذا البحث إلى أنَّ أي شيء يلاحظ فيه التعقيد المخصَّص (Complexity – specification) فلا بدَّ أن يكون مصمّمًا. وكل مصمَّم فلا بدَّ له من مُصمِّم. وذكر أنَّ هذا الأمر ملاحَظ بقوَّة في الكائنات الحيّة، وذكر العديد من الأمثلة على ذلك مِن علم الأحياء[1]. وذكر في خلاصة بحثه أن المذهب الطبيعي لا يستطيع تفسيرَ التعقيد المخصَّص الموجود في علم الأحياء مع أنه ملاحظ بقوة، فدلَّ ذلك على إبطال هذا المذهب[2].

النقطةُ الثّالثة: العلمُ التجريبي قد دلَّ على وجود غيبيات:

ذكرَ البروفسور بول كي موسير[3] والدكتور دافيد ينديل[4] في بحث لهما أن الدافع الأساسَ لشعبية المذهب الطبيعي هو ازدهارُ العلم التجريبي، ولكنَّه قد ظهر أن هذا المذهب يُعرِضُ عن الأدلة العلمية التي تبطله[5].

---

(١) وسيأتي الكلامُ المفصَّل عن هذه المسألة في الباب الثاني، إن شاء الله.

(2) Naturalism and design, Naturalism a critical analysis (277)

(٣) بول كي موسير (Paul K. Moser): بروفسور الفلسفة في جامعة ليولا بالولايات المتَّحدة، والمتخصِّص في نظرية المعرفة. وقد ألَّف مئات الكتب والأبحاث والمقالات العلمية، وكثير منها في الردِّ على المذهب الطبيعي. انظر: https: / /pmoser.sites.luc.edu /cv.html

(٤) دافيد ينديل (David Yandell): حامل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ويعمل كأستاذ مساعد في الفلسفة في جامعة ليولا بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في فلسفة الدين. انظر: https: / /www.luc.edu /philosophy /kdavidyandellphd.shtml

(٥) انظر:
Farwell to philosophical naturalism, a part of Naturalism a critical analysis (3)

وهذه الأدلة كثيرةٌ جدًّا لا تعدُّ ولا تحصى، بل يمكن صياغةُ قاعدة عامة كما سبق في النقطة الثانية، وهي أن: كلّ دليلٍ يدلُّ على وجود شيء غيْبي فإنَّه دليل على إبطال المذهب الطبيعي الوجودي.

وقد اهتمَّ الباحثون الغربيون كثيرًا بإجراء تجاربَ علمية في إثبات أشياء غير مادية. ولكنْ يمكن تلخيص ذلك في أمرين:

الأمرُ الأوَّل: المذهبُ المادي لا يفسِّر الوعي:

تفسيرُ الوعي من أعقد القضايا أمامَ المذهب الطبيعي؛ لأنَّ هذا المذهب يقول إنه لا يوجد سوى المادة الصَّماء، والمادةُ ليست لديها قدرة على الوعي والإدراك. ومع ذلك يقولون إنَّ الإنسان مكوَّن من هذه المادة، والإنسان لديه وعي وعقل وفهم. ولفهْم صعوبة هذه المسألة على الماديِّين فقد ذكرَ روي فرغيز(١) - الكاتب الأمريكي المتخصِّص في علاقة الدين بالعلم - المثالَ التالي:

«فكِّر لدقيقة في طاولةِ رخام موضوعة أمامك. هل تظنُّ أن هذه الطاولة ولو بعد مرورِ تريليونات السنين، بل وإلى الأبد ستصبح فجأة أو تدريجيًّا واعية بما يحيط بها وبهويَّتها؟ مِن البساطة أن يكون مِن غير المتصوَّر أن يحدث هذا. ونفس الأمر يسري على أيِّ نوع آخر من المواد. ما إن تفهمَ طبيعة المادة، والكتلة - طاقة حتى يتحقّق لك بالطبيعة الأساسية لهذه الأشياء أنَّها لن تصبح أبدًا واعية ولا قادرة على التفكير أو التعبير. لكنَّ الوضع الإلحادي في لحظة ما من تاريخ الكون يقتضي أن يكون المستحيل وغيرُ القابل للتصوُّر واقعًا. فتصبح المادة (بما فيها الطاقة هنا) التي لا يتميّز بعضها عن بعضٍ في لحظة ما «حيَّة»، ثمَّ واعية، ثمَّ ماهرة من حيث الفهم، ثمَّ معبِّرة عن ذاتها. لكن بالعودة إلى طاولتنا، نرى لَمَ الأمرُ مثيرٌ للضحك ببساطة. فليس لها أيٌّ من خصائص الكائن الواعي، ولو استمرَّت إلى الأبد لن «تكتسب» مثل هذه الخصائص»(٢).

---

(١) روي فرغيز (Roy Varghese): كاتب أمريكي كاثوليكي متخصِّص في علاقة الدين بالعلوم التجريبية. وقد ألَّف عددًا من الكتب في ذلك، منه كتاب اشترك معه ٢٤ عالم حائز على جائزة نوبل. انظر: https: / /www.catholic.com /profile /roy – varghese

(2) Roy Varghese, There is a God, appendix I, 163

فالوعي لا يمكن تفسيرُه عبرَ المذهب المادي، لأنَّ الوعي ليس أمرًا ماديًا، بل هو روحي. وقد اعتنى الدكتور ماركو بياغيني[1] بهذه المسألة كثيرًا، لا سيَّما وهو يدير «مركز الإفشاء العلمي عن الوعي» (Center of Scientific Divulgation about Consciousness) - وهو أحدُ المراكز العلمية المهتمَّة بنقد تفسيرات الماديّين للوعي -. وقد كتب الدكتور بياغيني في صفحة المركز: «مِن أين تأتي النفس (الوعي)؟ تثبت ظاهرة الوعي أنه في وقت معيَّن، تبدأ نفسنا حتمًا في الوجود فينا. وتثبت قوانين الفيزياء أنَّ النفس (الوعي) لا يمكن أن تكون نتاجَ عمليات فيزيائية أو كيميائية أو بيولوجية. لذلك، فأصل النفس سامٍ على الحقيقة الفيزيائية. فتَعَيَّن أنَّ الإله هو السبب الرئيس لوجود النفس، باعتباره سببًا ساميًا على هذه الحقيقة»[2].

ولا يقف الأمرُ عند عدم قدرة الماديّين على تفسير الوعي، بل لا يمكنهم تفسيرُ وجودِ قوانين المنطق؛ لأنَّ هذه القوانين غير محسوسة؛ الدكتور جاسون ليزلي: «لا يمكن لبعضِ رؤى العالم أن تكون صحيحة كليًّا لأنَّها في داخلها غير متوافقة. خذ مثلًا ما يعتقدُه المادي. فشخص مثله يؤمن أنَّ كلَّ الأشياء مادية، ولا وجود لشيء غير مادي. يستخدم المادي العقلَ وقوانين المنطق ليدعم ما يؤمن به، لكنه يقوم بذلك بشكل غير متوافقٍ للغاية. ففي رؤياه، لا وجودَ لقوانين منطقية لأنها ليس لها وجود مادي. فلا يوجد مكانٌ في الكون يمكن أن «ترى» فيه قوانينَ المنطق. إنها مجرَّدة، ولذا فلا يمكن لها أن توجَد [في الخارج] بالنسبة إلى معتقدات الماديين المعترف بها عندهم. إنَّ استدلال المادي يردُّ نفسه بنفسه»[3].

فكما أنَّه لا يمكن تفسير الوعي بالنظريات المادية، فلا يمكن في الحقيقة الاعتمادُ على قوانين المنطق وفقَ هذا المذهب، حيث أن هذه القوانين ليست حسيّة.

---

(١) ماركو بياغيني (Marco Biagini): حامل شهادة الدكتوراه في فيزياء الجوامد. وقد ألّف عددًا من الأبحاث العلمية في ميكانيكا الكم. وهو مهتمٌّ بنقد المذهب المادي فيما يتعلَّق بظاهرة الوعي. انظر: http: / /xoomer.virgilio.it /fedeescienza /biaginien.html

(2) http://xoomer.virgilio.it/fedeescienza/mindandbrain.html

(3) Taking Back Astronomy (103-104)

الأمرُ الثّاني: علمُ النّفس الموازي ينقد المذهب المادي:

عرَّف قاموس أكسفورد علم النفس الموازي (Parapsychology)[1] بأنه: «دراسة الظَّواهر الروحية المستبعدة من علم النفس التقليدي»[2]. فهذا العلم يبحث عن ظواهر خارجة عن العلم المادي مثل: التخاطر (Telepathy)، وتجربة الاقتراب من الموت (Near Death Experience)، والرؤية عن البعد (Clairvoyance). وقد بدأ الاهتمام بدراسة هذه الظواهر بتجارب علمية في وسط القرن التاسع عشر[3]، ولكنَّه تقوَّى كثيرًا في عام ١٨٨٢م. حيث أسَّست أوّل مؤسسة علمية في دراسة هذا العلم في بريطانيا، وهي: «جمعية للدراسات الروحية» (Society for Physical Research). وقد انضمَّ إلى هذه الجمعية بعضُ أشهر العلماء البريطانيين، منهم حملة جائزة نوبل[4]. ومازالت هذه الجمعية نشطة إلى يومِنا هذا، وتحوي العديدَ من العلماء المرموقين في العلم التجريبي، وتصدر مجلة علمية شهرية[5].

وهذه الجمعية أوَّلُ الجمعيات العلمية المهتمَّة بهذا الموضوع وأكبرها، ولكنّها ليست الوحيدة، بل توجد جمعياتٌ علمية مماثلة في كثير من الدول الغربية مثل: «الجمعية الأمريكية للدراسات الروحية» (The American Society for Physical Research) في الولايات المتَّحدة، و«جمعية علم النفس الروحي»

---

(١) سيأتي تعريفه لاحقًا.

(2) https://en.oxforddictionaries.com/definition/parapsychology

(٣) انظر:
Pseudoscience and the Paranormal (50 - 52), by: Terence Hines, Prometheus Books (2003)

(٤) انظر:
Science and Psychic Phenomena (60), by: Chris Carter, Inner Traditions 2012

(٥) انظر:
https://www.spr.ac.uk/publications/journal - society - psychical - research

في فرنسا، و«جمعية دراسة (Société de Psychologie Physiologique) علم النفس الموازي» (Sällskapet för Parapsykologisk Forskning) في السويد، و«الجمعية النمساوية لدراسة علم النفس الموازي» (Austrian Society for Parapsychology) وغيرها من الجمعيات العلمية المهتمَّة بهذا الموضوع. وقد عدَّدت جمعية الدراسات الروحية في بريطانيا في موقعها العلماء الذين اهتمّوا بهذا العلم في العصر الحديث، فذكروا المئات من العلماء، منهم ٢٨ حائز على جائزة نوبل[١]. فلا شكَّ أنَّ هذا العلم له قبول واسع بين بعض الأوساط العلمية وبعض العلماء، وإن كان العلماءُ الماديون يرفضون هذا العلم رفضًا قاطعًا لتعارضه مع مذهبهم[٢].

وليس الغرضُ هنا التعمُّقَ في هذا العلم، وتصحيح كلِّ ما ورد فيه. ولكن، لا يمكن إنكارُ أنَّ بعض هذه الظواهر الروحية قد ثبتت بالحسّ، وأن ذلك يبطل المذهب المادي. وهذا هو محلُّ الشاهد. والمسلم يستطيع أن يفسِّر بعض هذه الظواهر بوجود الجنّ، أو الملائكة أو الروح. فلو أخذنا ظاهرةً من هذه الظواهر مثل: مواجهة الأشباح، فإن هذا أمرٌ قد وقع لأعدادٍ هائلة من الناس، فكان متواترًا مستندًا إلى الحسّ، ولا يمكن ألبتَّة للمادي تفسيرُ ذلك إلّا بأنها تخيُّلات لا حقيقة لها. ولكن المسلم يستطيع أن يفسِّر ذلك بوجود الجن، وأن الجنَّ قد يتشكَّل ويخوِّف الإنسان بهذه المناظر. وأما المادي فإنه يضطرُّ إلى إنكار ما قد ثبتَ بالحسِّ والتواتر. وهذا من الأدلة القوية في نقد هذا المذهب الفاسد الذي طالما حصرَ المعرفة بالمحسوسات.

ولا شكَّ أنَّ لعلم النفس الموازي خطورة؛ لأنَّ بعض العلماء المهتمّين بهذا العلم يدرسون ظواهرَ روحيةً تتعارض مع العقيدة الإسلامية مثل: تناسخ

---

(١) انظر:
https://psi - encyclopedia.spr.ac.uk/articles/eminent - people - interested - psi

(٢) انظر: Science and Psychic Phenomena (٢٤ – ٢٨)

الأرواح[1]. وهي عقيدةٌ هندوسية بوذية تخالف النصوصَ القطعية في الكتاب والسنة. فلا ينبغي للمسلم أن يتعمَّق في هذا العلم، ولكنَّ الاستشهاد بوجود هذا العلم وأنه قد ثبت بالحسّ ما يتعارضُ مع المذهب المادي يبقى سلاحًا قويًّا في مواجهة الماديين.

---

(١) انظر:
End of Materialism (277 - 288), by: Dr. Charles T. Hart, (New Harbinger Publication Inc.2009)

المبحثُ الثّاني

تعظيمُ العلم التجريبي

قد تقدَّم في المبحث الأوَّل أنَّ المذهب المادي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر. والمذهبُ المادي يستندُ إلى العلم التجريبي، ويرى أنَّه الطريق الوحيد إلى معرفة حقائق الوجود. ولهذا يعظِّم الملاحدةُ الجدد الماديون العلمَ التجريبي تعظيمًا كبيرًا، ويبالغون في قدرات هذا العلم، حتَّى جاوزوا حدوده؛ «فإن كانت الطبيعة هي إلهَ الملحد، فإنَّ العلم الطبيعي هو كتابُه المقدَّس، الذي تُصدَّق أخباره، وتُطاع أوامرُه، وتُجتنب نواهيه، وعلى أساسه يُعقَد الولاء والبراء عند الملحدين، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، وطريقة نقله أصدقُ من التواتر، وأهله هُم أصحاب الولاية الذين ترسم كلماتهم معالم الطريق!»[(١)]. وقد أُطلقَ على هذا الغلوِّ في قدرات العلم التجريبي تسمية خاصة، وهي العلموية (Scientism)[(٢)].

ومظاهرُ هذا الغلوِّ كثيرةٌ لدى الملاحدة، ولكنَّ الذي يهمُّنا في هذا البحث هو أنَّ هذا الغلو أدَّى بهم إلى إنكار الخالق. ويلخَّص هذا الموقف في مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمة الأولى: لا سبيلَ إلى معرفة حقائق الموجودات إلّا عن طريق العلم التجريبي.

المقدِّمة الثانية: العلمُ التجريبي يعارض الإيمانَ بالخالق.

النَّتيجة: إذًا، الخالق غيرُ موجود.

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (٣٩ - ٤٠).

(٢) العلموية: عرَّفه قاموس أكسفورد بأنَّه (الغلو الاعتقادي في قدرات العلم التجريبي وتقنياته).
Excessive belief in the power of scientific knowledge and techniques".»
https://en.oxforddictionaries.com/definition/scientism

المقدِّمة الأولى: أنَّ المعرفة منحصرة في العلم التجريبي؛ فما لم يتوصّل إليه العلم التجريبي فلا يعدُّ علمًا عندهم؛ قال الفيلسوف الملحد برتراند راسل: «أي معرفة ممكن الحصولُ عليها يجب أن تتحصَّل عبرَ الطرق العلمية، وما لا يمكن للعلم اكتشافه لا يمكنُ للإنسان معرفته»[1]. وقال البروفسور الملحد بيتر أتكنز: «لا يوجد مبررٌ أن نظنَّ أنَّ العلم التجريبي لا يجيب على جميع أنحاء الوجود»[2]. فالعلم التجريبي يجيب عن جميعِ ألغاز الحياة، ولا يمكن الاعتمادُ على الفلسفة - فضلًا عن الدين - في معرفة حقائق الوجود. قال ستيفن هوكينغ ووليونارد مولدينوو في كتابيهما: التصميم العظيم: «وعادة ما يسأل الناسُ عددًا من الأسئلة مثل: كيف يمكننا فهمُ العالم الذي وجدنا أنفسَنا فيه؟ كيف يتصرَّف الكون؟ ما حقيقة الواقع؟ مِن أين أتى كلُّ هذا؟ هل الكون بحاجةٍ لخالق؟ معظمُنا يمضي وقته في قلقٍ بشأن تلك الأسئلة، لكنّنا جميعًا قلقون بشأنها بعض الوقت. كانت تلك الأسئلة التقليدية للفلسفة، لكنَّ الفلسفة قد ماتت ولم تحافظ على صمودها أمامَ تطوُّرات العلم الحديثة، وخصوصًا مجال الفيزياء. وأضحى العلماء هُم يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة»[3].

المقدِّمة الثّانية: أنَّ العلم التجريبي ألغى جميعَ مبررات الإيمان بوجود الخالق؛ قال البروفسور الملحد بيتر أتكنز: «لا يمكن أن يتصالح العلمُ والإيمان، وعلى البشرية أن تبدأ بتقديرِ قوَّة ابنها، وترفض كلَّ محاولات التسوية، فلقد فشلَ الدين، ويجب كشف حالاتِ فشله للناس على الملأ، أمّا العلم فلنجاح مسيرته ووصوله إلى الكفاءة العالمية بمعرفة الحد الأدنى فيشكِّل متعة الفكر العليا، ويجب تتويجه ملكًا»[4]. وقال أيضًا: «على البشر أن يقبلوا بحقيقة أنَّ العلم قد ألغى كلَّ مُبررٍ للإيمان بوجود الغاية في الكون، وبقاء

---

(1) Religion and Science (243)

(2) Nature's Imagination: the Frontiers of Scientific Vision (125), Oxford University Press 1995

(٣) التصميم العظيم (١٣).

(4) Nature's Imagination-The Frontiers of Scientific Vision (132), ed. John Cornwell, (Oxford University Press, 1995)

أيِّ علة غائية للكون شيء ناتج عن الشعور فقط»[1]. وهذا مبني على أنَّ الملاحدة الجدد حصروا البراهينَ في الأدلة العلمية التجريبية، وما لم يكن مبنيًّا على البراهين العلمية الخاضعة للتجارب فليسَ بعلم. وحيث أنَّ الدين ليس مبنيًّا على التَّجارب العلمية فهو مجرَّد وهْم؛ قال زعيم الإلحاد المعاصر ريتشارد دوكينز: «العلم التجريبي مبنيٌّ على الدليل القابل للفحص بشكلٍ عمومي، وأمّا الإيمان الديني فإنه يفتقد الدليلَ المؤيِّد له، بل يُبدي رضاه لاستقلاله عن الدليل بكلّ صراحة»[2].

ردودُ علماء الغرب على موقفِ الملاحدة من العلم التجريبي:

قدْ تصدَّى علماءُ الغرب لموقف الملاحدة الجدد مِن العلم التجريبي، وبيَّنوا ما عندهم مِن الأخطاء والمغالطات والخلل؛ وبيانُ ذلك بما يلي:

- **الردُّ على المقدِّمة الأولى:**

ادَّعى الملاحدةُ الجدد أنَّ المعرفة منحصرةٌ في العلم التجريبي، وأنه الطريق الوحيد الموصِّل إلى العلم اليقيني. ويُجاب عن هذه الشبهة من خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: قد صرَّح كثيرٌ من علماء الغرب أنَّ العلم التجريبي له حدود واضحة لا يمكن أن يتخطّاها، وأنَّ العلم التجريبي لا يجيب عن جميع ألغاز الحياة. وبعض هؤلاء العلماء أكثرُ علمًا بكثيرٍ من دعاة الإلحاد الجديد. ومن الأمثلة على ذلك أنَّ البروفسور فرنسيس كولينز[3] ذكر أنَّ العلم التجريبي لا حيلة له في الإجابة على أسئلة من نوع: «لماذا جاء الكونُ إلى الوجود؟»، «ما معنى الوجود الإنساني؟»، «ما الذي سيحدث بعد أنْ نموت؟»[4].

---

(1) Will Science ever fail? New Scientist, 8 August 1992, 32-35

(2) Daily Telegraph, Science Extra, Sept 11, 1989

(٣) فرانسيس كولنز (Francis Collins): بروفسور علم الوراثة الأمريكي. شغل منصبَ مدير معاهدِ الصحة الوطنية الأمريكية، كما أنَّه كان مدير مشروع الجينوم – وهو من أضخم المشاريع العلمية في اكتشاف الجينوم البشري –. وقد ألَّف بعضَ المؤلفات في نقد الإلحاد مثل كتابه: لغة الإله. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Francis – Collins

(٤) انظر:(٦) The Language of God

وقد حكى البروفسور نيجل بروش[١] أنَّ هذا الأمر يدركه العلماء الذين يعملون بالعلم التجريبي يوميًّا: «رغمَ أنَّ الطريقة العلمية تقدِّم أسلوبًا قويًّا للبحث عن الحقيقة إلّا أنَّ لها حدودًا، وأولئك الذين يعملون بالعلم التجريبي يوميًّا يعرفون تمامًا الكثير من هذه الحدود في أثناءِ مسيرتهم للوصول إلى فهْم الطبيعة»[٢]. فالعلم التجريبي لا يجيب عنْ جميع أسئلة الوجود، وكذلك فإنَّ له حدودًا في مجال تخصصه كذلك.

ولذلك نجد أنَّ أكثرَ الملاحدة تحمُّسًا لقدرات العلم التجريبي هم من عوامهم؛ فـ«إنَّ التباين الفجَّ المتكرر بين الموقف المتشكِّك للمتخصصين في العلم الطبيعي وموقف عامَّة الملحدين المتيقّن؛ يورثك يقينًا أنَّ الرافد الأساسي في إلحاد هؤلاء هو العاطفة، تلك العاطفة التي أعمتْه عن ملاحظة التشكُّك الملازم لحديث علماء الطبيعة، وحجبت عنْه رؤية الفلسفة الكامنة في ثنايا العلم الطبيعي وأصوله، ومنعتْه من متابعة مواطن قوة النظريات وضعفها، وأورثته يقينًا جازمًا بالإلحاد بناءً على نظريات لا يملك واضعوها أنفسُهم هذا اليقينَ تجاهها! هذا التباين الفجُّ يجعل من دعوى وجود إلحاد علميّ خالص طرحًا غيرَ مقبول!»[٣].

وإنْ كان هذا الحماس في كثيرٍ من الأحيان من قِبَل عوامِّهم إلّا أنَّ أئمة الملاحدة المضلِّين قد سوَّقوا لهذه المبالغات في بعض الأحيان، ويتكلَّمون خارج تخصُّصاتهم -؛ قال الدكتور نورمان كامبل[٤]: «يستحق رجالُ العلم الطبيعي القدر الأكبر من اللوم إزاء

---

(١) نيجل بروش (Nigel Brush): بروفسور الجيولوجيا في جامعة أشلاند بالولايات المتَّحدة. وهو مهتمٌّ ببيانِ حدود العلم التجريبي، وقد ألَّف كتابًا مميَّزًا في ذلك بعنوان: حدود الحقيقة العلمية. انظر: https: / /news.ashland.edu /profile /dr – nigel – brush

(2) The Limitations of Scientific Truth (8)

(٣) الإلحاد وثوقية التوهم وخواء العدم (٥٨ – ٥٩).

(٤) نورمان كامبل (Norman Campbell): عالم الفيزياء فيلسوف العلوم البريطاني. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كامدرج المشهورة في الفيزياء، وألّف عددًا من الكتب في فلسفة العلوم. توفي عام: ١٩٤٩م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Norman-Robert-Campbell

التخليطِ الذي نعترضُ عليه، لقد اعتادوا إلى حدٍّ بعيد فرضَ استنتاجاتهم على مجتمع العوام والمتردِّدين، إلى درجة أنَّهم مُعرَّضون لتخطّي حدود ميدانهم الخاص، إنهم ينسون أحيانًا أنهم لم يعودوا خبراءَ فورَ مغادرتهم لمختبراتهم، وأنهم فيما يتعلّق بالأسئلة الأجنبية على العلم لا يستحقّون أنْ يحظوا باهتمام يفوق ذلك القدر الذي يستحقه غيرهم»[1].

فكوْن العالم متخصِّصًا في الطبِّ مثلًا، لا يجعله متخصِّصًا في العلوم الدينية أو الفلسفية. ومعَ ذلك ينظر عوامُّ الملاحدة إلى علمائهم باعتبارهم متخصّصين في جميع المجالات. ومن الأمثلة على ذلك: زعيمُ الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز؛ فهو رجلٌ متخصِّص في علم الحيوان، ولكنَّ كتابه: (وهم الإله) كتاب ديني فلسفي. وهذا الرجل لا يُحسن الفلسفة، فضلًا عن العلوم الدينية - كما سبق بيانه -. فهو حينما يكتب هذا الكتابَ وغيره فإنه يتكلَّم خارجَ مجال تخصُّصه.

الوجهُ الثّاني: ادِّعاء أنَّ المعرفة منحصرة في العلم التجريبي ينقض نفسه بنفسه، لأن هذا الزعمَ مبنيٌّ على موقف فلسفي وليسَ على العلم التجريبي؛ قال البروفسور جون لينوكس: «الرأيُ الذي نسمِّيه «العلموية»، وهو أنَّ العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للحقيقة؛ باطلٌ منطقيًا؛ لأنَّ قول «إنَّ العلم التجريبي هو الوسيلة الوحيدة للحقيقة» ليس تقريرًا علميًا، فإنْ كان هذا التقرير صحيحًا فهو باطل»[2]. فـ«القول بأن العلم التجريبي ميزانُ كلِّ علم صحيح ليسَ حقيقةً علمية، بل هو زعمٌ فلسفي عن العلم التجريبي. هي العلموية التي تتظاهر بأنها العلم التجريبي»[3]. فالعلموية مذهبٌ فلسفي، وحين دعا ستفين هوكينج إلى هذا المذهب قال قبله: «الفلسفة ماتت»، فإنْ ماتتِ الفلسفة فإنَّ العلموية ستموت معها حتمًا.

---

(1) Norman Campbell, “What is Science?”, Kessinger Publishing, LLC (November 3, 2007), p.163

نقلته بواسطة عن كتاب: العودة إلى الإيمان (١٦٣)، للدكتور هيثم طلعت.

(٢) انظر https: / /www.goodreads.com /quotes /tag /scientism

(٣) المصدر السابق.

الوجهُ الثّالث: الملاحدةُ أنفسهم اعترفوا أنَّ العلم التجريبي لا يتحلّى بتلك القوة التي يتظاهرون بها أحيانًا، حتَّى قال البروفسور الملحد ريتشارد فاينمان(١): «فمن الضَّروري والحقيقي أن كلَّ ما نقوله عن العلم التجريبي، كل الاستنتاجات، هي غير أكيدة؛ لأنَّها استنتاجات... وبالتالي فإن العلماء اعتادوا العملَ بالشَّك؛ لأنَّ كل معرفة علميَّة (Scientific knowledge) غير أكيدة... ما نسمّيه اليوم بالمعرفة العلمية هو مجموعة من المقالات بدرجاتٍ متفاوتة من اليقين؛ بعضها أقربُ إلى غير مؤكَّدة، وبعضها قريبة من التأكُّد، ولكن لا شيء منها يقيني»(٢).

وستيفن هوكينج الذي ادَّعى أنَّ الفلسفة ماتت والعلماء «يحملون مصابيح الاكتشاف في رحلة التنقيب وراء المعرفة» قال في مواطن أخرى: «أي نظرية فيزيائية هي دائمًا مؤقَّتة، بمعنى أنها فرضٌ وحسب: فأنت لا تستطيع أن تبرهن عليها، ومهما بلغت كثرةُ مرَّات اتِّفاق نتائج التجارب مع نظرية ما؛ فإنَّك لا تستطيع قط أن تتيقَّن من أنه المرَّة التالية لن تتناقض النتيجةُ مع النظرية، ومن الناحية الأخرى فإنك تستطيع تفنيد إحدى النظريات بأن تعثرَ حتَّى على مشاهدة واحدة تتعارض وتنبؤات النظرية»(٣).

وقال هوكينج أيضًا: «لن يكون في إمكاننا قطّ التأكُّدُ من أننا قد عثرنا حقًّا على النَّظرية الصحيحة، لأنَّ النظريات لا يمكن البرهنة عليها، ولكن إن كانت النظرية مُتماسكة رياضيًّا، وتُعطي دائمًا تنبؤاتٍ تتَّفق مع المشاهدات فإننا يمكننا أن نثق إلى

---

(١) ريتشارد فاينمان (Richard Feynman): بروفسور الفيزياء النظرية الأمريكي، وحائز على جائزة نوبل في الفيزياء. وكان مُلحدًا مجاهرًا بإلحاده. توفي: ١٩٨٨م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Richard-Feynman

(2) The meaning of it all (13)

والمقال موجود في:
http://www.inf.fu-berlin.de/lehre/pmo/eng/Feynman-Uncertainty.pdf

(٣) تاريخٌ موجَز للزمان من الانفجار الكبير حتَّى الثقوب السوداء (٢١)، لستيفن هوكينغ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦ م. ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي).

حدٍّ معقول في أنها النظرية الصحيحة»[1]. وقال أيضًا: «علينا أن نحذرَ من الإفراط في الثِّقة، فقد ظهرَ لنا أكثرُ من فجْرٍ كاذب من قبْل»[2]. فالادِّعاء أن النظريات العلمية يقينية باعتراف أئمتهم غيرُ صحيح.

الوجهُ الرّابع: ممّا يزيدنا بيانًا أنَّ النظريات العلمية ليست يقينية هي أنها متغيّرة دائمًا؛ فكيف ندَّعي أن النظريات العلمية السائدة اليوم يقينية، وقد تصبح متروكةً بعد سنةٍ أو سنتين؟ قد بيَّن البروفسور نيجل بروش ذلك بجلاءٍ إذ قال: «إن أوَّلَ - وربما أعظم - حدودِ المعرفة العلمية هو تغيُّرها الدائم، وقليلة هي الأمور الأكثر يقينية من هذا: **فالمعرفةُ العلمية المستعملة اليوم ستصبح غدًا معرفة علمية منتهية الصَّلاحية. والكتبُ العلمية القديمة لا فائدة لها تقريبًا**، وقيمتها الوحيدة عند محبي الاستطلاع التاريخي وهواة جمْع الأشياء، وحتى مخازن الكتب المستعملة تحاول أن تتجنَّب بيعَ أو شراء الكتب العلمية المستعملة، وتحاول الكثيرُ من دور نشر الكتب الجامعية الآن أن تُخرج إصدارًا جديدًا محدَّثًا لكلِّ نصٍّ علمي كل ثلاثة أعوام، ويمكن لهذا التسارع في وتيرةِ الاكتشاف العلمي أن يغيِّر فهمنا وتفسيرنا للعالم الطبيعي جذريًّا خلالَ بضعة أيام أو شهور أو سنين»[3].

فهذه كانت الكتب العلمية القديمة لا قيمة لها اليوم، فلا شكَّ أنَّ الكتب العلمية الحديثة لا قيمة لها في المستقبل، بل يتخيَّل كلُّ جيل أنَّهم وصلوا إلى الحقيقة النهائية، ولكنَّ الأمر ليس كذلك. فالعلومُ التجريبية في تقدُّم مُستقر، وهذا دليلٌ على أنَّ كثيرًا مِن النظريات ليست بيقينية؛ قال الدكتور نيجل بروش: «يعتقد كلُّ جيلٍ أن الحقيقة العلمية التي وصلَ إليها هي الحقيقة القطعية النهائية. ولا يتضمَّن هذا الاعتقاد الفخر فقط، وإنما أيضًا خداع الذات، إذْ كما في علم الفلك، تُظهر نظرة مختصرة على تاريخ أيِّ مجال علمي كم اتَّسع كلُّ مجال، لكنَّنا نستطيع أن نخمِّن فقط البعد المتبقّي لنصل

---

(١) المصدر السابق (١٤٥).

(٢) المصدر السابق (١٣٤).

(3) The Limitations of Scientific Truth (270)

إلى نهاية كلٍّ منها. كم ستكون المسافةُ ليصل العلم إلى الحقيقة الكلية الكاملة؟ هل تلوحُ النهاية في الأفق، أم أنَّنا نتعامل مع درجاتٍ لا متناهية للعلم؟ هل تطرح كل إجابة العديدَ من الأسئلة الأخرى؟ نحن بكل بساطة لا نعلم»[١].

الوجهُ الخامس: العلومُ ليست على درجةٍ واحدة، بل بعضها أقوى من بعض. يقسِّم العلماءُ عادةً العلومَ إلى قسمين: العلوم الصلبة القوية والعلوم اللينة الضعيفة. ويقصدون بالعلوم الصلبة: العلوم الطبيعية، وبالعلوم اللينة: العلوم الإنسانية. ولكن العلوم الطبيعية نفسها تنقسمُ إلى صلبة وليِّنة. وقد بيَّن البروفسور نيجل بروش هذا الأمر إذْ قال: «نقسم العلومَ بشكل عامٍّ إلى علوم صلبة وعلوم لينة، أي العلوم الطبيعية مقابل العلوم الإنسانية. توصَف العلوم الطبيعية (كعلوم الفلك والجيولوجيا والبيولوجيا) عادة بأنَّها «علوم صلبة» لأنها كما تذكر تتعاملُ مع أجسام مادية، النجوم والصخور والنباتات والحيوانات، والتي يمكن دراستها بالتجاربِ أو القياس الكمي. ومن جهة أخرى، تتعامل العلومُ الإنسانية (كالأنثروبولوجيا، والتاريخ، وعلم النفس) مع سلوك الإنسان. وتعتبر بعضُ أنواع التجارب على البشرِ لا أخلاقية، كما أنَّ السلوك الإنساني معقّد بما يكفي لدحْض إمكانية قياسِه كميًّا كما هو حال العلوم الصلبة، مما يحبط محاولات توقُّع السُّلوك المستقبلي. لكن ما يُغفل عنه عادةً هو أنَّ العديد من العلوم الطبيعية لديها جانبٌ سفلي ليِّن، ألا وهو تاريخيَّتها؛ فالنظريات التي طرحتها العلوم الطبيعية لتفسير نشوءِ الظواهر الطبيعية (مثل الديناصورات، القارات، الكواكب) تاريخية في جانب كبير منها وليست تجريبية، وذلك في تركيزها على حدثٍ فريد لم يتكرَّر، ولا يمكن محاكاته في المختبر»[٢].

وسوفَ يظهر في الباب الثاني أنَّ كثيرًا من النظريات العلمية التي يزعم الملاحدة أنها تعارضُ الإيمان بالخالق أو الدين هي مِن هذا القبيل، مثل: نظرية الانفجار العظيم، ونظرية التطوُّر.

---

(١) المصدر السابق (٣٤).

(2) The Limitations of Scientific Truth (93-94)

وبهذه الأوْجه الخمسة يظهر أن المقدِّمة الأولى لهذه الشبهة ضعيفة جدًّا؛ فالعلم التجريبي أحدُ طرق الوصول إلى المعرفة، وليس الطريق الوحيدة. ولا يمكن وصفُ النظريات العلمية التجريبية كلِّها بأنها يقينية، بل كثير منها ظنية أو وهمية.

- **الردُّ على المقدِّمة الثانية:**

يدَّعي الملاحدة أنَّ العلم التجريبي يتعارض مع الإيمان بالخالق، وقد ردّ عليهم علماءُ الغرب من خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: عندما يقول الملاحدة إنَّ العلم التجريبي يتعارض مع الإيمان بالخالق، فإنَّهم يرتكبون مغالطة منطقية تسمّى «مغالطة تجسيد المجرّدات»[١] (Fallacy of Reification). وذلك أنَّ العلم التجريبي لا يتكلَّم، وإنما يتكلّم العلماءُ باسم العلم التَّجريبي وفقَ استنتاجاتهم. وقد بيَّن ذلك الدكتور جاسون ليزلي إذ قال: «تجسيد المجرَّدات هو أن تنسبَ صفةً واقعية لشيء مجرَّد... استعمال تجسيد المجرّدات كجزء من حجَّة منطقية يعدُّ مغالطة، وسببُ اعتباره مغالطة هو أنَّ استعمال مثل هذا التعبير البلاغي غالبًا ما يؤدّي إلى التباس المعنى، وقد يخفي نقاطًا مهمَّة في مناظرة ما. فمن الشائع جدًّا لمناصري مذهب التطوُّر أن يرتكبوا هذه المغالطة. ولننظر في بعض الأمثلة عنْ مغالطة تجسيد المجرّدات... «يقول الخلقيون إنَّ العالم خُلق بشكل خارق للطبيعة، لكنَّ **العلم** يقول غير ذلك». لقد نسبَ الشخص الذي كتب هذه الجملة أوصافًا شخصيَّة واقعية لمفهومٍ مجرَّد، وهو **العلم**. وقد تجاهل بذلك الحقيقةَ الهامَّة؛ أنَّ **العلماء** يأخذونَ الاستنتاجات من الدليل، ويصفون هذه الاستنتاجات لغويًّا، وليس «العلم» مَن يقوم بهذا. العلمُ أداة معرفية يمكن استعمالُها بطريقة صحيحة أو خاطئة، فهو لا يقول شيئًا، ولا يتَّخذ موقفًا في القضايا المطروحة. وهكذا نجد أنَّ هذا المثال الشائع من تجسيد المجرَّدات هو مغالطةٌ منطقية»[٢].

---

(١) سيأتي التفصيلُ عن هذه المغالطة في مبحث: المغالطات المنطقية.

(2) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 12

الوجهُ الثّاني: العلماء أنفسُهم بَشَر، وليسوا موضوعيّين، بل يتأثّرون بالبيئة المحيطة بهم كما سبقَ بيانه. والادِّعاء أنَّ العلماء موضوعيون يعدُّ مغالطة أيضًا؛ قال البروفسور نيجل بروش: «إنَّ الاعتقاد الشائع بأنَّ العلماء يمكن أن يكونوا موضوعيين كليًّا أثناء دراستهم للماضي مغالطة واضحة. فلا يمكنهم إنكارُ تأثير الثقافة على العلم بالقدر ذاتِه الذي لا يمكِّنهم من إنكار حدودِ أجسادهم المادية»(١).: فـ«العلماء الأذكياء يفهمونَ أنَّ التحيُّزات السياسية والثقافية لا بدَّ أن تؤثر في أفكارهم ويجهَدون ليميّزوا هذه التأثيرات الحتمية»(٢).

والثقافةُ المحيطة بالعالم تؤثّر بشدَّة في استنتاجات علماء هذه النظريات العلمية التاريخية؛ قال البروفسور نيجل بروش: «إذن، فحينَ يحاول العلماء تفسير الحاضر بالنظر إلى الماضي فإنَّهم يدخلون مجالَ التاريخ. وحين يحاولون إعادةَ تصوُّر ما كان عليه العالَم أو الكونُ في فترات مضت؛ فإنَّهم لا يُجرون التجارب ولا يقيسون الكميّات، بل هم في الواقع يكتبون التاريخ. ولكن، يا لَه من حظٍّ عاثر؛ فإنَّ كتابة التاريخ تتأثّر بشدة بثقافة كاتبِه. فقد رأينا في القرن العشرين جماعاتٍ تحاول إعادةَ كتابة التاريخ بناء على توجُّهاتها السياسية أو العرقية أو الجنسية»(٣).

والثقافةُ المحيطة بكثير من العلماء اليوم هي ثقافة علمانية إلحادية توجب قبولَ النظريات العلمية المعارضة للدين - مثل نظرية التطوُّر كما سبق -. فكوْن كثير من العلماء تلقَّوا هذه النظريات وتظاهروا بأنها صحيحة ترجعُ إلى أسباب نفسية أكثر من كونها علمية؛ قال البروفسور فريد هويل(٤): «بالفعل إنَّ أمثال هذه النظرية (أنَّ ذكاءً قد

---

(1) The Limitations of Scientific Truth (102)

(2) Literary Bias on the Slipperly Slope. In Bully for Brontosaurus: Reflections in Natural History (241), W.W. Norton (1991)

(٣) المصدر السابق (٩٦).

(٤) فريد هويل (Fred Hoyle): عالم الفلك والرياضيات البريطاني. وكان يعمل كبروفسور في جامعة كامبردج المشهورة، وقد ألَّف عددًا من المؤلفات في تبسيط العلوم لعامة الناس. توفي عام ٢٠٠١م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Fred – Hoyle

ركّب أجزاء الحياة) واضحة جدًّا، لدرجةٍ يتعجَّب المرء عن سبب عدم قبولها على نطاقٍ واسع باعتبارها مسلَّمة، الأسباب نفسية أكثر منها علمية»[1].

فهذه النظرياتُ العلمية المعارضة للإيمان بالخالق - وعلى رأسها نظرية التطوّر - ليست قوية علميًّا؛ بل هي باطلة، وسببُ قبولها لدى بعض العلماء هو عواملُ نفسية. وقد اعترفَ بذلك البروفسور الملحد ديفيد واطسون[2]: «نظريةُ التطور نظرية مقبولة بشكلٍ عام، ليس لأنَّه يمكن إثباتُ صحَّتها بالأدلة المحكمة منطقيًّا، بل لأنها البديلُ الوحيد، فمِن الواضح أنَّ الخلق الخاص لا يمكن تصديقه»[3].

الوجهُ الثّالث: ليس العلماءُ المتخصِّصون في العلوم التجريبية كلهم ملاحدة، بل بالعكس، هناك كثيرٌ من العلماء يؤمنون بوجود خالق؛ قال البروفسور جون لينوكس: «الصراعُ الحقيقي ليس صراعًا بين العلم والإيمان أبدًا، ولو كان كذلك فالمنطق البسيط يقتضي أن يكون العلماءُ كلُّهم ملحدين، وغيرُ العلماء فقط هم المؤمنون. ولكن كما شاهدْنا ليس هذا واقع الحال»[4]. وهذه الرسالة العلمية أكبرُ شاهد على ذلك، فإنها مبنيَّة على ردود علماء الغرب أنفسهم على الإلحاد.

الوجهُ الرّابع: ويحاول الملاحدةُ أن يقدِّموا للناس أنَّ العلم التجريبي كان في حرب ضَروسٍ مع الدين عبرَ التاريخ، وفي الأخير انتصر العلمُ التجريبي على الدين. ولكن هذا

---

(1) Fred Hoyle, Chandra Wickramasinghe, Evolution from Space, New York: Simon & Schuster, 1984, p. 130

(٢) ديفيد واطسون (David Watson): بروفسور علم الحيوان البريطاني، ويعتبر أحدَ أبرز علماء الاستحاثة في القرن العشرين. وكان زميلًا للجمعية الملكية المرموقة في بريطانيا. توفي عام: ١٩٧٣م. انظر:

https://www.geosociety.org/documents/gsa/memorials/v05/Watson - DMS.pdf

(3) D.M.S. Watson, “Adaptation,” Nature, Vol. 123 [sic Vol. 124] (1929), p. 233

(4) God’s undertaker (28)

الزعمُ غيرُ صحيح؛ فقد ذكر البروفسور كولن روسل [1] أنَّ الاعتقاد الشائع أن العلاقات الحقيقية بينَ العلم والدين عبرَ القرون الأخيرة تميَّزت بالعداء العميق والمستمر؛ ليست دقيقة تاريخيًّا، بل هو في الواقع كاريكاتورية بشكل مبالغ جدًا، لدرجة أننا نحتاجُ أنْ نبحثَ عنْ تفسيرٍ كيف يصلُ هذا الاعتقاد إلى أيِّ درجة من التقدير العام[2].

فلا شكَّ أنَّ بعضَ العلماء التجريبين ملاحدةٌ ويحاربون الأديان، ولكن لا يعني ذلك أنَّ العلم التجريبي نفسَه مُعادٍ للإيمان؛ قال البروفسور جون لينوكس: «إن محاربة بعضِ العلماء للإيمانِ بالله لا يعني تمامًا أنَّ العلم نفسَه في حرب مع الإيمان بالله»[3].

ومعَ ذلك فإنَّ كبارَ علماء العلم التجريبي عبرَ القرون كانوا يؤمنون بالخالق كما تقدَّم بيانه. وكذلك يقال: إنْ كانت هذه نقطةً سوداء في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في فترةٍ تاريخية معيَّنة فإنه لا يصدق على التاريخ الإسلامي؛ لأنَّ الله يحثُّ على التفكُّر والتدبُّر في ملكوت السماوات والأرض، واستخدام العقل في مواضع كثيرة من القرآن، وكان المسلمون في القرون الأولى مِن ظهور الإسلام يولونَ العلمَ التجريبي عناية فائقة، بدون أنْ يعارضه علماء الدين.

الوجهُ الخامس: الحقُّ أنَّ العلم التجريبي يدلُّ على وجود الخالق وليس على الإلحاد؛ فالعلمُ التجريبي يهتمُّ بدراسة الطبيعة، والطبيعة على صيغة فعيلة، بمعنى مخلوق. فالطبيعة مخلوقة، وكلُّ مخلوق لا بدَّ له من خالق؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): «لو تأمَّلت قولك: طبيعة ومعنى هذه اللفظة، لدلَّك على الخالق البارئ

---

(١) كولن روسل (Collin Russel): بروفسور في تاريخ العلم في جامعة كامبردج سابقًا، وقد تخصّص في علاقة الدين بالعلوم التجريبية وألَّف في هذا الموضوع كتبًا وأبحاثًا. توفي عام: ٢٠١٣م. انظر:
https://web.archive.org/web/20070827090416/http://www.hps.cam.ac.uk/dept/russell.html

(2) The Conflict and its Social Origins, Science and Christian Belief (1/3),1989

(3) God’s Undertaker (19)

لفظها كما دلَّ العقول عليه معناها، لأنَّ طبيعة: فعيلة، بمعنى: مفعولة أي: مطبوعة. ولا يحتمل غير هذا ألبتة؛ لأنَّها على بناء الغرائز التي رُكِّبت في الجسم، ووُضِعت فيه كالسجية، والغريزة، والبحيرة، والسليقة، والطبيعة هي التي طُبع عليها الحيوان، وطُبعت فيه. ومعلوم أن طبيعةً مِن غير طابع لها مُحال، فقد دلَّ لفظُ الطبيعة على البارئ تعالى، كما دلَّ معناها عليه. والمسلمون يقولون إنَّ الطبيعة خلقٌ من خلق الله، مسخَّر مربوب، وهي سنته في خليقتِه التي أجراها عليه، ثمَّ إنه يتصرَّف فيها كيف شاء، وكما شاء، فيسلبها تأثيرها إذا أراد، ويقلبُ تأثيرها إلى ضدِّه إذا شاء، ليرى عبادُه أنَّه وحده الخالق البارئ المصوّر، وأنه يخلقُ ما يشاء كما يشاء، وإنَّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون»[1].

ومِن أقوى الحجج على وجود الله: الحجة الكونية، والحجة الغائية، وكلتاهما تعتمد على العلم التجريبي. وسيأتي بيانُه مفصَّلًا في الباب الثاني، معَ ذكر عددٍ كبير من الأمثلة - إن شاء الله -.

فخلاصةُ هذا المبحث أنَّ الملاحدة يدَّعون أنَّ السبيل الوحيد إلى المعرفة اليقينية هو العلمُ التجريبي، والعلمُ التجريبي يعارض الإيمان بالخالق، ولكن هذه الحجة لا أساس لها في الواقع، وهي شبهةٌ واهية من أوْجه كثيرة. والحقُّ أنَّ هذه الحجة تنقلب عليهم حيث أنَّ العلم التجريبي يدلُّ على وجود الخالق، لا العكس.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١ / ٢٦٢).

المبحثُ الثّالث
تعظيمُ العقل

كما أنَّ الملاحدة الجدد يتظاهرونَ بتعظيم العلم التجريبي فإنهم يدَّعون أنهم يعظِّمون العقل أيَّما تعظيم، ولا تفترُ ألسنتهم عن إطلاق الألفاظ الرنَّانة على أنفسهم، مثل أنهم: عقلانيون، وأذكياء، ومنطقيون. كما أنَّ دعاتهم يكررون الحديثَ على مسامع مُريديهم أنَّ الأديان تخالف العقل والمنطق، وأن المتديّنين غير عقلانيين.

ويتلخَّص موقفُهم من العقل في أمرَيْن:

الأمرُ الأوَّل: ادّعاؤهم أنَّهم عقلانيون دون غيرهم:

مِن مظاهر هذا الأمر أنَّ الملاحدة يفضِّلون تسميةَ جمعياتهم ومنظّماتهم بأسماء مرتبطة بالعقلانية. فمِن المنظَّمات والجمعيات الإلحادية: «منظَّمة العقلانية العالمية» (Rationalist International)[1]، «حركة الأذكياء العالمية» (International Brights Movement)[2]، و«الجمعية العقلانية» (Rationalist Association) في بريطانيا[3]، و«الجمعية العقلانية الأسترالية» (Rationalist Society of Australia)[4]، و«اتّحاد الجمعيات العقلانية الهندية» (Federation of Indian Rationalist Associations) وهي تضمّ خمسين جمعية إلحادية في الهند[5]، و«مؤسسة ريتشارد دوكينز للعقلانية والعلم»

---

(١) انظر: https: / /www.rationalists.net /about – us

(٢) انظر: http: / /www.the – brights.net /vision /faq.html

(٣) انظر: https: / /newhumanist.org.uk /history

(٤) انظر: / https: / /www.rationalist.com.au /about – us

(٥) انظر: http: / /www.indiansceptic.in /fira.htm

(The Richard Dawkins Foundation for Reason and Science) التي يرأسها ريتشارد دوكينز[1].

ويروْن أنَّ الدين للعامَّة، والإلحاد للأذكياء؛ فقد نقلَ زعيمُ الملاحدة الجدد ريتشارد دوكينز مقالةَ الفيلسوف الرومي سنيكا[2]: «الدين يعتبر صحيحًا عند العامَّة، وباطلًا عندَ الأذكياء، نافعًا عند الحكَّام»[3]. وفي ذلك إشارة إلى احتقارهم للمتديّنين، ووصفِهم بأنهم غير حكماء.

وقال كريستوفير هيتشين معدِّدًا مفاسدَ الدين - في زعمِه - : «الدينُ عدواني، وغير عقلاني، ومتعصِّب...»[4]. وقد نقلَ سام هاريس هذه الجملة في مقالٍ كتبه بعنوان: «الدّين كالسوق السوداء للاعقلانية» (Religion as a Black Market for Irrationality) إقرارًا له[5].

وذكرَ الفيلسوف الملحدُ الفرنسي ميشال أنفراي أنَّ الله لا يحبُّ العقلانية - تعالى اللهُ عن ذلك -، حيث قال: «إنَّ الله يميت أيَّ شيء يقف في طريقه، ابتداءًا من المنطق، والعقل والتفكير النقدي»[6].

ويكثرُ من الملاحدة الاستهزاءُ من المتديِّنين في وسائل التواصل أنهم أغبياء وغير عقلانيّين؛ فعلى سبيل المثال: فتحَ الملاحدة رابطًا في منتدى «جمهورية الإلحاد»

---

(١) انظر: http: / /www.richarddawkins.net /aboutus

(٢) سنيكا (Seneca): فيلسوفٌ وسياسي روماني، ويعتبر أحدَ أكثر المفكِّرين تأثيرًا في القرن الأوّل بعد المبلاد. توفي عام ٦٥ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Lu- cius – Annaeus – Seneca – Roman – philosopher – and – statesman

(3) The God Delusion (313)

(4) God is not Great (56)

(٥) انظر: https: / /www.samharris.org /blog /item /religion – as – a – black – market – for – irrationality

(6) In Defense of Atheism: The Case Against Judaism, Christianity and Islam (13)

(Atheist Republic) - وهو أحدُ أشهر المنتديات الإلحاديَّة في الشبكة - عن: الأشياء الغبية التي يقولها المتديِّنون (Stupid things religious people say)[1]، وأكثروا فيها من الاستهزاء بحماقة المتديِّنين - في زعمهم -.

فهذا يدلُّ على النَّظرة الاستعلائية الموجودة عند الملاحدة الجدد، وأنهم يعتبرونَ أنفسَهم عقلاء وأذكياء، وغيرهم أغبياء وحمقى.

الأمرُ الثّاني: زعمُهم أنَّ الإيمان يخالف العقل:

هذا الأمرُ يركِّز عليه الملاحدةُ كثيرًا في مناظراتهم وكتبهم، ومِن الأمثلة على هذا: قولُ البروفسور الملحد أليكس روسينبيرغ - على سبيل المثال - في مناظرته مع البروفسور وليام لاين كرايغ: «موضوعُنا هو: هل الإيمانُ بالله عقلاني؟ ولكن بالطبع، فإن الإيمان حسبَ تعريفه هو معتقدٌ خالٍ من الأدلة»[2]. وقال ريتشارد دوكينز: «بيتُ القصيد من الإيمان الديني، وقوَّته ومجده الأساسي أنَّه لا يعتمد على مبرر عقلاني»[3]. ولهذا يساوي دوكينز بينَ الإيمان والوهم، حيث قال: «الإيمان معتقدٌ بلا حجة ولا منطق. وبنفس الوقت، فإنَّ هذا هو تعريف الوهم»[4].

فالإيمانُ بالله عندهم لا يعتمد على حججٍ عقلانية، وكذلك الإيمان بسائر الغيبيات كالبعثِ والنشور؛ قال جوليان هوكسلي[5]: «ينبغي أن نكون لاأدريين عن

---

(١) انظر:
http://www.atheistrepublic.com/forums/atheist-hub/stupid-things-religious-people-say?page=

(2) http://www.reasonablefaith.org/debate-transcript-is-faith-in-god-reasonable#ixzz4uGbMof9n

(3) Gods delusion (45)

(٤) انظر: https: / /www.nobeliefs.com /belief – quotes.htm.

(٥) جوليان هوكسلي (Julian Huxley): بروفسور علم الحيوان البريطاني، وشغل منصبَ رئيس يونيسكو في الأمم المتحدة، كما أنه كان رئيسَ الاتّحاد الإنساني البريطاني. توفي عام: ١٩٧٥م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Julian – Huxley

الأمور التي لا تعتمدُ على أدلة. لا ينبغي أن نعتقدَ أشياء لنشبع غرائزنا مثل: الإيمان بالآخرة، والخلود، والجنة والنار، إلخ»[١].

ويروْن أنَّ الذي يؤمنُ بالمعجزات غيرُ عقلاني؛ فقد استهزأ ريتشارد دوكينز في مقابلتِه مع مذيع مسلمٍ يؤمن بانشقاق القمر والإسراء والمعراج، لأنه كلامٌ فارغ من الناحية العقلانية، وأنَّ ذلك لا يليق بصحفي ذكي في القرن الواحد والعشرين[٢].

ردودُ علماء الغرب على المَلاحدة في موقفهم من العقل:

بما أنَّ كلامَ الملاحدة عن العقلانية والمنطق حاضرٌ بقوة في خطابهم فإن علماء الغربِ قد اعتنوا بهذا الجانبِ كثيرًا، وأفردوا فيه المؤلفات والمقالات؛ فقد اشترك ثلاثة عشَر من فلاسفة الغرب[٣] في كتابةِ مقالات عن هذا الموضوع، وضمّوها في كتاب: «عقلانيَّة اللاهوت» (The Rationality of Theism). وألّف البروفسور كيث وارد[٤] كتابًا مستقلاً في هذا الموضوع سمَّاه: «هل الدين غير عقلاني؟» (Is religion Irrational?). ويهتمُّ البروفسور وليام لاين كرايغ بهذا الموضوع كثيرًا، فقد سمَّى موقعه: «الإيمان العقلاني» (Reasonable Faith)[٥]، كما أنه ألَّف كتابًا بهذا الاسم. وقد ناظرَ ملاحدة في مناظرات عديدةٍ عن هذا الموضوع، مثل: مناظرته مع أليكس رويسنبيرغ باسْم: «هل الإيمانُ بالله عقلاني؟» كما تمَّت الإشارة إليها.

وهذا غيضٌ من فيض مِن جهودهم في الردِّ على موقف الملاحدة من العقل. وبعض هذه الرُّدود قوية وجيِّدة. وتلخيصُ هذه الردود فيما يأتي:

---

(١) المصدر السابق

(٢) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=bHvxiQbQ37I

(٣) تسعة منهم يحملون درجة بروفسور في الفلسفة في جامعات الولايات المتَّحدة.

(٤) كيث وارد (Keith Ward): بروفسور الفلسفة في جامعة أكسفورد المشهورة. وهو متخصِّص في فلسفة الدين، مهتمٌّ بنقد الإلحاد. وقد صنَّف عددًا من الكتب في ذلك. انظر:
https://www.keithward.org.uk/about/

(٥) انظر: http: / /www.reasonablefaith.org /

- **الردُّ على النقطة الأولى:**

ادَّعى الملاحدةُ أَنَّهم عقلاء وأذكياء، وأنَّ المتديِّنين حمقى وأغبياء. وهذا الادِّعاء مشتملٌ على أمرين:

الأمرُ الأوَّل: يزكّي الملاحدةُ أنفسَهم بأنهم عقلانيون ومنطقيون. ولكن هذا الادِّعاء لا يستندُ إلى أسسٍ ثابتة وأصول راسخة، بل زعمَ الملحدُ أنه عقلاني متناقض. وبيانُ ذلك من أربعة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: رغمَ أنَّ الملاحدة يتظاهرون بأنهم عقلانيون، ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون - وفقَ المنهج الطبيعي الذي يتبنّونه - تفسيرَ وجود هذا التفكير المنطقي لدى الإنسان؛ قال البروفسور بيتر غيتش[1]: «عندما نسمعُ عن محاولة جديدة لتفسير التَّفكير المنطقي من ناحية طبيعية، فإنَّه ينبغي أن تكون ردَّة فعلنا كما لو أننا أخبرنا بأن شخصًا ما قد استطاعَ أن يجعل الدائرة مربّعًا»[2]. هناك محاولاتٌ كثيرة من الملاحدة في تفسيرِ الوعي الإنساني والتفكير المنطقي بطريقة علمية، ولكن كلُّها باءت بالفشل. وسيأتي تفصيلُ هذا الأمر عندَ الحديث عن حجّة الوعي في الباب الثاني إن شاء الله.

الوجهُ الثّاني: بما أنَّ الملاحدة لا يؤمنون بالخالق، فلا بدَّ أن يقولوا إنَّ الكون وكلَّ ما فيه - ومِن ذلك العقل الإنساني وتفكيره المنطقي - وُجِد نتيجة للصدفة. وقد لخّص ريتشارد دوكينز اعتقادَ الملاحدة في الكون والبشر بقوله: «الكونُ لا شيء سوى مجموعة مِن الذَّرات المتحرّكة، والبشرُ هُم ببساطة: آلات لتكاثر الحمض النووي.

---

(١) بيتر غيتش (Peter Geach): بروفسور علم المنطق البريطاني. وقد تحوَّل إلى الكاثوليكية وهو طالبٌ في جامعة أكسفورد. وألّف عددًا من الكتب في فلسفة الدين. توفي عام ٢٠١٣م. انظر: https://www.theguardian.com/education/2013/dec/26/peter - geach

(٢) The Virtues (52), Peter Geach, Cambridge University Press (1977)، نقلته بواسطة كتاب: الحقيقة الإلهية.. والإسلام.. وسراب الإلحاد (١٠٢)،. لحمزة أندرياس تزورتزس، (مركز دلائل، الطبعة الأولى، ٢٠١٧ م. ترجمة: نايف الملا).

وتكاثر الحمض النووي عمليةٌ ذاتية الاستدامة»[1]. وكلُّ ذلك نتيجة للصدفة، فلا يوجد خالق، ولا غاية من الكون ولا البشر.

وحينذاك يبقى سؤال: كيف نثقُ في هذا العقل المتكوِّن من ذرَّات متحرِّكة وُجدت نتيجةً للصدفة بدون خلقٍ ولا غاية؟ قد بيَّن دين أوفرمان[2] تناقضَ الملاحدة في هذا الباب إذْ قال: «الاقتراح بأنَّ الكون يكون محتملًا للحياة، وأنَّ الشكل الأوّل من الحياة قدْ تطوَّر بالصدفة وليس بالتصميم؛ يثير المعضلةَ التالية: لو أنَّ التفكير المنطقي كان مجرَّد صدفة، فهل سيكون جديرًا بالثقة؟ أو لنعدِّل هذا الغموض فنقول: هل من الممكن أنَّ ما نتجَ صدفة يصفُ بدقة الصدفَ التي سبقته؟... لكنْ لو أن كلًّا من تفكيري وتفكيركَ صُدفٌ فقط (أليس نتاجُ الصدفة صدفة أيضًا؟) فلماذا أعتبر تفكيري صحيحًا أو منطقيًّا؟ أليس هو صدفةً فحسب؟ كيف نثقُ بالفكر لو كان نتاجًا للصدفة؟»[3].

وإنْ كان الأمرُ كذلك، فلا ينبغي للملاحدة أنْ يتظاهروا بالتفكير العقلاني، بل يجبُ عليهم أن يشكُّوا في نتائج تفكيرهم، وبالتالي في إلحادهم؛ قال البروفسور ألفين بلانتينغا: «إن كان دوكينز محقًّا أنَّنا نتيجة عمليات طبيعية غير موجّهة، فإنه يعطينا سببًا قويًّا أن نشكَّ في قدرات المعرفة البشرية؟ وعليه، فإنه لا بدَّ أن نشكَّ في نتائج معتقداته، ويدخُل في ذلك: علمُ دوكينز التجريبي وإلحادُه. يظهر أنَّ علمه بالبيولوجيا وإيمانه بمنهج المذهب الطبيعي في حربٍ مع بعض. وهذا الصراعُ لا علاقة له بالإله أصلًا»[4].

---

(1) BBC Christmas Letter Study Guide (1991)

(٢) دين أوفرمان (Dean Overman): محامي أمريكي، ومهتمٌّ بنقد الإلحاد، وقد صنَّف عددًا من الكتب في ذلك، مثل: قضية ضدَّ العشوائية والتنظيم الذاتي، وهو كتاب متميّز في هذا الباب، وسيتمُّ النقل منه كثيرًا في الرسالة. انظر: http: / /www.deanoverman.com / about - dean - overman.html

(3) A Case Against Accident and Self-organization (4)

(4) (54) Gunning for God-Why the Atheists are missing the target

الوجهُ الثّالث: الملحدُ المؤمن بنظرية التطوُّر يعتقد أنَّ الإنسان قد تطوَّر من حيواناتٍ أدنى، وقد استدعَى هذا الأمر شكَّ تشارلز داروين - مؤسس نظرية التطوُّر - في قدرات الإنسان العقلية، فكتب لأحدِ أصدقائه: «ينتابني دائمًا شكٌّ فظيع حول ما إذا كانت قناعاتُ عقل الإنسان - والذي بدوْره تطوّر من عقول كائنات أدنى - تتمتع بأيِّ قيمة، أو تستحقُّ أدنى ثقة. هل أحدٌ يثق في قناعاتِ عقل القردة، إن كانت فيها قناعات أصلًا؟»[1].

ووفقَ نظرية التطوُّر فإنَّ الانتخاب الطبيعي يسعى لبقاء الأصلح فقط، وهذا لا ينتج عقلًا يبحث عن الحقيقة؛ قال البروفسور الملحد جون غراي[2]: «المذهب الإنساني المعاصر هوَ الإيمان أنَّ الإنسانية تستطيع معرفة الحقِّ والتحرُّر بوساطة العلم التجريبي. ولكنْ إن كانت نظريةُ داروين عن الانتخاب الطبيعي صحيحة فإنَّ ذلك مستحيل. العقلُ الإنساني يخدم التقدَّم التطوُّري ولا يخدم الحقّ»[3].

الوجهُ الرّابع: الملحدُ المؤمن بالمذهبِ المادي يحتكمُ إلى قوانين المنطق، مع أن هذه القوانينَ ليست مادية، وهذا تناقض؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: «لا يمكن لبعض رؤى العالم أن تكونَ صحيحة كليًّا، خذْ مثلًا ما: فشخصٌ مثله يؤمن أن كل الأشياء مادية، ولا وجودَ لشيء غيرِ مادي. يستخدم المؤمنُ بالمذهب المادي العقل وقوانين المنطق ليدعمَ ما يؤمن به، لكنَّه يقوم بذلك بشكلٍ غير متوافق للغاية. ففي رؤياه، لا وجود لقوانين منطقية، لأنَّها ليست بذات وجودٍ مادي. فلا يوجد مكان في الكون يمكن أن «ترى» فيه قوانينَ المنطق. إنها مجرَّدة، ولذا فلا يمكن لها أنْ توجد [في الخارج] بالنسبة إلى مُعتقدات الماديين المعترَف بها عندهم. إنَّ استدلال المؤمن بالمذهب المادي يرد نفسه بنفسه»[4].

---

(1) Charles Darwin to W. Graham, the Life and Letters of Charles Darwin, vol.1, p.285

(٢) جون غراي (John Gray): بروفسور الفلسفة البريطاني. وهو متخصّص في الفلسفة التحليلية وتايخ الأفكار. انظر:
https://www.goodreads.com/author/show/3312074.John_N_Gray

(3) Straw Dogs, 26, Granta Books (2007)

(4) Taking back astronomy (103-104)

قدْ يعترض الملحدُ المادي ويقول: قوانينُ المنطق اصطلاحات اخترعها الإنسان. وقد أجابَ الدكتور جاسون ليزلي على هذا الاعتراض بقوله: «الاصطلاحات (بالتعريف) عرفيَّة. أي أنَّنا نتَّفق كلُّنا عليها، وكذلك على العمل بها؛ مثل القيادة على الجانب الأيمن من الطريق. لكنْ إن كانت قوانينُ المنطق عرفية، فإنَّ الحضارات المختلفة ستأخذ قوانينَ منطق مختلفة (مثلَ القيادة على الجانب الأيسر من الطريق). إذًا من الممكن في بعضِ الحضارات أن تناقضَ نفسَك دون أي بأس، ولذا يمكن أن تكون الحقيقة في بعضِ المجتمعات مناقضةً لنفسها! مِن الواضح بأن ذلك مخالفٌ للواقع. إذا كانت قوانين المنطق مجرَّد اصطلاحات، فإنَّها ليست قوانين كونية. سيكون الجدال العقلاني مستحيلًا إنْ كانت قوانينُ المنطق عرفية، لإمكانية انتقاءِ الخصمين لمعايير مختلفة للاستدلال ببساطة، وكلٌّ منهما سيكون على حقٍّ وفقًا لمعياره الاعتباطي»[١].

فعقلانيةُ الملحد المزعومة لا تستندُ إلى شيء، بل هي عقلانية متناقضة؛ فالملحد آخرُ مَن ينبغي أن يتحدَّث عن التفكير المنطقي والعقلاني.

وأمّا المؤمن فإنه يستطيع أن يفسِّر وجود التفكير المنطقي بأن الله خلق العقل في الإنسان؛ «... فإنَّ الملحدين في الواقع يحتاجون للإله ليتمكّنوا من تفسير امتلاكهم لقدراتٍ عقلانية. ولذلك، فإنَّ وجودَ موجود متَّصف بكمال العلم والحكمة هو أفضل تفسيرٍ لكونٍ يشتمل على كائناتٍ مدركة لها قدرة على التفكير بعقلانية. الألوهية الإسلامية تقدِّم جوابًا بسيطًا وجميلًا، وهو أنَّ الإله خلقنا وأعطانا عقولًا ورغبة في الاستكشاف لمساعدتِنا على إكمال غايتنا. وأحدُ الطرق التي اختارها الإله لنا لنحقّق هذه الغاية هي بتوجيهِنا إلى خلقه، وحثِّنا على النظر في هذا الخلق الذي تكمن فيه علاماتُه. فعنْ طريق التأمُّل والتفكُّر في هذه العلامات نستطيع معرفة عظمته وقدرته على الخلق حقَّ المعرفة، وهذا يقودنا بطبيعة الحال إلى عبادته... فالإله بقدرته وإرادته خلقَ الكون وخلقَ عقولنا، وهذا يفسِّر قدرتَنا على التفكير العقلاني وعلى اكتشاف المبادئ المترابطة في الطبيعة»[٢].

---

(1) A Pocket Guide to Logic & Faith (67)

(٢) الحقيقة الإلهية (١٠٤ – ١٠٥).

الأمرُ الثّاني: يصفُ الملاحدة المتديِّنين بأَنَّهم حمقى وغير عقلاء، وهذا يدلُّ على كبرياء الملاحدة واحتقارهم للآخرين؛ قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي: «فهؤلاء الملاحدة - ومَن قلَّدهم - : علومهم نفختْ فيهم روح الكبرياء، وصيَّرتهم بطور غيرِ طورهم، ورأوا بها العباد أخسَّ من الحيوان البهيم، وهُم في الحقيقة الأرذلون»(١). والكبرُ من أبرز سمات الملاحدة في القديم والحديث، فها هو فرعون يقول: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، ومع أن الكبر واحتقار الآخرين من الصفات المذْمومة لدى أغلبِ العقلاء، فإنَّ احتقار الملاحدة للمتديّنين متناقض. ويبرز هذا التناقض في ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ الجدد يحترمون الفلاسفة الغربيين، ويرفعون من شأنهم في كتبِهم، مع أَنَّه لم يكن أحد - تقريبًا - منهم ملحدًا؛ قال البروفسور كيث وارد: «كلُّ الفلاسفة العظماء تقريبًا - ومنهم بالتأكيد أفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وليبنز، وكانت، وهيغل، ولوك، وبيركلي - رأوا أنَّ أصل الكون يكمن في حقيقة فوق المادة، ويتباينُ هؤلاء الفلاسفة بأفكارهم الخاصَّة بخصوص هذه الحقيقة، واتخذوا طرقًا مختلفة لمقاربتِها، لكنَّهم اتفقوا على أمرٍ ظاهر نسبيًّا؛ وهو أنَّ الكون غير مفسَّر ذاتيًا، وأنه يحتاج إلى تفسير من خارجه»(٢).

وها هو دوكينز نفسُه يقول عن أرسطو: «وحسبَ ما أعرف فإن أرسطو هو الأكثر ذكاءًا ممَّن عاش من الناسِ»(٣). وأرسطو لم يكن ملحدًا، بل كان يعارض الإلحاد، وشيخُه أفلاطون سنَّ قوانين في معاقبة الملاحدة - كما سبق ذكرُه -.

---

(١) البراهين العقلية على وحدانية الربّ ووجوه كماله (٥١)، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ).

(2) God, Chance and Necessity (7), by: Keith Ward, (One World Publications, 2009)

(٣) قال ذلك في الفيلم الوثائقي:

The Enemies of Reason (https://www.youtube.com/watch?v=Daqofc-PXtY).

ودوكينز هو الذي قال عنْ إسحاق نيوتن: «إنه كان أحدَ أكبر العلماء عبر التاريخ»[1]. ونيوتن هو القائل: «حيث الإلحادُ أخرقُ وبغيضٌ للإنسانية لم يكن له أتباع إلّا القليل»[2]. فأكثرُ الناس ذكاءًا، وأكبرُ العلماء في التاريخ - فضلاً عن علماء وفلاسفة آخرين - لم يكونوا ملاحدة، بل عارضوه أشدَّ المعارضة. فدلَّ ذلك على وهن اتِّهام الملاحدة لغيرهم بأنهم غير عقلانيّين.

الوجهُ الثّاني: تتحلَّى كلمة الفلسفة بمكانةٍ مرموقة في العرف الغربي، والفيلسوف ذو الحكمة والتفكير المنطقي المستقيم. والتفكير العقلاني - الذي يدّعيه الملاحدة - مستمدٌّ من علوم الفلسفة[3]. ومعَ ذلك فإنَّ الملاحدة الجدد يتناقضون في هذا الباب. وذلك لأنَّ كثيرًا منهم لا يجيدون الفلسفة والتفكير المنطقي أصلًا. وقد سبق ما قال البروفسور ألفين بلانتينغا عن كتاب دوكينز: وهم الإله - وهو أشهرُ كتاب إلحادي في هذا الزمان على الإطلاق - : «مناوشات دوكينز في الفلسفة هي في أحسن الأحوال تعادلُ نقاشاتِ طلبة السنة الجامعية الثانية، ولكن ذلك سيكون غير عادل بالنسبة لهؤلاء الطلبة؛ الحقيقة أنَّه (معَ وضع ضخامة الدرجة جانبًا)، فإنَّ العديد من نقاشاته سوف تستحقُّ علامةَ الرسوب في صفِّ الفلسفة لطلاب السنة الجامعية الثانية»[4]. فدوكينز يسمِّي مؤسسته: مؤسسة ريشارد دوكينز للعلوم والعقلانية. وهذه شهادة بروفسور في الفلسفة أنه يستحقُّ علامة الرسوب في الفلسفة - وبالتالي في العقلانية -، ففرقٌ بين ما يدَّعيه لنفسه وما عليه الأمر في الواقع.

وعلاوةً على ذلك فإنَّه يظهر على ألسنة الملاحدة الجدد من حين إلى آخر أنهم

---

(1) The Magic of Reality (105), by: Richard Dawkins, Bantam Press (2011)

(2) Newton's Philosophy of Nature: Selections from his writings, p. 65, ed. H.S. Thayer, Hafner Library of Classics (1953)

(٣) وإن كان هناك لازمٌ بين الفلسفة والتفكير المنطقي في العرف الغربي فإنه لا تلازم بين الفلسفة والعلوم العقلية عند المسلمين؛ فقد وردت آياتٌ عديدة في القرآن تحثُّ على استخدام العقل، ولا يسمَّى ذلك بالفلسفة.

(4) The Dawkins Confusion (http://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html)

يعادونَ الفلسفة، ولا يقيمون لها وزنًا. ومِن الأمثلة على ذلك قول ستيفن هوكينغ: «الفلسفة ماتت»، كما سبق ذكرُه مرارًا. وفي المقابل نجد أنَّ كثيرًا من علماء الغرب الذين يناظرونَ الملاحدة الجدد متعمِّقين في الفلسفة والمنطق إلى حدٍّ كبير. وقد سبق أنه اشتركَ ثلاثة عشَر فيلسوفًا في كتابٍ نقدي للإلحاد اسمه: عقلانية اللاهوت، وتسعة منهم بروفسور في الفلسفة. فهؤلاء أولى بالتفكير العقلاني من هؤلاء الملاحدةِ الجدد.

ومعَ ذلك، فإنَّ كلًّا من الإلحاد والنصرانية فيه أشياء كثيرة مخالفة للمنطق. ولا توجد عقيدة تتوافق معَ العقل السليم سوى الإسلام. وليس هذا محلَّ بسطه.

- **الردُّ على النقطة الثانية:**

وأمّا زعمُ الملاحدة أنَّ الإيمان يخالف العقل لأنَّه معتقد غير مبني على الحجج والبراهين، فيردُّ عليهم من ثلاثة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: أنَّ هذا الكلام متناقض؛ لأنَّ هذا الادِّعاء نفسه لا أساس له، وهو غيرُ مبنيٍّ على أدلة؛ قال البروفسور جون لينوكس في ردِّه على تعريف دوكينز للإيمان: «وهكذا نجدُ في تعريف دوكنز الخاصّ للإيمان مثالًا صارخًا على نوعية التفكير التي ادَّعى مقتَها، أي الاعتقاد بلا دليل. وذلك لأنَّه في استعراضه الكبير الغارق بفقد الاتِّساق يغيبُ تمامًا وجودُ الدليل على ادِّعائه أن التحرُّر من الدليل هو ما يرضاه الإيمان. وعجزه عنْ تقديم دليلٍ ليس بسبب صعوبة وجوده، بل لعدم وجودِ دليل على هذا. ولا نحتاج لكثيرِ عناءٍ في البحث لندرك عدمَ وجود دارس أو مفكِّر متديّن يؤيد تعريفَ دوكنز للإيمان»[1].

وقال البروفسور فرانسيس كولنز: إنَّ تعريف دوكنز «بالتأكيد لا يصف إيمان معظمِ المؤمنين واقعيًّا في التاريخ، كما لا يصف إيمانَ معظم من أعرفهم شخصيًّا من المؤمنين»[2]. لا ينكر أنه يوجد في المتديِّنين مقلِّدةٌ لا يبنونَ إيمانهم على الأدلة

---

(1) God’s Undertaker (17)

(2) The Language of God (164)

والحجج، وإنَّما وِلِدوا في أسرة متديِّنة فاتَّبعوا والديهم. ولكنَّ هذا هو الشأن عند بعض الملاحدة أيضًا، فكثيرٌ من الملاحدة اليومَ وُلدوا في أسرٍ إلحادية فألحدوا بسببِ تأثير الأسرة.

وأمّا المسلم فهو مأمورٌ ببناء إيمانه على أدلَّة، واللهُ تعالى أرسل رسله بالأدلة والبراهين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، والقرآن يشتمل على أمثالٍ مضروبة كثيرة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، والمراد بالأمثال في هذه الآية: «براهين وحجج تفيد تصورًا أو تصديقًا»[١]. فالحجج والبراهين الإيمانية كثيرة جدًّا في القرآن الكريم، حتى «قال العلماء: قد اشتمل القرآن العظيم على جميعِ أنواع البراهين والأدلة، وما من برهانٍ ودلالة وتقسيم وتحذير يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلّا وكتابُ الله قد نطقَ به»[٢]. ولكنْ ما يدري دوكنيز عن هذا، وهو القائلُ في تغريدةٍ له: «لم أقرأ القرآنَ فلا أستطيع أن أنقلَ منه بذكر السورة والآية كما أستطيعُه في الكتاب المقدَّس»[٣].

الوجهُ الثّاني: قد تبيَّن أنَّ إيمان المتديِّنين - ولا سيَّما المسلمون - مبنيٌّ على أدلة وبراهين. ولكن هل إيمانُ الملحد بإلحادِه مبنيٌّ على أدلة وبراهين؟ قد يجيب الملحدُ أنه غيرُ مُطالب بأدلَّة على إلحادِه، ولكنَّ هذا غيرُ صحيح؛ قال البروفسور وليام لاين كرايغ: «الجزمُ بأنه «لا يوجد إله» هو ادِّعاءُ علمٍ بشيء مثل الجزم بأنه «يوجد إله». وهذا الجزم الأوَّل بحاجةٍ إلى دليل مثل الثاني. هو اللاأدري الذي يقول إنه ليس عنده علمٌ بوجود الله أم لا. هو يعترفُ أنه لا يعرف هل يوجد إلهٌ أم لا»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٦٦).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٤ / ٦٠).

(3) https://twitter.com/richarddawkins/status/307369895031603200?lang=en

(٤) مقال:

Definition of Atheism, http://www.reasonablefaith.org/definition-of-atheism

والخلاصةُ أنَّه ليس للعقل أنْ «ينفي شيئًا إلّا بعلم، ولا يثبته إلا بعلم، ولهذا كان عامَّة العلماء على أنَّ النافي للشيء عليه الدليل على ما ينْفيه، كما أن المثبت عليه الدليل على ثبوته»[1].

والملحدُ بحاجةٍ إلى إقامة أدلةٍ كثيرة على معتقداته، وهو من أكثر ما يكرهه الملاحدة، ويحاولون دائمًا التهرُّب منه[2]. وذلك لأنَّ الملاحدة اعتادوا القيام بهدم عقائد الآخرين، وليس إقامة أدلةٍ على معتقداتهم. وعندما يحاولون إقامةَ الأدلة على الإلحاد يضعفُ موقفهم جدًّا؛ «فالتيارُ الإلحادي تيارٌ هدمي، يسعى أفراده إلى هدم التصوّرات الدِّينية دون أن يقدِّموا فلسفتهم الخاصَّة للوجود، ومتى سعوا في ذلك فمن السهل ملاحظةُ حالة التعجُّل والسطحية والحيْدة عن مواطن الإشكال، وهو ما يكشف عن مشكلاتٍ كثيرة تعصفُ بهذا الخطاب»[3]. وهذا ديدنُ أهل الباطل، وقريب منه ما ذكرَه القاضي أبو بكر ابن العربي عن أهلِ البدع إذ قال: «فإنَّ المبتدع إذا استدللت عليه شغَّب عليك، وإذا دعوتَه إلى الاستدلال لم يجد إلى ذلك سبيلًا»[4].

وسيتبيَّن في مبحثٍ عن «تعظيم الملاحدة للصدفة» مدى الخزعبلات والتناقضات التي بنوا عليها إيمانَهم، وأنَّ إيمانَ الملاحدة في غاية المخالفة للعلم التجريبي والعقل الرَّشيد؛ فآخر مَن ينبغي يتحدَّث عن الإيمان غير المبني على أدلة هو الملحد.

الوجهُ الثّالث: مِن أكثر ما يشغّب عليه الملاحدة الجدد في هذا الباب: قضية الإيمان بالغيب والمعجزات. ولا شكَّ أنَّ الإيمان بذلك قد يحيِّر العقل، ولكنه ليس محالًا عقلًا؛ فالأنبياءُ «صلواتُ الله وسلامُه عليهم يخبرون بما تعجز عقولُ الناس

---

(١) انظر: الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٦/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) وسيأتي مبحث خاصٌّ عن هذا الموضوع في الباب الثالث عن الكلام عن شبهة: عدم الإيمان.

(٣) مليشيا الإلحاد (١٤٨).

(٤) العواصم من القواصم (٢٥١)، للقاضي محمد بن عبد الله القاضي أبو بكر بن العربي، (مكتبة دار التراث،لم تذكر سنة الطباعة ت. الدكتور عمار طالبي)

عن معرفته لا بما يعرف الناسُ بعقولهم أنه ممتنع، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول»[1].

وكلامُ الأنبياء عنِ الغيبيات قسمان؛ قال الإمام ابنُ القيم (رحمه الله): «الرسل - صلواتُ الله وسلامه عليهم - لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطَع باستحالته، بل أخبارهم قسمان: أحدهما ما تشهد به العقولُ والفِطَر. الثاني: مالا تدركه العقول بمجرّدها، كالغيوبِ التي أخبروا بها عنْ تفاصيل البرزخ، واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب. ولا يكون خبرهم محالًا في العقول أصلًا»[2].

وإذا أخذنا قضيةَ المعجزات على سبيل المثال، فإنَّ المعجزة أمرٌ خارق للطبيعة، ولا يحدُث إلّا بمشيئة الله. ومَن آمن بأنَّ الله هو الخالق المدبِّر لهذا الكون، فلا يمكنه أنْ يقول إنَّ المعجزات مستحيلة عقلًا، بل هي مُمكنة. وذكر البروفسور جون لينوكس إنِ اعترفَ المرء بوجود الخالق يفتح الباب تلقائيًّا لإمكانية حدوث المعجزة التي يتدخّل بها نفس الخالق في مسار الطبيعة، لأَنَّه لا يوجد شيء اسمه: الخالق المجبَر الذي لا يمكنه أو يجبُ عليه ألّا يتدخَّل في كوْن قد خلقه هو من قبْل، فلذلك: المعجزات قد تحدث[3].

وكما أَنَّه لا يوجد اعتراضٌ عقلي، فليس هناك اعتراضٌ علمي صحيح على المعجزات؛ قال البروفسور جون لينوكس: «لا يوجد - مبدئيًّا - اعتراضٌ علمي على إمكانية حدوث معجزات، بالتأكيد إنَّ موقف الذهن المنفتح الذي يفرضه المنطق الآن هوَ الاستعداد لمتابعة العملية حيث تقود»[4].

فالعقلُ والعلم التجريبي لا يحكمان باستحالة المعجزات، ولكن يحكمان بإمكانيتها. ومعَ ذلك، فإنَّ المؤمن لا يصدِّق بكلِّ ما يُقال إنه معجزة أو كرامة، بل لا

---

(١) مجموع الفتاوى (١١ / ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٢) كتاب الروح (١ / ١٨٢)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية، (دار عالم الفوائد، ت. محمد أجمل الإصلاحي).

(٣) انظر: God’s Undertaker: (206)

(٤) المصدر السابق

بدَّ من توفُّر دليلٍ قوي على حدوثها؛ قال البروفسور جون لينوكس: «وأوافق بالطبع على أن المعجزاتِ بطبيعتها لا تحصُل إلّا في النادر، ويجب علينا بالتأكيد أن نطالب بدليل قوي لإثباتِ حدوثها في أي حالة»[1].

فالمعجزاتُ ليست مستحيلة من الناحية العقلية ولا العلمية. ولكنّها لا تعلم من جهةِ العقل ولا العلم التجريبي، وإنما تعرَف عن طريق الخبر. فإذا أخبر الثقة العدل الصادقُ بوقوع معجزة أو كرامة وجبَ تصديقُه في خبره.

فكيف إذا أخبرَ بالمعجزات عالم الغيب والشهادة الذي أحاطَ بكلِّ شيء علمًا وأحصى كلَّ شيء عددًا؟ واللهُ - تبارك وتعالى - قد أخبر بمعجزة انشقاق القمر؛ قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. وقال تعالى عن المعراج: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]. فنحن المسلمين نصدّق ما جاء عن الله ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

ومِن الطريف في هذا الباب أنَّ ريتشارد دوكينز بعدما استهزأ بالمذيع المسلم لكونه يؤمنُ بانشقاق القمر والإسراء والمعراج، سأله المذيع: إنْ كان دوكينز يستطيع أن يقيم دليلًا على أنَّ هذه المعجزات لم تحدث، فاعترف أنَّه لا يستطيع ذلك[2]. فالإنكار يحتاج إلى دليلٍ كما أنَّ الإثبات يحتاج إلى دليل. والمسلم يستطيع أن يورد أدلة كثيرة على حصولِ المعجزات، بينما لا يستطيع الملحدُ أن يأتي بأدلة في إنكارها.

فالزَّعم أنَّ المعجزات والغيبيات تخالف العقل زعمٌ باطل، فليس في العقل ما يكذِّب هذه المعجزات أصلًا.

وخلاصةُ هذا المبحث أنَّ الملاحدة يدَّعون أنهم عقلاء وحكماء وغيرهم أغبياء وحمْقى، ولكنْ قد تبيَّن أنَّهم أبعدُ الناس عن التفكير المنطقي السليم، وصدق عليهم المثل: رمتني بدائها وانسلَّت!

---

(١) المصدر السابق (٢٠٥)

(2) https://www.youtube.com/watch?v=bHvxiQbQ37I

المبحثُ الرّابع
الشكُّ ونسبيةُ الحقائق

قد تبيَّن في هذا الفصل أنَّ مِن أسس الملاحدة التي يستندون إليها، ومن أصولهم التي يبْنون عليها مذهبَهم: المادية والعقلانية. وهذه الأصول مستمدَّة من فلسفة اليونانيّين القدامى. ومِن الفلسفات الموجودة لدى الملاحدة المعاصرين التي ترجع جذورُها إلى العصر اليوناني: مذهب الشكِّ (Skepticism). فكانت هذه الفلسفة منتشرة لدى كثيرٍ من فلاسفة اليونان، وكان السفسطائيون مِن أوائل مَن اشتهر بهذه الفلسفة[١].

تعريفُ مذهب الشكِّ أو الشكوكية:

قد عرَّف قاموس وريام ويبستير (Mariam – Webster Dictionary) – وهو من أشهر القواميس الأمريكية للتعريفات – الشكوكية بتعريفاتٍ مختلفة، منها:

١) الاعتقادُ أنَّ المعرفة الحقيقية أو المعرفة في مجال معيَّن غير يقينية.

٢) المنهجيةُ في تأخير الحكم والشكِّ المنظَّم، أو النقد الذي يمتاز به الشكوكيون[٢].

وبذلك يتبيَّن أنَّ كلمة الشكوكية تطلق على معتقد وعلى منهج. وكلٌّ من هذين الأمرين موجودان عندَ الملاحدة المعاصرين كما سيأتي بيانُه. كما أنَّ الشكوكية تصاحب القولَ بنسبية الحقائق، حيث لا يرى الشكوكيّون أنه يمكن الحصول على العلم المطلق.

---

(١) انظر المقال: The Skepticism of the Greek Sophists
https://campus.aynrand.org/campus/globals/transcripts/the-skepticism-of-the-greek-sophists

(2) https://www.merriam-webster.com/dictionary/skepticism

الشكوكيةُ عند الملاحدة الجدد:

الشكوكيونَ على درجات؛ فمنهم مَن يشكُّ في جميع مصادر المعرفة كما اشتهر به السفسطائيةُ حيث شكُّوا في قدرة الحواس والعقل على الوصول إلى الحقيقة، وبالتالي تبنَّوا ما يسمَّى بنسبية الحقائق[١]، وهي: «المبدأ أنَّ المعرفة، والحقَّ، والأخلاق موجودة نسبيًّا إلى الثقافة، أو المجتمع، أو السياق التاريخي، وليست مطلقة»[٢]. وفي الأزمان المتأخِّرة وُجِد مذهب شكوكي غالٍ باسْم: الشكوكية المتطرّفة (Radical Skepticism)، وهي: «المبدأ الفلسفي أن المعرفة تكاد تكون مستحيلة»[٣]. وكان على رأسه الفيلسوف ديفيد هيوم[٤].

ومنهم مَن هو دونَ ذلك في شكوكه. وهذا ما ذهبَ إليه الملاحدةُ الجدد، فإنهم لا يشكُّون في العقل ولا الحواس، بل يسمُّون أنفسهم عقلانيّين - إشارة إلى تعظيمهم لقدرات العقل -، ويتبَّنون مذهبَ العلموية لغلوِّهم في مكانة العلم التجريبي.

ولا يتبنَّون الشكوكية الأخلاقية (Moral Skepticism)، وهي: «الاعتقاد أن العلم بالأخلاق لا يوجد، أو لا يمكن الوصول إليه»[٥][٦].

---

(1) https://en.oxforddictionaries.com/definition/relativism

(٢) انظر المقال: The Skepticism of the Greek Sophists
https://campus.aynrand.org/campus/globals/transcripts/the-skepticism-of-the-greek-sophists

(3) For and Against Method (395)، by: Paul Feyerabend, (University of Chicago Press, 1999)

(٤) انظر: المصدر السابق.

(5) http://www.philosophybasics.com/branch_moral_skepticism.html

(٦) وهذا النوع من الشكوكية تبنَّاه فريدريش نيتشي - الفيلسوف الملحد المشهور في القرن التاسع عشر -، ومايكل روس - بروفسور الفلسفة الملحد -.

إلّا أنَّهم يتبنَّون نوعًا آخرَ من الشكوكية تسمَّى الشكوكية الدينية، وهي: «التشكيكُ في مبادئ دينية أساسيةٍ مثل: الخلود، والعناية الإلهية أو الوحي»(١). فالملاحدةُ الجدد ينكرونَ وجود الله، وبالتالي يشكُّون في جميع المبادئ الدينية ويشكّكون غيرهم فيها.

وقد امتلأتْ كتبهم بهذا النَّوع من الشكوكية. وإذا نظرنا إلى اثنين من أشهر كتب الملاحدةِ الجدد، وهي: وهمُ الإله (The God Delusion) لريتشارد دوكينز، والإلهُ ليس بعظيم (God is Not Great) لكريتسوفر هيتشن، نجد أنَّ أكثر هذين الكتابين يتضمَّن التشكيكَ في الأمور الآتية: أدلة وجود الله(٢)، نشأة الأديان(٣)، وأخلاقياتها(٤)، والآثار المترتّبة عليها(٥).

كما أنَّ شغل الملاحدة الشاغل في وسائل التواصل: إلقاءُ الشكوك في المبادئ الدينية والسخرية منها. فالشكوكيةُ الدينية والتشكيك في الأديان من أهمّ أسس الإلحاد الجديد.

ولكوْن الملاحدة الجدد يبنونَ العلم التجريبي على المذهب الطبيعي فإنهم ينتهجون الشُّكوكية العلمية (Scientific Skepticism) في موقفهم من كلِّ ما يخالف هذا المذهب. والشكوكيةُ العلمية حسبَ تعريفهم هي: «عملية - أو مشروع - دراسة الظواهر الخارقة أو الدَّعاوى من العلم الزائف بعدسة العلم التجريبي أو الدراسة النقدية، ثمَّ بيانها للجمهور»(٦).

---

(1) https://www.merriam-webster.com/dictionary/skepticism

(٢) انظر: The God's Delusion (100-190), God is not great (97-108)

(٣) انظر: The God's Delusion (190-240), God is not great (155-168), (123-138)

(٤) انظر: The God's Delusion (268-308), (349-387) God is not great (97-122)

(٥) انظر:
The God's Delusion (317-348), God is not great (15 36), (43-62), (173-194), (217-228)

(6) Why is there a Skeptical Movement (2), by: Daniel Luxton https://www.skeptic.com/downloads/Why-Is-There-a-Skeptical-Movement.pdf

وقد أسَّس الملاحدة عددًا من المراكز والجمعيات والمؤسسات من أجل هذا النوع مِن الشكوكية؛ منها: «مركز التحقيق» (Center of Inquiry) الذي اندمج مع مؤسسة ريتشارد دوكينز للعلوم والعقلانية[1]. وكذلك: «الجمعية الشكوكية» (The Skeptics Society) التي يرأسها: الملحدُ مايكل شريمير التي تحارب جميعَ النظريات العلمية التي تتعارضُ مع المذهب الطبيعي، وعلى رأسها: نظرية التصميم الذكي ومذهب الخلق.

وهذا له صلةٌ واضحة بالشكوكية الدينية وتشكيكهم المتديِّنين في أديانهم، واستبعاد جميعِ النظريات الدينية المؤيّدة للأديان.

وممّا يدلُّ على قوة صلةِ الشكوك بالإلحاد ما وردَ في سؤال في موقع ريتشارد دوكينز بعنوان: «هل شككتَ في إلحادك قط؟» فبدأ السؤال بـ«أعرف أنَّ هذا السؤال غريب لأنَّه الإلحاد كلُّه يتعلَّق بالشكوك...»[2]. فالإلحادُ بطبيعته مذهبٌ شكِّي، ودعاته يسعون جادِّين إلى تشكيك المتديِّنين في معتقداتهم.

ردودُ علماءِ الغرب على شكوكية الملاحدة الجدد:

حيث إنَّ شوكة الملاحدة قد قويتْ في الآونة الأخيرة، وكثرت كتاباتهم ومجادلاتهم تأثَّر كثيرٌ من النصارى الغربيين بهذه الشُّكوكية الدينية؛ فألحدَ عددٌ منهم ووقع غيرهم في الشُّكوك. وقد شعرَ علماءُ الغرب بسَريان هذه الشكوك إلى صفوف أتباعهم، وأحسُّوا بخطورةِ تشكيكات الملاحدة. ومِن الأمثلة على شعورهم بذلك ما كتب البروفسور سكوت هان والبروفسور وبنيامين ويكير في مقدِّمة كتابيهما: «الردُّ على الإلحاد الجديد» (Answering the New Atheism) - وهو مِن أشهر الردود على الإلحاد المعاصر - أنَّ سببَ كتابتِهما لهذا الكتاب هو وقوعُ طالبٍ جامعي في قسم علم اللاهوت في الشكِّ بسبب كتاب: وهم الإله، لدوكينز. وبعدَ ذلك عرفَا أنَّ

---

(١) انظر:
http://www.centerforinquiry.net/news/an_important_announcement_from_cfi_president_ronald_a._lindsay/

(٢) انظر:
https://www.richarddawkins.net/2013/01/have-you-ever-doubted-your-atheism/

الأمر جدٌّ حيث أن الشبهات الإلحادية تسرَّبت إلى طلابِ علم اللاهوت في أحدِ أرقى الأقسام اللاهوتية، فما بالُ الطلاب الآخرين[١]؟

والمواقعُ النصرانية مليئةٌ بالأجوبة على أسئلة نصارى حائرين بسبب شبهات الملاحدة الجدد[٢].

وهذا الأمرُ يرجع إلى أسباب؛ منها أنَّ النصرانية المحرَّفة - كما نعرفه معشر المسلمين - ديانة باطلة، يشتمل على كثيرٍ من الخزعبلات ومخالفات للعقل الرشيد والمنطق السليم؛ فلا غرابة أن يتسرَّب الشكُّ إلى ما هو باطل، لأن الحقَّ أبلج والباطل لجلج.

واللاهوتُ النصراني بطبيعته متشكِّك، ولا يكاد يوجد نصراني إلا ويقع في الشُّكوك؛ قال البروفسور وليام لاين كرايغ - ويعدُّ من أكبر المدافعين عن النصرانية أمام الملاحدة الجدد - : «لا بدَّ لكلِّ مسيحي يمارس دينَه بطريقة عقلانية ويتدبَّر في إيمانه أن يقعَ في شكٍّ»[٣]. وكتبَ القسيس مارك ليتيلتون[٤]: «الشكُّ يصاحب جميع المسيحيين، ولا يمكن أنَّ أحدًا فعلًا نجا منه»[٥].

---

(١) انظر: (٣ - ٢) Answering the New Atheism

(٢) ويكفي أن يكتب عن الشبهات في الإيمان باللغة الإنجليزية في محرّك بحثي مثل غوغل فيجد أسئلةً كثيرة من هذا القبيل، مما يدلُّ على الموجة الشكوكية الإلحادية التي أصابت المجتمعات الغربية.

(3) Hard Questions Real Answers (31)

(٤) مارك ليتيلتون (Mark Littleton) قسيس أمريكي سابق ولاهوتي، متخصِّص في الدفاع عن النصرانية. وقد ألَّف ٩٨ كتابًا، وقد بيع مجموعها أكثر من مليون نسخة. انظر:
https://www.marklittleton.com/

(5) Doubt Can Be a Good Thing (1)

وفعلًا، لا يكاد يسلمُ نصرانيٌّ من هذه الشكوك. فهذا هو البابا فرانسيس[1] - وهو البابا الحالي القائم على الكنيسة الكاثوليكية بأجمعها - سئل: «بابا، لديَّ شكوك في إيماني، فما العمل؟ وهل تقع في شكوكٍ أنت؟»، فأجاب: «لديَّ شكوك كثيرة، هناك أوقات يقع فيها كلُّ إنسان في شكٍّ»[2]. فإذا كان البابا - وهو خليفة المسيح في الأرض حسبَ زعمهم - يقع في الشُّكوك كثيرًا، فكيف بالأتباع المقلِّدين؟ وكيف إذا اشتدَّ هجومُ الملاحدة على النصارى بإيرادِ شبهة تلو الأخرى؟ إنَّ أرضية انتشار الإلحاد في صفوف النصارى خصبة!

وهذا الأمرُ يرجع إلى طبيعة الكتاب المقدَّس لدى النصارى، فقد ذكر هذا الكتاب أنَّ كثيرًا من المؤمنين وقعوا في أنواعٍ من الشبهات والشكوك[3]. وهؤلاء عندهم هم القدوةُ وصفوة الخلق، فكيف بمن دونهم؟!

وأمّا المسلمون فيختلف وضعُهم، وحيث يجد المؤمنُ في أوائل المصحف: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

ومعَ ذلك، فإنَّ علماء الغرب أهلُ تجربة طويلة وخبرة عميقة بالخطاب الإلحادي. واستطاعوا أن يصدُّوا هذه الظاهرة الخطيرة عن ملايين من أتباعهم، وسكّنوا شكوكهم المسترسلة. فالحقُّ يقال، إنَّ علماء الغرب قد تصدَّوا للخطاب الإلحادي بإيراد ردود قوية ومُفْحمة بذكر قواعدَ عامَّة في التعامل مع الشبهات

---

(١) البابا فرانسيس (Pope Francis): واسمه الحقيقي: خورخي ماريو بيرجوليو. عضو في الرهبنة اليسوعية، وكان رئيس أساقفة بوينوس أيرس، ثمّ انتخب ليكون بابا الفاتيكان عام ٢٠١٣ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Francis – I – pope

(2) http://catholicherald.co.uk/news/2016/11/23/pope-francis-weve-all-had-doubts-about-our-faith/

(٣) انظر: Dealing with Doubts (5 - 6)

وبردود تفصيلية مقنعة. أما الردودُ التفصيلية فليس هذا المبحثُ محلَّ بحثها، وسيأتي كثيرٌ من هذه الردود في الباب الثالث.

وأمّا القواعدُ العامة في التعامل مع الشبهات فقد أَلَّفوا فيها بعض الكتب النافعة مثلَ كتاب: «التعامل مع شبهات» (Dealing with Doubts) لغاري هابيرماس[١]. وقد أفرد وليام لاين كرايغ بابًا نفيسًا من كتابه: «أسئلة صعبة وأجوبة حقيقية» «Hard Questions Real Answers» في قواعد التعامل مع الشبهات[٢]. كما أن غيرهما كتبوا عن هذا الموضوع المهمّ. وكثيرٌ من هذه القواعد مفيدة وجيِّدة، يستفيد منها المسلمُ لخبرة علماء الغرب بنقدِ الخطاب الإلحادي؛ وأكتفي بإيراد سبعٍ من أهمِّ هذه القواعد هنا:

القاعدةُ الأولى: بتحديدِ الشُّبهة يسهل ردُّها:

ينبغي لمَن يتعامل مع مَن وقع في شبهات أن يحدِّد نوعَ الشبهة التي وقع فيها لكي يستطيع أن يردَّها؛ قال غاري هابيرماس: «من المهمِّ أن يحدِّد الشبهة التي يعاني منها الشخصُ لكي يستطيع أن يتعامل معها. والسببُ الرئيس لذلك هو أنه يوجد أنواع مختلفةٌ من الشكوك؛ فهي تشبه الأدوية التي تناسب علاجات مختلفة»[٣].

ثمَّ قسَّم الشبهات إلى ثلاثة أقسام:

القسمُ الأوَّل: الشبهاتُ الواقعية: وهي الشبهاتُ المتعلِّقة بأصول العقائد، مثل: الإيمان بالله، وحقيقة الوحي، والمبادئ الدينية[٤].

القسمُ الثّاني: الشُّبهاتُ العاطفية: وهذه الشبهات تنشأ بسبب عوارض نفسية مثل: الأمراض النفسية، والمشاكل في التربية، والرغبة في الشهرة، وقلة النوم، ضغط البيئة التي يعيش فيها إلى غير ذلك[٥]

---

(١) غاري هابيرماس (Gary Habermas): مدافع عن النصرانية أمريكي، وحامل شهادة الدكتوراه في تاريخ الأديان من جامعة ميشيغان في الولايات المتّحدة. انظر:
https://www.garyhabermas.com/vitainnuce.htm

(٢) انظر: Hard Questions Real Answers (31 - 42)

(3) Dealing with Doubts (9)

(٤) المصدر السابق (١٢ – ١٣).

(٥) المصدر السابق (١٣ – ١٤).

القسمُ الثّالث: **الشُّبهاتُ الإرادية**: وهي الشبهاتُ المتعلّقة بضعف الإيمان، أو أنه يكتفي بنفسِه ولا يتوكَّل على الله[1]. أو أنه يعرف الحق، ولكنَّه غير مستعدٍّ أن ينقاد له ويأخذ الخطوات المؤدِّية للتخلُّص من الشكوك[2].

وسيأتي الحديثُ عن التعامل مع الشبهات بأقسامها الثلاثة ضمن بعض القواعد. ولكنَّ المهمَّ في هذه القاعدة أنَّ الذي يعالج من وقع في الشبهات يحتاج أن يحدِّد الشبهة أولًا كي يضعَها في إطارها الصحيح، ويعرف كيفية التخلُّص منها. تحديد الشبهة أولًا قبلَ التخلُّص منها أسلوبٌ صحيح، وقد نبَّه عليه علماء الإسلام أيضًا[3].

القاعدةُ الثّانية: بمعرفةِ أصل الشُّبهة يسهل التعاملُ معها:

وذلك أنَّ الشبهات أصلها الذنوب، والسيئات بريدُ الشُّكوك. وقد الدكتور ذكر إرفين لوتزير[4] أنَّ الإنسان إذا عرف أنَّ أصل الشبهات من الذنوب فإنه بحاجة إلى ثلاثِ خطوات: التوبة من ذنبه، ومقاومة الشيطان الذي زيَّن له الذنب، والصبر في علاج الشبهة[5]. وذلك في حدِّ ذاته لا يقلُّ أهمية عن نقد الشبهة نفسها.

ولا شكَّ أنَّ هذا الأمر معلوم لدى المسلمين، فكان العلماء يقولون: «المعاصي بريد الكفر»[6]، وقد نبَّه الرسول ﷺ على علاقة الذنوب برين القلوب وأهمية الاستغفار

---

(١) المصدر السابق (١٦ - ١٧).

(٢) المصدر السابق (٥٤).

(٣) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١ / ٩٤)، ليحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي، (أضواء السلف، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ، ت. الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف).

(٤) إرفين لوتزير (Erwin Lutzer): قسيس أمريكي وحامل شهادة الدكتوراه في اللاهوت والماجستير في الفلسفة. انظر: www.moodychurch.org /erwin – lutzer

(٥) انظر:
You're Richer Than You Think, Chapter 9, by: Erwin Lutzer, (Victor Books 1978)

(٦) مدارج السالكين (٢ / ٢٧).

للتخلُّص منها، إذ قال: «إنَّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هوَ نزعَ واستغفر وتاب صقلَ قلبه، وإن عادَ زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكرَ الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]»[1]. والآيات التي تبيّن أن الشيطان هو الذي يزيِّن هذه الذنوب كثيرة، كما أنَّ الآيات التي تحثُّ الإنسان على الصبر كثيرة جدًّا. ولكن قد يغفلُ الداعي الذي يعالج المتشكِّك عن هذه القاعدة، ويهاجم الشبهة بغضِّ النظر إلى أصلها. فلو تابَ الإنسان من ذنبه، وقاوم الشيطان مصابرًا على ذلك؛ لربّما زال عنه الشكُّ بدون حاجة إلى نقضها تفصيليًّا.

القاعدةُ الثّالثة: الشكُّ ليس مشكلة عقلانية فقط:

قال البروفسور وليام لاين كرايغ عن القاعدة: «اعرف أنَّ الشكَّ لا يكون مشكلة عقلانية فحسب، بل هناك بُعدٌ روحاني للمشكلة وهو ما يجب الاعتراف به. لا تنس الحقيقة أنَّك متورِّط في حرب روحانية، وأنَّ عدوَّ روحك يبغضك بغضًا شديدًا، وهدفه هو تدميرُك، ولا ينتهي من حربه حتى ينهيك... الشكُّ ليس قضية متعلّقة بمناظرات أكاديمية أو مناقشات بلا مبالاة؛ إنَّها معركة متعلّقة بروحك، وإن كان الشيطان يستطيع أن يشلَّ حركاتك أو يدمِّرك فإنه سيفعل ذلك»[2].

وهذه القاعدة كسابقِها من الوضوح بمكان للمسلم، فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تبيِّن أننا في معركةٍ مستمرَّة مع الشيطان متكاثرة. فالشيطان يسعى سعيًا حثيثًا من أجل إضلال بني آدم من جوانب الجوانب. ومَن وقع في شبهات وشكوك بحاجةٍ إلى تذكير بهذه القاعدة، حتى يتَّخذ الأسباب الشرعية من أجل التخلُّص من وساوس الشيطان وطرقه لإضلال الإنسان.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (٣٣٣٤)، أبواب تفسير القرآن، باب سورة المطففين، (٥/ ٤٣٤). وأخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٤٤)، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، (٢ / ١٤١٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.
وقال الترمذي: (هذا حديث حسن صحيح)، وحسّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤١)، (٣/ ١٢٢).

(2) Hard Questions Real Answers (33)

القاعدةُ الرّابعة: الشبهاتُ الواقعية تُدفَع بالأدلة والبراهين:

سبقَ البيان أنَّ الشبهات تنقسم إلى أقسام، منها الشبهات الواقعية المتعلّقة بأصل الاعتقاد. وهذه الشبهاتُ في الغالب تكون مدعَّمة بشيء من الأدلة - وإن كانت أدلة باطلة وغير صحيحة -. فعلى سبيل المثال يستدلُّ الملحد بنظرية التطوّر للقدح في دليل التَّصميم. هذا الاستدلال في حدِّ ذاته باطل - كما سيأتي تفصيله في الباب الثالث إن شاء الله -، ولكنَّها شبهة في ظاهرها مدعَّمة بدليل. ففي هذه الحالة يحتاج مَن يعالج الشُّبهة أن يردَّها بالأدلة والبراهين كما نبَّه عليه غاري هابيرماس في كتابه التعامل مع الشبهات[١].

ومِن الأخطاء الشائعة اليوم عندَ بعض مَن يحاول أن يعالج المتشكّك الذي لديه شبهاتٌ واقعية أنه يأمرُه بالإعراض عنها فقط، أو أنَّه يردُّها بأدلة ضعيفة لا تدفع الشُّبهة. ومَن فعل ذلك فلم يعطِ الموضوع حقَّه؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): «فكلُّ مَن لم يناظر أهلَ الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقَّه، ولا وفَّى بموجبِ العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس، ولا أفادَ كلامه العلم واليقين»[٢].

القاعدةُ الخامسة: الشُّبهاتُ العاطفية والإرادية لا تعالَج بتقديم الأدلة فقط:

الشبهاتُ العاطفية والإرادية تختلفُ عن الشبهات الواقعية، لأنها تحمل بُعدًا آخر غير الشُّبهة المذكورة بدليلها، وهو البُعد النفسي في الإنسان. فالشخصُ الذي وقع في الشُّبهات العاطفية لا تهمُّه الأدلة والحقائق بقدر ما يهمُّه التعامل مع هذه المشاكل النَّفسية. ومن الخطأ أن يحاولَ الذي يعالج الشُّبهة أن ينقض بأدلة علمية وعقلية ويظنّها كافية؛ قال الدكتور غاري هابيرماس: «التعاملُ مع الشكِّ هو مشروع متعدّد التخصُّصات. وفي حال الشبهات الواقعية يحتاجُ إلى شخص متخصِّص

---

(١) انظر: Dealing with Doubts (26)

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٦٤ - ١٦٥).

في الدفاع عن الدين أو الفلسفة، فإنَّ الشبهات العاطفية والمزاجية بأكثر حاجةً إلى الطبيب النفسي، وطبيب الأمراض العقلية أو مستشار»[1].

وإنْ كانت هذه الشبهاتُ عاطفية فإنها تتنكَّر في كثير من الأحيان بلباس الحجج العقلية؛ قال الدكتور غاري هابيرماس: «هذه الشبهاتُ في الغالب تتنكَّر بلباس الشُّبهات العقلانية، ولا تُظهر في أوَّل وهلة أساسَها العاطفي المقنَّع. وقد يظهر ذلك بالسؤالِ الدَّقيق عن معتقدات ذلك الشخص... وحسب تجربتي، فإنه قد يُظهر الانحرافات عندَه بسرعة وهي تبيِّن حقيقة الشبهة، وأن الشبهات العقلية ليست هي الأساسية عنده»[2].

ومما يدلُّ على أنَّ الإنسان عنده شكوك عاطفية أو إرادية هو أنه لا يقتنع مهما بلغتْ قوَّة الرَّد، بل يسترسل في الشبهات؛ قال الدكتور غاري هابيرماس: «إذا كان لا يوجد أيُّ حجم من الأدلة المقنعة (التي يعترف المشكِّك أنها قوية) التي يمكن أن يجعله يطمئن، حتَّى إذا كانت الحجج تقدَّم بطريقة صحيحة، بل يستمرُّ في الكلام عن المشاكل التّافهة، ويُظهرها مرةً تلو الأخرى فإنَّ هذا يظهر في الغالب أن الشكَّ أساسه عاطفي أو إرادي»[3].

فالمصابُ بشُبهات عاطفية بحاجةٍ إلى معرفة أصل المشكلة قبل نقض الشبهة. وقد ذكرَ الدكتور أوس غينيس[4] أنَّ الإنسان إذا شعر بأنَّ المشاكل النفسية المسبّبة للشبهات هي قلَّة النوم مثلًا فلا بدَّ من علاج هذه المشكلة من جهتين:

الجهةُ الأولى: أن يشبع نفسَه من النوم.

الجهةُ الثّانية: تقوية إيمانه وتدريبه حتَّى لا يكون عرضة للعواطف[5].

---

(1) Dealing with Doubts (3)

(٢) المصدر السابق (٣٦)

(٣) المصدر السابق (٣٦ – ٣٧)

(٤) أوس غينيس (Os Guiness): – حاملُ شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية –، كاتب وناقد اجتماعي بريطاني، وقد صنَّف أكثر من ثلاثين كتابًا. انظر:
https://www.rzim.org/speakers/os-guinness

(٥) انظر: In Two Minds: The Dilemma of Doubt & How to Resolve It (163-167)

بينما الذي وقعَ في شبهات إرادية بحاجةٍ إلى تقوية إرادته وإيمانه قبل الدخول معه في نقد الشبهات بالتفصيل[1].

القاعدةُ السّادسة: الاعترافُ بقصورِ العقل والمعرفة:

المشكلةُ مع بعض مَن يقع في الشبهات أنه مصابٌ بداء الكبر والعجب بالنفس، فيقعُ فيما ذكره الله: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس: ٣٩]. فينبغي أن يذكّر من يقع في الشبهات بقصورِ علم الإنسان كما قال تعال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وذكر البروفسور وليام ألستون[2] أن العقل الإنساني أسير ستة معوّقات:

المعوِّقُ الأوَّل: قصورُ المعلومات (Lack of data): وهي تبدأ من أسرار القلب البَشري إلى عناصر الكون وتكوينه، وتشمل الماضي السحيق والمستقبل الآتي.

المعوِّقُ الثّاني: تعقيدُ أكبر من إدراكنا (Complexity greater than we can handle): الموضوع متداخلُ العناصر على صورةٍ أعظم من طاقتنا على التفكيك والإدراك.

المعوِّقُ الثّالث: صعوبةُ تحديد ما هو مُمكن أو ضروري ميتافيزيقيًّا (Difficulty of determining what is metaphysically possible of necessary): عالم الماورائيات هو عالم يقعُ خارج دائرة إدراك التفكير البشري، ونحن لا نعرف عنه غيرَ القليل، مما تدلُّ عليه قرائنُ الوجود المادي، ولا يبقى بعدَ المعارف المتلقَّاة من الوحي مصدر آخر لفهم هذا الوجود المتنائي عن إدراكنا.

---

(١) انظر: Dealing with Doubts (64 - 65)

(٢) وليام ألستون (William Alston): بروفسور الفلسفة في جامعة ميشيغان بالولايات المتَّحدة. وهو متخصِّص في فلسفة اللغة ونظرية المعرفة، ويعتبر أحدَ أبرز الفلاسفة النصارى في العصر الحاضر. انظر:

http://faculty.wwu.edu/~howardd/alston/alstonforthoemmes.pdf

المعوِّقُ الرّابع: جهلُنا بالقائمة التامَّة للممكنات (Ignorance of the full range of possibilities): تواجهنا هذه المشكلة عندما نبحثُ عن نتيجة سلبية (للنفي لا للإثبات)؛ فنحنُ مطالبون هنا باستحضار جميع الممكنات لاستنباط نتيجة من نفيها.

المعوِّقُ الخامس: جهلُنا بالقائمة التامَّة للقيم (Ignorance of the full range of values): استخلاص دلالة إيجابية من الفعل البشري أو الحدث الكوني لنفي أنه شرٌّ أو النَّظر إليه سلبًا على أنَّه شرٌّ يقتضي إدراكًا لجميع القيم الإيجابية أو السلبية التي من الممكن أنه تتّصل بهذا الفعل.

المعوِّقُ السّادس: حدودُ ملكاتنا في شأن تقديم أحكامٍ قيمية كاملة (Limits to our capacity to make well considered value judgments): تظهر أساسًا في صعوبة إصدار أحكامٍ مقارنةً بشأن قضايا كبرى معقَّدة[1].

وذكرُ هذه المعوقات الستة للمُلحد المتكبِّر طريقة جيِّدة؛ لأنَّه قد يؤدّي إلى كونه يتواضع أمامَ الحجج والبراهين التي يذكرها المؤمن.

القاعدةُ السّابعة: إذا عملَ العقلُ في إطاره الصحيح فيسهل التعاملُ مع الشَّك:

هذه القاعدةُ لها صلةٌ بما قبلها؛ فإذا اعترف الإنسانُ بقصور عقله فإنه ينبغي أن يضعَه في إطاره الصحيح، وبذلك ينجو من كثيرٍ من الشبهات؛ قال البروفسور وليام لاين كرايغ عنْ هذه القاعدة: «مادام العقلُ يعمل في وظيفته الحقيقية فإنَّ الثقة الروحانية لإيماننا لا تتزعزع»[2].

وهذا الكلامُ صحيح، والمشكلة إذا أقحمَ المرءُ نفسه فيما لا مجال للعقل فيه مثل الخوض في تفاصيل الغيبيات بالعقل المجرَّد؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية

---

(١) انظر: The Inductive Problem of Evil, in Philosophical Perspectives 5, 59 - 60
وانظر كتاب: مشكلة الشرّ ووجود الله (١٥٤ – ١٥٥)، للدكتور سامي عامري، (مكتبة تكوين، الطبعة الثانية، ١٤٣٧ هـ).

(2) Hard Questions, Real Answers (38)

(رحمه الله): «فما أخبرت به الرسلُ من تفاصيل اليوم الآخر، وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمُه الناس بعقولهم، كما أنَّ ما أخبرت به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمُه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جُمل ذلك»[1].

وقد سبق أنَّ الرسل يخبرون بمحارات العقول ولا يخبرون بمحالات العقول؛ قال شيخُ الإسلام (رحمه الله): «والعقلُ الصريح دائمًا موافقٌ للرسول ﷺ لا يخالفه قط فإنَّ الميزان مع الكتاب، واللهُ أنزل الكتاب بالحقِّ والميزان؛ لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفةِ تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعلمونَ بعقولهم بطلانه؛ فالرسل - صلواتُ الله وسلامه عليهم - تخبر بمحارات العقول لا تخبر بمحالات العقول»[2].

وخلاصةُ الباب أنَّ الإلحاد مذهب مبنيٌّ على الشكوكية، ويسعى دعاته إلى تشكيك الآخرين في معتقداتهم. وقد أصابَ النصارى كثيرٌ من هذه الشكوك، ولكنَّ علماءهم تصدُّوا لشبهات الملاحدة، وذكروا بعضَ القواعد النافعة التي يمكن أن يستفيد منها المسلم في هذا الباب.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١١٥).

(٢) المصدر السابق (١٧ / ٤٤٤).

المبحثُ الخامس
تعظيمُ الصُّدفة

إنَّ الملاحدةَ الجدد يقعون في مشكلة كبرى عندما يتظاهرون بمحبَّة العلم التجريبي والعقلانية، معَ إنكارهم لوجود الله. وذلك أنَّ العلم التجريبي يدلُّ على أن الكون قد ظهرَ بعد أنْ لم يكن موجودًا وفقَ قوانين فيزيائية دقيقة جدًّا، كما أنه يدلُّ على التعقيد الشَّديد للحياة. والمنطقُ السليم يقتضي أنه لا يمكن ظهورُ مخلوق معقَّد إلّا بخالق. ومن هنا يلجأ الملاحدةُ إلى تعظيم الصدفة، وأنَّ المستحيل عقلًا يمكن أن يحدث صدفة[١].

والملاحدةُ يجعلون الصدفة مسئولًا عن ظهور جميع المخلوقات؛ قال البروفسور الملحِد جاك مونو[٢]: «الصدفةُ وحدها هي مصدرُ كلِّ هذا الابتكار في جميع المخلوقات»[٣].

وقد استبدلوا الحديثَ عن العناية الإلهية بالصدفة، وبالغوا في قدراتها حتى قاربوا عبادتها؛ قال البروفسور بيير بول غراسي[٤]: «تصبح الصدفة نوعًا من

---

(١) الصدفة (Chance): حدوثُ وقائع بدون إرادة أو سبب ظاهر. انظر:
https://en.oxforddictionaries.com/definition/chance

(٢) جاك مونو (Jacques Monod): بروفسور الكيمياء الحيوية الفرنسي، والحائز على جائزة نوبل في الطبّ عام ١٩٦٥م. مع زميل له. توفي عام: ١٩٧٦م. انظر:
https://www.britannica.com/biography/Jacques-Monod

(3) Chance and Necessity,(110) (Collins, 1972)

(٤) بيير بول غراسي (Pierre – Paul Grassé): بروفسور علم الحيوان، فرنسي، والرئيس السابق لأكاديمية العلوم الفرنسية. وقد ألَّف أكثر من ٣٠٠ إصدار، منها موسوعة حيوانية في ٥٢ مجلدًا. توفي عام: ١٩٨٥م. انظر:
https://www.goodreads.com/author/show/2424183.Pierre_P_Grasse

العناية الإلهية التي لا يتمُّ استدعاؤها فقط تحتَ غطاء الإلحاد، بل وعبادتها سرًّا أيضًا»[1].

وداعي الإلحاد الجديد ريتشارد دوكينز مِن أكثر مَن يعظِّم الصدفة ويتحدَّث عنها، ولا سيَّما في كتابه: «صانع الساعات الأعمى» (The Blind Watchmaker)، عند حديثه عنْ لغز أصل الحياة. ولا يخفى على دوكينز - وهو بروفسور في علم الأحياء - مدى استحالةِ ظهور الحياة مُصادفة؛ فأخذ يقرِّر في هذا الكتاب أن ظهور الحياة صدفة كان مُعجزة، ولكنَّ المعجزات قد تحصل في بعض الأوقات، وإن كانت نادرة الحدوث؛ فقال: «المعجزة عبارة عنْ شيء مُمكن الحدوث، ولكنَّ حدوثه مفاجئ جدًّا. فإذا لوّح تمثالٌ رخامي لمريم العذراء بيدِه تجاهنا فعلينا اعتبارُ ذلك معجزة، لأنَّ كلَّ خبراتنا ومعارفنا تؤكِّد لنا عجزَ الرخام عن هذه الحركة»[2]. لكنَّه يتابع ليطمئن القارئ بأنّ العلم التجريبي لن يحكمَ على هذه الحادثة كـ«مستحيلة تمامًا»، ولكنها فقط «غير محتملة الحدوث للغاية»[3].

ثمَّ قال بعد ذلك: «فيما يتعلَّق بالتمثال الرخامي، فإن الجزيئات تتدافع في الرخام الصُّلب فيما بينها باتجاهاتٍ غير محدَّدة باستمرار: ويلغي التدافع بين الجزيئات المختلفة بعضها بعضًا، فتبقى يدُ التمثال ثابتة. ولكن، لو حدث - بصدفة مطلقة - أنَّ جميع الجزيئيّات تتدافع إلى اتِّجاه واحد في اللحظة نفسِها فستتحرَّك اليد. ففي هذه الحالة يمكن أن يلوِّح التمثال الرخامي. من الممكن أنْ يحدث هذا الأمر، ولكن الاحتمالات المعاكسة لمثلِ هذه المصادفة يصعب تخيُّلها، ومع ذلك فإنه يمكن عدُّها. قام زميلٌ فيزيائي بحسابِ ذلك لي، ووجد أنّ عددَ الاحتمالات كبيرٌ جدًّا بحيث أنَّ عمر الكون حتَّى يومنا هذا صغير جدًّا لا يكفي لكتابة كلِّ الأصفار! من الممكن نظريًّا أن بقرة تقفزُ فوق القمر بمثل هذه الاحتمالات الضعيفة. إنَّ خلاصة

---

(1) Evolution of Living Organisms (107), by: Pierre P. Grasse, (Academic Press, 1977)

(2) The Blind Watchmaker (159), by: Richard Dawkins, (Norton, 1996)

(٣) المصدر السابق.

هذا الجزء من النقاش أنه يمكن أن نستعملَ الحساب للوصول إلى مناطقَ من ضآلة الاحتمال بشكل أكبر بكثير ممّا نستطيع أن نتخيله معقولًا»[1].

وذكرَ أيضًا أنّ فرضيته بأنّ الأحداث التي يشيع ذكرها بأنها معجزات ليست أمورًا خارقةً للطبيعة، لكنَّها جزءٌ من سلسلة الأحداث الطبيعية الأكثر أو الأقلّ احتمالية. فالمعجزةُ في نظرِه مجرّدُ ضربة حظٍّ مُبهرة. فيرى أنَّ الأحداث في الحقيقة لا تنقسم إلى طبيعيَّة ومعجزات، وقال: «بمجرَّد إعطاء وقتٍ أو فرصٍ غيرِ محدودة، فإنّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث»[2]. وبمثْل هذه التقريرات يفتح البابَ أمامَ نفسه وأتباعه أنَّ الأحداث التي تبدو مُستحيلة في العلم التجريبي ممكنة الوقوع في حالات نادرة.

وفي كتابِه «وهم الإله» ذكر أنَّ عددَ الكواكب في الكون تعدُّ مليارات المليارات،،إذا كانت احتمالات تولُّد الحياة مصادفةً على كوكبٍ ما واحد إلى مليار؛ فإنَّه يمكن أنه يحصُل في مليار كوكب[3].

ويذكرُ الملاحدة - ومنهم دوكينز[4] - نظريةً مشهورة في بيان أنَّ الصدفة قد تنتج النظام والتَّعقيد، وهي: «نظرية القرد اللامحدودة» (Infinite Monkey Theorem). وخلاصتها: إنَّ قردًا يطبع على آلة كاتبة بشكلٍ عشوائي، ولمدَّة غير محدودة، سينتج وبشكل شبه مؤكَّد نصًّا معينًا مثل الأعمال الكاملة لشكسبير[5].

فالوقائعُ التي تبدو مستحيلة - مثل ظهور الحياة على كوكب الأرض وغيره - قد تحدُث مصادفةً حسب هذه التقريرات الإلحادية، وليس هناك أيُّ حاجة لوجود خالق.

---

(١) المصدر السابق (١٥٩ - ١٦٠)

(٢) المصدر السابق (١٣٩)

(٣) انظر: The God Delusion (137 - 138)

(٤) انظر: The Blind Watchmaker (45 - 50)

(٥) وليام شكسبير (William Shakespeare): شاعر ومسرحي بريطاني، ويعتبر أحد أشهر أدباء التاريخ. توفي عام: ١٦١٦م. انظر: Brittanica Concise Encyclopedia (1731)

ردودُ علماء الغرب على تعظيم المَلاحدة للصُّدفة:

حيث إنَّ قضية تعظيم الصَّدفة قد تبوَّأت منزلة رفيعة عند الملاحدة فإن علماءَ الغرب اعتنوا بهذا البابِ عناية كبيرة، وردُّوا عليهم بردودٍ قوية مفحمة. وتتلخَّص ردودهم في ثلاثٍ نقاط:

النُّقطةُ الأولى: الردُّ على تأليه الملاحدة للصدفة.

النُّقطةُ الثّانية: الردُّ على مُبالغات الملاحدة في موقفهم من الصدفة.

النُقطةُ الثالثة: الردُّ على نظرية القرد اللامحدودة.

وبيانُ ذلك كما يلي:

- **النُّقطةُ الأولى: الردُّ على تأليه المَلاحدة للصُّدفة:**

مَن تأمَّل كلامَ الملاحدة في الصدفة تأمُّلًا دقيقًا يجد أنَّهم يقدِّسونها ويعطونها صفات إلهيَّة. وقد ناقش البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور سكوت هون هذه القضيةَ بكلام وافٍ إذْ قالا في كتابيْهما: «الردُّ على الإلحاد الجديد» (Answering New Atheism)[١]: «كما رأينا، نمتِ الصدفةُ لدرجة فظيعة عندَ دوكينز بمحاولته تفسير إمكانية حدوث أيِّ شيء بها. السببُ، كما رأينا، هو أنَّ دوكينز يريد استخدامَ الصدفة كبديل للرب فيما يتعلَّق بأصل الحياة؛ ولذلك فلا بدَّ أن تكون الصدفةُ تمتلك قوى الرب وتحلُّ محلَّه، وأصبحتِ الصُّدفة ربًّا يستطيع القيام بأيِّ شيء»[٢].

والصدفةُ ليست بكائنٍ حتى تستطيع أن تخلق شيئًا، وقد بيَّنَا ذلك إذْ قالا: «ما هو هذا الربُّ المدعو بالصدفة؟ كيف يستطيع أن تكون علَّة قوية يملك قوَّة بحيث تستطيع استبدالَ الحاجة لربٍّ خالق ذكي[٣] قادرٍ حي؟ كما أشارَ أرسطو منذ زمن بعيد للماديّين في عصره

---

(١) وهما أكثرُ مَن أرجع إليهما في نقدِ أطروحات دوكينز في الصدفة، فقد قامَا بردودٍ ساحقة وقوية تستحقُّ الرجوع إليها رغم طولها في بعض المواطن.

(2) Answering the New Atheism (22)

(٣) هكذا قالا، وأما المسلمون فليس من منهجهم أن يصفوا الله تعالى بما لم يثبت في الوحي، ومن ذلك: صفة الذكاء.

- الذين بجَّلوا تغيراتِ الصدفة بشكل مماثل لدوكينز - بأنَّ الصدفة ليستْ سببًا لحدوث شيء لأنَّها ليست بشيء في الحقيقة. قد يحدث شيء صدفة، ولكنْ ما يهمُّنا هنا هو: ما هو هذا الأمرُ الذي حدثَ صدفة؟ لأنَّه يخبرك عن الشيء الموجود في الحقيقة ويحدِّد ما تعنيه بالصُّدفة. ولكن حتَّى هنا، فإنَّ الصدفة ليست بشيء موجود في الحقيقة»[١].

ومعَ أنَّ الصدفة ليست بكائن فاعل، فإنَّ دوكينز - ومَن معه من الملاحدة - عندهم إيمانٌ راسخ بقواها؛ قال بنيامين ويكر وسكوت هون: «نعتقدُ أنَّه من العدل أن نقول: إنَّ قوَّة إيمان دوكينز بقوى الصُّدفة مماثلة لقوَّة إيمان معظم البشر بوجود الرب، وإن لم يكنْ إيمانه أقوى»[٢].

وخلاصةُ الأمر أنَّ الملاحدة - وعلى رأسهم دوكينز - قد هربوا من الإيمان بالإله إلى الإيمانِ بالصدفة كما قال بنيامين ويكر وسكوت هون: «فلماذا إذن هذا الإخلاص لهذا الإلهِ العظيم المتقلِّب، الصدفة؟ بكلِّ بساطة، يفضِّل دوكينز الإيمان بأيِّ شيءٍ عدا الإله»[٣].

- **النُّقطةُ الثّانية: الردُّ على مُبالغات الملاحدة في الصدفة:**

تتلخَّص ردودُ علماء الغرب على مُبالغات الملاحدة في الصدفة في خمسة أوجه:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يبالغون كثيرًا في أثرِ الصُّدفة في إنتاج الأشياء؛ فمجالات الصُّدفة العمياء محدودة جدًّا؛ لأنَّ الأمرَ الذي يحصل صدفة يكون عشوائيًّا، ولا يكون منظَّمًا؛ فالتعقيدُ والنظام يتناقضان معَ الصدفة والعشوائية. وقد ذكر هذا الأمر أحدُ أشهرِ الباحثين في أصل الحياة، وهو البروفسور ألكسندر غراهام كارنس سميث[٤] إذ قال: «إنَّ

(١) المصدر السابق (٢١)

(٢) المصدر السابق (١٩)

(٣) المصدر السابق (٢١)

(٤) ألكسندر غراهام كارنس (Alexander Graham Cairns Smith) بروفسور الكيمياء الحيوية في جامعة غلاسغوف في إسكتلندا. كان أحدَ أبرز العلماء المتخصِّصين في أصل الحياة. توفي عام ٢٠١٦ م. انظر: https: / /www.scotsman.com /news /obituary - alexander - cairns - smith - scientist - 1466822

الصدفة العمياء... محدودة جدًّا. فبإمكانك أن تنتجَ بسهولة كبيرة الحروفَ والكلماتِ الصغيرة المكافئة، لكنها ستصبح عاجزة سريعًا جدًّا كلما ازداد مقدار التَّنظيم. وبشكلٍ سريع جدًّا تصبح فتراتُ الانتظار الطويلة والموادّ المادية الضخمة غير مفيدة»[١].

الوجهُ الثّاني: قد لبَّس دوكينز على قرّائه حين عرَّف المستحيل بأنه «غير محتمل للغاية، معَ إمكان ضئيل جدًّا لوقوعه». وقد ردَّ عليه البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور وسكوت هون على هذا التَّلبيس عندما ذكرَا أنه يجب علينا تبيانُ الفرق بين المستحيل وغيرِ المحتمل بشكل أوضح، وهو فرقٌ فَقَدَ دوكينز القدرةَ على شرحه. هذا توضيح بسيطٌ على شكل سؤالين:

ما هو احتمالُ «الحصول على توزيعة مثالية للأوراق في لعبة البريدج، حيث يستقبل كلٌّ مِن اللاعبين الأربعة مجموعة كاملة من الأوراق؟[٢]»

ما هو احتمالُ الحصول على بيتٍ ورقي مؤلَّف من أربعة طوابق، كلُّ طابق يحوي أوراقَ مجموعة كاملة من الورق، بعدَ رميها في الهواء أثناء إعصار؟

وذكرَا أنَّنا نستطيع حسابَ الاحتمال الأوَّل، وقد قام دوكينز بذلك حين ذكر أنّ: «الاحتمالات مقابلَ حصول ذلك هي: ١ إلى ٢٢٣٥١٩٧٤٠٦٨٩٥٣٦٦٣٦٨٣٠١٥٥٩٩٩٩»[٣].

أمّا ترتيبُ مجموعات الورق ضمنَ الإعصار، فاحتمالاتُ الحدوث ليست بذاك القدر، أو حتَّى ليست أقلَّ من ذلك بكثير، ليس هناك احتمال لها على الإطلاق، فهي غيرُ ممكنة الحدوث، بل مستحيلة فيزيائيًّا. وكذلك التدافع العشوائي للذرات في يد التمثال الرخامي أو قفز البقرةِ إلى القمر. فالقسمُ الأخير يعدُّ مستحيلًا. وأما توزيع موزِّع ورق البوكر لخمسة أص من مجموعة ورق

---

(1) The Life Puzzle (95)

(٢) مثال استخدمه دوكينز نفسه، لذلك لا يمكن اتهامنا بالغش بمجموعة الورق في:
The Blind Watchmaker (161)

(٣) انظر: المصدر السابق.

نظامية حيث لا تحتوي إلّا على أربعة أص؛ فهي غيرُ محتملة الحدوث (إلّا إذا قبلنا الإمكانية المملَّة التي اقترحها دوكينز بحدوث إعادةِ ترتيب ذري لورقةِ جوكر وتحوّلها لورقة أص خامسة)[1].

الوجهُ الثّالث: يعتقد الملاحدةُ المعاصرون أنَّ الكون وكلَّ ما فيه له بداية محدّدة؛ فكما أنَّ للكون بداية، فكذلك للأرض بداية، وبالتالي فإنَّ ظهور الحياة على هذه الأرض لها بداية أيضًا. إذًا، الوقتُ لظهور الحياة في الأرض محدَّد في فترة زمنية معيّنة، ولا يمكن إعطاؤه وقتًا لامحدودًا؛ قال البروفسور بنيامين ويكر والبروفسور سكوت هون في بيانِ هذه النقطة: «يقدِّم التاريخ الفعلي للحياة على كوكب الأرض معضلةً أكبر بكثير: فالوقت قصيرٌ جدًّا لتكون الصُّدفة هي المسبِّب الحقيقي. المشكلة كما نستذكر ليستْ فقط أنَّ الكون له عمرٌ محدد، بل إنَّ الخلايا الأولى قد ظهرت على كوكب الأرض بمجرَّد أن أصبحت ظروفُ تواجدها مناسبة. وكما نعلم فإنَّ دوكينز سيقول: «يا له من حَظ!» ولكنَّ ذلك حظٌّ مشابه لقيام تمثال مريم العذراء بالتلويح بيديه (إذا أسميناه حظًّا أساسًا ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

وكوْن الزمن غيرَ أزلي هو أمرٌ لا يأخذه الملاحدةُ في الحسبان عند ضربهم الأمثلة للصُّدفة. ويتبيَّن ذلك من قول دوكينز - الذي سبق ذكرُه - : «فبمجرَّد إعطاء وقتٍ أو فرصٍ غير محدودة، فإنَّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث». فليس هناك شيء اسمه: وقت غير محدودٍ أو فرص غير محدودة؛ فقولهم بأنَّ ظهور الحياة على الأرض له بداية زمنية يشكِّل معضلة كبرى لهم.

الوجهُ الرّابع: إنَّ دوكينز - ومَن معه من الملاحدة التطوُّريين - يعتقد أنَّ الاصطفاء الطبيعي عمليةٌ عمياء غير واعية؛ فإنَّه قد قال: «الاصطفاءُ الطبيعي: هو العملية العمياء والأوتوماتيكية وغيرُ الواعية... ونعلم الآن أنَّه التفسير الجليُّ لوجود جميع أشكال

---

(١) انظر: Answering the New Atheism (16)

(2) Answering the New Atheism

الحياة الهادفة. هذا الاصطفاءُ ليس له هدفٌ يعقله، بل ليس له عقل أصلًا... وهو لا يخطط للمستقبل، وليس له رؤية ولا بصيرة، ولا بصرٌ على الإطلاق»[١].

وهذا الأمرُ يضيف مشكلة إلى المشكلة السابقة، وهي أنَّ هذه الصدفة لا تعمل بإرادةٍ واعية أصلًا، وهذا الأمرُ لا بدَّ أن يبقى في الحسبان عند ضرب الأمثلة على قدرة الصُّدفة. وقد بيَّن البروفسور بنيامين ويكير والبرفوسور سكوت هون هذا الأمر بأنه بينما يقدرُ الرب أن يخلقَ بشكل مباشر أو بأيِّ فترة زمنية يريدها، فإنَّ الصدفة تحتاج وقتًا طويلًا جدًّا جدًّا جدًّا لإنجاز أبسط النواتج. وسببُ ذلك هو استطاعة الكائنات الذكية الاختيارَ بذكاء. وأمّا الصدفة فهي الغيابُ التّام للذكاء والاختيار. وذكرا أنهما يستطيعان توضيحَ هذه النقطة بإعادة طرحِ مثال دوكينز المتعلّق «بالحصول على أوراق كاملة بلعبة البريدج، حيث يستقبل كلُّ لاعبٍ من اللاعبين الأربعة مجموعة مناسبة كاملة من الأوراق». وإذا أردنا التأكُّد بأنّنا وزَّعنا أوراقًا كاملة من المرة الأولى، نستطيع ببساطةٍ «ترتيب الورق»، ونختار أن نضعَ الأوراق التي نريدها في المقدمة بكلِّ ذكاء. لكن إذا أردنا تركَ ذلك للصدفة دون تدخُّل عقولنا في الاختيار سنقوم بخلط الأوراق، ونراقب كمْ سنستغرق وقتًا للحصولِ على مجموعة أوراق كاملة عند اللاعبين الأربعة. (في الواقع، إذا أردنا تركَ ذلك للصدفة المحْضة، سنترك مجموعةَ الورق هناك ببساطة، ونرجو أنْ تخلطها الريحُ أو يحدث لها أمرٌ مفاجئ). فالمشكلة هي، كما أقرَّ دوكينز، بأنَّ احتمالات حدوث هذا الشيء هي ١ إلى ٢٢٣٥١٩٧٤٠٦٨٩٥٣٦٦٣٦٨٣٠١٥٥٩٩٩٩. ماذا تعني اللااحتمالية الهائلة هذه إذا ربطناها معَ الزمن؟ حسنًا، هناك ٣١٥٧٠٥٦٠ ثانية في السَّنة. وعُمر الكون في نظر دوكينز ٤٢٦٢٠٢٥٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ثانية. وإذا استطاع الحاسوب حسابَ جميع التوليفات الممكنة للأوراق للاعبين الأربعة خلال دور واحدٍ بكلِّ ثانية بطريقة ما، سيأخذ ذلك أكثرَ من خمس مليارات ضعف من عمر الكون حسبَ نظره للمضي في هذا الاحتمال![٢].

---

(1) The Blind Watchmaker (5)

(٢) انظر: Answering New Atheism (25)

الوجهُ الخامس: يذكرُ دوكينز احتمالاتٍ ضئيلة جدًّا عند حساباته المتعلّقة بالصُّدفة، مع أنَّ علماء الرياضيات في العادة يروْن أنَّ الشيء ذا الاحتمالية الأقل من ١ / ١٠^٥٠ يعتبر استحالةً رياضية[١]. وهذا الرقمُ مبنيٌّ على ما يسمَّى بقانون بوريل (Borel's law) نسبةً إلى البروفسور إيميل بوريل[٢] وإليه ينسب كثيرٌ من قوانين الرياضيات[٣].

وعلى فرضِ التسليم بأنَّ قانون بوريل قانون أغلبي، ويمكن أن يستثنى من هذا الأصل بعضُ الأمور، فقد حسبَ الدكتور وليام ديمبسكي أن أقصى الاحتمالات المُمْكنة قطعًا هو ١٠^١٥٠. وقد ذكر أنَّ هذا الرقم مبني على ثلاثة أمور[٤]:

١) عددُ الجسيمات الأوَّلية في الكون المشاهد هو ١٠^٨٠.

٢) أقصى معدَّل في الثانية التي يمكن أن تحصل التحوّلات في الحالات المادية هو ٤٥ – ١٠.

٣) عمرُ الكون في الثواني المضاعف بليون مرَّة هو ١٠^٢٥.

وسمَّى هذه النظرية للاحتمالات: «نظرية الاحتمالات الكونية المقيّدة» (Universal Probability Bound)[٥]. والحديث عن الاحتمالات في الصدفة فوق هذا الرقم ضربٌ

---

(١) انظر: (١) A Case Against Accident and Self – Organization

(٢) إيميل بوريل (Emile Borel): بروفسور الرياضيات الفرنسي، وقد صاغ عددًا من القوانين الرياضية المشهورة. توفي عام ١٩٥٦ م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /Emile – Borel

(٣) انظر:
Elements of the Theory of Probability (translated by John Freund), Prentice Hall, 1965, Chapter 6

(٤) هذا الرقم هائل جدًّا، حيث أنه ١٠ وخلفه ١٥٠ صفرًا!

(5) The Design Inference (213), by: William Dembski (Cambridge Studies in Probability, 1998)

من السَّفسطة. ومع ذلك، فإننا نجد أنَّ الملاحدة يتجاوزون هذه الاحتمالات بمراحل عند حديثِهم عن الصدفة - كما سيأتي بيانه قريبًا إن شاء الله -.

وبهذه الأوجهِ الخمسة يتبيَّن أنَّ التأصيلات التي بنى عليها الملاحدة - وعلى رأسهم دوكينز - موقفَهم من الصدفة في غاية البطلان والفساد.

- **النُّقطةُ الثّالثة: الردُّ على نظرية القرد اللامحدودة:**

نظريةُ القرد اللامحدودة مبرهنةُ رياضيات يستخدمها علماءُ الرياضيات في قياس الاحتمالات الضئيلة. وقد ذكرها البروفسور إيميل بوريل في مقال عام ١٩١٣م[١]، ثمَّ تتابع بعضُ العلماء في استخدامها بصيغ متنوّعة[٢].

وخلاصةُ هذه النظرية: أنَّه إذا قعد كثيرٌ من القرود أمامَ آلات كتابية وتضرب عليها بطريقةٍ عشوائية في وقت لامحدود، فإنَّها في النهاية تستطيع أن تكتب نصًّا معيّنًا مثل: أعمال شيكسبير.

وهذه النظريةُ في الأصل نظريةٌ مجرَّدة لحساب الاحتمالات الضئيلة، ولكنَّ الملاحدة يتداولونها بكثرةٍ في محادثاتهم للتدليل على أنَّ الصدفة العمياء قد تنتج الانتظام. وقد استخدمَها ريتشارد دوكينز في كتابه: «صانع الساعات الأعمى» للدلالة على أن الانتخابَ الطبيعي قد ينتج التعقيدَ البيولوجي من طفرات عشوائية[٣].

هذه النظريةُ ليست غريبة في أصلها فحسب، بل هي باطلةٌ قطعًا عندما يستخدمها الملاحدةُ مثل ريتشارد دوكينز. وقد بيَّن علماءُ الغرب ذلك من أوجه كثيرة، أكتفي بذكر ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: الملاحدةُ يتناقلون هذه النظرية كأنها مسلَّمة، وأنه يمكن نظريًّا أن يحصلَ هذا الشيء. ولكنَّ دين أوفرمان قد تصدَّى لبيان أن هذه النظرية لا تتعامل مع

(١) انظر: Mecanique Statistique et Irreversibilite (3 / 189 - 196)

(٢) انظر: https: / /whatis.techtarget.com /definition /Infinite – Monkey – Theorem

(٣) انظر: The Blind Watchmaker (46 - 50)

الاحتمال الضئيل، بل تتعامل مع المستحيل؛ فطرحَ سؤالًا: ما هو احتمالُ كتابة عفوية لأعمال شكسبير؟ وأجابَ بالنظر إلى هذه القطعة التي تحتوي على ٣٧٩ حرفًا عبارة عن تنوُّع من الحروف الأبجدية الـ ٢٦:

She should have died hereafter;
There would have been a time for such a word.
To-morrow, and to-morrow, and to-morrow
Creeps in this petty pace from day to day
To the last syllable of recorded time;
And all our yesterdays have lighted fools
The way to dusty death. Out, out, brief candle!
Life's but a walking shadow, a poor player,
That struts and frets his hour upon the stage
And then is heard no more. It is a tale
Told by an idiot, full of sound and fury,
Signifying nothing
William Shakespeare, Macbeth, Act V, Scene V

بتجاهل المسافات بينَ الكلمات والفواصل، فاحتمالية إنتاج النصِّ صغيرٌ جدًّا، وهو 26^{379}. وبالمعادلةِ التالية سنرفعُ هذا الرقم إلى أس ١٠:

$10^x = 26^{379}$

$\log 10x = \log 26^{379}$

$x \log 10 = 379 \log 26$

$\log 26 = 1.414973348$

$X= 536.275$

وبناءً على ذلك فإنَّ الاحتمال يكون ١ في $136^{0 5}$. وفرصة وجود هذا الرقم تتجاوزُ كثيرًا فكرة كوْنه: غير محتملٍ للغاية. وذكر أوفيرمان أنَّه يمكن أن يضع هذا

الرقم في سياقٍ واضح، وذلك أنَّ العلماء حسبوا أنَّ عددَ الذرّات في الكون المعلوم ١٠^٨٠. وقد ذكرَ البروفسور بول ديفيس[١] أنَّ احتمال إصابة هدفٍ حجمُه بوصة عن بعد ٢٠ مليار سنة ضوئية برمي رصاصة عشوائيًّا هو ١٠^٦٠![٢].

وحسابُ دين أوفيرمان يتعلَّق بنصٍّ قصير جدًّا لشكسبير، فكيف بأعماله كلّها؟ هذه النظرية ضربٌ من السفسطة، لا سيَّما عندما يستخدمها الملاحدة تأييدًا لعقائدهم الفاسدة!

الوجهُ الثّاني: هذه النظريةُ مبنيَّة على أنَّ للقرود زمنًا لامحدود في كتابة هذا النصّ، ولكنْ حيث أنَّ للكون بداية؛ فليس هناك شيء في الواقع اسمه: زمن لامحدود؛ ذكر دين أوفرمان أنَّه لو كانت نظريةُ أزلية الكون صحيحة لكان يمكن أن تحصل هذه النظرية، «لكن الكون ليس قديمًا بالدرجة التي تكفي لذلك، كما أنَّ عدد القرود المتاح غيرُ كافٍ لكي تكتب قطعة صغيرة من أعمال شكسبير؛ فالوقت ليس هو بطل القصة، والقرود لن تجدَ الوقت الكافي»[٣]، ثمَّ ذكر أنها لو افترضنا أنَّ الانفجار العظيم حدثَ منذ ١٥ مليار سنة، وأنَّ هناك مليون قرد بدأت بالطباعة منذ اللحظة الأولى وأنَّ كلَّ قرد يطبع حرفًا في الثانية؛ سيتطلَّب أكثر من مليون مليار سنة للحصول على كلِّ النتائج الممكنة. ولو وضعْنا الوقت بشكل أسس فكلُّ الوقت هو ١٠^١٨ ثانية، ومثلما أنَّ الوقت المتاح للتولُّد غيرُ كاف فالقرود لن تجد وقتًا كافيًا لكتابة أعمال شكسبير[٤].

الوجهُ الثّالث: قد تمَّت تجربة هذه النظرية واقعيًّا عام ٢٠٠٢م، وكانت النتيجة مخيِّبة لآمال الملاحدة؛ قال البروفسور بنيامين ويكير والبروفسور سكوت هون:

---

(١) بول ديفيس (Paul Davies): عالم الفيزياء والفلك الأمريكي، وبروفسور في جامعة أريزونا. وقد ألّف أكثرَ من ثلاثين كتابًا، وحاز على عدد من الجوائز. انظر:
https://physics.asu.edu/content/paul-davies

(٢) انظر: A Case Against Accident and Self – Organization (54 - 55)

(٣) المصدر السابق (٥٤)

(٤) انظر: المصدر السابق (٥٥).

«وبالمناسبة فقد تبيَّن الأمرُ عندما حاول باحثون اختبارَ مصداقية القول المأثور السابق في قفصٍ مملوء بقرودٍ في حديقة حيوانات بمدينة بينتون في إنكلترا في ٢٠٠٢ م، فإنَّهم قدْ وجدوا أنَّ القرود قامت بطباعة القليلِ القليل من الحروف (كان نتاجها على مدى عدَّة أشهر مجرَّد صفحات قليلة كتبت في معظمها مئات من s's)، تاركة فهمًا واضحًا لخطأ استخدام الحاسب في مثل هذه التجربة (سوف نوفِّر على القارئ التفاصيل المتعلّقة بالبراز)، وفي معظمِ الأوقات تجاهلوا لوحة المفاتيح بالكامل. لم تنتج القرودُ الحقيقية نصًّا أدبيًّا، فما بالك بنصٍّ مثل كتابات شكسبير»[1].

وبهذه النقاط تتبيَّن أنَّ نظريةَ القرود اللامحدودة لا يمكن الاستنادُ إليها ألبتَّة، واستدلالُ الملاحدة بها يدلُّ على هزالةِ خطابهم، وضعف حججهم، وسفاهة عقولهم، وإلّا لم يلجؤوا إلى مثلِ هذه النظريات.

---

(1) Answering The New Atheism (45)

المبحثُ السّادس
نقدُ ردودِ علماءِ الغرب
على أسسِ الإلحاد المُعاصر[1]

هذا الفصل يتناول ردودَ علماءِ الغرب على أسس الإلحاد المعاصر. وتبيَّن أنَّ أهمَّ أسسِ الملاحدة هي: المذهبُ المادي، وتعظيمُ العلم التجريبي (العلموية)، وتعظيمُ العقل، والشكُّ ونسبيةُ الحقائق، إضافةً إلى تعظيم الصدفة. وردودُهم في هذا الباب من حيث العموم جيِّدة ومفيدة، وهي مبنيَّةٌ على حججٍ عقلية متينة. وعليه، فإنَّه يمكن الاستفادةُ منها إلى حدٍّ كبير. ولكنَّ المشكلة تكمُّن في الأمور الآتية:

الأمرُ الأوَّل: أنَّ علماءَ الغرب لما رأوا أنَّ الملاحدة تبنَّوا المذهب المادي وأنكروا الغيبياتِ؛ حصلت لديهم ردَّةُ فعْل، فحاولوا إثباتَ الغيبيات بأيِّ وسيلة. ومن ذلك أنَّ بعضَهم خاضوا في علم النفس الموازي. وهذا العلم يشتمل على عددٍ من المحاذير الشَّرعية، ولا يستبعد أنَّ بعضَ الظواهر التي تتمُّ ملاحظتها في هذا العلم من قبيل خوارق شيطانية. ولهذا يجب على المسلِم أن يحذرَ من الخوض في هذا العلم ويبتعد عن ذلك كليًّا، وإنَّما نكتفي بالقول إنَّ جميع الخوارق للعادة - ومنها ما يتمُّ رصدُه في هذا العلم - دليلٌ على بطلان المذهب المادي، ولكن لا يجوز للمسلم أن يخوض فيه لأنَّه يخشى أن يتلاعب به الشيطان.

الأمرُ الثّاني: أنَّ النصارى لديهم تاريخٌ أسود في التعامل مع العلوم التجريبية في العصور الوسطى. وذلك بسبب مخالفات كتابهم المقدَّس الكثيرة للحقائق العلمية،

---

(١) الغرض من إيراد المبحث النقدي في نهاية كلِّ فصل هو تلخيصُ ما سبق في الفصل، مع ذكر أبرزِ أوْجه نقد كلام علماء الغرب. ولهذا ستكون هذه المباحث مختصرة بدون إطناب أو تفصيل.

فكانوا يحاكمون العلماء في محاكم التفتيش. وبسبب هذا التاريخ الأسود في معارضة الحقائق العلمية فإنَّ بعضَ الناس لا يقبلون ردودَ النصارى - وإن كانت صحيحة - على الملاحدةِ في موقفهم من العلم التجريبي. وذلك لأنَّهم متَّهمون بإنكار الحقائق العلمية الثابتة. وأمَّا المسلمون فليست لديهم هذه المشكلة، وذلك أنَّ القرآن والسنة لا يتعارضانِ مع الحقائق العلمية الثابتة، كما أنَّ علماء الإسلام لم يحاكموا العلماء التَّجريبيين في محاكم التفتيش.

الأمرُ الثّالث: قد ردَّ علماءُ الغرب على تعظيم الملاحدة للعقل بردود جيِّدة ومتميِّزة. ولكن كما أنَّ موقف النصارى من العلم التجريبي يتّسم بالضعف، فكذلك موقفُهم من العقل. وذلك أنَّ عقيدة التثليث هي أصل الأصول عند النصارى. وهذه العقيدة الفاسدة تتعارضُ مع بديهيات العقل، حيث يدَّعون أنهم يؤمنون بإله واحد، ولكنَّه في آنٍ واحد ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس. إضافةً إلى كثير من العقائد والطقوس الأخرى المخالفة للعقل الرصين والمنطق السليم في هذه الديانة. وهذا يجعل ردودَ النصارى في القضايا العقلية والمنطقية في حالة ريبة، وقد تكون سببًا لعدم قبولها.

الأمرُ الرّابع: أنَّ علماء الغرب قد ذكروا عددًا من القواعد الجيِّدة في التعامل مع الشُّبهات والشكوك، ولكنْ في الوقت نفسه صرَّح كبارُهم أنَّهم يقعون في الشكوك مرارًا وتكرارًا. وهذا دليلٌ على أنَّ النصارى أنفسهم ليسوا على بيِّنة من أمرهم، وغيرُ متيقنين مِن عقيدتهم. كما أنه يدلُّ على أنَّ هذه القواعد التي أصَّلوا لها لم تكنْ مُجدية. فإذا كثرتِ الشُّكوك في صفوف علمائهم، فماذا نتوقَّع بين عوامهم؟! وهذه المشكلة ليست موجودةً بين المسلمين لأنَّ دينهم وحيٌ من الله - تبارك وتعالى -، وهو موافقٌ للفطرة والعقل والعلم. وإنْ كان بعض المسلمين يقعون في الوساوس والشبهات، إلا أنَّها ليست مُنتشرة بالصورة الموجودة لدى النصارى، ولله الحمد.

الفصلُ الثّاني

أساليبُهم
في الرُّدود على المَلاحدة

وفيه ستَّة مباحث:

المبحثُ الأوَّل: بيانُ مُغالطاتِ الملاحدة المنطقية.

المبحثُ الثّاني: بيانُ شَطحاتِ الملاحدة.

المبحثُ الثّالث: بيانُ تَناقضاتِ الملاحدة.

المبحثُ الرّابع: بيانُ ضعفِ خطابِ الملاحدة.

المبحثُ الخامس: بيانُ مخالفة الملاحدةِ للمنهج العلمي.

المبحثُ السّادس: بيانُ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد.

المبحث السّابع: نقد أساليب علماء الغرب في الردود على الملاحدة

قدْ تنوَّعت أساليبُ علماء الغرب في كشف عَوار الخطاب الإلحادي الفاسد. وفي هذا الفصل سوف يتمُّ استعراضُ ستةٍ من أبرز أساليبهم في الردِّ على الملاحدة. وهذه الأساليبُ تبيِّن أنَّ الخطاب الإلحادي المعاصر ضعيفٌ وهزيل، كما أنَّه مليء بمغالطات منطقيَّة، وشطحات، وتناقضات. وأنَّ الملاحدة وإنِ ادَّعوا تبنّي مذهبَ العلموية فهُم من أبعدِ النّاس عن المنهج العلمي الرَّصين. وختامًا في هذا الفصل، ستتبيَّن الشرور الكثيرة والعظيمة من الإلحاد وآثاره المدمِّرة على البشرية. ومَن تأمَّل هذه الأساليب الستّة حقَّ التأمُّل علمَ أنَّ الإلحاد فكرة شاذَّة، ونبْتة خبيثةٌ يجب اجتثاثُها من جذورها.

المبحثُ الأوَّل
بيانُ مُغالطات الملاحدةِ المنطقية

قدْ سبق أنه لا يملُّ حديثُ الملاحدة عن العقلانية والتفكير المنطقي مع رميهم المتديِّنين بالغباء والحماقة. وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه التُّهم كما سلفَ في الفصل الماضي. ومما ركَّز عليه علماءُ الغرب في هذا الجانب: أنَّ الخطابَ الإلحادي يشتمل على كثيرٍ من المغالطات المنطقية. والمغالطةُ المنطقية هي «تلك الأنماطُ من الحجج الباطلة التي تتَّخذ مظهرَ الحجج الصحيحة»[1]. فهي حججٌ مُشتملة على مقدِّمات شبيهة بالحقِّ، ولكنَّها ليست كذلك. فإذا تبيَّن أنَّ الحجة مشتملة على مغالطة منطقية فإنها تسقطُ ولا يُرفَع بها رأس، وكان نوعًا من السفسطة[2]. وهذا هو شأنُ الحجج التي يستدلُّ بها الملاحدة. وليس المقصود من هذا الفصل بيانَ كلِّ مرة وقعَ دعاة الإلحاد في مُغالطة منطقية لأنَّه لا حصر لها؛ وإنَّما المقصود بيانُ أهمِّ المغالطات التي تردُ في كلام الملاحدة معَ ذكر بعض الأمثلة على ذلك.

وأكثرُ مَن رأيت أنه يهتمُّ بهذا الموضوع من علماء الغرب هو الدكتور جاسون ليزلي، فقدْ صنَّف كتابيْن متميِّزين عن هذا الموضوع، وهمَا: «دليل الجيب للمنطق والإيمان» (A POCKET GUIDE TO Logic & Faith)، و: «تمييز الحقِّ: بيان الأخطاء في الحجج التطوّرية» (Discerning Truth – Exposing Errors in Evolutionary Arguments). ولكون دكتور ليزلي أكثر مَن كتب عن هذا الموضوع فسيكون جلُّ النقول في هذا المبحث عنه، معَ ذكر بعض النُّقول الأخرى

---

(١) المغالطات المنطقية (١٧)، لعادل مصطفى، (المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م).

(٢) انظر: موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب (٩٤٠ - ٩٤١)، لمجموعة من المؤلفين، (مكتبة لبنان ناشر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م).

النافعة أيضًا. وسأذكر ثماني مُغالطات منطقيَّة يقع فيها الملاحدة في هذا المبحث، وهي كالتالي:

المغالطةُ الأولى: مغالطةُ تجسيد المجرَّدات (The Fallacy of Reification):

تجسيدُ المجرَّدات: معاملة شيء مجرَّد كشيء مادي أو محدَّد[1]. وهو أسلوب من أساليب اللغة المعروفة، ويكثُر استخدامُه في الشعر، ولكن عندَ استخدامه في الحجج فإنَّه يعدُّ مغالطةً منطقية. وذلك أنَّ الحجج العلمية المنطقية لا بدَّ أن تكون واضحة وبيِّنة، وأمّا تجسيدُ المجرَّدات ففيه غموضٌ والتباس حتى قدْ يفهم صاحبُ الحجَّة غير ما يفهمه السامع.

ويستخدمُ الملاحدة هذه المغالطة في كثيرٍ من الأحيان[2]، ولكن أكتفي في هذا المقام بمثالٍ واحد، وهو عندما يتحدَّث الملاحدة عن الطبيعة والاصطفاء الطبيعي والتطوّر، فإنهم يصفونَ هذه الأمور المجرَّدة بصفات كائنات حيَّة ذات إرادة وذكاء. فالطبيعة كما عرَّفها قاموس أكسفورد هي: «ظاهرة العالم الفيزيائي بأجمعها، ويشمل ذلك: النباتات، والحيوانات، والمناظر الطبيعية، وغيرها من الخصوصيات ومنتجات الأرض. وهو في مقابل للبَشر والكائنات البشرية»[3]. فالطبيعةُ بهذا المعنى مفهوم مجرَّد، ولا يمكن أن ينسبَ إليه الخلق والتصميم والإرادة.

وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي هذه النقطة فذكر أنَّه قد يقول التطوّري في حواره شيئًا يُشبه عبارة: «لقد صمَّمت الطبيعة بعضَ المخلوقات المذهلة». وهذه الجملة ترتكبُ مغالطةَ تجسيد المجرَّدات؛ لأنَّ الطبيعة ليس لها عقل، ولا يمكنها تصميم أي شيءٍ بالمعنى الحرفي للكلمة. وباستخدام مغالطةِ تجسيد المجرَّدات يحجب التطوّري حقيقة أنَّ رؤية العالم في نظرية التطوُّر تعجز عنْ تفسير وجود التصميم في

---

(١) انظر: https: / /www.britannica.com /topic /reification

(٢) سبق في مبحث: تعظيم العلم التجريبي أنَّ الملاحدة يستخدمون هذه المغالطة عندما يتحدَّثون عن العلم التجريبي.

(3) https://dictionary.cambridge.org/us/dictionary/english/nature

الكائنات الحية (ضعْ في ذهنك أنّه قد يقوم بذلك عن غير قصد). وأمّا الخالق فإنه يقدرُ على تصميم الكائنات لأنَّ له ذاتًا، وأمّا الطبيعةُ فهي مفهوم مجرَّد، ولا يمكنها تصميم أي شيء[1].

وذكرَ الدكتور ليزلي أنَّ الملاحدة يستخدمونَ هذه المغالطة عند حديثهم عن التطوُّر والاصطفاء الطبيعي، فيقولون على سبيل المثال: «ابتكرَ التطوُّر سبيلًا لتجنُّب هذه المشاكل». في محاولةٍ لتفسير وجودِ بعض النظم البيولوجية فائقة التصميم. ولكن من المؤكد أنَّ التطوُّر مفهومٌ ليس له عقل، ولا يمكنه أن يحلَّ أيَّ مشكلة. وهذا المثال أيضًا يخفي صعوبةَ تفسير وجود التصميم في الكون دونَ اعتمادٍ على العقل كوسيلة. فهذا استعمالُ مغالطة التجسيد لمفهوم مجرَّد. بل عبارة الاصطفاء الطبيعي نموذج عن تجسيد المجرَّدات، ويمكن اعتبارُها مغالطة إنِ استعملت في حوار، إذْ ليس بمقدور الطبيعة أن تصطفي بالمعنى الحرفي. وينتشر استعمالُ هذا التعبير لدرجة أن لا نسمِّيها مغالطة بشرط أنْ يفهم المعنى من قبَل الجميع. نحن نؤمن بالمفهوم الذي اسمه «الاصطفاء الطبيعي». هذا المفهومُ صحيح؛ فالكائنات جيِّدة التلاؤم معَ بيئة ما لها احتمالٌ أكبر للبقاء من تلك غير المتلائمة جيِّدًا؛ وهذا صحيح، ولكنْ لو طرحنا سؤالًا: «لماذا تتلاءم الحيواناتُ تمامًا مع بيئتها؟». فإنْ أجاب التطوُّري بقوله: «الاصطفاء الطبيعي»، فهذه مغالطة تجسيد المجرَّدات. فإنه يحجب السببَ الحقيقي لكون الحيوانات مصمَّمة للبقاء - وهو الله. إن تأمَّلَ المرء في هذا الأمر سيجد أنَّ الاصطفاء الطبيعي لا يفسّر حقيقة سبب وجود كائناتٍ متلائمة مع بيئتها. فهو يفسِّر فقط: لماذا لا نجد كائنات غير متلائمة مع بيئتها (السبب أنَّها ستموت). فالله - وليست «الطبيعة» - هو الذي أعطى الكائنات الحيَّة القدرات التي تحتاجها للبقاء[2].

---

(١) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 12

(٢) المصدر السابق: (١٢ - ١٣)

المغالطةُ الثانية: مغالطة المراوغة (The Fallacy of Equivocation):

مغالطةُ المراوغة تشبه مغالطةَ تجسيد المجرَّدات بعضَ الشيء، فهي: استعمال كلمة غامضةٍ تحتمل معنيَيْن؛ فتجعل الحجَّة مخادعة[1]. ويستخدم الملاحدةُ هذه المغالطة في موضعين:

الموْضعُ الأوَّل: عندما يتكلَّمون عن التطوُّر؛ فالتطوُّر قد يُراد به التطوُّر المجهريُّ (Microevolution)، وخلاصته: التغيُّرُ في تكرار الجينات في داخل التجمّع السكاني[2]. وهذا النوعُ من التطوُّر والتغيّر ثابت، وقدْ يلاحظ في المجهر. وقد يطلق التطوُّر على نظريةِ التطوُّر بأكملها - بما في ذلك أنَّ الإنسان والقرد من سلف مُشترك -، وهذا النوع مِن التطوُّر لا يمكن ملاحظتُه في المجهر أبدًا، بل هي نظرية مبنيَّة على فرضيات واستنتاجات باطلة - كما سيأتي بيانه مفصَّلًا لاحقًا إن شاء الله -.

وقد ذكرَ الدكتور جونثان سارفات أنَّ الملاحدة التطوُّريين يخلطون بين هذا المعنيين، وبالتالي يرتكبون مغالطةَ المراوغة؛ فقال: «كثيرٌ من مروِّجي التطور يستخدمون مغالطة المراوغة بطريقةٍ مخادعة، يحوِّلون المعنى لكلمة واحدة (التطور) في أثناء الحجَّة. الطريقة المعتادة عندهم هي «الإغراءُ والتبديل»، فيذكرون أمثلةً على حصول بعض التغيّرات عبر الزمن، ثمَّ يقدِّمون ذلك على أنَّ نظرية التطور العامة (General Theory of Evolution) قد تمَّ إثباتُها كحقيقة علمية، وأنَّ نظرية الخلق دحضت. برنامج التطوُّر التلفازي (PBS Evolution) ومجلَّة ساينتيفك أمريكان (Scientific American) مليئة بهذه الطريقة»[3].

---

(١) انظر:

https://www.logicallyfallacious.com/tools/lp/Bo/LogicalFallacies/81/Equivocation,

(٢) انظر:

https://evolution.berkeley.edu/evolibrary/article/_0_0/evoscales_02

(3) https://creation.com/refuting-evolution-2-chapter-3-argument-evolution-is-true-science-not-just-a-theory

الموْضعُ الثّاني: يستخدمُ الملاحدةُ هذه المغالطة عندما يتحدَّثون عن العلم التَّجريبي كجزءٍ لا يتجزّأ، رغم أنَّ العلم التجريبي يطلق على أنواع مختلفة من العلم. وهذه الأنواعُ متفاوتة في القوة. وذكر الدكتور جاسون ليزلي أنَّ الناس يراوغون أحيانًا بكلمةِ العلم التجريبي، إذ تدلُّ هذه الكلمة غالبًا على الإجراءات التي نستكشف بها السلوكَ المنتظم والمتوقَّع للكون حاليًا - أي: بالطريقة العلمية. هذا هو العلم العملي، لكنْ كلمة العلم التجريبي قد تدلُّ أيضًا على كيان معيَّن من المعرفة (مثلًا، علم الوراثة). كما أنَّ العلم التجريبي قد يدلُّ كذلك على نماذج لأحداث سابقة؛ مثل: علم البدايات، أو قد يدلُّ على نموذج معيَّن منها. وعندَ استبدال أيٍّ من تلك المعاني ضمن حجَّة ما، فقد وقعوا في مغالطة المراوغة.

فعندما يقولُ الملحد: «قد أعطانا العلم الحواسيب، والطبَّ، وبرنامج الفضاء، وأشياء كثيرة أخرى، فلمَ تنكر إذًا علم التطوُّر؟» فإنَّه يخلط بين العلم العملي مع نموذج خاصٍّ من علم البدايات. وعلمُ البدايات يفتقرُ إلى ميزات إمكانية الاختبار، أو إمكانية التّكرار الموجودة في العلم العملي؛ لأنَّ الماضي من المستحيل اختباره مباشرة، أو أنْ يتكرَّر حدوثه. أمّا الحواسيب والطبّ وغيرها فجميعُها من نتاج العلم العملي.

وبخلطِ العلم العملي مع التطوُّر، يأملُ المحاورُ أن يعطي التطوُّر مصداقية لا يستحقُّها في الحقيقة. وقال الدكتور ليزلي بعدَ هذا التقرير: «لا شكَّ أننا نؤمن بالعلم العملي، ولدينا بعضُ التقدير لعلم البدايات أيضًا، لكن هذا لا يعني أنَّه يجب علينا أن نؤمنَ بالتطوُّر - الذي هو مجرَّد نموذج محدَّد من علم البدايات»[1].

المغالطةُ الثّالثة: مغالطةُ المصادرة على المطلوب

(Fallacy of begging the question):

مغالطةُ المصادرة على المطلوب، بمعنى: وجودُ النتيجة في إحدى مقدِّمات الحجة[2]. وهذه المغالطةُ قد يصعب اكتشافُها؛ لأنَّ الحجة في ظاهرها سليمة،

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: (16-17)

(٢) انظر:
https://www.logicallyfallacious.com/tools/lp/Bo/LogicalFallacies/53/Begging-the-Question

ولكنّها في الحقيقة حجّة دائرية (circular argument)، فلا يخرج صاحبُ الحجة بنتيجة غير ما افترض من المقدِّمات في الحجة.

وتتكرَّر هذه المغالطة في كلامِ الملاحدة التطوُّريين؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: معظمُ أمثلة الاستدلال الدائري التي يستخدمها التطوُّريون هي مغالطات من نوع المصادرةِ على المطلوب»[1]. وضربَ مثالاً على هذا النوع من المغالطة بقول الملاحدة: «لا بدَّ أن التطوُّر صحيحٌ لأنه حقيقة»، فإنَّ هذه الجملة سليمة منطقيًّا. ولكن إن كانتْ سليمة منطقيًّا فلماذا نعتبرها مغالطة؟ الجواب هو أنَّ المصادرة على المطلوب مغالطةٌ لأنها اعتباطية؛ فالحججُ الدائرية مثلها غيرُ مفيدة، لأن أيَّ شخص ينكر النتيجة سوفَ ينكر المقدمةَ المفترضة أيضًا؛ لأنَّ النتيجة هي نفسُ المقدمة. فحجة «لا بدَّ أن التطوُّر صحيح لأنَّه حقيقة» رغم أنها سليمة منطقيًّا إلّا أنها مغالطة، لأن المجادل افترض فقط ما يحاول أن يثبتَه. فلا يجوز استعمالُ الافتراضات الاعتباطية في الاستدلال المنطقي، لأنَّه يمكننا بالمقابل أن نفترض العكسَ تمامًا، فمِن الجائز تمامًا أن يقال: «لا يمكن أن يكون التطوُّر حقيقيًّا لأنه باطل»[2].

المغالطةُ الرّابعة: مغالطةُ السؤال المشحون المركَّب (Complex Question Fallacy):

مغالطةُ السؤال المشحون المركَّب هي: «تكتيك يعمدُ إلى دسِّ فروض مسبقة (presumptions)، غير مبرَّرة، وغير داخلةٍ في التزامات الخصم، داخل سؤال واحد، بحيث إنَّ أيَّ جواب مباشر يُعطيه المجيب يوقعه في الاعتراف بهذه الفروض. والمثال التقليدي لهذه المغالطة: هل توقَّفت عن ضرب زوجتك؟»[3]. والملاحدةُ التطوّريون يستخدمون هذه الأسئلة المركَّبة المشحونة كثيرًا في مناظراتهم. وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي ذلك مع كيفية الردِّ عليهم بقوله: ««لماذا يقفُ الخلقيون ضدَّ العلم؟». يفترض هذا السؤال المشحونُ مسبقًا أنَّ الخلقيّين ضدَّ العلم. وهذا غيرُ صحيح، ولذا وجب تحليلُ السؤال إلى:

---

(1) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith 21

(٢) انظر: المصدر السابق (٢١).

(٣) انظر: المغالطات المنطقية (١٤٩).

١ - هل الخلقيون ضدَّ العلم؟

٢ - إنْ كان كذلك، فلماذا هُم كذلك؟

بما أنَّ الجواب على السؤال الأوَّل بالنفي، فلا ضرورة لطرح السؤال الثاني»[١].

المغالطةُ الخامسة: مغالطةُ القسمة الثنائية الزائفة (Bifurcation Fallacy):

مغالطةُ القسمة الثُّنائية الزائفة ترتكب عندَ تُقدّم معضلة زائفة، يعني عندما يُسأل شخصٌ أن يختار بينَ خيارين معَ أنه يوجد على الأقلِّ خيارٌ واحد آخر[٢]. ويستخدم الملاحدةُ هذه المغالطة عندَ مواضع عديدة، أكتفي بذكر اثنين منها:

الموْضعُ الأوَّل: التخييرُ بين الإيمان والعقلانية؛ قال الدكتور جاسون ليزلي: ««إما أن تكون مؤمنًا أو عقلانيًا». يرتكب هذا التعبير مغالطة القسمة الثنائية الزائفة بسبب وجودِ إمكانية ثالثة: إذْ يمكننا أن نتحلَّى بالإيمان ونكون عقلانيين. وفي الواقع فإن الإيمانَ شيءٌ أساسي للوصول إلى العقلانية (مثلًا يجعل الإيمان قوانين المنطق ذات معنى[٣].

الموْضعُ الثّاني: عندَ الحديث عن أنَّ المعجزات خارقة لقوانين الطبيعة؛ ضرب الدكتور جاسون ليزلي مثالًا على ذلك، وردَّ عليه بقوله: ««إمّا أنَّ الكون يسير وفق القوانين، أو أنَّ الله يقوم بالمعجزات دومًا». وهذه مغالطةٌ أيضًا بسبب وجود إمكانية ثالثة: الكونُ يسير وفقَ القوانين معظمَ الوقت، ويجري الله معجزة أحيانًا»[٤].

المغالطةُ السّادسة: مغالطةُ الحجَّة الشخصية (الشخصنة) (Ad Hominem):

المرادُ بهذه المغالطة: أنْ يعمد المغالطُ إلى الطعن في «شخص» القائل بدلًا من تفنيد «قوله». وذلك يكون في الغالب بالسبِّ والشَّتم، واحتقار الخصم، وتصغيره..

---

(1) Discerning Truth (39-40)

(٢) انظر: http: / /www.logicalfallacies.info /presumption /false – dilemma /

(3) A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 35

(4) Discerning Truth (43-44)

إلخ. وهذه مغالطةٌ لأنَّ الحقَّ يُقبل من القريب والبعيد، والعدوِّ والصديق؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): «فمَن هداه الله - سبحانه - إلى الأخذِ بالحقِّ حيث كان ومع من كان، ولو كان مع مَن يبغضه ويعاديه، وردَّ الباطل مع مَن كان ولو كان مع من يحبُّه ويواليه؛ فهو ممَّن هدَى اللهُ لما اختُلف فيه من الحقِّ»[١]. وأمّا الملاحدة فليس لديهم مثل هذا الإنصاف، بل هُم من أكثر الناس استعمالًا لهذه المغالطة عند مناظراتهم، وهم أكثرُ الناس سبًّا وشتمًا لخصومهم في وسائل التواصل - كما سبقت نبذةٌ منه -.

وذكرَ الدكتور جاسون ليزلي أنَّ هذه المغالطة تطرح على شكلين:

الشَّكلُ الأوَّل: القدحُ الشخصي.

الشَّكلُ الثّاني: التعريضُ بالظروفِ الشخصية.

وفي الحال الأوَّل يهاجم المناظرُ شخصيةَ خصمِه، أو يهينه في محاولةٍ لإسقاطه من أعينِ الجمهور، وقد ينجح باستمالة رأيِ الجمهور نفسيًّا، ولكنَّه أسلوب مغالط منطقيًّا لأنَّ شخصيةَ الخصم أو انتقاصَ هذه الشخصية لا تتعلَّق منطقيًّا بصواب حججه. والتَّنابزُ بالألقاب مِن أكثر أنواع مغالطةِ الشَّخصنة بالسبِّ استعمالًا. وذكر الدكتور ليزلي أنَّ الأطفال يستخدمونَ هذا الأسلوب، والمفروض أنَّ الكبار لا يفعلون ذلك، وأنْ يكونوا عقلانيِّين، وأنْ يتعلَّموا كيفية استعمال الحجج العقلانية. ولكن بسبب غياب الحجج المنطقية المقبولة التي تدعم نظريةَ التطوُّر يلجأ التطوُّريون إلى مغالطة الشخصنة بالسَّب. وهذا يذكِّرنا بأنَّ النظرة التطورية للعالم مفلسة للغاية فكريًّا[٢].

المغالطةُ السّابعة: مغالطةُ الاحتكام الخاطئ إلى المرجعية

(Faulty Appeal to Authority):

هذه المغالطةُ عكس المغالطة السابقة، فحينما يحاول المغالطُ بالشخصنة التنقُّصَ من قدْر الخصوم، فإنَّ المغالط بالاحتكام الخاطئ إلى المرجعية يجعل قولَ

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٥١٦).

(٢) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 39-40

مَن يستدلُّ به حجَّة يجب قبوله. وهذه مغالطةٌ مرفوضة في المنطق؛ لأنَّ الحقَّ لا يُعرف بالرجال، وإنما الرجالُ يُعرفون بالحقّ.

والملاحدة التطوُّريون يستخدمون هذه المغالطةَ كثيرًا جدًّا في مناقشاتهم؛ وقد بيّن الدكتور جاسون ليزلي هذا الأمرَ بقوله: «تستخدم مغالطةُ الاحتكام إلى المرجعية في مناظراتِ علوم البدايات بالاحتكامِ المغلوط إلى خبيرٍ في موضوع معين... فعلى سبيل المثال: «الدكتور بيل حائزٌ على درجة بروفيسور في علم الأحياء وهو يؤمن بالتطور». النتيجةُ غير المعلنة تقتضي أنَّ التطوُّر حقيقة، أو أنَّه أقرب ما يكون إلى الحقيقة، لكن هذا الاحتجاج مُغالط. وأيضًا يمكن استخدامُ المغالطة من الطرف المقابل كأن نقول: «إنَّ الدكتور ديف حائزٌ على درجة بروفيسور في علم الأحياء وهو يؤمن بالخلق...» إنَّ وجودَ خبراء في موضوعٍ ما في كلا طرفي النقاش يبيِّن الطبيعة الجوفاء لاحتجاج التطوريين بهذه المغالطة...»(١).

وهذا لا يعني أنَّ الاحتكام إلى المتخصِّصين والرجوع إلى أقوالهم دائمًا خطأ، بل نحن بحاجةٍ إلى الرجوع إليهم في كثيرٍ من الأحيان. ولكن يكمُن الخطأ في هذه المغالطة في ثلاثة مواضع:

١) الاحتكامُ إلى مرجعية في غير مجالِ تخصُّصه.

٢) عدمُ الأخذِ في الاعتبار أنَّ رؤية العالم للمتخصِّص تؤثِّر في استنتاجه من الحقائق العلمية.

٣) معاملةُ المتخصِّص غير المعصوم كالمعصوم(٢).

وهذه المواضعُ الثلاثة مِن أكثر ما تزلُّ فيه أقدامُ الملاحدة عند المناظرة. وهناك أمرٌ آخرُ له علاقة بهذه المغالطة؛ وهو الاحتكامُ إلى الأغلبية. وهذه مغالطة يرجع إليها الملاحدةُ كثيرًا في استدلالهم بنظرية التطوُّر. وذلك أنَّ أغلب العلماء

---

(1) Discern Truth (54)

(٢) انظر: المصدر السابق (٥٤ – ٥٥).

في الجامعات الغربية اليوم يتلقَّون هذه النظريةَ بالقبول. وقد ردَّ سكوت هيوس[1] على مغالطة الاحتكام إلى الأغلبية بقوله: «وهنا، يجب تذكُّر أمرٍ هامٍّ وهو أنَّ اعتقاد أكثرية الناس بصحة شيء معيَّن لا يجعل منه صحيحًا، وتسمَّى هذه المغالطة مغالطة الاحتكام إلى الأكثرية، وهي خاطئةٌ تمامًا لأنَّ الحقائق العلمية لا تُبنى على التصويت، فيمكن أن تكون الأكثريةُ خاطئة تمامًا، بل لقد كانتْ هذه هي الحال في أحيانٍ كثيرة»[2].

وفي النفس ميلٌ للرجوع إلى الأغلبية - وإنْ كانوا على الخطأ -، ولهذا حذَّرنا الله تعالى في كثيرٍ من الآيات من اتِّباع الأغلبية، بغضِّ النظر عن صحة المقولة. ومن الأمثلة على هذه الآيات قولُه تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقد أوردَ الحافظ ابنُ حزم (رحمه الله) كلامًا جميلًا في هذا الموضع إذْ قال: «ولا تستوحش معَ الحقِّ أحدًا، فمَن كان معه الحقُّ فالخالقُ (تعالى) معه، ولا تبالِ بكثرة خصومِك، ولا بقِدَم أزمانهم، ولا بتعظيمِ الناس إيّاهم، ولا بعدَّتهم؛ فالحقُّ أكثرُ منهم، وأقدمُ وأعزُّ وأعظمُ عند كلِّ أحد، وأولى بالتعظيم»[3].

المغالطةُ الثّامنة: مغالطةُ رجل القش (Straw – Man Fallacy):

مغالطةُ رجل القشِّ «هي تلك المغالطةُ العتيدة التي يعمدُ فيها المرءُ إلى مهاجمة نظريةٍ أخرى غير حصينة بدلًا مِن نظرية الخصم الحقيقية. وذلك تحتَ تعميةٍ من تشابه الأسماء، أو عنْ طريق إفقار دم النظرية الأصلية وتغيير خصائصها ببترِها عن

---

(١) سكوت هيوس (Scott Huse): عالم أمريكي وحامل شهادة الدكتوراه. يهتمُّ بنقد نظرية التطوّر وألَّف كتابه: انهيار التطوُّر في ذلك، وهو جيِّد في بابه. انظر: الغلاف الخلفي لكتاب: The Collapse of Evolution

(2) The Collapse of Evolution (21)

(٣) التقريب لحدِّ المنطق (١٩٣ - ١٩٤).

سياقها الحقيقي، بإزاحتها إلى ركنٍ قصيٍّ متطرِّف»[1]. ولهذا شبَّهه المناطقة بأنه يهاجم رجلَ القشِّ، وليس رجلًا حقيقيًّا.

ويستعملُ الملاحدةُ هذه المغالطة في كثيرٍ من الأحيان، وذلك بنسبة الأقوال والمعتقدات إلى المتديِّنين - ولا تصحُّ نسبتُها إليهم -، ومن ثمَّ يردُّون على هذه الأقوال المزيَّفة. وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي خطورةَ هذه المغالطة وكيف يستخدمها الملاحدة التطوُّريون. ومِن ذلك أنَّهم يقولون: «لا يؤمن أنصارُ الخلق بأنَّ الحيوانات تتغيَّر. لكن مِن الواضح أنَّ الحيوانات تتغير؛ لذا فإنَّ أنصار الخلق على خطأ».

وذكرَ الدكتور ليزلي أنَّ هذه مغالطةُ رجل القشِّ؛ لأنَّ أنصار الخلق يؤمنون بأن الحيوانات تتغيَّر، ولكنها لا تتغيَّر من صنفٍ أساسي إلى صنف آخر. وذكر أنه قد يكونُ هذا التحريف غيرَ مقصود، وإنَّما قد يكون منشؤه فهمًا سقيمًا من أحد أنصار التطوُّر لما يدرِّسه أنصارُ الخلق في الحقيقة، وقد يكون التحريفُ مدروسًا ومقصودًا، عندَها يكون التحريفُ خدعة. ورغم أنه فعلٌ غيرُ نزيه إلّا أنَّه واسع الانتشار في المناظرات حولَ بداية الحياة والكون[2].

---

(١) المغالطات المنطقية (١٦٣).

(٢) انظر: A POCKET GUIDE TO Logic & Faith: 51

المبحثُ الثّاني
بيانُ شطحاتِ الملاحدة

إنَّ المذهبَ الإلحادي هو أبطلُ الباطل؛ لأنَّه ينكر أوضحَ الواضحات، وهو وجودُ الخالق سبحانه وتعالى. وقد قال الشاعر:

وليس يصحُّ في الأفهام شيءٌ ... إذا احتاج النهارُ إلى الدليل[1]

فقد مُسخت عقولُ الملاحدة، وطمستْ بصائرهم، وتشوَّهت أسماعهم؛ ولهذا يتوقَّع منهم كلُّ قبيح وشنيع، وأن يتفوَّهوا من الأقوال بالبذيء والرديء. وهذا فعلًا ما يلاحظ على أقوال أئمتِهم المضلِّين ودعاتهم الزائغين. فما أكثرَ شطحات دعاة الإلحاد الجديد وسقطاتهم، وما أغربَ بعض مقالاتهم وتناقضاتهم. وهذه الشطحاتُ الكثيرة من الأدلة الدَّالة على فسادِ المذهب الإلحادي؛ لأنَّها بمثابة ثمراتٍ خبيثة من شجرة نَتِنة. وفي هذا المبحث سبعةُ أمثلة على بيانِ علماء الغرب لهذه الشطحات:

المثالُ الأوَّل: حقيقةُ الإنسان عند الملاحدة:

قد أخبر اللهُ تعالى أنه كرّم بني آدم إذ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فالمسلمُ يؤمن أنَّ الله كرَّم بني آدم، وخلقهم في أحسن تقويم، وأمّا الملاحدة فلا يؤمنون أنَّ الله كرّم بني آدم، ولا أنَّه خلقهم في أحسن تقويم، بل لا يؤمنون أن البشرَ من بني آدم أصلًا.

---

(١) ديوان المتنبي (٣٤٣)، لأبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، (دار بيروت، ١٤٠٣ هـ).

ومِن أساليب علماء الغرب في نقد الإلحاد أنهم يبيِّنون غلوَّ الملاحدة في المذهب المادي، وأنَّهم حصروا حقيقة الكون في مجرَّد ذرَّات، وحقيقة البشر في كونهم آلات لتكاثرِ الحمض النووي؛ فعلى سبيل المثال: قد أورد جون لينوكس عددًا من أقوال الملاحدة في هذا الشأن في كتابه: «حانوتي الإيمان بالله» (God's Undertaker)، فأورد قولَ ريتشارد دوكنز: «الكونُ لا شيء سوى مجموعة من الذرات المتحرّكة، والبشر هم ببساطة: آلاتٌ لتكاثر الحمض النووي. وتكاثر الحمض النووي عملية ذاتية الاستدامة»[1]. ثمَّ قال البروفسور جون لينوكس مستنكرًا عقب ذلك: «هل هنالك بالفعلِ لا شيء إضافي للكون والحياة عن ذلك؟»[2]. ثمَّ أورد قول الملحد فرانسيس كريك: «أنتَ وسرورك، وحزنك، وذكرياتك، وطموحاتك، وشعورك بهويتك الشخصية، وإرادتك الحرة، ليس بالواقع سوى سلوك لتجمُّع شاسع من الخلايا العصبية وجزئياتها المرافقة»[3]. وقال لينوكس بعدَه: «كيف سنفكِّر حينما نفكِّر في الحب والخوف عندَ البشر؟ هل هي نماذجُ سلوكية عصبية عديمة المعنى؟ أو ماذا نصنع بمفاهيم الجَمال والحقيقة؟ هل لوحة... لا شيء سوى جزيئات دهان مُبعثرة على القماش؟ يبدو أنَّ كريك يعتقد أنَّها كذلك»[4]. وهذه الاختزاليةُ عند الملاحدة في حصر الكون في ذرَّات، وجعل الإنسان آلاتٍ لتكاثر الحمض النووي، وشعوره تجمُّع للخلايا العصبية من الشطحات المستنكرة.

المثالُ الثّاني: قيمةُ الإنسان عند الملاحدة:

لما ضعفتْ كرامةُ الإنسان عند الملاحدة، وحصروا الجنسَ البشري في ذرَّات، وشعوره وأفكاره في الخلايا العصبية، فإنَّ قيمة الإنسان تضعف عندهم كذلك. فما حقيقةُ قيمة الإنسان إذا اعتقدَ المرء ما يعتقده الملحد ستيفن هوكينج

---

(1) BBC Christmas Letter Study Guide (1991)

(2) Gods Undertaker (56)

(3) The Astonishing Hypothesis: 3

(4) Gods Undertaker (56)

إذْ يقول: «الجنس البَشري هو مجرَّد وسخٍ كيميائي، موجود على كوكب متوسّط الحجم»[1]؟

وجميعُ الملاحدة الجدد يتبنَّون نظرية التطوُّر، وهذه النظرية جعلتهم يقلبون موازين قيمة الإنسان رأسًا على عقب، كما قال الدكتور مايكل دينتون: «رؤية [داروين] الجديدة الثورية غيَّرت العالم... هي تتضمَّن أنَّ كلَّ التنوّعُ للحياة في الأرض كانت نتيجة عمليات طبيعية وعشوائية، وليست - كما كان يُعتقد قبل ذلك - نتيجة لخلق الإله. قبولُ هذا الادِّعاء الكبير، وما ترتَّب عليه من إزالة الإله من الطبيعة لعبَا دورًا حاسمًا في علمنة المجتمع الغربي»[2].

ثمَّ قال في موطنٍ آخر: «النظريةُ الداروينية هي التي قطعت علاقة الإنسان بالإله، ووضعه على قدمٍ وساق في الكون بلا هدفٍ ولا نهاية. وهذا الأمرُ هو الذي جعل تأثير النَّظرية أساسيًّا. لا توجد ثورةٌ عقلانية في الأزمان الحديثة... أثَّرت بهذا التأثير الكبير على نظرة الإنسان إلى أنفسهم ومكانتهم في الكون».[3]

وهذه النظرةُ الداروينية الإلحادية قلَّلت من قيمة الإنسان، وجعلته حيوانًا من ضمن الحيوانات، كما عبَّر عنه البروفسور جورج جايلورد سيمبسون[4]: «في عالم داروين فإنه لا مكانة خاصَّة للإنسان غير تحديدِه بأنه نوعٌ خاصّ من الحيوان. هو بمعنى الكلمة جزء من الطبيعة، وليس مستقلًّا عنها. هو مجانس - حقيقة لا مجازًا - لجميع الكائنات الحيّة سواء أكانت أميبة، أم دودة شريطية، أم عشبًا بحريًّا، أم شجرة البلوط، أم قردة - وإن كانت درجة العلاقة بينها متفاوتة»[5].

---

(1) (1995) From the TV show Reality on the Rocks: Beyond Our Ken

(2) Evolution: A Theory in Crisis (17)

(٣) المصدر السابق (٦٧)

(٤) جورج جايلورد سيمبسون (George Gaylord Simpson): بروفسور علم الحيوان الأمريكي، ويعتبر أحدَ أشهر علماء الإحاثة في الولايات المتَّحدة في القرن العشرين. توفي عام: ١٩٨٤م. انظر: https: / /www.britannica.com /biography /George – Gaylord – Simpson

(5) The World into Which Darwin Led Us," Science 131 (1960), p. 970

وهذه النظرةُ الغريبة للإنسان عند الملاحدة أدَّت بهم إلى تبنّي الفلسفة العدمية[١] - سواء أقرُّوا بذلك أم لا - كما قال البروفسور فريد هويل: «تطاردني القناعة أن الفلسفة العدميَّة التي يتبنَّاها الرأي المتعلِّم بعدَ صدور كتاب: أصلُ الأنواع، جعلت البشرية تقترف سيرًا إلى التَّدمير الذاتي الأوتوماتيكي. يوم الحساب يقترب»[٢].

وهذا ما جعلَ الملاحدة التطوُّريين يتفوَّهون بشطحات خطيرة عن قيمة الإنسان. وقد أورد علماءُ الغرب هذه الشطحات، وردُّوا عليهم. ومن الأمثلة على ذلك ردُّ جون هينري ويستين[٣] على البروفسور الملحد بيتر سينغر: في مقال بعنوان: «بروفسور جامعة برنستون بيتر سينغر: «وأكرِّر، أنا مستعدٌّ أن أقتل الصبيان المعاقين»

(Princeton Professor: And I repeat: I would kill Disabled Infants)

وفي هذا المقال أوردَ جون هينري ويستين بعضَ شطحات البروفسور سينغر، فقال: «سُئل سينغر أنه إذا خُيِّر بين قتل عشْر من البقر أو إنسانٍ واحد، فقال إنه يفضِّل أن يقتلَ البقر، لا أنَّها أقلُّ قيمة من الإنسان، وإنما لأنَّ البشر يحزنون بسبب الموت أكثر»[٤].

وهذا الكلامُ ليس سبْق لسان من هذا الفيلسوف المشهور، بل هو جزءٌ من مشكلة فلسفيَّة عميقة لدى الملاحدة التطوُّريين. وقد أورد فرانسيس فوكوياما[٥] هذه المشكلة الإلحاديةَ التطوُّرية إذْ قال في كتابه: «نهاية التاريخ» (The End of History): «حقوق

---

(١) الفلسفة العدمية: نظرية تنكر القيم الأخلاقية. انظر: المعجم الفلسفي (٤١٥).

(2) The Intelligent Universe, 1983, p. 9

(٣) جون هينري ويستين (John Henry Westen): طبيب نفساني للأطفال من كندا، وهو كاثوليكي يهتمُّ بكتابة مقالات. انظر: https: / /www.catholic.com /profile /john – henry – westen

(4) https://www.lifesitenews.com/news/princeton-professor-singer-and-i-repeat-i-would-kill-disabled-infants

(٥) فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama): بروفسور فلسفة السياسة في جامعة جون هوبكنز بالولايات المتَّحدة من أصول يبانية، ويعتبر أحدَ أبرز المفكّرين السياسيين في الولايات المتَّحدة اليوم. انظر: https: / /fukuyama.stanford.edu/

الإنسان لها مشكلةٌ فلسفية عميقة إذْ لابدَّ أولًا أن نفهمَ الإنسان قبل أن نبحث في حقوقه، نفهمَ طبيعة الإنسان؛ فالعلومُ الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارقٌ بين الإنسان والطبيعة، وعندما نوسِّع في المساواة التي تنكر وجودَ أيِّ اختلافات بين البشر، فيمكنُ أن يشمل ذلك إنكارَ وجود اختلافات هامَّة بين الإنسان والقردة العليا، وتنشأ عنْ ذلك أسئلة لا حصرَ لها، إذ كيف يكون قتلُ البشر غيرَ مشروع، في حين قتل هذه الحيوانات ليس كذلك، وسنصلُ حتمًا في مرحلةٍ ما إلى السؤال التالي: ولماذا لا تتمتع الطفيلياتُ المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان؟»[1].

المثالُ الثّالث: الملاحدةُ والأخلاق:

الملاحدةُ لديهم شطحاتٌ كثيرة عن الأخلاق، وذلك أنَّ الإلحاد لا يوفِّر أرضية صلبةً للأخلاق بخلاف مَن يؤمن بالله ويعتنق دينًا. وقد اعترف ريتشارد دوكينز بهذا الأمرِ بقوله: «من الصعوبة بمكانٍ الدفاعُ عن القيم الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين»[2].

نظريةُ التطوُّر هي النظرية المحبَّبة لدى الملاحدة، ولهذا يحاولون أنْ يستندوا إليها في كلِّ شيء، حتى في تفسير الأخلاق. ولكنَّه يسبِّب لهم مشكلة حيث أن البشر - حسبَ التفسير الداروِيني - هو كما قال ريتشارد دوكينز: «آلات نجاة، أجهزة آلية مبرمجة بشكلٍ أعمى للحفاظِ على الجزيئات الأنانيَّة المعروفة باسم الجينات»[3]. فأيُّ أخلاقٍ حسنة تُنتظر مِن آلة نجاة، وجهاز مبرمج للحفاظ على الجزيئات الأنانية؟

وهذه مشكلةٌ أساسية عند الملاحدة، وجعلتهم ينطقونَ بكثير من الشطحات. وقد كتبَ البروفسور شاد ميستير مقالًا باسْم: «الإله، الشرُّ والأخلاق» (God, Evil and Morality)، وألزمَ الملاحدة في هذا الباب بإلزاماتٍ قوية. وقد أورد بعض

---

(١) نهـاية التاريخ وخاتم البشر (٢٥٩)، فرانسيس فوكيما، (مركز الأهرام للترجمة والنشر، ترجمة حسين أحمد أمين، الطبعة الأولى ١٩٩٣م).

(2) The God Delusion (232)

(3) The Selfish Gene (p. v.)

شطحاتهم في هذا المقال. ومِن ضمن هذه الشطحات قولُ ريتشارد دوكينز في محاولة تفسير الأخلاق عنْ طريق التطوُّر:

«في الظاهر، تُبدي الفكرةُ الداروينية أنَّ انقياد التطوُّر بالاصطفاء الطبيعي غير ملائمة لشرح بعضِ الأمور، مثل: الخير الذي نملكه، أو مشاعرنا الأخلاقية، والحشمة، والتَّعاطف والشفقة فينا. يمكن للاصطفاءِ الطبيعي بسهولة شرحُ الجوع، والخوف، والشَّهوة الجنسية، وجميع ما يُسهم في بقائنا أحياء، أو يحافظ على جيناتنا. لكن ماذا عنِ الرَّحمة الموجعة التي نشعرُ بها عندما نرى بكاءَ طفل يتيم، أو أرملة يائسة لشعورها بالوحدة، أو حيوان يئنُّ من الألم؟ ما الذي يُعطينا الدافعَ القوي لإرسال هدية مجهولة مِن المال، أو الملابس لضحايا تسونامي على الجانبِ الآخر من العالم لأناس لن نلتقيهم أبدًا، ومِن المستبعد جدًّا أن يُردُّ لنا ذلك المعروف؟ مِن أين أتى ذلك الخلُق الصالح فينا؟ ألَا يتعارض الخيرُ مع نظرية «الجين الأناني»؟ لا. في الحقيقة هذا فهمٌ خاطئ شائع للنَّظرية؛ إنه سوءُ فهْم مؤلم (وهو منظورٌ بشكل متأخِّر). من الضروري التشدُّد على الكلمة الصحيحة. الجينُ الأناني هو التركيز الصحيح، لأنه يسبِّب مقارنة مع كائن أناني (كما يقول) أو أنواع أنانية. دعني أشرحُ ذلك. يخلص منطق الداروينية إلى أن الوحدة الواحدة التي تنْجو في هرميَّة الحياة، وتنتقل خلالَ مراشح الاصطفاء الطبيعي ستميل لتكون أنانية. ستكونُ هذه الوحدات التي تنجو في العالم نفسها التي تنجح في البقاء على حسابِ مُنافسيها من نفْس المستوى في الهرم. وهذا بالضبط ما تعْنيه الأنانية في ذلك السياق»[1].

ثمَّ علَّق شاد ميستير على هذا النقلِ بما مَفاده أنه يبدو أنَّ دوكينز يريد أن يقول إنَّ جيناتنا مُبرمجة مسبقًا لمضاعفة نفسها بأنانية. وإنْ كان الأفراد لا يتصرَّفون دائمًا بأنانية، لأنَّ عملَ جيناتنا على مستوى العضوية يأخذ أحيانًا صفةَ الإيثار وطريقة أخلاقية، حيث يوفِّر ذلك انتشارًا أفضلَ للجين. تظهر نتيجة لهذا الأمر مشكلة واضحة وصارخة هي وجودُ القليل مما يمكننا القيامُ به في إطار ما نفهمه عمومًا على أنَّه

---

(1) Richard Dawkins, The God Delusion (214-15)

أخلاق، مع الصَّواب الصحيح والخطأ الصحيح، معَ الخير الصحيح والشَّر الصحيح. فيكون المرء على مخطَّط دوكينز لطيفًا مع جيرانه لأنَّ جيناته برمجته على ذلك، وبُرمجوا على ذلك لأنَّ التصرَّف بتلك الطريقة يمنحهم فائدةً تطوُّرية. وليس اللطفُ قيمة أخلاقية ملزمة عالميًّا. ندعو ذلك ببساطة «جيِّد أخلاقيًّا» لأنَّ جيناتنا – وعبرَ دهور من الكفاح التطوّري – دفعتْنا للاعتقاد بذلك. وعلاوةً على ذلك فعلى هذا الأساس لا يوجد شيء خاطئ حقًّا، أو موضوعيٌّ بأنْ يكون الشخص أنانيًّا على مستوى العضوية مثلًا، أو شخص يؤذي غيرَه ليكسب هو، أو حتى شخص يغتصب غيرَه ليحصل على المتعة. إن الأمرَ فقط أن التصرُّف بهذه الطرق لا يمنح عادةً فائدةً تطورية عامة على الجينات العضوية، وبذلك أصبحت محظورة اجتماعيًّا بمرور الوقت(١).

ولهذا فعلًا نرى أنَّ دوكينز تفوَّه بهذا الأمر الخطير، ألا وهو أنَّ تحريم الاغتصاب هو أمرٌ اعتباطي إذ قال: «اعتقادك بأنَّ الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي(٢) تمامًا»(٣).

وذكر شاد ميستر أنَّ بعض الملاحدة الآخرين ذهبوا إلى أنَّ الأخلاق مجرَّدُ وهمٍ وخدعة، مثل: الملحد مايكل روس الذي يرى الأخلاق – أو إيمانَنا بالأخلاق – مجرَّد تكيُّف أخذَ مكانه لتعزيز تكاثرنا في النهاية. وبالتالي فإنَّ الأساس الأخلاقي لا يكمن في مشيئةِ الإله، ولا في الجذور المجازية للتطوُّر، أو أيِّ جزء آخر من إطار عمل الكون. فيرَى أنَّ الأخلاق وهمٌ خدعتنا به جيناتُنا لإجبارنا على التعاون فيما بيننا، وليس لها أرضيةٌ خارجية تستندُ عليها. فالأخلاقُ في نظره نتاجُ التطوُّر، لكن لا يمكن للتطوُّر أن يبرِّرها(٤).

---

(١) انظر:

God, Evil and Morality in the Book: God is Good, God is Great (114-115)

(٢) الاعتباطي(Arbitrary): القرار المبني على اختيار عشوائي أو هوى شخصي وليس على نظام أو منطق. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /arbitrary

(3) http://www.anthonysmith.me.uk/2008/11/06/dawkins-on-rape/

(4) Michael Ruse and Edward O. Wilson, “The Evolution of Ethics,” in Philosophy of Biology, ed. Michael Ruse (New York: Macmillan, 1989), p. 316.

فعلَّق البروفسور شاد ميتر على تقرير الملحدِ روس بأنَّ خلاصة كلامه أنَّ الأخلاق شيءٌ يؤمن به معظمُنا، لكنَّها ليست موجودةً في الحقيقة. وهذا منتهى الموقف الأخلاقي للمُلحدين الجدد، سواءً أدركوا ذلك أم لا[1].

فحقيقةُ قول الملاحدة إنَّه لا يوجد أخلاقٌ موضوعية، وأنَّ الأخلاق مجرَّد وهْم. وهذا القولُ من شطحاتهم التي أفرزته نظريةُ التطوّر.

المثالُ الرّابع: الهدفُ من الحياة عندَ الملاحدة:

ممّا سبقَ قد تبيَّن أنَّ حقيقة الإنسان عندَ الملاحدة مجموعة من الذرّات وشعوره مُنحصر في الخلايا العصبية، والإنسان حيوانٌ من الحيوانات المتطوِّرة، كما أنه ليس لديْهم أرضية صلبة لبناءِ الأخلاق. فماذا ينتظر منهم في أحد أهمِّ الأسئلة التي يدور في ذهْن الإنسان، ألَا وهو: «ما الهدفُ من الحياة؟» هذا السؤالُ الجوهري في حياة البشر الذي يفكِّر فيه الناس في أنحاءِ المعمورة. ما هو جوابُ الملاحدة على هذا السؤال؟ قد كتبَ البروفسور جيمس أندرسون[2] مقالاً بعنوان: «هل يمكن أن يكون للحياة معنى بدونِ الإله» (Can Life have Meaning without God?)، وأورد فيه بعضَ شطحات الملاحدة، منها:

قولُ ريتشارد دوكينز: «الكونُ الذي نشاهده توجد فيه الخصائص التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة بلا تصميم، **ولا هدف**، ولا شرٌّ ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[3].

---

(١) انظر: "God, Evil and Morality" in: "God is Good, God is Great" (115-116)

(٢) جيمس أنديرسون (James Anderson): بروفسور الفلسفة واللاهوت بالولايات المتَّحدة. وهو مهتمٌّ بنقد الإلحاد المعاصر. انظر: https: / /www.thegospelcoalition.org / profile /james - n - anderson /

(3) River out of Eden (133)

وقولُ البروفسور الملحد وليام بروفين[1]: «**دعني ألخِّص آرائي فيما يعلِّمنا علمُ الأحياء التطوُّرية بصراحة وشفافية، وهي في الأصل آراءُ داروين: لا يوجد آلهة، ولا غايات، ولا قوى موجَّهة بهدف... ولا أساسٌ نهائي للأخلاق، ولا هدف للحياة، ولا إرادة حرَّة للإنسان كذلك**»[2].

وقولُ البروفسور الملحد أليكس روسينبيرغ: «**ما الهدفُ من الكون؟ لا شيء. ما الهدفُ من الحياة؟ الشيء نفسه**. هل التاريخُ له هدف أو غاية؟ هو مليء بصوت وغضب، مما لا يدلُّ على شيء»[3].

ثمَّ علَّق البروفسور أنديرسون على هذه الأقوال بأنَّه يمكن مضاعفة الأمثلة على هذه الأقوال. ومِن العدل أنْ يُقال: إنَّ الملاحدة والمؤمنين يتَّفقون على أنه إذا كان الإله غير موجودٍ فلا يوجد هدفٌ موضوعي للحياة. ولكن هل للملحد خيار آخر؟

أجابَ البروفسور أندرسون بأنَّ كثيرًا من الملاحدة يقرُّون بأنَّه لو كان الإله غيرَ موجودٍ فليسَ للكون ولا حياةِ الإنسان أيُّ هدف موضوعي. ولكنَّهم يضيفون بسرعة أنَّه لا ينبغي لنا أن نستنتجَ من ذلك أنَّ حياتنا نحن ليس لها هدف. فيقولون إننا نستطيعُ أن نعطي حياتَنا غاية، ونضع هدفًا لأنفسنا. وحيث إنه لا يوجد شيء خارج عنّا يعطي حياتَنا غاية، فلا بدَّ أن تأتي هذه الغاية من قرارة أنفسنا، إمّا كأفراد أو كمُجتمع. ثمَّ ذكر الدكتور أنَّه توجد مشكلتان في هذا الطرح:

المُشكلةُ الأولى: هذا الطرحُ يُعاني من مشكلة: الاعتباطية. فإنْ كان يمكن أنْ نحدِّد الهدف من الحياةِ بطريقة ذاتية، فيمكن أن يكون أيُّ شيء هو الهدف من الحياة

---

(١) وليام بروفين (William Provine): بروفسور علوم الأحياء بجامعة كورنيل في الولايات المتَّحدة. توفي عام ٢٠١٥ م. انظر:

https://evolutionnews.org/2015/09/william_provine/

(2) Darwinism: Science or Naturalistic Philosophy?" Origins Research 16:1

(3) The Atheist's Guide to Reality (2-3), by: Alex Rosenberg, (W. W. Norton & Company, 2012)

حسبَ تفضيلاته الشخصية وافتراضاته. أنْ يجلس الإنسانُ طول اليوم ويأكل الكعك ويلعبَ الألعاب الإليكترونية قد يكون الهدفُ من الحياة الذي يشعر الإنسان بأنه يشفي معاناته. الرجلُ الذي يريد أن ينتحرَ قد يرى أنَّ الهدف من حياته هو تدميرها. وأسوأ مِن ذلك فقدْ يكون هذا الشخصُ الذي يريد أن ينتحرَ يشعر بأنه يريد أن يدمِّر حياة الآخرين أيضًا.

المشكلةُ الثّانية: تنشأ ممّا تسمى بـ»مشكلة إلباس الحذاء» (Bootstrapping Problem). هذا التحدِّي يواجه أيَّ نظام يتوقَّع منه أن يبدأ ويستمرَّ بدون مساعدة من الخارج. كما أنَّه مستحيل أنك ترفع نفسَك من الأرض بإمساك حزام الحذاء، فإنه من المستحيل أنْ تعطي معنًى لحياتك إنْ كانت الحياة بدون معنى في الأصل – سواء أكان المعنى من الخارج أو الداخل –. فإنْ كانت حياتُك بلا معنى في الأصل فكيف تكون اختياراتُك ذات معنى أو تنتج معنى؟ كيف تحدُث اختيارات ذات معنى من حياة بلا معنى؟ هل يمكن أن تبدأ بشيء بمجرَّد أنَّك تريد أن تكون اختياراتك ذات معنى؟[١].

ويعلمُ الملاحدة الجدد جيِّدًا الأثرَ السلبي لهذه الفلسفة على أتباعهم، حتى كتب ريتشارد دوكينز في مقدِّمة كتابه: «تفكيك قوس القزح» (Unweaving the Rainbow) أنَّ ناشرًا أجنبيًّا لكتابِه الأوَّل اعترف أنَّه لم يستطع أن ينام ثلاثة أيام متتالية بعد قراءته، نتيجةَ قلقِه من رسالتِه القاسية والكئيبة. وقد سأله كيف يستطيع دوكينز أن يستيقظَ في الصباح. وكتب معلِّم من بلدٍ بعيد موبِّخًا أنَّ طالبة جاءت تبكي بعد قراءةِ الكتاب نفسه؛ لأنَّه يبيِّن أنَّ الحياة فارغة وليس لها معنى. وهو نصحها ألّا تُري الكتابَ لصديقاتها خشيةَ أن تتلوَّث أفكارهم بهذا التشاؤم العدمي[٢].

---

(١) انظر:

https://www.thegospelcoalition.org/article/can-life-have-meaning-without-god/

(٢) انظر: Unweaving the Rainbow (preface: 1)

المثالُ الخامس: تعريفُ الملاحدة للاشيء:

الملاحدةُ الجدد يؤمنون أنَّ الكون قد ظهرَ من لا شيء، بل صنَّف لورانس كراوس - داعي الإلحاد وعالم الكون - كتابًا سمَّاه: «الكون من لا شيء» (Universe from Nothing)، وحيث إنَّ ظهورَ شيء مِن لا شيء من المستحيلات العقلية، فقد أعاد كراوس تعريفَ «لا شيء» إلى «الفراغ الكمِّي» (Vacuum State)، وهي مستوى الطاقة الأدنى الممكن[1]. إذًا، الفراغُ الكمِّي شيء - ولكنَّه قليلُ الطاقة -، ولا يمكن وصفُه بأنه لا شيء. وإنما تلاعبَ كراوس باللغة حتَّى يخرج من الإشكالية الحقيقية، وهي: من أين جاء هذا الفراغُ الكمّي - الذي هو شيء في الحقيقة وليس «لا شيء»-؟!

وقدْ أعجب ريتشارد دوكينز بهذا الكتاب، حتى قدَّم له بمقدِّمة، ودافع عنه في مناظرتِه معَ الأسقف جورج بيل[2]. وقد ألزم الأسقف دوكينز بهذه المسألة، وأنَّ كراوس إنَّما تلاعب باللغة ليخرجَ من الإشكال؛ فقال دوكينز: «يمكنك أن تعارض ما هو المقصودُ من لا شيء، ولكنْ مهْما يكن فإنَّه بسيط جدًّا جدًّا»، فبدأ الأسقف والحضور يضحكون، فقال دوكينز: «لماذا ترونَ أنَّ هذا مضحك؟»، فزادوا في الضحك، وقال الأسقف: «حسنًا، أنا أرى أنَّه مضحك قليلًا أنك تحاول أن تعرِّف لا شيء»، فانهار الناسُ ضحكًا وصفَّقوا[3]. فهذا التلاعبُ بالألفاظ والمعاني من شطحات الملاحدة المضحكة.

---

(١) انظر:

The Structured Vacuum: Thinking about Nothing (14)، Rafelski, J,. & Muller, B.

(٢) جورج بيل (George Pell): رئيس أساقفة الكاثوليك في مدينة سيدني بأستراليا. وهو مهتمٌّ بنقد الإلحاد، وناظرَ ريتشاد دوكينز في برنامج تلفزيوني. انظر:

https://www.britannica.com/biography/George-Cardinal-Pell

(3) https://www.youtube.com/watch?v=X1_rKWGoHiQ

المثالُ السّادس: موقفُ الملاحدة من الصدفة والمعجزات:

قدْ سبق في الفصل الأوَّل من هذا الباب أنَّ الملاحدة يبالغون في الصدفة أيما مُبالغة، ويرفعون من قدْرها أيّما رفع. ولا شكَّ أنَّ بعض أقوالهم في هذا الباب من الشَّطحات، مثل: قول البروفسور بيير بول غراسي: «تصبح الصدفة نوعًا من العناية الإلهية التي لا يتمُّ استدعاؤها فقط تحتَ غطاء الإلحاد، بل وعبادتها سرًّا أيضًا» [١].

ومِن أساليب علماء الغرب أنهم بيَّنوا مبالغاتِ الملاحدة في الصدفة، ومن ذلك ما ذكرَ بنيامين ويكير وسكوت هون أنَّ ريتشارد دوكينز قال مبالغًا في قدرات الصدفة: «فبمجرَّد إعطاءِ وقتٍ أو فرصٍ غيرِ محدودة، فإنَّ أيَّ شيءٍ يمكن أن يحدث»[٢].

وقد ربطًا بين موقف دوكينز من الصدفة وشطحاته في المعجزات؛ فأوردًا قوله في المعجزات: «المعجزةُ عبارة عن شيء ممكنِ الحدوث، ولكنَّ حدوثه مفاجئ جدًّا. فإذا لوَّح تمثالٌ رخامي لمريم العذراء بيدِه تجاهنا فعلينا اعتبارُ ذلك معجزة، لأنَّ كلَّ خبراتنا ومَعارفنا تؤكِّد لنا عجزَ الرخام عن هذه الحركة»[٣]. ثمَّ قال بعدَ ذلك: «فيما يتعلَّق بالتمثالِ الرخامي، فإنَّ الجزيئات تتدافع في الرخام الصلب فيما بينها باتجاهات غير محدَّدة باستمرار: ويلغي التدافع بين الجزيئات المختلفة بعضها بعضًا، فتبقى يدُ التمثال ثابتة. ولكن، لو حدث - بصدفةٍ مطلقة - أنَّ جميع الجزيئيات تتدافع إلى اتِّجاه واحد في اللَّحظة نفسها فستتحرَّك اليد. ففي هذه الحالة يمكن أن يلوِّح التمثال الرخامي. من الممكن أن يحدثَ هذا الأمر، ولكنَّ الاحتمالات المعاكسة لمثل هذه المصادفة يصعب تخيُّلها، ومعَ ذلك فإنه يمكن عدُّها. قام زميلٌ فيزيائي بحسابِ ذلك لي، ووجد أنَّ عدد الاحتمالات كبيرٌ جدًّا بحيث أنَّ عُمر الكون حتَّى يومنا هذا صغير جدًّا لا يكفي لكتابةِ كلِّ الأصفار! من الممكن نظريًّا أنَّ بقرة تقفز فوق القمر، بمثل هذه الاحتمالات الضَّعيفة. إنَّ خلاصة هذا الجزء من النقاش أنه يمكن أن نستعملَ

---

(1) Evolution of Living Organisms (107), by:Pierre P. Grasse, (Academic Press, 1977)

(٢) المصدر السابق (١٣٩)

(3) The Blind Watchmaker (159), by: Richard Dawkins, (Norton, 1996)

الحساب للوصول إلى مناطقَ مِن ضآلة الاحتمال بشكلٍ أكبر بكثير مما نستطيع أن نتخيله معقولًا»[1].

وبيَّن البروفسور ويكير والبروفسور هون أنَّ مبالغات دويكنز في الصدفة وشطحاته في المعجزات له سببٌ؛ إذْ قالا: «فلماذا إذًا هذا الإخلاصُ لهذا الإله العظيم المتقلِّب، الصُّدفة؟ بكلِّ بساطة، يفضِّل دوكينز الإيمانَ بأيِّ شيءٍ عدا الإله»[2]. وقالا أيضًا: «نعتقد أنَّه من العدل أنْ نقول: إن قوَّة إيمان دوكينز بقوى الصدفة مماثلة لقوَّة إيمان معظمِ البَشر بوجود الرب، إنْ لم يكن إيمانه أقوى!»[3].

المثالُ السّابع: شطحاتُ الملاحدة في وجود كائنات فضائية:

مِن أغرب شطحاتِ الملاحدة التي يُختَم بها هذا الباب هوَ ما سبق الكلام عنه من أنَّهم هربوا من الإيمان بخلقِ الخالق لأصل الحياة إلى الإيمان بخلقِ كائنات فضائية لأصل الحياة. وذكرت فيما مضى أنَّ هذا هو ما ذهبَ إليه كلٌّ من فريد هويل وفرانسيس كريك. وهذا أيضًا ما مالَ إليه ريتشارد دوكينز في مقابلته مع الإعلامي بين ستين. وقد أدرجَ بين ستين هذه المقابلةَ في فيلمه الوثائقي: المطرودون (Expelled) بأنه من شطحات دوكينز، ودليل على أنه مستعدٌّ أنْ يؤمن بخرافات ككائنات فضائية - التي لا دليل عليها مِن العلم التجريبي -، وهو في المقابل غيرُ مستعدٌّ أنْ يؤمن بالخالق الذي له في كلِّ شيء آية تدلُّ على أنه واحد.

والمقابلة كالآتي:

قال بين ستين: «مَن خلق السماوات والأرض؟»

قال دوكينز: «لماذا تستعمل كلمة: «من»؟ أنتَ تبدأ مباشرة باستعمال كلمة من».

قال بين ستين: «طيب، كيف خُلق إذًا؟».

---

(١) المصدر السابق (١٥٩ - ١٦٠)، وسبق إيراد الكلام باللغة الإنجليزية.

(٢) المصدر السابق (٢١)

(٣) المصدر السابق (١٩)

قال دوكينز: «عن طريق عملية بطيئة جدًّا».

قال بين ستين: «طيب، ولكن كيف بدأ؟».

قال دوكينز: «لا أحد يعلم كيف بدأ، نعلم نوعية الحادث لظهور الحياة».

قال بين ستين: «وما هو؟».

قال دوكينز: «هو بداية أوّل جزيء متكاثر ذاتيًّا».

قال بين ستين: «طيب، وكيف حصل ذلك؟».

قال دوكينز: «قلت لك: لا نعلم».

قال بين ستين: «فإذًا، أنت لا تدري كيف بدأ؟».

قال دوكينز: «لا، ولا يعلم ذلك أحد».

قال بين ستين: «فماذا تظنُّ في إمكانية أن تصميمًا ذكيًّا هو الجواب عن بعض المسائل في علم الوراثة أو في التطوّر الدارويني؟».

قال دوكينز: «حسنًا، قد يكون بهذه الطريقة، أنه في زمن سابق، في مكان ما من الكون، كانت هناك حضارة، تطوّرت عن طريق الداروينية إلى درجة عالية جدًّا من التكنولوجيا، وصمَّموا النوع من الحياة التي زرعوها ربما على هذا الكوكب. يعني، هذا هو احتمال، وهو احتمالٌ مثير للاهتمام. وأظنُّ أنه من الممكن أن تجد أدلة عليه، بالنَّظر إلى التعقيد في الكيمياء الحيوية، فقد تجد توقيعًا من مصمِّم ما».

فعندَ ذلك يقول بين ستين للبرنامج - وليس في المقابلة نفسها - : «توقّف هنا ثانية، ريتشارد دوكينز يعتقد أنَّ التصميم الذكي هنا قد يكون سعيًا مشروعًا»، ثمَّ استمرَّ دوكينز قليلًا في الكلام، ثمَّ قال ستين من جديد: «يعني، البروفسور دوكينز لا يعارض فكرةَ التصميم الذكي، وإنما يعارض نوعًا معيّنًا من المصمِّمين، مثل: الإله»[1].

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=BoncJBrrdQ8

فشطحاتُ الملاحدة كثيرة، لا تعدُّ ولا تحصى، وهذه بعض النماذج منها فقط التي بيَّنها علماءُ الغرب في ردودِهم على الملاحدة. ومَن تدبَّر هذه الشطحات جيّدًا وجدها كافيةً في إسقاط المذهب الإلحادي من أصله، مع ذلك يبقى دعاة الإلحاد متمسّكين بهذا الباطل. والأمرُ كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

المبحثُ الثّالث

بيانُ تناقضاتِ الملاحدة

الإلحادُ مذهبٌ مبنيٌّ على بطلان وفساد، ومن أبرزِ سمات المذهب الباطل الفاسد أنَّه متناقض؛ وقد أوردَ شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) قاعدةً عامَّة في هذا الباب إذ قال: «وكلُّ مَن خالف الرسول ﷺ فلا بدَّ أنه يتناقض؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾[1]. وقال شيخُ الإسلام (رحمه الله) أيضًا: «فما أعلم أحدًا من الخارجين عن الكتاب والسنة مِن جميع فرسان الكلام والفلسفة إلّا ولا بدَّ أن يتناقض، فيحيل ما أوجبَ نظيره، ويوجبُ ما أحال نظيره، إذْ كلامهم من عندِ غير الله، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2].

والمقصودُ بالتناقض في هذا المبحث هو: «الجمعُ بين مقالات، وأفكار وميزات تعارض بعضها بعضًا»[3].

والملحدُ يعيش حياةً مليئة بتناقضات وفوضى فكرية. وهذا ما اعترف به الملحدُ السابق الأديبُ والبروفسور سي أي لويس، إذْ قال: «كانت حياتي مليئة بتناقضات، وكنتُ أعيش في ذلك الوقتِ ككثيرٍ من الملحدين ومكافحي الألوهية «Anti – theists», في دوران من التناقضات»[4].

---

(١) بغية المرتاد: (٣٩٥)، لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ ت. موسى الدويش).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٠٥).

(3) https://en.oxforddictionaries.com/definition/contradiction

(4) http://www1.cbn.com/700club/meet-creator-narnia-cs-lewis

وقدْ يكون من أسباب كثرةِ تناقضات الملاحدة أنَّ استعمال قوانين المنطق - ومنها منعُ التناقض - غيرُ متوافق مع عقيدتهم؛ وقد بيَّن الدكتور جاسون ليزلي ذلك بقوله: «يشمل التفكيرُ العقلاني استعمالَ قوانين المنطق، ومنها: قانون عدم التناقض، الذي ينصُّ على أنَّك لا تستطيع جمع النقيضين (أ) و (لا أ) بنفس الوقت وبنفس العلاقة. الكلام التالي، مثلًا: «سيارتي في الموقف وليست سيارتي في الموقف». هذا الكلام باطل بالضَّرورة بسبب قانون عدم التناقض. كلُّ شخصٍ عاقل يقبل هذا القانون، لكن لماذا يكون هذا القانون حقيقة؟ ولماذا ينبغي أن يكون هناك قانونُ عدم التناقض، أو لماذا توجَد أيَّة قوانين للتفكير العقلاني؟... ليس قانون عدم التناقض ببساطة رأيًا شخصيًّا عنْ كيفية التفكير... قوانينُ المنطق هي معيارُ الله للعلم... بعبارة أخرى ليست مصنوعة من المادة - بل تنطبق على كلِّ مكان وزمان... لا يمكن الملحدُ المادي أن يكونَ عنده قوانين المنطق، إذ أنه يعتقد بأنَّ كلَّ شيء موجود عبارة عن مادة - جزء من العالم الفيزيائي، لكن قوانين المنطق غير فيزيائية (غير مادية)... ولا يمكن أن توجد قوانينُ المنطق في عالم الملحد، ورغمَ ذلك فهو يستعملها ليحاول أن يستنتج، ويعدُّ هذا عدم اتِّساق عنده»[١].

والملاحدةُ الجدد - وعلى رأسهم لورانس كراوس - يتبنَّى العلموية بشدَّة، ويرى أنه لا بدَّ أن نبني جميعَ معتقداتنا على العلم التجريبي، حتى ولو خالف التفكير المنطقي المعروف. وفي مناظرةِ كراوس المشهورة معَ البروفسور وليام لاين كرايغ أظهر تحتَ قميصه قميصًا قصيرَ الكمَّين مكتوب عليه: «٢ + ٢ = ٥ لقيم كبيرة جدًّا لـ٢» ثمَّ قال: «هذا يستحقُّ ألفَ كلمة. لأنَّه، طيب، طيب،٢ + ٢ = ٥، قميصه يقول: لقيم كبيرة جدًّا لـ٢. فهذا مهمٌّ جدًّا، لأنَّ الحقيقة أن المنطق الكلاسيكي يقول إن ٢ + ٢ لا يمكن أن يكون ٥. وهذا خطأ. علماءُ الرياضيات والفيزياء يعلمون أنه يمكن تغيير هذه القوانين للقيم الكبيرة للأعداد»[٢].

---

(1) A Pocket Guide to Logic & Faith (66)

(2) https://www.reasonablefaith.org/media/debates/the-craig-krauss-debate-at-north-carolina-state-university/

وهذا التقريرُ يفتح بابًا خطيرًا لجواز الوقوع في التناقضات، لأنَّ كراوس - ومَن معه مِن الملاحدة - يروْن أنَّه يجوز بناءُ الاعتقادات على ما يخالف المنطق السليم إن دلَّ عليه العملُ التجريبي. وقد سبقَ ما يعتري العلم التجريبي من التغيّرات والنقص، ولا سيَّما العلم التجريبي ذا الطابع التاريخي مثل: علم الكون - الذي هو تخصُّص كراوس -.

فمثلُ هذه التقريرات تبيِّن لنا أحدَ أسباب كثرة وقوع الملاحدة في المغالطات المنطقية والشطحات - كما سبَق -، وكذلك الوقوع في التناقضات كما سيأتي بيانه هنا.

وبيانُ التناقضات هو مِن أساليب علماء الغرب في نقد الإلحاد المعاصر، فقد بيَّنوا في مواضعَ كثيرةِ التناقضات الكثيرة الموجودة في الفكر الإلحادي المعاصر:

- **التناقضُ الأوَّل: الكونُ خلقَ نفسَه من العدم - العدم كان موجودًا قبل الخلق:**

اكتشف علماءُ الفلك في القرن العشرين أنَّ للكون بداية، وقد أشكل ذلك كثيرًا على الملاحدة؛ لأنَّ المنطق السليم يقتضي أن كلَّ حادث لا بدَّ له من محدث. وللخروج مِن هذا الإشكال تسفسطَ الملاحدةُ كثيرًا في هذا الباب. وقد سبق الحديث عن شطحاتِ الملاحدة كلوارنس كراوس وريتشارد دوكينز في تعريفهما للاشيء.

وأمّا الملحدُ ستيفن هوكينغ فكتبَ مع زميله لوراند مليدينوف في كتابيهما: التصميم العظيم عنْ هذه القضية الجملة المتناقضة: «وحيث إنَّه وُجد قانون مثل الجاذبية، فإنَّ الكون يستطيع وسوفَ يخلق نفسَه من العدم»[1]. وهذه الجملة القصيرة - وهي الحجة الأساسية عنده للخلق الذاتي للكون - في غاية التناقض؛ قال البروفسور جون لينوكس رادًّا على هوكينغ: «لاحظ الادِّعاء الأوَّل من قوله: «وحيث إنه وُجد قانون مثل الجاذبية...» يزعم هوكينغ أنَّ قانون الجاذبية موجود. ولهذا يفترض أن الجاذبية نفسها موجودة، للسَّبب البسيط أنَّ قانونًا رياضيًّا مجرّدًا يكون فارغًا بنفسه إذا لا يستطيع أن يصف شيئًا... وعلى كلِّ حال، القضيةُ الرئيسة الآن هي أنَّ قانون الجاذبية والجاذبية ليست لاشيء، إن كان يستعمل الكلمةَ بطريقته الفلسفية

(1) Grand Design (180)

الصحيحة بمعنى عدم الوجود. وإن لم يكنِ الأمرُ كذلك فينبغي له أن يبيِّن مرادَه لنا. وعلاوة على ذلك، فإنه يبدو أنَّ هوكينغ يزعم أنَّ الكون خُلِق من العدم، ومِن شيء في الوقت نفسه، وهذه بداية غير موفَّقة...

والأمرُ لا يزداد حسنًا عندما ننطلق إلى منطقِ هوكين في الجزء الثاني من قوله: «فإن الكونَ يستطيع وسوفَ يخلق نفسه من العدم». هذا الادِّعاء متناقض ذاتيًّا. لو قلنا: «إنَّ X خلق Y » فإنَّنا نفترض وجود X في البداية قبل إيجاده Y. هذا ما يُفهم بسهولة من جملة «X خلق Y». وإن كنَّا نقول: «X خلق X» فإننا نزعم وجود X لكي يكون سببًا في وجود X. لا شكَّ أنَّ هذا متناقض، بالتالي غير مقبول منطقيًّا، حتى ولو كان X هو الكون!»[1].

- **التناقضُ الثّاني: الكونُ ليس بحاجةٍ إلى سبب - الإله بحاجة إلى سبب:**

الحقيقةُ العلمية الثابتة أنَّ للكون بداية تقودُ إلى السؤال الحتمي: مَن أخرج الكون مِن العدم إلى الوجود. والملاحدةُ ينزعجون من هذا السؤال كثيرًا؛ ففي مقابلة الإعلامي بين ستين معَ ريتشارد دوكينز - على سبيل المثال - قال ستين: «من خلق السماوات والأرض؟». فبادرَه دوكينز منزعجًا بالجواب: «لماذا تستعمل كلمة: «من»؟ أنت تبدأ مباشرةً باستعمال كلمة من!»[2]. وكما أنَّهم ينزعجون من سؤال: «من» فإنهم لا يحبّون سؤال: «لماذا». ويرى الملحدُ لوارنس كراوس أنه يجب الحذر من سؤال مثل: (لماذا)[3]. وذلك أنَّ هذين السؤالين: من خلق الكون؟ ولماذا وُجد الكون؟ من الأسئلة التي تطرح على أذهانِ أكثر الناس، ولا يجد الملاحدة لهما جوابًا.

ثمَّ بعدَ انزعاج الملاحدة من سؤالي: (من)، و(لماذا)، فإنهم يتناقضون ويكونون أوّلَ مَن يسأل هذا السؤال عن الخالق؟ فيقولون: إن كان اللهُ خلقَ كلَّ شيء، فمن خلق الخالق؟ وقد جعلَ ريتشارد دوكينز هذا السؤال حجتَه الرئيسة في كتابه المشهور: وهم الإله[4].

---

(1) God and Stephen Hawking (29-31)

(2) https://www.youtube.com/watch?v=BoncJBrrdQ8

(٣) انظر: Universe from Nothing (146), by: Lawrence M. Krauss, (Free Press, 2012)

(٤) انظر: The God Delusion (188 - 189)

فالملحدُ يرى أنَّ الحقيقة المطلقة هي الكون، ولذلك لا ينبغي السؤالُ عمَّن أوجده ولا لماذا وُجِد، والمؤمن يرى أنَّ الحقيقة المطلقة النهائية هي الله، ويمنع سؤال: من خلق الله؟؛ قال أوستين فارير[1]: «القضيةُ بين الملحد والمؤمن لا تتجلَّى في السؤال عن الحقيقة النهائية، بل هو السؤال: ما هي الحقيقةُ النهائية؟ الملحد يرى أنَّه الكون، والمؤمن يرى أنَّ الحقيقة النهائية هي الإله»[2].

ولكنْ هناك فرقٌ عظيم بينَ سؤال: «مَن خلق الكون؟»، وسؤال: «مَن خلق الله؟»؛ فالسؤالُ الأوَّل مشروع؛ لأنَّ الملحد يعترف أنَّ الكون له بداية. وأمّا السؤال الثاني فإنه غيرُ مشروع؛ لأنَّ المؤمن يعتقد أنَّ الله هو الأوَّل بلا بداية. وقد بيَّن البروفسور جون لينوكس الفرقَ بين السؤالين بقوله: «إن كان أحدٌ يرجع إلى الإله كالجواب عن سؤال: لماذا، كما أفعله أنا بدون استحياء، فإنَّ هوكينغ يقول: «من المعقول أن تسأل: من أو ماذا خلق الكون، ولكن إنْ كان الجواب هو الإله، فإنَّ السؤال فقط ينحرف إلى مَن خلق الإله؟»[3]... إنْ كان الجواب هو: قانون الجاذبية حسب حجة هوكينغ، فإنَّ السؤال ينحرف إلى: مَن خلق قانون الجاذبية؟ وهوَ لا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال. حجَّة هوكينغ إنما تدلُّ على أنَّه قاصر الفهم للمراد بالإله. السؤال: مَن خلق الله يفترض أنَّ الإله كائن مخلوق. وهذا ليس هو مفهوم المسيحيّين - وليس اليهود والمسلمين كذلك -. الإله أزلي، الحقيقةُ المطلقة. السؤال عمَّن خلقه يدلُّ على عدم فهم حقيقته»[4].

---

(١) أوستين فارير (Austin Farrer): فيلسوف ولاهوتي بريطاني، وكان عميد إحدى الكليات في جامعة أكسفورد ثمان سنوات. وقد ألَّف عشرات الكتب اللاهوتية. توفي عام: ١٩٦٨م. انظر:
https: / /www.giffordlectures.org /lecturers /austin – marsden – farrer

(2) A Science of God (33-34)

(٣) انظر: The Grand Design (١٧٢)

(4) God and Stephen Hawking (68)

- **التناقضُ الثّالث: لا دليلَ إلّا من العلم التجريبي - هذا الادِّعاء غيرُ مبنيٍّ على دليل من العلم التجريبي:**

سبقَ أنَّ العلموية من أهمِّ أسس الملاحدة المعاصرين، وأنهم يرون أنه لا يمكن الاعتمادُ إلّا على الدليل العلمي. وأمّا الدليل الفلسفي، فليس له اعتبار حيث أنهم يروْن أنَّ الفلسفة قد ماتت. وأمّا الدليلُ النقلي من كتاب ديني - مثل: الكتاب المقدَّس أو القرآن الكريم - فهُم أشدُّ المحاربين له.

وقد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ تقرير مذهب العلموية متناقض ذاتيًّا؛ فقال البروفسور وليام لاين كرايغ: «العلموية متناقض ذاتيًّا. العلموية تقول لنا ألّا نؤمن بأي قضية إلا ما يمكن إثباتُه عن طريق العلم التجريبي. ولكن، ماذا عنْ هذه المقولة نفسها؟ لا يمكن إثباتُها عن طريق العلم التجريبي. العلموية توقع نفسها في الهزيمة»[1].

وقد فصَّل البروفسور جون لينوكس في ذلك أكثرَ، إذْ قال: «وما يدمِّر العلموية تمامًا هو الخطأ القاتلُ من التناقض الذاتي اللازم فيها، فلا حاجة لنقد العلموية بحجة من خارجها: فهي تدمِّر نفسَها ذاتيًّا... عبارة «العلمُ فقط يمكنه استنتاج الحقيقة» ليست عبارة مُستنتجة من العلم، فهي ليست عبارة علمية، ولكنها عبارة تتحدَّث عن العلم، فهي عبارة فوقَ علمية (Metascientific). وهكذا، فإنْ كان مبدأ العلموية الأساسي حقيقيًّا فالعبارةُ التي تعبِّر عنها خاطئة، فمذهبُ العلموية ينقد ذاته، وهو غير متماسك»[2].

- **التناقضُ الرّابع: ولا يوجد معيارٌ أخلاقي موضوعي للخير والشَّر - الدين شرٌّ:**

لا يمكنُ في عالم الملحد أنْ يكون هناك معيارٌ أخلاقي موضوعي يحتكم إليه جميعُ الناس. فالكون مجرَّد ذرَّات وُجِد بلا تصميم ولا غاية، فلا يمكن أن يكون فيه خير وشرٌّ موضوعيَّان، كما كتبَ ريتشارد دوكينز: «الكون الذي نشاهده توجد فيه

(1) https://www.reasonablefaith.org/writings/question-answer/is-scientism-self-refuting

(2) God's Undertaker (42)

الخصائص التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة بلا تصميم، ولا هدف، **ولا شرٌّ ولا خير**، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[1].

والإنسانُ حيوان متطوِّر، وكما هو معلوم، فليس الحيوان مسئولًا من الناحية الأخلاقية؛ فلا يُقال للأسد: أخطأتَ في قتل الغزال وأكله. ومعَ ذلك يتناقض ريتشارد دوكينز في هذا الباب فيصف الكثير من أعمال الخير والشَّر بطريقةٍ موضوعية - بعيدًا عن أن تكون آراءه الشخصية فقط -.

وقد ألزمَه بذلك البروفسور وليام لاين كرايغ باستخراج مواضع مِن كتبه وهو يتحدَّث عن الأخلاق الحسنة يذمُّ تصرُّفات المتديِّنين - كما هي عادته -. ثمَّ ذكر أنه من الصَّعب التصديقُ بأنَّ جميع الإثباتات والاستنكارات الأخلاقية الساخنة لدوكينز ليست معدَّة فعلًا لأنْ تكون أكثرَ من رأيه الشخصي. فالتأكيد على الواجبات والقيم الموضوعية لا يتوافق مع إلحادِه، وحسبَ المذهب الطبيعي فنحن مجرَّد حيوانات، قرود متقدمة نسبيًّا، والحيوانات ليست مسئولة أخلاقيًّا[2].

- **التناقضُ الخامس: مشكلةُ الشَّر دليلٌ على الإلحاد - لا يوجد خيرٌ ولا شرّ:**

مشكلةُ الشَّر من الحجج الأساسية للملاحدة. وهذه الشبهة مبنية على مقدِّمتين ونتيجة:

المقدِّمةُ الأولى: إذا كان يوجد إلهٌ كاملُ القدرة والمعرفة والخير بالعالم، إذًا، لن يوجَد الشر..

المقدِّمة الثّانية: يوجد شرٌّ في العالم.

النَّتيجة: إذًا، فإنَّه لا يوجد إلهٌ كاملُ القدرة والمعرفة والخير في الآنِ ذاته.

فالمقدِّمة الثانية مبنيَّة على وجود شرٍّ في الكون. ولا يمكن وجود الشَّر الموضوعي في عالم الملحد، كما اعترف به ريتشارد دوكينز نفسه. ولا شكَّ أنَّ

---

(1) River out of Eden (133)

(٢) انظر: God is Good God is Great (18 - 19)

هذا من تناقضات الملاحدة. وقد بيَّن البروفسور وليام لاين كرايغ هذه القضيةَ بقوله: «رغم أنَّ المعاناة تشكِّك على المستوى السطحي في وجود الله، إلّا أنها على مستوى أعمق تثبت وجودَ الله. إذ إنَّه في غياب الله لا تمثِّل المعاناةُ شيئًا قبيحًا. إذا آمنَ الملحد أن المعاناة شيء سيّئ أو أنَّها أمر يجب ألّا يكون، فهو بذلك يقدِّم أحكامًا أخلاقية لا يمكن أن توجد إلّا إذا وُجد الله»[1]. «بعبارة أوضح، وأفصح، لا يمكنُ للملحد أن يستدلَّ بالشَّر الموجود في العالم لنفي وجود الله حتى يقرَّ بوجود الخير والشَّر، ولا سبيل للإقرار بقيمتي الخير والشَّر حتَّى يقرَّ الملحد بوجود المعيار الموضوعي، ووجودُ المعيار الموضوعي الأخلاقي غيرُ ممكن دون مشرِّع أخلاقي غيرِ مادي، وهذا المشرِّع هو الله الذي تسعى الحجةُ الأخلاقية المعتمدة على الشَّر لنفيه! فلا سبيل لاعتماد حجة الشَّر لإثبات الإلحاد حتى يُنقض الإلحاد بإثباتِ وجود الله، فغايةُ الملحد ووسيلته لذلك تتنافيان (Mutually Exclusive)»[2].

وقد أعادَ وليام لاين كرايغ شبهةَ الملاحدة في وجود الشَّر إلى دليل على وجود الله بصياغة الحجة التالية:

١) إذا كان اللهُ غير موجود، فالقيمُ الأخلاقية الموضوعية غير موجودة.

٢) الشرُّ موجود.

٣) إذًا، المعاييرُ الأخلاقية الموضوعية موجودة.

٤) إذًا، اللهُ موجود»[3].

---

(1) On Guard: Defending Your Faith with Reason and Persuasion (162)

(٢) مشكلة الشَّر ووجود الله (٦٢ - ٦٣).

(3) Hard Questions, Real Answers (107)

- **التناقضُ السّادس: الدينُ يدْعو إلى العنف - الملاحدة أكثرُ الناس دعوةً للعنف:**

كان سام هاريس مَن أشعلَ شرارة مذهب الإلحاد الجديد بكتابه: نهاية الإيمان. وهو مِن أشدِّ الفرسان الأربعة هجومًا على الأديان - ولا سيَّما الإسلام - بتهمةٍ أنه يدْعو إلى الإرهابِ والقتل. وهذا هو ديندنُ الملاحدة الجدد في كتبهم. ومن حججهم الرئيسة أنَّ الأديان شرٌّ يجب التخلُّص منها[١]. وهذا التَّضخيم كلّه، وكأنهم نسوا أو تَناسوا أنَّ مِن أكثر الناس قتلًا عبر التاريخ، هُم الملاحدة! كتب البروفسور جون لينوكس: «أوَلم يقرأ دوكينز، وهيتشن وهاريس الكتاب الأسود للشيوعية (Black Book of Communism) الذي نجد فيه: «الأنظمة الشيوعية... حوَّلت الإجرام الجماعي إلى نظام الحكومات» وماتَ بسببه ٩٤ مليون نسمة، منهم ٨٥ مليون في الصين وروسيا فقط؟»[٢].

ودوكينز يُكثر من انتقاد الأديان بسبب أفعال بعض المنتسبين إليها، ولكن عندما يأتي إلى جرائم الملاحدة واللادينيّين كستالين وهتلر فإنَّه يقول: «ليس من المهمِّ ما إذا كان هتلر وستالين من الملاحدة، بل المهمُّ ما إذا كان الإلحاد يؤثِّر في الإنسان بطريقة منظَّمة أنْ يفعل أشياء سيئة. ولا يوجد أدنى دليلٍ على أنه يفعل ذلك»[٣]. فيحمِّل الأديان مسئوليةَ أفعال بعض المنتسبين إليها، ولا يحمِّل الإلحاد مسئولية أفعال بعض المنتسبين إليها. وكتبَ البروفسور سكوت هون والبروفسور بنيامين ويكير في الردِّ على هذه الانحيازية المتناقضة: «ينبغي أن نحكمَ على الإلحاد بالإلحاد، والمسيحية بالمسيحية، كلٌّ بمبادئه. وفي ذلك الوقت فقط نستطيعُ أن نحكم على المنتسبين بالأخلاقية أم لا. فيحكمُ على الملاحدة إذا كانوا يمتثلون الإلحاد، وعلى المسيحيين ما إذا كانوا يمتثلون المسيحية»[٤].

وهذه النقطة مهمَّة جدًّا في هذه المسألة؛ لأنَّ الإلحاد يقود حتمًا إلى الفلسفة العدمية والنسبوية الأخلاقية - كما سبق بيانُه -، وبذلك يفتح الباب على مصراعيه للقَتلة الشيوعيين.

---

(١) انظر على سبيل المثال: God is Not Great (15 - 37), The God Delusion (268 - 297)

(2) Gunning for God (88)

(3) The God Delusion (309)

(4) Answering the New Atheism (94)

ولا يمكن للملحد – وإن تظاهرَ بعكسه – أنْ يقول إنَّ الإبادة الجماعية الشيوعية كانت خطأً من الناحية الموضوعية، بل لا يعدو في النهاية إلى أنْ يكون آراء دوكينز الشخصية أنَّ هذه الأفعال كانت قبيحة وسيئة. ويقول الشيوعي إنه لا يرى ذلك، وإنما كانت ضرورية لقيام دولهم المجرمة. فالإلحادُ قد أثَّر في الملاحدة القتلة تأثيرًا سلبيًّا كبيرًا بالطريقة المنظَّمة، وهو الأساس لهذه الإبادة الجماعية رغم أنف دوكينز ومَن معه.

وقد خرجَ من أفواه الملاحدة الجدد التقريراتِ المؤصِّلة للقتل والعدوان. فالشيوعيون أرادوا القضاءَ على الأديان بأيِّ وسيلة من الوسائل. وسام هاريس يقول: «لو كان بإمكاني الحصولُ على عصا سحرية، واستطعت القضاءَ إمّا على الاغتصاب أو الدين، لما تردَّدت أبدًا في القضاء على الدين»[1]. وقرَّر في كتابه: نهاية الإيمان – الذي اتّهم الأديان بأنها تدْعو إلى العنف – التقرير الآتي: «بعضُ المسائل من الخطورة بمكان بحيث يمكنُ أن يكون قتلُ مَن يعتقدها أخلاقيًّا»[2]. فهو يريد القضاءَ على الأديان، ويبرِّر لنفسه ولأتباعه القتلَ في سبيل ذلك. وقد قال البروفسور جون لينوكس معلّقًا على هذه العبارة: «ونحتاج أن نسألَ السؤال: هل ستكون عند الملاحدة الجدد السلطة في نهاية الأمر أنْ يختاروا ما هي هذه المسائل التي يبرِّر القتل، ومَن سينفِّذ هذا الحكم؟»[3].

وهاريس الذي يلوم الإسلامَ بأنه وراء القتل والعدوان يقول إنَّ الدول الغربية في الحرب مع الإسلام: «حان الوقتُ أن نعترف أنَّنا لسنا في حالة حرب مع الإرهاب. نحنُ في حربٍ مع الإسلام. لا يعني ذلك أنَّنا في حرب مع جميع المسلمين، ولكن لا شكَّ أنَّنا في حرب مع منظور الحياة الذي هو مذكور لجميع المسلمين في القرآن»[4].

---

(1) Sun Magazine
http://thesunmagazine.org/issues/369/the_temple_of_reason?page=2

(2) The End of Faith (52)

(3) Gunning for God (94)

(4) http://www.washingtontimes.com/news/2004/dec/1/20041201-090801-2582r

ولا يمانع مِن استخدام السلاح النووي ابتداءً إذا حصلت دولة إسلامية على القنبلة النَّووية؛ فيقول: «في مثل هذه الحالة فإنَّ الخيار الوحيد لضمان بقائنا قد يكون أن نبدأ نحن بضربةٍ نووية أولًا. لا ريبَ أن هذه جريمة غير منطقية - لأنه يؤدّي إلى قتل عشرات الملايين من المدنيّين في يوم واحد -، ولكن قد يكون الخيارَ الوحيد لنا إذا علمنا ما يعتقده الإسلاميون»[١].

فأيُّ تناقض أعظم مِن هذا التناقض؟ العملية الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر راحَ ضحيتها أقلّ من ثلاثة آلاف شخص. وكانت هذه العملية الحادث الذي قاده إلى هجومِه اللاذع للأديان، ثمَّ يبرِّر قتل عشرات الملايين من الناس بعد ذلك بالقنبلة النووية!

- **التناقضُ السّابع: الأديانُ تحارب النظرياتِ العلمية المخالفة لعقائدها - الملاحدةُ مِن أكثر الناسِ محاربة للنظريات العلمية المخالفة لعقيدتهم:**

يصوِّر الملاحدةُ أنَّ الدين في صراعٍ دائم مع العلم التجريبي، وأنَّ العلم التجريبي قد ألغى مبرراتِ الإيمان؛ فقال البروفسور الملحدُ بيتر أتكنز على سبيل المثال: «لا يمكن أن يتصالح العلمُ والإيمان، وعلى البشرية أن تبدأ بتقديرِ قوة ابنها، وترفض كلَّ محاولات التَّسوية، فلقد فشلَ الدين، ويجب كشفُ حالات فشله للناس على الملأ، أما العلم فلنجاحِ مسيرته ووصوله إلى الكفاءة العالمية بمعرفة الحدِّ الأدنى فيشكِّل متعة الفكر العليا ويجب تتويجه ملكًا»[٢].

ويقدِّم الملاحدةُ فرضية تسمَّى: «فرضية المعارضة» (Conflict Thesis)، بأن الأديان كانتْ في صراع مستمرٍّ مع العلم التجريبي[٣]. فإذا خالف العلم التجريبي معتقدًا من المعتقدات الدينية عارضه رجالُ الدين وحاربوه، وكلَّ مَن تبنَّاه.

هذه الفرضيةُ في أصلها غيرُ صحيحة؛ لأنَّ الصراع لم يكن بين العلم التجريبي

---

(1) End of Faith (128-129)

(2) Nature’s Imagination-The Frontiers of Scientific Vision (132)

(٣) انظر: God’s Undertaker (23-24)

والإيمان، وإنَّما كان بين رؤيتين مختلفتين للعالم، هما: المذهب الإلهي (Theism) والمذهب الطبيعي (Naturalism)؛ قال البروفسور دون لينوكس: «هناك صراع حقيقي، ولكنّه ليس صراعًا بينَ العلم والإيمان أبدًا، ولو كان كذلك فالمنطقُ البسيط يقتضي أن يكون العلماء كلهم ملحدين، وغير العلماء فقط هم المؤمنون بالله، ولكن كما شاهدنا ليس هذا واقعَ الحال، بل إنَّ الصراع الحقيقي يوجد بين رؤيتين متعاكستين تمامًا للعالم؛ المذهب الطبيعي والمذهب الإلهي، ولا بدَّ لهما أن يتصادما»[1].

فالصراعُ ليس بينَ العلم التجريبي والإيمان، وإنما الصراع بين العلم التجريبي المبني على المذهبِ الإلهي، والعلم التجريبي المبني على المذهب الطبيعي. وكما أن المتديِّنين يعارضون العلمَ التجريبي المبني على المذهبِ الطبيعي، فإنَّ الملاحدة يعارضون العلم التجريبي المبني على المذهب الإلهي.

والملاحدةُ يذكرون أمثلةً من التاريخ على معارضة رجال الدين من الكنيسة – وكانوا في ذلك الوقت في كثيرٍ من الأحيان من العلماء التجريبيّين –، وفي الوقت نفسه هُم من أشدِّ الناس محاربةً لكلِّ عالم يعارض النظريات العلمية المبنية على المذهب الطبيعي.

وقد سبق أنَّ الدكتور جيري بيرغمان ألَّف كتابه: ذبح المنشقِّين.. الحقيقة الصادمة عنْ حقيقة قتل مهن المتشكِّكين في الداروينية (Slaughter of dissidents.. the shocking truth about killing the careers of Darwin Doubters) واصفًا الإرهاب النفسي الذي يمارسه الملاحدةُ الجدد تجاه معارضيهم في الأوساط العلمية. وقد بنى هذا الكتاب على مقابلة ثلاثمائة عالم وأكاديمي وطالب جامعي في دراسات العلوم، وما منهم أحدٌ إلّا واشتكى مِن الإقصاء في الجامعات الغربية بسبب عدم موافقتهم للمذهب الدارويني.

فهذه بعضُ تناقضات الملاحدة العجيبة التي بيَّنها علماءُ الغرب، وإن كانت التناقضاتُ أكثر من ذلك. إذًا، الإلحادُ أعظم باطل. وكلَّما بعدت عقيدة عن نور النبوّة فإنها تكون أكثر تناقضًا!

---

(١) المصدر السابق (٢٨ – ٢٩)

المبحثُ الرّابع

بيانُ ضعفِ خطابِ الملاحدة

الدعوةُ إلى الإلحاد في هذا الزمان تكاد تكون منحصرةً في دائرة دعاة الإلحاد الجديد. ولا يكاد يتأثَّر الناسُ بالملاحدة غير المتبنِّين لهذا المنهج الحماسي العدواني. لا شكَّ أنه توجد كتبٌ لملاحدة غير متطرِّفين، ولكنَّها لا تتلقَّى قبولًا بين الملاحدة مثل كتبِ الملاحدة الجدد، ولا تشكِّل خطورة كبيرة على المتديّنين.

ولذلك، فإنَّ علماء الغرب يركِّزون على نقدِ خطاب الإلحاد الجديد، ويردُّون على رموزِه وكبتهم، ولا يتطرَّقون لبقية الملاحدة إلّا قليلًا. فبنقدِ خطاب الإلحاد الجديد يكاد يسقط الخطابُ الإلحادي المعاصر برمَّته، ولا يبقى لسائر الملاحدة ذكرٌ.

ومِن أساليب علماء الغرب[1] في نقدِ الإلحاد: بيانُ ضعف خطاب الإلحاد الجديد، وهزالته ووهنِه. وقد فعلوا ذلك مِن أوجهٍ متعدِّدة؛ وهذه سبعة منها:

الوجهُ الأوَّل: ضعفُ الحجج العقلية:

الملاحدةُ الجدد يبالغون كثيرًا في العلم التجريبي، ويرفعونَ من شأنه، ويهتمون به اهتمامًا كبيرًا. ولكنَّ كتبهم الدعوية إلى الإلحاد ليست كتبًا متعلّقة بتخصّصاتهم في العلم التجريبي، بل هي كتبٌ تتناول قضايا فلسفية ودينية، وهو علمٌ لا يجيده الملاحدة الجدد. فريتشارد دوكينز مثلًا - الذي هو زعيم الملاحدة الجدد وأشهرُ دعاتهم - هو عالم الأحياء، وليس عندَه خلفية دينية فلسفية. ومعَ ذلك، فكتابُه الأشهر: وهم الإله؛

---

(١) سيتمُّ النقلُ عن بعض الملاحدة في نقدِ خطاب الإلحاد الجديد في هذا الفصل أيضًا لبيان أنَّ هذا الخطاب ليس منبوذًا بين المتديِّنين فقط؛ بل هو منبوذ حتى بين الملاحدة أنفسهم.

كتابٌ ديني فلسفي[1]، فدوكينز يناقش قضايا لاهوتيةً دينية ومسائلَ فلسفية عقلية بجهل مركَّب. وحتَّى لما ناقش القضايا العلمية مثل: نظرية التطوُّر، في هذا الكتاب وغيره، فإنه يخرجُ عن طريقة كتابة الأبحاث العلمية التجريبية إلى الاستدلال بهذه النظرية على قضايا دينية فلسفية - وهذا ليس مِن اختصاص العالم التجريبي أيضًا -. ولهذا، فإن كتاب: وهم الإله، كتابٌ لرجل متخصِّص في علم معيَّن، يكتب في غير تخصُّصه في علم هو مجرَّد هاوٍ فيه. وإذا تكلّم المرءُ في غير فنِّه أتى بالعجائب.

وقد بيَّن البروفسور ألفن بلانتنغا ضعفَ خطاب دويكنز الفلسفي بقوله: «مناوشاتُ دوكينز في الفلسفة هي في أحسن الأحوال تعادل نقاشاتِ طلبة السنة الجامعية الثانية، ولكنَّه سيكون غيرَ عادل بالنسبة لهؤلاء الطلبة؛ الحقيقة أن (مع وضع ضخامةِ الدرجة جانبًا)، فإنَّ العديد من نقاشاته سوف تستحقُّ علامةَ الرسوب في صفِّ الفلسفة لطلاب السنة الجامعية الثانية»[2].

ويشاركه ستيفن هوكينغ في معرفة العلم التجريبي مع الضَّعف الشديد في الاستدلال العقلي. فهوكينغ يعتبر مِن أشهر علماء الفيزياء والكون في هذا العصر، ولكنّه ضعيفٌ في الاستدلال العقلي والفلسفة - بل يعتبر أنَّ الفلسفة قد ماتت -. فعندما يتحدَّث عن الجانب العلمي، فإنه يبهرُ القارئ لغزارة علمه، ولكن، عندما يخرج عن هذا الموضوع إلى القضايا الدينية الفلسفية فإنَّه يأتي بمضحكات مُبْكيات؛ فكتابه: التصميم العظيم، يتناول بعضَ الجوانب العلمية، ثمَّ لما يأتي إلى زبدةِ كتابه، ويحاول أن يستدلَّ بالنظريات العلمية على إنكار وجود الله فإنَّه يقول: «وحيث إنَّه وُجد قانون مثل الجاذبية، فإن الكونَ يستطيع وسوف يخلق نفسَه من العدم»[3]. وهذه الجملة ليست جملةً علمية، بل هي استدلالٌ عقلي بالعلم التجريبي على قضيةٍ دينية.

---

(١) وقد أشار إلى ذلك البروفسور ألفن بلانتنغا في مقاله: The Dawkins Confusion (http://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html).,

(٢) المصدر السابق

(3) Grand Design (180)

وهي جملة في غاية التناقض. وقد بيَّن البروفسور جون لينوكس ذلك بقوله: «يندرُ أنَّ أحدًا يجد جملة واحدة تشتمل على درجتيْن مختلفتين من التناقض، ولكنْ يبدو أنَّ هوكينغ استطاع أن يكتبها. هو يقول: إن الكونَ يخرج من لاشيء الذي ظهرَ أنه شيء (وهو التناقض الأوَّل)، ثمَّ يقول إن الكون يخلقُ نفسه (وهو التناقض الثاني[١]). والوقوع في التناقض مرَّتين في جملة واحدة يندر في كلامِ الجهَّال، ومعَ ذلك فقد فعله هذا العالمُ الذي يُشار إليه بالبنان في العلم التجريبي. فدلَّ ذلك على ضعفه في الاستدلال العقلي وتخبّطه فيه.

ومثالٌ آخر على هذا الأمر هوَ لوارنس كرواس؛ فهو عالم متخصِّص في علم الكون، وله أكثرُ من ثلاثمائة بحثٍ علمي منشور عن هذا العلم المعقّد، ومع ذلك فقدرتُه على المناظرة واستدلاله العقلي في غايةِ الضعف. ومما يبيِّن ذلك: ما وقع في مناظرته معَ وليام لاين كرايغ - وهو بروفسور في الفلسفة -، فكان كرايغ من بدأ الحوار، ثمَّ لما انتقل الدورُ إلى كراوس قال: «الدكتور كرايغ مناظرٌ محترف، وأنا لست كذلك. في الحقيقة، أنا لا أحبُّ المناظرات»[٢]. ثمَّ قال: «هذه المناظرة بعنوان: (هل هناك أدلة على وجودِ الله)... هي ليست مناظرةً عن الفلسفة، التي هي مجالُ تخصُّص كرايغ. وأنا لا آتي لكي أتكلَّم عن علم العلامات (Semiotics) أو استحالة الشكلية (Transubstantiation)، لأنِّي أعرف أنني ربَّما غيرُ مختصٍّ للكلام عن هذا الأمر»[٣]. ومع هذه الإقرارات المهمَّة فإنَّه يستطرد بعدَ ذلك مباشرة في المناظرة محاولًا أن يستدلَّ على إلحاده بالفلسفة. فهذا الرجل يعترف بضعفِه في المناظرات، وعدم تخصُّصه في الفلسفة، ومع ذلك يناظر فيلسوفًا بحججٍ فلسفية. وهذا ديدنُ الملاحدة الجدد في كتبهم ومناظراتهم. اغترّوا بما عندهم من العلم في بعض الجوانب فدخلوا فيما لا علمَ لهم به. وهذا مما يُضعف خطابَ الإلحاد الجديد كثيرًا.

---

(1) God and Stephen Hawking (31)

(2) https://www.reasonablefaith.org/media/debates/the-craig-krauss-debate-at-north-carolina-state-university/

(٣) المصدر السابق

الوجهُ الثّاني: كثرةُ المغالطات المنطقية:

حينما ضَعُف التفكيرُ المنطقي والاستدلالُ العقلي عند الملاحدة الجدد تميَّز خطابهم بكثرةِ المغالطات المنطقية. وقد كتبَ البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير في مقدِّمة ردِّهما على ريتشارد دوكينز عن ضعف خطابِ الإلحاد الجديد، حتى استغربَا كثيرًا أنه يوجد أناسٌ تأثَّروا بأمثال دوكينز بسبب هذا الضعف[1]. وقد ذكرَا عدَّة نقاط هامَّة عنْ هزالة هذا الخطاب، ومنها: كثرةُ المغالطات المنطقية؛ فقالا: «إضافة إلى نغمته السَّاخرة، فإنَّ لدى دوكينز ميلًا إلى الوقوع في مغالطات منطقية وأخطاء حقيقية بطريقة محيّرة»[2].

وقد سبق أنَّ بعضَ علماء الغرب أفردوا مصنَّفات لبيان مغالطات الملاحدة المنطقية لكثرتِها. ولا يكاد يقدِّم الملاحدة الجدد حجّةً من الحجج إلّا وهي مشتملة على مغالطة مِن المغالطات المنطقية. فالذي لم يدرسْ هذا الفنَّ ولم يطَّلع على خباياه ربَّما يغترُّ بهذه الحجج الهزيلة، ولكنْ مَن كان لديه إلمام - ولو يسيرًا - بهذا الأمر فإنَّه يدرك مدى كثرة هذه المغالطات في كلامِهم، ومن ثمَّ يأمن التأثُّر بشبهاتهم إلى حدٍّ كبير.

الوجهُ الثّالث: السطحيةُ وعدمُ العمق:

خطابُ الإلحاد الجديد ليس ضعيفًا من ناحية الاستدلال العقلي فقط، بل مضمون الخطاب سطحيٌّ وغير متعمِّق. كتب البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير في تقييمِهما لكتاب: وهْم الإله: «مَن قرأ كتبه الأخرى، فإنَّ وهمَ الإله خيبة أمل. هو تهكُّمي وشرس، بدلًا من أنْ يكون ذكيًّا وذا بصيرة. ويظهر أنه كتابٌ أسرع فيه المؤلِّف لكوْنه غضبانَ على خصومه، فيفضِّل التخلُّص منهم. والنتيجة أنَّ وهمَ الإله مليء بالثَّناء على النفس، ويشبه أن يكون حفل عشاء لدائرة ضيِّقة من

---

(١) انظر: Answering the New Atheism (2)

(٢) المصدر السابق (٦)

المثقّفين، وبعدما تناولوا أكثرَ ممّا ينبغي من الخمر، يتبادلون التهكُّمات الساخرة عن شخص في غاية البَلادة ممَّن لا يشاركهم في الرأي»(١).

ووافقَ البروفسور الملحد هارولد آلن أور(٢) هذا الرأي، وقال في مراجعته لكتاب: وهم الإله: «بالتأكيد يبدو لي أنَّ كتاب (وهم الإله) مَعيب بشدَّة. مع أني كنت أصفُ دوكينز بأنه ملحدٌ محترف، لكنِّي مُجبر بعدَ قراءة كتابه الجديد لاستنتاج أنه في الحقيقة مجرَّد هاو»(٣).

حتَّى بلغ الأمر أنَّ بعض زملاء دوكينز في جامعة أكسفورد من الملاحدة استحيا من ضعفِ خطاب دوكينز، وقال البروفسور ألستر ماكغراث: «لا تحاكموا بقيَّتنا وفقَ هذا الزيف الفكري الصبياني»(٤).

والسطحيةُ لا تطغى على كتبِ دوكينز فقط، بل تشمل بقيةَ دعاة الإلحاد الجديد أيضًا؛ فقد كتبَ البروفسور ألستر ماكغراث عن نقد سام هاريس للدين؛ فقال: «هو يقدِّم حكاية بسيطة جدًّا تُصوِّر الدين كأنه سببٌ لآلام العالم (وأضعف جزء من الكتاب هو فصلٌ غير مُقنع تمامًا، يحاول أن يدعونا إلى الاعتقاد بأنَّ الدين وراء مشكلة المخدِّرات في الولايات المتَّحدة). ولكن تحليله متحاملٌ ومُهمل للأدلة، مما جعل كثيرًا من الناس في حيرةٍ من أمرهم، ويفكِّرون ما إذا كان هناك انفصال فتَّاك بين كلامه المزخرف والواقع الحقيقي»(٥).

وقال البروفسور ماكغراث عن داعي الإلحاد الجديد دانيال دينيت: «دينيت فيلسوفٌ محترف. وكان من الممكن أن يكون كتابه: (فكُّ السحر) نقدًا فلسفيًّا قويًّا لحججِ الإيمان

---

(١) المصدر السابق (٤ – ٥)

(٢) هارولد آلن أور (Harold Allen Orr): بروفسور علم الأحياء في جامعة روشيستر بالولايات المتَّحدة. انظر: https: / /www.nybooks.com /contributors /h – allen – orr /

(3) http://www.nybooks.com/articles/2007/01/11/a-mission-to-convert/

(4) The Dawkins Delusion (51)

(5) Why God won't go away? (5-6)

بالله. كنت أنتظرُ دفاعًا عن الإلحاد بقوَّة الدفاع عن المذهب الإلهي الذي قدَّمه أخيرًا الفلاسفة اللاهوتيّون المتميِّزون مثل: ريتشارد سوينبورن ووليام لاين كرايغ. ولكنْ حين كنَّا نتوقَّع حفلة فلسفية بقينَا فقط ببعض القطع المتبذِّلة من الفُتات. يعطينا دينيت ستَّ صفحات فقط من التأمُّلات ما إذا كان هناك أسباب جيّدة للإيمان بالله»[1].

الوجهُ الرّابع: الاهتمامُ بالزخرفة الكلامية دون المضمون:

الواقع المشاهَد أنَّ كثيرًا من الناس يغترُّون ببلاغة المتكلِّم وقدرته على زخرفة كلامه أكثرَ من النظر إلى مضمونِ كلامه. وهذا الأمرُ متحقِّق مع دعاة الإلحاد الجديد. فالملاحظُ أنَّ كثيرًا من الناس اغترُّوا بدعوتهم رغمَ ما فيها من الضعف والوهن. ومن أكبرِ أسبابه أنَّ لديهم مقدرة متفوِّقة في البلاغة وحسن الكتابة والأداء. والرسول ﷺ قد قال: «إنَّ من البيان لسحرًا»[2] «يعني أنَّ بعض البيان يعمل عمل السحر. ومعنى السِّحر: إظهارُ الباطل في صورة الحق، والبيان: اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب معَ اللسان. وإنَّما شبَّه بالسحر لحدَّة عمله في سامعه، وسرعة قبول القلب له»[3]. ولكن العاقل لا يغترُّ بهذه الزخرفة الكلامية، وإنَّما ينظر إلى مضمون الكلام والأدلة والبراهين.

وقد أشارَ البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير إلى هذا اهتمام الملاحدة الجدد بالبلاغة دونَ المضمون بقولهما: «سوف نختبر مدى قوَّة مقالات دوكينز وحججِه بناءً على ماهيتها. وكما قال الفيلسوف اليوناني العظيم أفلاطون مرة: أحسنُ طريقة لتقييم لبِّ الحجج في خطابات مزخرفة بالبلاغة، هي تعريتُها من البلاغة كلّها ثمَّ تحليل الحجج نفسها. نحن نعتقد أنَّه إذا استطعنا أنْ نفعل ذلك بوزن عيار حججه، فإنَّ الضعف الشديد في وهم الإله لدوكينز سوف يظهر»[4].

---

(١) المصدر السابق (١٥)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٥١٤٦)، كتاب النكاح، باب الخطبة (٧ / ١٩)، من حديث عبد الله بن عمر.

(٣) مجمع الأمثال (١ / ٧)، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني.

(4) Answering the New Atheism (7)

قال البروفسور ألتسر ماكغراث عن كريستوفر هيتشن: «هو متميِّز باستخدام الكلمات، ولكنْ في الوقت نفسه، هو دونَ ذلك في تقديم الحقائق»[1].

وإذا كان الخطابُ الإلحادي يعتمد على البلاغة والزخرفة الكلامية أكثر من المضمون، فإنَّه دليلٌ واضح على إفلاسه، وافتقاره وعَوَزه. فينبغي أن تزيِّن البلاغة الحجج العلمية العقلية الصحيحة. وأمّا استخدامُ البلاغة دون إقامة الحجج الصحيحة فإنه لا تجدي.

الوجهُ الخامس: استعمالُ القدح الشخصي والسخرية، وهو دليلُ الإفلاس:

تميَّز خطابُ الإلحاد الجديد بكثرة السخرية، والاستهزاء، والتهكُّم بالمتديِّنين والقدح فيهم، والتَّشنيع عليهم، وذمِّهم. وهذا الأمرُ يعود إلى شدَّة كراهيتهم للأديان والمتديّنين. ورموزُ الإلحاد يستخدمون هذه الطريقة كثيرًا، بل ينظِّرون ويؤصِّلون لها في دعوتهم. و«هذه النفسيةُ شديدة العدائية تظهر في طبيعة اللغة المستخدمة عند كثير من رموز الإلحادِ الجديد وأتباعهم، فالبجاحةُ والوقاحة والتحقير والكبر كلها سماتٌ شديدة الحضور في كثيرٍ من الخطابات الإلحادية الجديدة، وليس من المستغرب أن يتمَّ شرعنة مثلِ هذه الممارسات عبرَ تأصيل - ليس مبدأ نقد الدين فقط -، بل شرعنة السخرية والهزء من الدين والتديُّن، وهو ما يؤصِّل له نظريًّا ويمارسه عمليًّا رموزُ الإلحاد الجديد، خصوصًا كريستوفر هيتشن، ولوارنس كراوس... وغيرهما. ويكفي أن تشاهد شيئًا من محاضراتهم أو مناظراتهم لتعلم عن ماذا أتكلَّم»[2].

وقد أوصى دوكينز أتباعَه باستخدام هذا الأسلوب الصبياني في إحدى محاضراته حينَ قال عن المتديِّنين: «اسخروا منهم، واستهزؤوا بِهم علانية، إيَّاكم أن تقعوا في العُرف الدارج أننا مؤدَّبون جدًّا لنتحدَّث عن الدين. الدين ليس مرفوعًا عن الطاولة، ولا هوَ خارج عن حدود النقد، الدين يقدِّم تصوُّرات معيَّنة عن الكون، والتي تحتاج إلى التثبُّت منها، ينبغي تحدِّيها والسخرية منها باحتقار»[3].

---

(1) Why God won't go away? (21)

(٢) مليشيا الإلحاد (٤٧ – ٤٨).

(3) Transcript of Richard Dawkins' speech from Reason Rally 2012 https://ladydifadden.wordpress.com/2012/03/28/transcript-of-richard-dawkins-speech-from-reason-rally-2012/

وقد سبقَ أنَّ هذه الطريقة في الردود تعدُّ من المغالطات المنطقية تسمَّى: مغالطة الشَّخصنة. فبدلًا من أن ينظر في حجج المؤمنين بالله والمتديِّنين يغضُّون عنها الطرف ويكتفون بالاستهزاء بهم والسخرية منهم.

وقد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ هذه السخرية عوض الملاحدة الجدد عن تقديم حجج حقيقيَّة؛ فقال البروفسور ألفن بلانتنغا في نقدِه لكتاب: وهم الإله: «لا ينبغي أن ينظر إلى هذا الكتاب لمضمون منصفٍ ومتعمِّق. ففي الحقيقة، إنَّ حجم القدح، والتهكّم، والسخرية، والنقد اللادغ فيه محيِّر»[1].

الوجهُ السّادس: عدمُ فهم قول المخالف:

مِن القواعد المقرَّرة لدى أهل العلم أنَّ الحكم على الشيء فرع عن تصوّره؛ قال الإمام ابن القيم في نونيته:

إنَّ البدار بردِّ شيء لم تحط … علمًا به سبب إلى الحرمان[2]

وكما أنَّ البدار بالردِّ على قول الخصم سببٌ إلى الحرمان، فإنه دليل على حماقة صاحبه. ومِن لطيف ما يُذكر في هذا المقام: وصيةُ أحد السلف لابنه إذ قال: «لا تردّ على أحدٍ جوابًا حتَّى تفهم كلامه؛ فإنَّ ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره، ويؤكِّد الجهلَ عليك، ولكنِ افْهم عنه، فإذا فهمته فأجبْه. ولا تتعجَّل بالجواب قبل الاستفهام، ولا تستحِ أن تستفهم إذا لم تفهم؛ فإنَّ الجواب قبل الفهم حمق»[3].

---

(1) The Dawkins Confusion
(http://www.booksandculture.com/articles/2007/marapr/1.21.html)

(٢) متن القصيدة النونية (٣٠٥)، المعروفة بـ(الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية)، لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن قيّم الجوزية، (مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١ / ٥٨٣)، ليوسف بن عبد الله ابن عبد البرّ القرطبي، (دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، ت. أبي الأشبال الزهيري). والوصية ليحيى بن خالد – وزير هارون الرشيد – لابنه جعفر.

ومِن المغالطات المنطقية المشهورة: مغالطة رجل القشِّ - كما سبق بيانه -. وقد امتلأتْ كتبُ الملاحدة الجدد بهذا النَّوع من المغالطة. فهُم يستعجلون بالردِّ على المتديِّنين بدون فهْم حقيقة مقالاتهم ولا حججهم.

وهذه العجلةُ جعلت البروفسور الملحد مايكل روس يخجلُ من كتاب: وهم الإله لدوكينز، وكتبَ مقالًا في الصحيفة البريطانية المشهورة «الغارديان» (The Guardian) في الردِّ عليه. ومما قاله في هذا المقال: «بخلاف الملاحدة الجدد فإنني آخذُ مسألة التحصيل العلمي بجدِّية. لقد كتبتُ بأنَّ كتاب (وهم الإله) جعلني أخجل من كوني ملحدًا، وكنتُ أعني ذلك. ومحاولة فهم أنَّ الإله لا يحتاج إلى سبب مثلًا، كما يعتقده النصارى باعتقادهم أنَّ وجود الله ضروري. ولقد بذلت جهدًا كبيرًا لمحاولة فهم ماذا يعني هذا الكلام. أمّا دوكينز وجماعته فهُم جَهلة في هذه المسائل بل يزدرون من يحاول أن يفهمَها، دعْ عنك الإيمان بها. وهكذا فهم كطالبٍ في سنته الجامعية الأولى يدور يفرح ويسأل بصوتٍ عال: «ما الذي تسبَّب في إيجاد الله» وكأنه اكتشف مسألة فلسفية خطيرة»(١).

واشتكى البروفسور الملحد هارولد آلن أور من هذه القضية أيضًا بقوله: «أكثر شيء مثيرٍ للإحباط في (وهم الإله) هو فشلُ دوكينز من مناقشة الأفكار الدينية بطريقة جادَّة. وهذا بالتأكيد شيء غريب أنْ يقال عن كتاب مطوَّل يبحث في موضوع الإله... النتيجة أنَّ (وهم الإله)، لا يواجه خصومَه بشكل مباشر. لن تجد فحصًا جادًّا لمعتقدات اليهود والنصارى في كتاب دوكينز»(٢).

وإذا لم يفحص دوكينز معتقدات اليهود والنصارى - وهو يعيش بين أظهرهم ويناظرهم كثيرًا - فماذا نظنُّ بفحصه لمعتقدات المسلمين وهو القائل: «لم أقرأ القرآن

---

(1) Dawkins et al bring us into disrepute, https://www.theguardian.com/commentisfree/belief/2009/nov/02/atheism-dawkins-ruse

(2) http://www.nybooks.com/articles/2007/01/11/a-mission-to-convert

فلا أستطيعُ أن أنقل منه بذكر السورة والآية، كما أستطيعه مع الكتاب المقدَّس»[1]؟!
ومع جهلِه الشديدِ بعقيدة المسلمين فإنَّ ذلك لا يمنعه من الوقيعة في هذه العقيدة المطهَّرة، ونقدها، والردّ عليها.

وقد بيَّن علماءُ الغرب أنَّ هذا يدلُّ على ضعف خطاب الإلحاد الجديد؛ فقد كتب البروفسور تيري إيغيلتون[٢] نقدًا قويًّا في مراجعته لكتاب (وهم الإله)، عن جهل دوكينز بعلمِ اللاهوت؛ فكان مما قاله: «تخيَّل شخصًا يتكلم بالتوسُّع عن علم الأحياء، وليس عندَه مِن المعرفة بهذا العلم سوى: «كتاب الطيور البريطانية» (Book of British Birds). هذا يُعطيك فكرة تقريبية عن الشعور بقراءة كلام ريتشارد دوكينز عن علم اللاهوت... الذي يظهر أنَّه بقدر ما يكرهون [أي: الملاحدة الجدد] الدين يكون ردُّهم عليه بالجهل أكثر. وإنْ طُلب منهم الحكمُ على علم الظواهر[٣] أو الجيوسياسية[٤] في جنوبِ آسيا لرأيتهم يحاولون فهمَ القضية قبل الجواب باجتهاد كبير. وأما فيما يتعلّق بعلم اللاهوت فإنهم يقدِّمون أيَّ جواب بغضِّ النظر عن مضمونه»[٥].

فدعاةُ الإلحاد الجديد عندهم جهلٌ مُفرط بمعرفة الأديان والحجج الدينية، ومع ذلك فإنَّهم أكثرُ الناس كلامًا عن الدين. وهذا يدلُّ على مدى هزالة هذا الخطاب السخيف.

---

(1) https://twitter.com/richarddawkins/status/307369895031603200?lang=en

(٢) تيري إيغيلتون (Terry Eagleton) بروفسور الأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد سابقًا. وقد ألّف عددًا من المؤلفات في النقد الأدبي. انظر:
https://literature.britishcouncil.org/writer/terry-eagleton

(٣) علم الظواهر (Phenomenology): العلم بالظاهرة المنفصلة عن حقيقة الشيء.
انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definition /phenomenology,

(٤) الجيوسياسية (Geopolitics): دراسة التأثير للعوامل مثل: جيوغرافيا، والاقتصاد، والديمغرافية في السياسة، ولا سيَّما السياسة الخارجية لدولة. انظر:
https://www.merriam-webster.com/dictionary/geopolitics

(5) https://www.lrb.co.uk/v28/n20/terry-eagleton/lunging-flailing-mispunching

الوجهُ السّابع: التطرُّفُ والغلوُّ وعدم الإنصاف دليلُ الضعف والتناقض:

الغلو، والتطرُّف والتعصُّب مع الجهل المركَّب من أسوأ صفات المناظر، وأما الإنصافُ فهو من أجمل ما يتحلَّى به؛ قال الإمام ابن القيم (رحمه الله):

وتعــرَّ مــن ثوبيــن مَــن يلبســهما	**يلقــى الــردى بمذمــة وهـــوان**
ثــوب مِــن الجهــل المركَّــب فوقــه	**ثــوب التعصّــب بئسـت الثــوبان**
وتحــلَّ بالإنصــاف أفخــر حلــة	**زيّنــت بها الأعطـاف والكتفــان**[١]

وأمّا الملاحدة الجدد، فهُم من أشدِّ الناس تعصّبًا لمقالتهم - ولا سيَّما نظرية التطوُّر - ومِن أقلِّ الناس إنصافًا لخصومهم. وهذا ما شهد به القاصي والداني، حتى بعض الملاحدة؛ فقال بيتر هيجز[٢] - الحائز على جائزة نوبل - على سبيل المثال عن ريتشارد دوكينز: «دوكينز بطريقةٍ ما يكاد يكون متطرّفًا، ولكن من نوع مختلف»[٣].

وقد لقِّب البروفسور الملحد باول كورتز الإلحادَ الجديد بالإلحاد المحارب (Militant Atheism) وذمَّهم في قوله: «ما أعترض عليه هو الملحدين المحاربين الذين هم ضيقو الأفق بشأن الأشخاص المتدينين ولا علاقة لهم باللاأدريين أو المتشككين أو أولئك الذين لا يبالون بالدين، وينبذونهم باعتبارهم جبناء»[٤].

---

(١) متن نونية ابن القيم (١٧).

(٢) بيتر هيجز (Peter Higgs): بروفسور الفيزياء النظرية بجامعة إيدينبورغ في إسكتلندا، وقد حاز على جائزة نوبل في الفيزياء عام ٢٠١٣ م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Peter - Higgs

(3) https://www.theguardian.com/science/2012/dec/26/peter-higgs-richard-dawkins-fundamentalism

(4) https://www.huffingtonpost.com/2010/03/24/secular-humanist-takes-on_n_512153.html

وقد استدلَّ البروفسور تيري إيغيلتون بعدمِ إنصاف دوكينز على ضعف خطابه إذ قال: «هكذا تحيَّز دوكينز العلمي الصامد أنَّه في كتاب في مقاربة أربعمائة صفحة، لا يكادُ يستطيع أن يأتي بأيِّ فائدة للإنسان قد جاءت من الدين. وهو رأيٌ بالبداهة مستبعَد وباطل»[1].

وقارنَ البروفسور سكت هون والبروفسور بنيامين ويكير بين تطرُّف دوكينز وتطرُّف بعضِ الوعَّاظ المتطرِّفين بقولهما: «بشكل ساخر، يتذكَّر الإنسان عندما يقرأ دوكينز بالشِدَّة الموجودة لدى بعض الوعَّاظ الأصوليين الذين يغمرون مخالفيهم بالازدراء، ويستفزونهم بالزخرفةِ الكلامية لكي يقدِّم مسرحية بوجود حريق أمام المستمعين... دوكينز يعظُ المستمعين له بالطريقة نفسها. هو مليء بالحقد على مَن خالفه، فلا يستطيع أن يفهمَ كيف يمكن أنَّ أحدًا خالفَه بطريقة عقلانية. وبالتالي فلا بدَّ أن يكون خصومُه غيرَ عقلانيّين، وبعد ذلك يناسبهم فقط إحراقهم بالبلاغة حتى لا يبقى منهم سوى رماد تافه»[2].

وبهذه الأوْجه السبعة يظهر أنَّ خطاب الإلحاد الجديد في غاية الضعف، وطريقة دعاتِه طريقة هزيلة متطفِّلة، لا تصمدُ أمام الحجج العلمية العقلية القوية التي يقدِّمها المؤمنون بالله تعالى.

---

(1) https://www.lrb.co.uk/v28/n20/terry-eagleton/lunging-flailing-mispunching

(2) Answering the New Atheism (7)

المبحثُ الخامس
بيانُ مُخالفة الملاحدة للمنهج العلمي

المذهبُ المادي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر، ويبني الملاحدةُ نظيراتهم العلمية عليه. ولكنَّ هذا المذهب دخيلٌ على العلم التجريبي، لأنَّ هذا العلم مؤسّس على الإيمان بأنَّ الكون منظَّم ويمكن دراسته. وهذا الاعتقادُ يرجع إلى الإيمان بخالق منظِّم للكون؛ قال البروفسور ميلفن كلفن[1] عن هذا الاعتقاد: «خلال محاولتي لمعرفة أصلِ هذ الاعتقاد بدَا لي وجودُه في المفهوم الذي ظهر قبل ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ عام، وقد كانَ ظهوره الصريحُ لأوَّل مرَّة في العالم الغربي عبرَ العبرانيين القدامى، وخلاصته أن الكونَ يسيطر عليه إلهٌ واحد، وليس إرادات آلهة متعدِّدة، كلٌّ يحكم قطعته وفقًا لقوانينه الخاصَّة. إنَّ هذه الرؤية التوحيدية تبدو الأساس التاريخي للعلم الحديث»[2].

ثمَّ حمل المسلمون التقدُّم العلمي على عواتقهم برهةً من الدهر، ولم يروا أيَّ تعارض بينَ العلم التجريبي والإيمان بالخالق والغيبيات، بل كان هذا الإيمان الدافعَ الرئيس لكثير من علمائهم.

ثمَّ رجع التقدُّم العلمي إلى العالم الغربي، ولم يكنِ المؤسسون الجدد لهذا العلم في ذلكَ الزمن يتبنَّون هذا المذهب، بل كانوا مؤمنينَ بالله، ويروْن أنَّ الإيمان به هو الدافع الرئيس للاكتشاف العلمي؛ قال البروفسور سي. أس. لويس: «أصبح الناسُ علماء لأنَّهم توقَّعوا وجود قانون في الطبيعة، وسبب توقُّعهم وجود القانون:

---

(١) ميلفن كلفن (Melvin Calvin): بروفسور الكيمياء الحيوية الأمريكية، وحاز على جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٦١م. توفي عام: ١٩٩٧م.

https://www.britannica.com/biography/Melvin - Calvin

(2) Chemical Evolution (258), by: Melvin Calvin, (Clarendon Press, 1969)

إيمانهم بوجود واضع للقانون»[1]. وقال البروفسور جون لينوكس معلّقًا على هذا الكلام: «وبسبب هذا الاعتقاد قام فرنسيس بيكون... - الذي يعتبر مؤسِّس العلم التجريبي الحديث - بتعليم الناس أنَّ الله قدَّم لنا كتابين: كتاب الطبيعة، والكتاب المقدَّس، وعلينا حقيقة أن ندرس كلا الكتابين بطريقةٍ ملائمة، وأنْ نُعمل عقولنا في دراستهما معًا. وكثير من رجالات العلم التجريبي يوافقون على هذا الطرح [وذكر بعض الأسماء] فكلُّهم مؤمنون بوجود الله، ومعظمُهم مسيحيون، ولم يعقْهُم إيمانهم عن عملهم في العلم التجريبي، بل كان الدافعَ الرئيس للاكتشافات العلمية غالبًا، ولم يكونوا يخجلون من التصريح بهذا»[2].

فخلاصةُ هذه النقول أنَّ العلم التجريبي مؤسَّس على الإيمان بالله، ولم يرَ كبارُ العلماء التجريبيّين عبر التاريخ أنَّ هناك تنافيًا بين العلم التجريبي والإيمان بالخالق والغيبيات. ولكنَّ المنهج العلمي قد اختُطف من قبل الملاحدة الماديين حيث جعلوا المذهبَ المادي شرطًا أساسيًّا في الاكتشاف العلمي.

ومهْما تظاهر الملاحدةُ الماديون بالانتساب إلى العلم التجريبي وتعظيمه، فإنَّ المذهب المادي يتناقض معَ الواقع والحقيقة؛ فهناك أدلة كثيرةٌ لا تعدُّ ولا تحصى تشير إلى وجودِ موجودات وراءَ هذا العالم المادي. وأعظمُ ما تشير إليه الطبيعة المخلوقة أن هناك خالقًا خلقَها. وفي البابِ الثاني مِن هذه الرسالة ستأتي - إنْ شاء الله - عدَّة مباحث متعلِّقة بذلك. والمقصودُ من هذا المبحث أنَّ الأدلة العلمية التجريبية تبطل المذهبَ المادي، وتدلُّ على وجود غيبيّات لا يمكن تفسيرُها بالمنهج العلمي المبني على هذا المذهب. وقد بيَّن علماءُ الغرب هذه المسألة بوضوح، وذكروا أنَّ الأسس والمبادئ التي قامَ عليها المذهب المادي مخالفة للواقع والحقيقة. ويريد هؤلاء العلماء أن يُرجعوا العلم التجريبي إلى أصلِه الذي كان عليه قبل أن يختطفه الملاحدة الماديون.

---

(1) Miracles: a preliminary study (110)

(2) God’s Undertaker (21)

وأفضلُ مَن رأيته يهتمُّ بهذه القضية هو الدكتور روبيرت شيلدرايك[1]؛ فقد اهتمَّ شيلدرايك اهتمامًا كبيرًا بالتجارب التي تنقضُ المذهب المادي، وألَّف عددًا من الكتب والأبحاث والمقالات العلمية في هذا المجال، ومن أهمّها كتابه: «وهم العلم التجريبي» (The Science Delusion)، وذكرَ أنَّ العلماء الماديين المعاصرين لديهم عدد من المبادئ قد دلَّت التجاربُ العلمية على بطلانها، منها:

المبدأ الأوَّل: أنَّ جميعَ الكائنات الحيَّة في الأصل آليات؛ فالحيوانات مثل: الكلاب آليات معقَّدة، وليست عضويات لها أهدافٌ في حياتها. والناس آليات ذات أدمغة تشبه حواسبَ مبرمجة وراثيًّا.

المبدأ الثّاني: أنَّ المقدار الكلِّي للمادة والطاقة لم يتغيَّر (إلّا في حالة الانفجار العظيم، حينما ظهرت جميع المادة والطاقة فجأة).

المبدأ الثّالث: أنَّ قوانين الطبيعة ثابتة؛ فهي اليوم كما كانت في الأزل.

المبدأ الرّابع: أنَّ كلَّ مادة غيرُ واعية، وحتى وعي الإنسان وهمٌ أنتجته العمليات المادية في الدماغ.

المبدأ الخامس: أنَّ الطبيعة ليست ذات هدف، والتطوُّر لا يسير نحو غاية.

المبدأ السّادس: أنَّ الذاكرة مخزَّنة في آثار مادية في الدماغ، وتمحى عند الموت.

المبدأ السّابع: أنَّ الظواهر غيرَ المفسّرة علميًّا: مجرَّد وهم.

وحيث إنَّه أفضل مَن كتب عن هذه القضية - من وجهة نظري - فسوف تكون أكثرُ النقول عنه في هذا المبحث.

---

(١) روبيرت شيلدرايك (Rupert Sheldrake) عالم الأحياء من بريطانيا، وحامل شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية من جامعة كامبردج. ويهتمُّ بدراسة علم النفس الموازي. انظر:
https://www.sheldrake.org/

- **المبدأ الأوَّل: كلُّ شيء في الأصل آليات:**

الفطرةُ والبداهة العقلية تدلَّان على أنَّ المخلوق لا بدَّ له من خالق، وهذا الأمر مستقرٌّ في نفوس بني آدم، وهو أمرٌ لا يخفى على الملاحدة. وللخروج عن هذه المعضلة يلجأ الملاحدة إلى حيلتين:

١) مغالطة تجسيد المجرَّدات لنسبة الخلق إلى مجرَّدات كالطبيعة.

٢) استخدام المجازات المضلِّلة كتسمية ما في الطبيعة بالآليات.

وكان إراسموس داروين[١] - جدّ مؤسِّس نظرية التطوُّر - ربوبيًّا، ويسعى للتقليل من شأنِ الخالق، ورفعَ مِن شأن الطبيعة في دراساته العلمية. وكان يعتقد أن الطبيعة قادرة على إيجاد أشكالٍ جديدة من الحياة[٢]. وقد تأثَّر حفيده تشارلز داروين كثيرًا بهذه العقيدة في نسبةِ الخلق والإيجاد إلى الانتخاب الطبيعي؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك معلِّقًا على هذا الأمر: «العنوانُ الفرعي لكتاب: (أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي) لداروين هو: (بقاءُ الأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة). وهذا مصدرُ الاختراع في داخل الحيوانات والنباتات، وقد تنوَّعت بنفسها وتأقلمت لأوضاعٍ جديدة. ولم يقدِّم داروين تفسيرًا لهذه القدرة الاختراعية. وفي الواقع، فإنه كان ينكر الإله المصمِّم للّاهوت الآلي (Mechanistic Theology)، وكان ينسب جميع أنواع الاختراع إلى الطبيعة، كما كان يفعله جدُّه. وكان داروين يرى أنَّ الطبيعة نفسها أقامت شجرةَ الحياة؛ فعنْ طريق خصوبتها المعجزة، وتنوُّعها

---

(١) إراسموس داروين (Erasmus Darwin): طبيب، وعالم نبات، وشاعر بريطاني. وقد وضع الأسسَ المادية لنظرية التطوُّر التي أظهرها حفيدُه تشارلز داروين. توفي عام: ١٨٠٢م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/Erasmus - Darwin

(٢) انظر:

The Science Delusion (40 - 41)

المفاجئ، وقدرتها على الاختيار؛ استطاعت أن تفعل كلَّ شيء ظنَّ [وليام] بالي[١] أن الإله يقدر عليها»[٢].

قدْ نسب داريون قدرةَ الخلق إلى الطبيعة بتسميتها الانتخاب الطبيعي. وذلك مع أنَّه لم يلحظ أنَّ الانتخاب الطبيعي قد خلق شيئًا قط؛ قال الدكتور الملحد كولين باترسون[٣]: «لم يُنتج أيُّ أحدٍ نوعًا بواسطة الانتخاب الطبيعي، بل لم يقترب أحدٌ منه، ويدور معظمُ الجدال الحالي في إطار الداروينية الجديدة حول هذه المسألة»[٤]. فكيفَ ينسب إليه خلق جميع الكائنات الحيّة؟!

يعتقدُ الملاحدةُ الماديون أيضًا أنَّ ما في هذه الطبيعة - ومنها الإنسان - آليات؛ قال ريتشارد دوكينز: «نحن آلياتُ بقاء (Survival machines)، ولكن كلمة «نحن» لا تشمل البشرَ فقط. هي تشمل جميعَ الحيوانات، والنباتات، والبكتيريات، والفيروسات... نحن كلُّنا آلياتُ بقاء من أجل مكرّر (Replicator) واحد - وهي الجزيئات المسمّاة بـ«دي أن أي» - ولكنْ هناك طرقٌ مختلفة للعيش في هذا العالم، والمكرّرات قد صنعت ماكينات مختلفة لاستغلالها. القردة آلة تحافظ على الجزيئات في الأشجار، والسمكة آلة تحافظ على الجزيئات في الماء»[٥].

---

(١) وليام بالي (William Paley): قسيس أنجليكاني وفيلسوف بريطاني. اشتهر باهتمامه بدليل التصميم على وجود الله، وصنَّف فيه كتابًا بعنوان: اللاهوت الطبيعي. وقد قرأ داروين هذا الكتاب وتأثَّر به في أيام شبابه، ثمَّ رفضَ محتواه مع تبنيه نظرية التطوُّر. توفي بالي عام ١٨٠٥م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/William - Paley

(٢) المصدر السابق (٤٢)

(٣) كولين باترسون (Collin Patterson): عالم الإحاثة البريطاني، وحامل شهادة الدكتوراه في علم الحيوان، وعمل في متحف التاريخ الطبيعي في لندن. توفي عام: ١٩٩٨م. انظر:

https://www.nature.com/articles/29192

(4) Colin Patterson (Cladistics), Interview with Brian Leek, Peter Franz, March 4, 1982, BBC

(5) The Selfish Gene (22)

هذا الكلامُ يجري على ألسنة الملاحدة، ولكن ليس عليه دليلٌ تجريبي، بل هذه التَّسمية مجرَّد مجاز كما بيَّنه الدكتور روبيرت شيلدرايك بقوله: «إنْ جوبهوا، فإنَّ معظم الأحيائيين يعترفون أنَّ الجينيات إنما تحدِّد تسلسل الأحماض الأمينية في البروتينات، أو أنَّها متورِّطة في التحكُّم لتركيب البروتين. هي ليست برنامج، وليست أنانية، وهي لا تفسد المادة، أو تُكوِّن البنية، ولا تسعى للخلود... نظرية الحياة الميكانيكية تنحلُّ في مجازات وبلاغيات مضلّلة فقط»[1].

فهذه النقطةُ الأولى، وإن عُدَّت من الأساسيات في المذهب المادي، فإنه لا يعدو مِن كونها مِن المغالطات المنطقية والمجازات المضلِّلة عند الملاحدة، ولا تمتُّ للعلم التجريبي بِصِلة.

المبدأ الثّاني: المقدارُ الكلّي للمادة والطاقة لم تتغيَّر:

مِن العبارات المتداوَلة في دراسة العلوم: أنَّ المادة لا تُستحدَث ولا تفنى. وهذه العبارةُ في غاية الخطورة، وتؤيِّد المذهب المادي؛ و«إنَّ كثيرًا من الأساتذة يردِّدون هذه العبارة تقليدًا، وعنْ حُسن نيَّة، ولا يعرفون أنها إذا صحَّت بهذا الإطلاق تهدم الأساسَ الذي يقوم عليه الدينُ كلُّه، وتعتبر أكثرَ نصرٍ للفكر المادي. والطلاب بدورهم يحفظون العبارة ويردِّدونها ولا يفكِّرون في نتائجها الخطيرة. ما معنى هذه العبارة؟ إذا كانت لا تُستحدَث، أي لا تخلق، كما هو مصرَّح به في الصياغة الإنجليزية، فمعنى ذلك أنه لم يحدثها - لم يخلقها - أحد، أي إنَّ الله لم يخلقْها. ولكن هذا يتناقض مع إيماننا بأن: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الزمر:٦٢]. وإذا كانت لا تفنى فمعنى ذلك أنَّ أحدًا لا يستطيع إفناءها، وهذا يعني أنَّ الله - تعالى - لا يقدر على إفنائها؛ فكيف نوفِّق بين هذا وبين إيماننا بأنَّ الله على كلِّ شيء قدير، وأنه لا يعجزه شيء؟

---

(1) The Science Delusion (48)

المسألة إذًا واضحة، فإمّا أن تكون هذه العبارة المشهورة صحيحةً فيكون الدين باطلًا، وإمّا أن يكون الدينُ صحيحًا فتكون هي باطلة، ولا يمكن الجمعُ بين الإيمان بصوابها وبصواب القول بأنَّ للكون خالقًا»[١].

فهذه العبارةُ أخطرُ من النقطة السابقة لما تحمله من الأخطار العقدية. وهي مأخوذةٌ من الفلسفة المادية، وليس من التجارب العلمية؛ فهي باطلة من الناحية العلمية ومُقحمة في العلم من قبَل الماديين الملاحدة. وقد بيَّن علماءُ الغرب هذه القضية من أوجهٍ كثيرة، هذه ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: على فرْض التسليم لهذا المبدأ فهو ليس مبدأً كليًّا. وذلك أنَّ معظم علماءِ الكونيات المعاصرين يعترفون أنَّ للكون بداية، وأنَّ المادة ظهرت من لا شيء. وإنْ كانت المادة ظهرتْ من لا شيء فمعنى ذلك أنها حدثت بعدَ أنْ لم تكن موجودة؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «معنى نظرية الانفجار العظيم أنَّ جميع المعادلات انتهكتْ في المفردةِ الأوَّلية للانفجار العظيم. لا يمكن أن يكون هناك حفاظٌ على المادة والطاقة إنْ ظهر الكونُ من لا شيء»[٢]. فهذه القاعدةُ العامَّة لديهم لا بدَّ لها من استثناء، وبداية الكون من المفرَدة الأولية تخالف هذه القاعدة تمامًا.

الوجهُ الثّاني: قد وجدَ علماءُ الفيزياء الفضائية أنَّ المادة إنما تشكِّل ٤ ٪ من هذا الكون المشاهَد. وما يسمَّى بالمادة المظلمة[٣] (Dark Matter) تشكِّل ٢٣ ٪ من الكون، والطاقة المظلمة[٤] تشكِّل ٧٣ ٪ منه. والإشكالية أنَّ العلماء لا يعرفون

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق (٧٧ – ٧٨)، للدكتور جعفر شيخ إدريس.

(2) The Science Delusion (65)

(٣) المادة المظلمة (Dark matter): مادة مراوغة تتخلل أرجاء الكون، وتتسبَّب في تأثيرات تجاذبية عديدة قابلة للرصد، لكنها تستعصي على عمليات الرصد المباشر. انظر:
https://www.scientificamerican.com/arabic/articles/from-the-magazine/what-is-dark-matter1/

(٤) الطاقة المظلمة (Dark Energy): أحد مكونات الكون التي يتمُّ تمييزُ وجودها من خلال جاذبيتها بدلًا من لمعانها. انظر: https: / /www.britannica.com /science /dark – matter

في الحقيقة ما هي المادة المظلمة ولا الطاقة المظلمة. ومعنى ذلك أنَّ العلماء لا يعرفون ما يتشكَّل منه الكونُ سوى جزءٍ ضئيل جدًّا[1]. وهذه المعلومات عن مكوِّنات الكون لم تظهر إلا متأخِّرًا، وذلك بعدَما صيغ قانونُ حفظ المادة والطاقة؛ قال الدكتور ريبيرت شيلدرايك: «ما هي علاقةُ المادة المظلمة والطاقة المظلمة بالمادة والطاقة العادية؟ وما حقل الطاقة عندَ نقطة الصفر المعروف بالفراغ الكمِّي؟ هل يمكن استغلال الطاقة عند نقطة الصفر؟ قد تمَّت صياغةُ قانون حفظ المادة والطاقة قبلَ أن تطرح هذه الأسئلة، وليس عنده إمكانيةُ الإجابة عليها. هذا القانون مبنيٌّ على نظريات فلسفية ولاهوتية»[2].

فهذا القانونُ بهذا الإطلاق مبنيٌّ على مواقف فلسفية ولاهوتية، وليست مبنية على العلمِ التجريبي، وبذلك يخالف الملاحدةُ المنهجَ العلمي الصحيح. وإذا كان الأمرُ كذلك فلا يمكن الجزمُ بهذا القانون؛ قال الدكتور ريبيرت شيلدرايك: «كيف يمكن لأي أحدٍ أنْ يجزم بأنَّ المقدار الكلي للمادة والطاقة لم يتغيَّر في ضوء علم الكون الحديث؟ كما رأينا، فإنَّ النوع المقياسي من المادة والطاقة الذي يفترض أن ينطبق عليه قوانين الحفظ إنَّما يمثِّل جزءًا ضئيلًا للمقدار الكلي من المادة والطاقة. أكثرُ الكون يتكوَّن من المادة والطاقة المظلمة الافتراضية التي تبقى علاقتهما بينهما وبين المادة والطاقة المعروفة غامضة»[3].

الوجهُ الثّالث: قد اكتشفَ علماءُ الكون في القرن العشرين أنَّ الكون يتوسَّع، وأن المجرَّات يبتعد بعضُها عن بعض. وإن كان الكون يتوسَّع فلا بدَّ أنْ تستحدث مادةٌ وطاقة جديدة في كلِّ حين، ولا يمكن أن تكون المادة والطاقة ثابتة في الأزل؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «في أكثر النماذج النظرية يفترض أنْ تكون الطاقة المظلمة في الكون ثابتة؛ وبتعبيرٍ آخر، مقدارُ الطاقة المظلمة باقٍ على حاله. ولكنَّ الكون يتوسَّع، وتزداد كمِّيته. وبالتالي فإنَّ المقدار الكلِّي للطاقة المظلمة في الكون

---

(١) انظر: The Science Delusion (56, 67 - 68)

(٢) المصدر السابق (٥٦)

(٣) المصدر السابق (٦٩)

يزداد. المقدار الكلِّي للطاقة المظلمة لم يبقَ على حاله في الأزل. بخلاف الزَّعم أن الكون تنفذ منه طاقته، فإنَّه الآن أشبهُ ما يكون بآلية دائمة الحركة، ويتوسَّع بسبب الطاقة المظلمة، وتُخلق طاقة مظلمة جديدة بتوسُّعه»[1].

فيتبيَّن من هذه الأوجهِ الثلاثة أنَّ قانون حفظ المادة والطاقة ليس على إطلاقه، ولهذا لا يمكن أن يستدلَّ به الملاحدة على أزلية المادة.

المبدأ الثّالث: قوانينُ الطبيعة ثابتة:

أكثرُ العلماء اليوم يعتقدون أنَّ قوانين الطبيعة ثابتة، فهي اليوم كما كان في الأزل، ولم يطرأ عليها أيُّ تغيير.

ورغمَ ما يتظاهر الملاحدةُ الماديون من إنكار الغيبيات، فإنَّ هذا المبدأ في الحقيقة مبدأ غيبي؛ فلا «تخلو الممارسةُ في فرعٍ من فروع العلم الطبيعي، أو حتى جزئية من أصغر جزئياته من فرضٍ غيبي أو أكثر، بدون هذه الفروض لا يمكن أن تسير عجلةُ العلم الطبيعي، في كثيرٍ من العلوم التطبيقية تكون تلك الفروض مسلَّمة من الجميع دون إشكالٍ داخلي في نفس الافتراضات... لكنَّ العلوم التي يكون فيها شقٌّ تاريخي مثل: علوم الأحياء (Biology) والكونيات (Cosmology) ودراسة طبقات الأرض (Geology) وما شابه، أحيانًا تكون هذه العلوم مبنيَّة على افتراضات مُشكلة وغير مسلّمة في ذاتها، وبالتالي تغْدو هذه الافتراضات ملزمةً للمادي الملحد الذي يزعم عدمَ وجود مصادرات في العلم الطبيعي، يكون العلمُ بها مفيدًا للموحِّد حتى لا ينساق وراء استنتاجات الملحد ناسيًا الافتراضاتِ المشكلة غير المسلّمة التي ينطلق منها الملحد ولا يستطيع إثباتها.

على سبيل المثال، خذْ مبدأ التماثلية (Uniformitarianism) والذي من خلاله يدرس العلم لطبيعي الكونَ بناءً على ثباتِ قوانين عمل الطبيعة زمانيًّا ومكانيًّا، فقوانينُ الطبيعة تعمل على نفْس الشكل في الماضي والحاضر والمستقبل، والإنسان لم يوجد

---

(١) المصدر السابق (٧١)

بالخلق المباشر، وإنما يجبُ دراسة وجوده الأوَّل وفقَ قوانين الطبيعة، التي أنتجت الإنسان تطوّرًا مِن كائنات سابقة عليه. وهذه الجبالُ والبحار والقارات وما شابه، ليس للأمر الإلهي دخلٌ في تكوُّنها، وإنما هي نتيجةُ عملٍ دائم لقوانين الطبيعة منذ قديم الأزمان. هذا مبدأ حاكم على العلوم التي تدرس الطبيعة والإنسان في التاريخ»[١].

فهذا المبدأ في غايةِ الأهمية للملاحدة الماديين، ولا يمكنهم الوصول إلى نتائجهم العلميَّة في العلوم ذات شقٍّ تاريخي إلّا بناء على هذا المبدأ. وقد ردَّ الدكتور ريبيرت شيلدرايك على هذا المبدأ من عدَّة أوجه، هذه ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: وهذا المبدأ نظريٌّ فلسفي، وليس مبنيًّا على التجار العلمية؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «بالطبع، فإنه مبدأ نظري، وليس ملاحظة تجريبية. بناءً على دراساتٍ راسخة خلال مائتين أو ثلاثمائة سنة، كيف يمكننا التأكُّد أنَّ القوانين كانت سوف تكون ثابتة في كلِّ مكان؟»[٢]. فمهْما أوهمَ الملاحدة أنهم يتبَّنون المنهج العلمي فإنَّ هذا المبدأ - الذي هو من أساسيات منهجهم العلمي - ليس مبنيًّا على تجاربَ علمية، بل هو مبني على فلسفة.

الوجهُ الثّاني: اعتقادُ وجود قوانين الطبيعة يتناقض مع عقيدة الملاحدة؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «أصلُ الفكرة أنه يوجد قوانين للطبيعة مبنية على المركزية البشرية (Anthropocentric)؛ فلا يوجد قوانين إلّا عند البشر. وعند المؤسِّسين للعلم الحديث كان القانون مجازًا مناسبًا لأنهم اعتقدوا أنَّ الإله كان حاكمًا على الكون، ويسْري أمرُه في كلِّ مكان، وكان علمُه المحيط يعدُّ المصدرَ للقوانين في الكون، وأن قوانينَ الطبيعة كانت خططًا خالدة في عقل الإله الرياضي (Mathematical God)[٣]. ولكنْ عند الماديين فلا يوجد إلهٌ ولا ذكاء فائق، الذي يمكن أن يستمدَّ منه هذه القوانين.

---

(١) الإلحاد وثوقية التوهّم وخواء العدم (٤٨ - ٤٩).

(2) The Science Delusion (84)

(٣) هذه العبارة من العبارات المجملة التي يستخدمها بعض الغربيين في حقّ الله، ولا ينبغي للمسلمين استعمالها.

فأيْنها إذن؟ ولماذا لا تزال عندها الصفاتُ التقليدية للإله؟ لماذا هي شاملة، ثابتة، ولديها القدرة الكلِّية؟ ولماذا هي فائقة على المكان والزمان؟»[1].

كلُّ هذه الأسئلة لا يستطيع الملاحدةُ الإجابة عنها. فهي تقدحُ في أصل العقيدة الإلحادية، وتدلُّ على تناقضها.

الوجهُ الثّالث: قد أثبتتِ التجارب أنَّ قوانين الطبيعة متغيّرة وليست ثابتة. العلماء يتحدَّثون عن عددٍ من الثوابت الفيزيائية (Physical Constants)، وأهمُّ وأشهر هذه الثوابت: ثابتُ الجاذبية العالمية (Universal Gravational Constant) لنيوتن. وقد أثبتت التجاربُ العلمية أنَّ هذا الثابت متغيِّر؛ فخلالَ التجارب بين عام ١٩٧٣ و٢٠١٠ م. ثبتَ أنَّ أصغر قيمة له هو ٦,٦٦٥٩ وأكبرها كانت ٦,٧٣٤، والفرق بين القيمتين: ١,١ ٪[2]، وهو عددٌ ليس بقليل. فإذا تبيَّن أنَّ الفرق في هذه الفترة القصيرة - ٣٧ عامًا -، فكيف نعرف أنَّ الفروق ليست أكبر خلال آلاف السنين التي لم تتمّ ملاحظة هذا الثابت؟!

ومثالٌ آخر هو سرعةُ الضوء، فقد تمّت ملاحظتُه عام ١٩٢٧م، أنها: ٢٩٩,٧٩٦ كيلو في الثانية، ثمَّ نقصت السرعة بـ ٢٠ كيلو بين ١٩٢٨ إلى ١٩٤٥، ثمّ زادت من جديد ٢٠ كيلو في الأربعينيات من القرن المنصرم[3].

وهذان المثالان مِن الأمثلة الكثيرة في هذا المجال، وهذا يبطل مبدأ التماثلية من أصلِه، ولا يمكن الاعتمادُ عليه باليقين في العلوم التجريبية ذات الطابع التاريخي.

المبدأ الرّابع: الطبيعةُ ليست ذات هدف:

إنَّ الله - سبحانه وتعالى - خلقَ هذا الكون وما فيه لحكمةٍ وهدف وغاية؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [سورة الحجر:٨٥]. ونفى - سبحانه وتعالى - أنَّه خلق شيئًا عبثًا بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[سورة ص:٢٧]. وهذا ما يعتقده جلُّ

---

(1) The Science Delusion (84)

(٢) انظر: المصدر السابق (٩٠).

(٣) انظر: المصدر السابق (٩٢).

العلماء المتديّنين، سواء أكانوا مسلمين أم غير المسلمين، مثل: كثير من فلاسفة اليونان والنصارى. ويسمَّى هذا الاعتقاد في الفلسفة بالغائية (Teleology).

وكان العلماءُ المؤسِّسون للعلم الحديث يقرُّون بوجود هذه العلل في المخلوقات، ويروْن أنَّها من أعظم الأدلة على إبطال الإلحاد؛ قال اللورد كالفن[1]: «نجد أدلة دامغةً وقويَّة على وجود التصميم الذكي والهادف حولنا... وعلى هذا، فالفكرة الإلحادية سخيفةٌ لدرجة لا يمكنني التعبيرُ عنها بالكلمات»[2].

وأمّا الملاحدةُ الماديون المعاصرون فإنَّهم ينكرون أنَّ الكون مخلوق، وبالتالي ينكرون الغائية؛ قال ريتشارد دوكينز - على سبيل المثال: «الكون الذي نشاهده توجد فيه الخصائصُ التي نتوقَّعها. هو في الحقيقة **بلا تصميم، ولا هدف**، ولا شرٌّ ولا خير، ولا شيء سوى اللامبالاة القاسية»[3]. فربطَ بينَ إنكاره للتصميم وإنكاره أنَّ للكون غاية وهدفًا.

وهذا الإنكارُ مبنيٌّ على تبنِّيهم للإلحاد ونظرية التطوُّر؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «الفلسفة الآلية (Mechanistic Philosophy) ألغت العلل الغائية، وأصبحت الطبيعةُ خالية من أيِّ هدف. وطلاب الأحياء يتعلَّمون أن يؤوِّلوا الأهداف بتفسيرات مِن نظرية التطوُّر الحديثة؛ فليس الهدفُ من العين أن تبصر؛ وإنما هي نتيجة للصدفة، والطفرات الجينية، والانتخاب الطبيعي. وقد تطوَّرت الأعين لتمكين الحيوانات من الرؤية للنَّجاة والتوالد أكثرَ من العضويات التي لم تتمكَّن من ذلك»[4].

---

(١) اللورد كلفن (Lord Kelvin): واسمه الحقيق: وليام توماس. المهندس، وعالم الرياضيات والفيزياء البريطاني. وقد صاغ بعض القوانين العلمية المشهورة وأثّر كثيرًا في العلماء بعده. توفي عام: ١٩٠٧م. انظر:

https://www.britannica.com/biography/William - Thomson - Baron - Kelvin

(2) ()Journal of Victoria Institute, vol. 124, p. 267

(3) River out of Eden (133)

(4) The Science Delusion (131)

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا الموقف من عدَّة أوجه، هذه ثلاثة منها:

الوجهُ الأوَّل: هذا الموقف ليس مبنيًّا على براهين علمية، وإنما تبنّى الملاحدةُ هذا الموقف لإبقاء مذهبهم المادي على قيْد الحياة؛ فهو موقفٌ فلسفي، وليس موقفًا مبنيًّا على المنهج العلمي والتجارب العلمية؛ قال الدكتور سيلدرايك: «هل العملية التطوّرية بأكملِها لها أهدافٌ وتجاذبات؟ الماديون يقولون: لا، بناءً على مبدئهم. هذا النفي نتيجةٌ حتمية تاريخية لفلسفتهم المادية. إنكارُ الماديين لغايات في التطوُّر ليست مبنية على أدلَّة، وإنما هي فرضية. الماديون يضطرُّون إلى نسبة الابتكار التطوُّري إلى الصدفة بناءً على أسس أيديولوجية»[١].

الوجهُ الثّاني: الملاحدةُ الأحيائيون يتناقضونَ في هذا الباب، حيث أنَّهم من أشدِّ الناس بحثًا عنِ العلل في المخلوقات في عملهم معَ تظاهرهم بإنكارها بسبب فلسفتهم المادية؛ قال الدكتور سيلدرايك: «أكثرُ الأحيائيّين متحيِّرون بين قبولهم العملي للغائية وبقاء النّافع[٢] من جهة، وردِّهم لها في سبيل أيديولوجيتهم الآلية. ففي أكثرِ علم الأحياء الحديث يبقى الموضوعُ مُتشابكًا في خلطة محيِّرة بين خطاب غائي وإنكار وَرِع»[٣]. يعني أنَّهم يعترفون بالغائية في عملهم التطبيقي في العلم التجريبي، ولكنَّهم يتظاهرونَ بالورع أمامَ زملائهم بإنكارها ليتناسبَ مع عقيدتهم المادية. فهذا دليلٌ على مخالفةِ الملاحدة لما يدلُّ عليه الأدلة العلمية، وأنَّهم ينساقون وراء فلسفتهم المادية الإلحادية.

الوجهُ الثّالث: رغمَ ما يتظاهر به الملاحدةُ الماديون من إنكار التصميم والغائية، فإنَّ المخلوقات كلَّها تصرخ أنها مصمَّمة وذات هدف. والأدلةُ على ذلك كثيرة.

---

(١) المصدر السابق (١٤٨)

(٢) بقاء النافع (Teleonomy): مصطلح في علم الأحياء، وهو مبدأ يقول إن هياكل ووظائف الجسم تخدم غرضًا شاملًا، مثل ضمان بقاء الكائن الحي. انظر:
https://www.dictionary.com/browse/teleonomy

(٣) المصدر السابق (١٣٢)

وأقوال علماء الغرب عن هذه المسألة لا تعدُّ ولا تحصى. ولكن، لوضوحِ هذه المسألة للقاصي والدّاني تزل ألسنةُ الملاحدة في بعض الأحيان باعترافاتٍ عن دلالة المخلوقات على التَّصميم والغائية. ومِن الأمثلة على ذلك قول ريتشارد دوكينز: «الكائنات الحية تبدو مصمّمة، إنَّها تبدو بشكل غامر كما لو أنَّها مصممة»(١). ويعرِّف علم الأحياء بأنه: «دراسة الأشياء المعقَّدة التي تعطي انطباعًا بأنها صممت من أجل هدف»(٢). فسبحان مَن طبع على قلوب أعدائه فهُم لا يعقلون!

المبدأ الخامس: كلُّ مادة غير واعية:

المذهبُ المادي الوجودي مبنيٌّ على أنَّه لا يوجد شيء سوى المادة. والمادة في الأصل غيرُ واعية، ومع ذلك فإنَّ الإنسان ذو عقل واعٍ. وهذا الأمر من أكبرِ التَّحديات للمذهب المادي الوجودي على الإطلاق، ألا وهو تفسيرُ الوعي وفق هذا المذهب.

كان العلماء التجريبيون في السابق يعتقدونَ أنَّ الإنسان مكوَّن من الروح والجسد، وهوَ ما يسمَّى بمذهب الثنائية (Dualism). ولكنْ معَ إقحام المذهب المادي في العلوم أبعدَ الملاحدة الماديون الحديثَ عن الروح، وحاولوا تفسيرَ الوعي كلّه عن طريق المادة. ومِن الأمثلة على أقوالهم في هذا الباب، ما سبقَ من قول الملحد المادي فرانسيس كريك: «أنتَ وسرورك، وحزنك، وذكرياتك، وطموحاتك، وشعورك بهويتك الشخصية، وإرادتك الحرة، ليس بالواقع سوى سلوك لتجمُّع شاسع من الخلايا العصبية وجزئياتها المرافقة»(٣). وقد ردَّ علماءُ الغرب على موقف الملاحدة الماديين من الوعي ردودًا عديدة، منها الأوجه الثلاثة الآتية:

الوجهُ الأوَّل: موقفُ الملاحدة الماديين من المذهب الثنائي ليس مبنيًّا على التجارب العلمية، بل هو موقفٌ فلسفي لاهوتي محض؛ قال داعي الإلحاد دانيال

(1) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

(2) The Blind Watchmaker (1)

(3) The Astonishing Hypothesis: (3)

دينيت: «أنا أتبنَّى ما يظهر أنه موقفٌ دوغماتي: أنه لا بدَّ من اجتناب مذهب الثنائية بأي ثمن. وليس الأمرُ أنَّني أظنُّ بأنني أستطيع أنْ آتي بأدلةٍ دامغة في دحض هذا المذهب بجميع أشكاله، وبيان أنَّه باطل ومتناقض. ولكن مذهب الثنائية محاطٌ بالغموض، فتبنّي هذا المذهب أشبه ما يكون بالتنازل لهم»(1).

إذًا، رفضُ الثنائية ووجودُ الروح موقف دوغماتي متزمِّت عقائديًّا، وليس مبنيًّا على التجارب العلمية.

ومِن حجج الماديين في هذا الباب، أنه لا يمكن إجراءُ تجارب علمية على الروح، كما يمكنُه على الدماغ مثلًا. ولا غضاضةَ في ذلك؛ لأنَّ الله أخبرنا أن الروح من أمره إذ قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[سورة الإسراء:٨٥]. فالروح ليست مِن العالم المادي المعتاد الذي يمكنه إجراء التجارب عليه. ومع ذلك، فإنه لا يمكن إنكارُ وجود الروح بالعلم التجريبي؛ لأنَّ القاعدة العقلية تقول: النفي يحتاج إلى دليل كما أنَّ الإثبات بحاجةٍ إلى دليل. ولا دليل علميًّا على إنكار الروح. ولكنّه قد ثبت بالعلم التجريبي أنَّ المذهب المادي قاصر عن تفسير وجود الوعي بمفرده. فالمادة غير واعية، والإنسانُ لديه وعي؛ فلا يمكن أن نستمدَّ تفسيرَ الوعي من المذهب المادي، بل لا بدَّ من تفسيره بما هو غير مادي كالروح.

الوجهُ الثّاني: المذهب المادي آيسٌ من تفسير الوعي في الإنسان، وجميع محاولاتهم باءتْ بالفشل، حتى قال البروفسور يتر غيتش: «عندما نسمع عن محاولة جديدة لتفسيرِ التفكير المنطقي من ناحية طبيعية، فإنه ينبغي أن تكون ردَّة فعلنا كما لو أننا أخبرنا بأنَّ شخصًا ما قد استطاع أن يجعل الدائرة مربّعًا»(2).

وأمّا القائلُ بالثنائية فإنه يستطيع أن يفسِّر الوعي، لأنَّه يعتقد أن الإنسان مكوّن من الروح والجسد، وإذا خرجتِ الروح من جسد الإنسان عندَ الموت فلا يبقى له وعي

(1) Consciousness Explained (37), by: Daniel Dennett, (Little, Brown, 1991)

(٢) The Virtues (52)، نقلته بواسطة كتاب: الحقيقة الإلهية (١٠٢).، لحمزة أندرياس تزورتزس.

- الذي كان عنده في الحياة الدنيا - وإنْ كان الجسد موجودًا وسليمًا. ولا يعاب القائل بالثنائية أنَّ مذهبه محاطٌ بالغموض من الناحية العلمية كما عبَّر عنه دانيل دينيت، لأنْ يقصد الغموض من الناحية العلمية المبنية على المذهب المادي. وقد تبيَّن مِن عجز المذهبِ المادي في تفسير الوعي أنَّه لا مجال لهذا المذهب في تفسير الوعي أصلًا. فمسألةُ الوعي نفسها فيها غموض، سواء للقائل بالمذهب المادي أو مذهب الثنائية. ولكن حيث بطلَ المذهب المادي لم يبقَ مجالٌ إلّا القول بمذهب الثنائية، فثبت أنَّه الصحيح، والمذهب المادي باطل.

الوجهُ الثّالث: قد دلَّتِ التجاربُ العلمية على إبطال التفسير المادي للوعي وحصرِه في الدماغ. والأمثلة على هذه التجارب كثيرة، ولكن أشهرها ما يسمّى بـالكشف عن التحديق (The Detection of Stares). خلاصة هذه المسألة أن الإنسان يشعرُ في نفسه بأنَّ إنسانًا آخر يحدِّق البصر فيه، ولو كان عنْ بُعد. وخلال الاستبانات في أوروبا وشمال أمريكا تبيَّن أنَّ بين ٧٠ ٪ و٩٧ ٪ من الكبار والصغار أحسّوا بهذا الشُّعور[١]. وفي مقابلات مع ضبَّاط المراقبة في الشرطة والقنّاصة في الجيش أخبروا أنهم يلاحظونَ هذا الشعور فيمَن يراقبونه أو يريدون قنصَه. وهكذا الأمر عند المشاهير أيضًا، فقدْ يحاول الإعلاميون التقاطَ صورهم عن بُعد، فيلتفتُ المشاهير إلى الكاميرات وينظرونَ إليها كأنَّهم يشعرون بأنَّ الإعلاميين يريدون التقاط هذه الصور[٢].

وهذا الشعورُ وموافقته للحقيقة لا يمكن تفسيرُه أبدًا عن طريق المذهب المادي الذي يحصرُ مقدرةَ الإنسان العقلية في الدماغ فقط. فكيف يشعر دماغُ الإنسان بأنَّ آخر يحدِّق البصر فيه عن بُعد، ويكون مصيبًا في هذا الشعور، وليست هناك صلة مادية بين الاثنين؟

---

(١) انظر: The Science Delusion (222)

(٢) المصدر السابق (٢٢٣).

المبدأ السّادس: الذاكرةُ مخزّنة في آثار مادية في الدماغ:

مبدأ الماديّين أنَّ وعي الإنسان منحصرٌ في الدماغ يوصل إلى مبدأ آخر، وهو أن ذاكرةَ الإنسان مخزَّنة في جينيات الدماغ فقط؛ قال البروفسور الملحد المادي ستيفن روس[١]: «الذاكرةُ تكون بطريقةٍ ما في الوعي، وبالتالي فلا بدَّ أن يكون في الدماغ حسبَ ما يراه الأحيائي. ولكن، كيف ذلك؟ لا بدَّ أن يشمل لفظ الذاكرة عمليتين مستقلَّتين: لا بدَّ من ناحية أن يشمل كلّ شيء جديد نتعلَّمه عن العالم حولنا. ومن ناحية أخرى، يشمل بعدَ ذلك استرجاع أو تذكُّر هذا الشيء. نحن نستنتج أن ما يبقى بينَ التعلُّم والتذكُّر لا بدَّ أن يكون في سجلٍّ دائم، وهو أثر تذكّري (Memory Trace)، في داخل الدماغ»[٢].

هذا المبدأ مهمٌّ للملاحدة الماديين؛ لأنَّهم يستدلُّون به على إنكار الحياة بعد الموت. وذلك أنَّهم يقولون: إنَّ الإنسان إذا مات وتعفَّن دماغه لا يبقى شيء من ذاكرته؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «نظريةُ الماديين سهلة. الذاكرة تكون داخل الدماغ؛ والدماغُ يضمحلُّ عندَ الموت؛ فبالتالي تمحى الذاكرة للأبد. فهل هناك دليلٌ أقوى للمُلحد على حماقةِ الاعتقاد الديني مِن هذا الدليل؟ جميعُ النظريات الدينية للحياة بعد الموت تكون مستحيلة، لأنَّها تعتمد على بقاء الذاكرة الخاصة للإنسان بعد الموت، وهي تمحى عندما يتعفَّن الدماغ»[٣].

---

(١) ستيفن روس (Steven Ross) بروفسور علم الأحياء البريطاني والمتخصِّص في علم الأعصاب. انظر:
https://www.npg.org.uk/collections/search/person/mp93737/steven-peter-russell-rose

(2) Memories and Molecules, New Scientist, (112/40), by: Stephen Rose, (1986, 27:th November)

(3) The Science Delusion (210)

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذا المبدأ من عدَّة أوجه، أهمها ثلاثة:

الوجهُ الأوَّل: الاعتقادُ أنَّ الآثار التذكُّرية موجودة مجرَّد فرضية، وليست هناك أدلة حسِّية تثبت ذلك رغمَ البحث الطويل عنها؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «المحاولاتُ في البحث عن الآثار التذكُّرية قد باءت بالفشل رغم أنها استمرّت لقرن، وكلَّف البحثُ عنها مليارات الدولارات. يرى الماديون التعهديون أنَّ هذا الفشل ليس دليلًا على أنَّ نظرية الآثار التذكّرية خاطئة، وإنما يدلُّ على أننا بحاجة إلى بذل مزيدٍ من الوقت والمال للبحث عن هذه الآثار التذكُّرية المتهرّبة»[1].

الوجهُ الثّاني: ليستْ مشكلة نظرية الآثار التذكُّرية أنَّ العلماء لم يعثروا على هذه الآثار إلى الآن فحسب، بل هناك مشكلةٌ منطقية لهذه النظرية؛ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «كثيرٌ من الفلاسفة المعاصرين قد أشاروا إلى أن نظرية الآثار التذكّرية تصطدمُ بمشكلة منطقية غير قابلة للحلِّ بعيدة عن المحاولات الفاشلة في العثور عنها. لكي يمكن أن تحصلَ مراجعة واسترجاع الآثار التذكّرية، فإنه لا بدَّ أن يكون هناك نظام الاسترجاع، وهذا النظامُ بحاجة إلى تحديد الذاكرة المخزَّنة الذي يبحث عنه. ولكي يتمكَّن من ذلك فإنه لا بدَّ أن يتعرَّف عليه. وهذا يعني أنه لا بدّ أن يكون لنظام الاسترجاع ذاكرة بنفسه. وبسببه يكون هناك تقهقرٌ فاسد: فإن كان نظامُ الاسترجاع بحاجةٍ إلى خزانة ذاكرة، فهو أيضًا بحاجةٍ إلى نظام الاسترجاع، وهكذا إلى ما لا نهاية»[2].

الوجهُ الثّالث: هناك مشكلة علمية لهذه النظرية أيضًا، وهي أنَّ الذاكرة تبقى لفترة طويلة، معَ أنَّ النظام العصبي مع جزيئيّاته متغيِّر. فكيف تبقى هذه الذاكرة لفترة طويلة معَ تغيُّر النظام العصبي؟ قال الدكتور روبيرت شيلدرايك: «هناك مشكلة هيكلية أيضًا. الذاكرة قد تبقى لعشرات السنوات، ولكنَّ النظام العصبي ديناميكي دائم التغيّر، وكذلك الجزيئاتُ في داخله. وكما قال فرانسيس كريك: "تقريبًا جميع الجزيئات في

---

(١) المصدر السابق (١٨٨)

(٢) المصدر السابق (١٨٩)

أبدانها باستثناءِ الحمض النووي والموادّ الجينية تنقلب خلال أيام، أو أسابيع، وفي أقصى ما يمكنُ خلال أشهر. فكيف تخزِّن الذاكرة في الدماغ بحيث تبقى آثارها ذات مناعة من الانقلاب الجزيئي؟». وقد اقترح كريك آليةً معقَّدة بأن تستبدل الجزيئيات واحدًا تلو الآخر لكي يحافظَ على بنية خزانة الذاكرة عمومًا. ولكن لم يعثرْ على مثل هذه الآلية. وخلالَ عقود كانت النظريةُ السائدة أنه لا بدَّ أن الذاكرة تعتمد على تغيّرات في العلاقة بينَ الخلايا العصبية، وهو التشابك العصبي[١]. ولكن محاولة العثور على خزانات الذاكرة باءتْ بالفشل مرّة تلو أخرى»[٢].

فهذه الأوجهُ الثلاثة تدلُّ على بطلان تفسير الملاحدة الماديين لحصر الذاكرة في الدماغ، وأنَّهم يخالفون المنهجَ العلمي في استنتاجاتهم. الذاكرة لها صلة بالوعي، وقد سبقَ أنه لا يمكن تفسيرُ الوعي وفقَ المذهب المادي، لأنه متعلِّق بالروح الذي ينكره الماديون.

وقد دلَّتِ النصوص الشرعية على أنَّ ذاكرة الإنسان تبقى بعد وفاته؛ فالإنسان يحاسبُ على أعماله في الآخرة، ويقرُّ بما فعل من الخير والشَّر. وهذه الأمور الغيبية لا يمكنُ تفسيرها وفقَ المنهج العلمي المادي إذ لا دخل له فيها.

المبدأ السّابع: الظواهرُ غير المفسَّرة علميًا: مجرَّد وهْم:

قد سبقَ في المبحث عنِ ردود علماء الغرب على المذهب المادي أن كثيرًا من علماءِ الغرب يهتمُّون بعلم النفس الموازي، وأنَّ هناك أبحاثًا علمية كثيرة تشير إلى أن هناك ظواهرَ روحية لا يمكن تفسيرُها بالمذهب المادي. وبالطبع، فإن الماديين يُقصون هذا النوعَ من العلم، ويسمُّونه: بالعلم الزائف[٣]، وذلك لمخالفته منهجهم المادي.

---

(١) التشابك العصبي (Synapse): موقع انتقال النبضات العصبية الكهربائية بين خليتين عصبيتين (عصبونات) أو بينَ خلية عصبيةٍ وغدَّة أو خلية عضلية (المستجيب). انظر:
https://www.britannica.com/science/synapse

(2) The Science Delusion (189)

(٣) العلم الزائف (Pseudoscience): نظام من النظريات والافتراضات والأساليب يعتبر خطأً علميًّا. انظر: https: / /www.merriam – webster.com /dictionary /pseudoscience

ولا شكَّ أنَّ هذا العلم له خطورته، وأنه أحيانًا يدخل في مسائل خطيرة مثل: مخاطبة أرواح الأموات. ولكن، الذي يهمُّنا مِن هذا العلم ما أثبته خلال التجارب من إبطالِ المذهب المادي. فالمسلمون يعتقدون أنَّ السحر له حقيقة وأنه مؤثّر. وذلك مع اعتقادهم الراسخ أنَّ السِّحر كفر، ولا يجوز عمله ولا تعلُّمه[1]. ولكن، كل حادثة من حوادثِ السِّحر دليلٌ واضح على إبطال المذهب المادي؛ لأنَّه لا يمكن تفسير السحر بهذا المذهب أبدًا. وكذلك لا يمكن للمذهب المادي تفسيرُ فكِّ السحر، وشفاء المسْحور بالرقية الشرعية، وغير ذلك. والشواهدُ من الواقع على أنَّ السحر قد أثَّر في أناس، وأنَّ كثيرًا منهم فكَّ عنهم السحر، وشُفوا بالرقية الشرعية؛ لا تعدُّ ولا تحصى.

والملاحدةُ لا ينكرون هذه الأمورَ في الغالب إلّا بناءً على عقيدتهم المادية. فهم لا ينظرونَ إلى الأدلة والشواهد أصلًا، بل يعدُّونها من الخرافة والعلم الزائف لمجرّد مخالفته لأيديولوجيَّتهم. والمفترض من العالم أنْ ينقاد للدليل، وما دلَّت عليه التجارب العلمية. ولهذا، فإنه قد يكونُ من النافع أن نستفيدَ من بعض ما دلَّت عليه التجارب العلمية في علمِ النَّفس الموازي لإبطال المذهب المادي. وذلك لهيمنةِ المذهب المادي على العلوم في هذا العصر، واغترار كثيرٍ من الناس بالمحسوسات، معَ ضعف يقينهم بالغيبيات. فإذا بُيِّن لهؤلاء المغترين أنَّ هناك علماء كثيرين أجروا تجاربَ علمية كثيرة تدلُّ على إبطال المذهب المادي؛ فإنَّه قد يكون دافعًا قويًّا على تخلّيهم عن هذا المذهب الفاسد.

وأنواعُ العلوم المندرجة تحت علم النفس الموازي كثيرة، أكتفي بمثالٍ واحد منها هنا، وهو: التخاطر[2]. وعلماءُ النفس الموازي يرجعون هذه الظاهرة إلى تفسيرات مختلفة. وهذا الأمرُ لا يهمُّنا كثيرًا، لأنَّ المسلم يعلم أن فكرة لدى

---

(١) انظر: المغني (٩/ ٣٤)، لموفّق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة (دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ).

(٢) التخاطر (Telepathy): التواصل المفترض بالأفكار والآراء عن غير طريق الحواس المعروفة. انظر: https: / /en.oxforddictionaries.com /definitions /telepathy

الإنسان قد تنتقل إلى شخصٍ آخر عن غيرِ الطرق المعروفة لدى الإنسان. وقد يكون ذلك عن طريق الجنّ أو نوعًا من أنواع الكرامات، وغير ذلك. ومن الأمثلة على ذلك: القصة المشهور أن: «عمر بن الخطاب ﷺ بعث جيشًا، وأمَّر عليهم رجلًا يدعَى سارية. قال: فبينا عمر بن الخطاب يخطب الناسَ يومًا فأقبل يصيح، وهو على المنبر: «يا سارية الجبل! يا سارية الجبل!» فقدمَ رسولُ الجيش فسأله؛ فقال: يا أمير المؤمنين! لقينا عدوًّنا، فهزمونا، فإذا صائحٌ يصيح: يا سارية الجبل! يا سارية الجبل! فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمهم اللهُ. فقيل لعمر: إنَّك كنت تصيح بذلك»[1].

وقد علَّق العلامة الألباني[2] (رحمه الله) على هذه القصة بقوله: «ومما لا شكَّ فيه أنَّ النداء المذكور إنما كان إلهامًا من الله تعالى لعمر، وليس ذلك بغريب عنه، فإنه «محدِّث» كما ثبتَ عن النبي ﷺ، ولكن ليس فيه أنَّ عمر كشف له حال الجيش، وأنه رآهم رأيَ العين، فاستدلالُ بعض المتصوفة بذلك على ما يزعمونه من الكشف للأولياء وعلى إمكان اطِّلاعهم على ما في القلوب؛ مِن أبطل الباطل، كيف لا وذلك من صفاتِ ربِّ العالمين المنفرد بعلم الغيب والاطِّلاع على ما في الصدور... على أنه لو صحَّ تسمية ما وقع لعمر (رضي الله عنه) كشفًا، فهوَ من الأمور الخارقة للعادة التي قد تقعُ من الكافر أيضًا، فليس مجرَّد صدور مثله بالذي يدلُّ على إيمان الذي

---

(١) تاريخ دمشق (٢٠ / ٢٥)، لعلي بن الحسن، المعروف بابن عساكر، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ ت. عمرو بن غرامة العمري)، وقد حسَّنه العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١١٠)، لمحمد ناصر الدين الألباني، (مكبنة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٥ - ١٤٢٢ هـ).

(٢) الألباني: هو أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي الألباني. العلامة، محدِّث العصر. تعلَّم على يد والده الفقهَ الحنفي. قد ألَّف مؤلفات كثيرة لا سيَّما في خدمة السنة؛ منها: سلسلة الأحاديث الصحيحة، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة. توفي عام: ١٤٢٠ هـ. انظر: الكتاب المستقلّ عن سيرته: الإمام الألباني دروس ومواقف وعبر للدكتور عبد العزيز السدحان.

صدر منه، فضلًا على أنه يدلُّ على ولايته. ولذلك يقول العلماء إنَّ الخارق للعادة إن صدر من مسلمٍ فهو كرامة، وإلّا فهو استدراج»[1].

وهذا هو محلُّ الشاهد هنا. لا يهمُّنا كثيرًا تفسير هذه الظواهر الروحية، وإنما يهمّنا ثبوتُها، وأنها واقعةٌ للمسلم والكافر. وبين عام ١٨٨٠ م و ١٩٣٩م، قد قدّم علماءُ النفس الموازي ١٨٦ بحثًا علميًّا عن التخاطر، وتبيَّن خلال هذه الأبحاث أن حصوله فعلًا قد ثبت علميًّا. وبعد ذلك توالت الأبحاث العلمية في هذا المجال بالنتائج ذاتها[2]. وقد اهتمَّ أحدُ الصحفيين بهذا الأمر، وسمع أنه موجود بين شعب بوشمن في جنوب أفريقيا فسكنَ معهم فترة، فلاحظَ خلال فترة سكناه معهم أنهم كانوا يصطادون الحيوانات عن بُعد ٥٠ ميلًا من مخيَّمهم، وعندما رجعوا عرفَ قومهم بما اصطادوا عن طريق التخاطر[3].

ولا يستبعد أن يكون هذا الاتِّصالُ بينهم عن طريق الجنِّ؛ حيث يكثر ذلك بينهم[4]، ولكنَّ هذه الملاحظة التي قام بها هذا الصحفي وكتب عنها لا يمكن تفسيرها عنْ طريق المذهب المادي. وهذا هو المقصود في هذا الأمر.

وخلاصةُ هذا المبحث أنَّ المنهج العلمي المبني على المذهب المادي المتّبع لدى الملاحدة منهجٌ مخالف للواقع والبراهين العلمية. والمذهب المادي هو الأساس الذي لا يمكن أن يقوم الإلحادُ المعاصر إلّا عليه. وبسقوط هذا المذهب الفاسد يسقط الإلحادُ من أصله. وإن كان الملاحدةُ حقًّا يعظِّمون العلم التجريبي فعليهم أن يرجعوا إلى ما أسِّس عليه هذا العلم في الأوَّل من التوافق بين العلم التجريبي والإيمان بالخالق والغيبيات، وإلّا وقعوا في التناقض.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ١٠٢ - ١٠٣).

(٢) انظر: The Science Delusion (236)

(٣) المصدر السابق (٢٤٢).

(٤) انظر:
https://kwekudee-tripdownmemorylane.blogspot.com/2013/06/san-bush-men-people-world-most-ancient.html

المبحثُ السّادس
بيانُ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد

قد سبقَ في التَّمهيد مبحثٌ كامل عن خطورة الإلحاد، وتبيَّن أن الإلحاد يشكِّل خطورةً على العقيدة، والفطرة، والعقل، والعلوم، والأخلاق؛ بل على الإنسانية بأكملها. ولا داعيَ لإعادة الحديث عن ذلك هنا. والغرض من هذا المبحث هو بيانُ الشرورِ المترتِّبة على المجتمع من الإلحاد. والكتابة في هذا المبحث بحاجةٍ إلى دقَّة؛ لأنَّ الإلحادَ في الأصل فكرةٌ عدمية، وقلَّ ما يفعل الإنسان فعلًا - سواء أكان من الخير أم من الشَّر - باسْم فكرةٍ عدمية. وريتشارد دوكينز يركِّز على هذه القضية بعناية لأنَّه يتكلَّم كثيرًا عنِ الشرور المترتِّبة على الأديان، ثمَّ إذا وُجِّه إليه السؤال عن الشرور المترتِّبة على الإلحاد؛ فإنَّه يحاول تبرئته منها بهذه الحجة؛ فقد كتبَ بابًا في كتابه: وهم الإله بعنوان: «وما بالُ هتلر وستالين؟ ألم يكونَا من الملاحدة؟»[1]. وكتب فيه: «المهمُّ ليس في كون هتلر أو ستالين من الملاحدة، ولكن إذا كان الإلحادُ يؤثِّر في الناس بطريقة ممنهجة أن يفعلوا الشُّرور. وليس هناك أدنى دليلٍ على أنَّ ذلك قد وقع»[2]. وكتب أيضًا: «الحروب الدينية قامتْ باسْم الدين، وقد تكرَّر ذلك مرَّات عديدة في التاريخ بطريقةٍ مُخيفة. ولا أستحضرُ حربًا قامت باسْم الإلحاد. ولماذا يكون كذلك أصلًا؟... لماذا يخوض أحدٌ حربًا بسبب فقدانه للإيمان؟»[3].

وقد ردَّ علماءُ الغرب على هذه التَّلبيسات وبيَّنوا العلاقة الحقيقية بين الإلحاد والشُّرور التي قامَ بها الملاحدة، بل أفردَ بعضُهم مؤلَّفات في هذه القضية. ومن أفضل الكتب في

---

(1) The God Delusion (308)

(٢) المصدر السابق (٣٠٩).

(٣) المصدر السابق (٣١٦).

هذا المجال هو كتاب: «اضطراب شخصية الملحد» (Atheist Personality Disorder) لجون جي باسكويني. فقد تميَّز هذا الكتاب بالتحليل النفسي والفلسفي لشخصيةِ الملحد، وربطَ هذا التحليل بالشرور الواقعة في المجتمعات التي يكثر فيها الإلحادُ واللادينية. وبيَّن هذه الشرور بالإحصائيات والأرقام بطريقة مُقنعة. وبسبب تميُّز هذا الكتاب سوف تكون أكثرُ النُّقول في هذا المبحث عن هذا الكتاب.

وبيانُ هذه المسألة يكون في قسمين:

القسمُ الأوَّل: تقريرُ علاقة الإلحاد بالشرور.

القسمُ الثّاني: بيانُ أمثلة على الشرور المترتِّبة على الإلحاد.

القسمُ الأوَّل: تقريرُ علاقة الإلحاد بالشرور:

كان الناسُ عبرَ التاريخ يتديَّنون بديانات متعدِّدة، وهذه الأديانُ تحمل منظومات أخلاقيَّة مختلفة. وأغلبُ أتباع الأديان يعتقدون أنَّ الإله الخالق هو الذي شرع هذه الأخلاق، ويحاسبُ الإنسان على عدم القيام بها. وأمّا الإلحاد، فهي فكرة عدمية تقوم على نفي وجودِ الخالق المشرِّع للأخلاق. وعليه، فإنَّ الملاحدة ينكرون محاسبة الخالق للإنسان بسبب تفريطه في التحلِّي بالأخلاق.

وقد سبقَ ما كتبه الأديب الروسي فيودر دوستويوفكسي عن هذا الأمر في روايته الشَّهيرة الأخوة كارامازوف على لسان السَّجين (ميتا) الذي قال: «ولكن ما الذي سيصيرُ إليه الإنسان في هذا كلِّه بغير إله، وبغير حياة آخرة؟ وإذًا، فمعنى هذا أن كلَّ شيء سيكون مباحًا بعدَ الآن، وأنَّ في وسع الإنسان أن يفعل ما يشاء»[1].

وحيثُ إنه لا يمكن أن تعيشَ طائفة من طوائف البشر بدون منظومة أخلاقية يحتكمونَ إليها؛ شرعَ الفلاسفة الملاحدة واللادينيون في إقامة مذاهب فكرية. وهذه المذاهبُ قد يغلب عليها الطابعُ السياسي، ولكن لا يخلو مذهبٌ من المذاهب مِن الحديث عنِ الأخلاق والآداب. وكلَّما وافقت هذه الأخلاق والآداب ما جاء به

---

(1) The Brothers Karamazov (788)

الأنبياء والمرسلون فإنَّهم قد أصابوا بعضَ الحقّ، ولكن كلَّما بعدتْ هذه الأخلاق عن نورِ الوحي كانت أدْعى لإشعالِ الفتن والقلاقل والحروب والشرور؛ قال شيخ الإسلام ابنُ تيمية (رحمه الله): «قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفوا ما جاءَ به الرسول ﷺ. إمّا أن لا يعرفوا اللفظ، وإمّا أن يعرفوا اللفظَ ولا يعرفوا معناه، فحينئذٍ يصيرونَ في جاهلية بسبب عدم نور النبوَّة، ومن ها هنا يقع الشرك، وتفريق الدين شيعًا، كالفتن التي تحدث السيف فالفتنُ القولية والعملية هي من الجاهلية بسببِ خفاء نور النبوة... فالهدى الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة»[1].

وهذه المذاهبُ الفكرية تشتملُ على بعض المنظومات الأخلاقية الخطيرة، التي أصبحتِ الأساسَ للشُّرور الواقعة في المجتمعات الإلحادية واللادينية. ومن هذه الفلسفات الأخلاقية:

الفلسفةُ الأولى: النفعيةُ التلذُّذية (Hedonistic Utilitarianism). وخلاصتها أنَّ الإنسانَ يهدف إلى الوصول إلى المتعةِ الكبرى، أو إنتاج المتعة الكبرى فقط لا غير. وفي حالةِ التلذُّذية العامة، فالمعتدُّ به هو المتعة الكبرى المتحققة للأغلبية[2].

الفلسفةُ الثانية: التطورية / التقدمية (Evolutionism / Progressivism). وقد سعى التطوُّريون إلى تطبيقِ نظرية داروين في فهْم الأخلاق. لقد أكَّدوا أنَّ الفرد / أو المجتمع كائنات ليوجّهَا تجاه ما هو مؤكَّد البقاء أو ما فيه الخير والسعادة. أكّد هذا فردريك نيتشه إلى أقصى حد. وذلك بقوله: إنَّ ما يتأكَّد بقاؤه فهو أخلاقي، بغضِّ النظر عن مدى وحشيته أو كراهته[3].

الفلسفةُ الثّالثة: النِّسبوية الأخلاقية (Ethical Relativity). استنادًا إلى هذه الرؤية، فالصحيحُ والخطأ مصطلحان نسبيّان، وهمَا يصفان أو يعبِّران عن رغبات أو

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧ / ٣٠٧ - ٣٠٨).

(٢) انظر: Atheist Personality Disorder (9)

(٣) انظر: المصدر السابق (١٠ - ١١).

مشاعر الفرد أو تفضيلاته تجاهَ الأفعال التي يتأمَّلها. فالتجربة الأخلاقية يعبَّر عنها بطرق مختلفة. ولا وجود لحقائق أو افتراضات بدهية[1].

الفلسفةُ الرّابعة: النفعية / الحلولية (Pragmatism / Immanentism). وتؤكّد هذه النظريةُ على أنَّ التفكير آلةٌ يمارس بها المرءُ تشكيلَ محيطه ليلبّي احتياجاته، واحتياجات أولئك الذين يتأثّرون بسلوكه ورغباتهم. لذلك، فإنَّ الحق ليس ما يطابق الواقع، لكنّه ما يلبِّي احتياجات ورغبات المرء، ورغبات الآخرين[2].

وهذه الفلسفاتُ هي الأسسُ الأخلاقية للملاحدة المعاصرين، وقد فتحت الباب أمامَ كثيرٍ من الشرور التي وقعت في مجتمعاتهم - كما سيأتي ذكره إن شاء الله -. فالإلحاد فكرةٌ عدمية متعلِّقة بإنكار وجود الخالق فقط، ولا تتحدَّث في أصلها عن الأخلاق. ولكنَّ إنكار وجود الخالق يؤدِّي إلى إنكار وجود معيار أخلاقي موضوعي؛ قال المحامي دين أوفرمان: «مسألة: إذا كانت بدايةُ الزمان والمكان بدون كائن [خالق] ونتيجة للعشوائية والصدفة هي مسألةٌ ضرورية في سؤال الأخلاق؛ فلو تنبّى أحدهم وجهة نظر أنَّه لا خالقَ للكون، فلا يمكن أن يكون هناك معيارٌ للصواب والخطأ. إن وُجد الكون عشوائيًّا، فلا يوجد أيُّ ثوابت»[3].

وبالتالي، فقد اضطرَّ الفلاسفة الملحدون إلى اختراع هذه الفلسفات الأخلاقية الهدَّامة من بناتِ أفكارهم. وهذه الفلسفات أدَّت إلى شرور عديدة؛ وبيان ذلك في القسم الثاني من هذا المبحث.

القسمُ الثّاني: بيانُ أمثلةٍ على الشرور المترتِّبة على الإلحاد:

الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد لا تعدُّ ولا تحصى، بل يمكن كتابة رسالة علمية مستقلَّة عنْ هذه المسألة. ولكنْ تكفي الإشارة إلى بعضٍ منها في هذا المبحث، وهي:

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٢).

(٢) () انظر: المصدر السابق (١٣).

(3) A Case Against Accident and Self-organization (177)

إشعال الحروب والإبادة الجماعية، والعنف في المجتمعات، وانتشار المخدِّرات، والهوس الجنسي.

- **أوَّلًا: إشعالُ الحروب والإبادة الجماعية:**

قد سبقَ في مبحث: وسائل نشر الإلحاد في التمهيد، أنَّ المغنِّي البريطاني جون لينون له أغنيةٌ مشهورة في نقد الأديان، وهي قوله: «تخيَّل أن ليس هناك جنة، من السهل لو تجرِّب، ليس هناك جهنَّم تحتنا، وفوقنا فقط السماء، تخيَّل أنَّ كلَّ الناس يعيشون من أجل اليوم، تخيَّل أنْ ليس هناك بلدان، ليس مِن الصعب فعل هذا، لا شيء لتقتل أو تموتَ من أجله، ولا دين أيضًا، تخيَّل أنَّ كلَّ الناس يعيشون في سلام، بإمكانك أن تقولَ إني حالم، ولكني لست الوحيدَ آمَل أن تنضمَّ إلينا يومًا، وسيصبح العالم كواحدٍ».

ويريد بذلك تقديمَ الأديان كالسبب الرئيس في إشعال الحروب والمشاكل. وقد ردَّ البروفسور جون لينوكس على هذه الأغنية بقوله: «إنه ليس رائعًا أن نتخيَّل عالمَ جون لينون بدون الشُّرور التي نسبَها للدين - كما دعونا إليه ريتشارد دوكينز -، بل إنه رائع أن نعيشَ في مثل هذا العالم أيضًا. جميعُ البشر العقلاء يوافقون الملاحدة الجدد في هذه النُّقطة. ولكن، أرجو أن أبيِّن لك ما هو واضحٌ هنا، وهو أنني لست جون لينون، أنا جون لينوكس، وأتمنَّى منك أن تتخيَّل عالمًا بلا إلحاد؛ لا ستالين، ولا ماو، ولا بول بوت، وهُم فقط ثلاثة من رؤساء الدول التي تبنَّت الإلحاد رسميًّا. وقد فعلت هذه الدول بعضَ أبشع الجرائم الجماعية في القرن العشرين. تخيَّل عالما بلا غولاغ، ولا الثورة الثقافية، ولا حقول القتل، ولا انفصال الأولاد عن الآباء بسبب تعليمهم الدين، ولا منع الناس من التعليم العالي بسبب إيمانهم بالله، ولا تمييز ضدَّ المؤمنين في العمل. ولا يوجد نهب، ولا هدمٌ ولا حرق لأماكن العبادة. ألا ينبغي للإنسان أن يتمنَّى مثل هذا العالم أيضًا؟»[1].

ومِن الغريب في الأمر أنَّ الملاحدةَ الجدد يذكرون أنَّ الأديان هي السبب الرئيس في إشعالِ الحروب والإبادة الجماعية، معَ تبجيلهم الشديدِ لنظرية التطوُّر، وكأنهم نسوا أو تَناسوا أنَّ نظرية التطوُّر كانت الأساسَ لثلاثة مذاهب

(1) Gunning for God (83)

فكرية، وهي مِن أكثر المذاهب دمويَّة عبرَ التاريخ البشري؛ وهي الاستعمار العنصري، والشيوعية، والنازية. وقد أدركَ البروفسور آدم سيدجويك - صديق داروين المقرَّب - هذا الأمر عندما قرأ كتاب: أصل الأنواع، فكتب لداروين: «إن كان الجمهورُ يتلقّون هذا الكتاب بالقبول فإنه سيوقع الجنسَ البشري في وحشيةٍ غير مسبوقة عبر التاريخ»[1].

وقد وقعَ ما ظنَّه البروفسور سيدجويك حيث كانت هذه النظرية أساسًا مهمًّا لبعضِ أكثر المذاهب الفكرية دمويةً في التاريخ؛ وهي: الاستعمار العنصري، والشيوعية والنازية. وبيانُ ذلك كالآتي:

الاستعمارُ العنصري: بدأ الاستعمارُ في القرن السادس عشر تقريبًا، ولكنّه ازداد نشاطًا كثيرًا في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وكان الهدفُ الأساس للمُستعمرين الأوائل: السعيُ لتنصير الشعوب المستعمرة والحصول على خيرات بلدانهم. وأمَّا المستعمرون المتأخِّرون فكانوا متأثِّرين بنظرية التطوُّر أكثر من تأثُّرهم بالدين النصراني.

وكان داروين يرى أنَّ الإنسان قد تطوَّر من القرد، وأن أقرب الأجناس البشرية إلى القرد هُم أصحابُ البشرة السوداء، وأكثرَ الأجناس تطوُّرًا هم الأوروبيون البيض. وحيث إنَّ القاعدة الأساسية لنظرية التطوُّر هي: الصراع من أجل البقاء للأصلح، فكان داروين يرى أنَّ الأجناس المتطوِّرة سوف يقضونَ على الأجناس أقلّ تطوّرًا؛ فقال: «في فترة مستقبلة - ليست ببعيدة حيث تعدُّ بقرون - سوف تقضي وتستبدل الأجناسُ المتحضِّرة الأجناسَ المتوحِّشة في أنحاء العالم. وفي الوقت نفسه فإنَّ القرود الإنسانية (Anthropomorphous apes) سوف تمحى من الوجود. وبعد ذلك يزداد الفاصل أكثر، حيث نتمنَّى أن يكون الفاصلُ ما بين الإنسان في حالته المتحضِّرة [- وهو الجنس الأبيض -] وبينَ قردة متدنِّية مثل قرد الرباح، بدلًا من أن

---

(1) Man's Origin Man's Destiny (166), by: A.E. Wilder Smith, (Word for Today Publishing, 1993)

يكون الفاصل صغيرًا - كما هو الآن - بين الزنجي أو السكان الأصليين في أستراليا وبين غوريلا»[1].

وبذلك دعا داروين ضمنيًّا إلى صراع بين الأجناس حيث يمحي الأوروبيون سكّان القارات الأخرى، وأنَّ في ذلك صراعًا من أجل بقاء الأصلح.

وكتبَ داروين أيضًا لأحدِ أصدقائه عن الصراع بين الأجناس قائلًا: «أستطيع أن أريَكَ أنَّ القتال بسبب الانتخاب الطبيعي قد حصلَ وأدَّى إلى تطوُّر الحضارة أكثر مما تريدُ أن تعترف به أنت. تذكَّر فكرة المخاطرات على الدول الأوروبية قبل قرون قليلة عندما أحاطَ بهم الأتراك، بينما تعتبر مثل هذه الفكرة سخيفة الآن. الأجناس البيض المتحضِّرة قد هزمت الأجناسَ التركية حتى أصبحت جوفاء للصراع من أجل البقاء. وبالنَّظر إلى العالم في مدَّة ليست ببعيدة، فإنَّ أعدادًا بلا حصر من الأجناس المتدنِّية سوف تمحى عنِ الوجود من قبَل الأجناس المتحضِّرة العليا في أنحاء العالم»[2].

وقد بحثَ البروفسور جايمس جول[3]في الأسس الأيديولوجية للاستعمار العنصري الأوروبي، فوجد أنَّ أكثرَ الأفكار المؤثِّرة في الاستعمار هي الداروينية الاجتماعية المستقاة مِن أفكار داروين العنصرية في كتابيه: «أصل الأنواع» و«أصل الإنسان»[4].

---

(1) The Descent of Man (178), by: Charles Darwin, (A.L. Burt Cc, 1874)

(2) C. Darwin's letter to W. Graham, The life and letters of Charles Darwin, Volume 1, p.316

(٣) جايمس جول (James Joll): بروفسور التاريخ العالمي في جامعة أكسفورد المشهورة في بريطانيا. قد توفي عام: ١٩٩٤م. انظر:

https://archives.history.ac.uk/makinghistory/historians/joll_james.html

(٤) انظر: Europe Since 1870 (102 - 103), by: James Joll, (Penguin Books, 1990)

وقد ذكرَ الدكتور لاليتا ويديارتي[١] أنَّ أغلب العلماء الغربيين تلقّوا العنصرية بقبول في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسبب نظرية التطوُّر[٢].

فكانَ المستعمرون يروْن أنَّ لديهم أساسًا علميًّا لعنصريتهم، وأنه يحقُّ لهم استعمار بلدان الأجناس المتدنِّية - حسبَ زعمهم -، وأنه ينبغي أن تمحى هذه الأجناس من الأرض. وهذا الاستعمارُ العنصري - المدعوم علميًّا كما ادَّعوا - كانت له نتائج كارثية على السُّكان الأصليِّين في كثير من القارات. ومن الأمثلة على ذلك أن السكان الأصليِّين في أستراليا كان عددُهم حوالي مليون قبلَ قدوم الإنجليز، ونزل العددُ إلى ١٠٠ ألف خلالَ القرنين التاسع عشر والعشرين بسببِ الإبادة الجماعية وسياسة التَّجويع[٣]. ويعني ذلك أنَّ ٩٠ ٪ منهم قد ماتوا بسبب الإنجليز.

وكان الإنجليزُ يستندون في هذه الإبادة إلى نظرية التطوُّر، وأنَّها متوافقة مع العلم؛ فقد كتب هينري روسدين[٤] - العالم التطوُّري الأسترالي - عام ١٨٧٦م: «الصراع من أجلِ بقاء الأصلح يعني أنَّ ذا القوّة هو المحقّ. وبذلك فإننا نناشد وننفِّذ

---

(١) لاليتا ويديارتي (Lalita Vidyarthi): بروفسور الأنتروبولوجيا الهندي، حصل على شهادة الدكتوراه في هذا العلم من جامعة شيكاغو في الولايات المتّحدة. ويعتبر أحد أبرز علماء الأنتروبولوجيا من الهند. توفي عام ١٩٨٥:

https://www.yourarticlelibrary.com/essay/short-biography-of-lalita-prasad-vidyarthi/41681

(٢) انظر:

Racism, Science and Pseudo-Science (54), by: Lalita Prasad Vidvarthi, (Vendme, 1983)

(٣) انظر:

https://sites.google.com/site/aboriginalgenocide/

(٤) هنري رودسين (Henry Rusden): موظّف حكومي من بريطانيا، سافر إلى أستراليا في زمن الاستعمار البريطاني، وفتح عدّة جمعيات سياسية، ثمَّ أصبح نائب رئيس الجمعية الملكية في فيكتوريا. وكان ملحدًا تطوّريًّا. توفي عام: ١٩١٠م. انظر:

http://adb.anu.edu.au/biography/rusden-henry-keylock-4524

قانون الانتخاب الطبيعي العنيد بلا رحمة حين نبيد الأجناس الأسترالية والماورية المتدنِّية، ونحن نستولي على تراثهم ببرودة»[1].

والاستعمارُ في أستراليا مثالٌ بسيط على إجرام الاستعمار الأوروبي العنصري التطوُّري، وإلّا فالأمثلة يصعب حصرُها. ومن الأمثلة عليها سياسةُ التجويع لبريطانيا في الهندِ في القرنين التاسع عشر والعشرين أدَّت إلى موت ٢٩ مليون هندي[2].

وعملتْ دولة بلجيكا إبادةً جماعية رهيبة في دولة كونغو بين ١٨٨٥ - ١٩٠٨، وراحَ ضحيتُها حوالي ١٠ مليون من سكَّان كونغو[3]. وكانوا يستندون في هذه الإبادة الجماعية المخيفة إلى نظرية التطوّر[4].

فكانت نتيجةُ الاستعمار العنصري التطوُّري اللاديني كارثيةً بمعنى الكلمة، وعددُ القتلى يعدُّون بالملايين.

الشيوعية: قدْ تأثَّر مؤسسُ الشيوعية كارل ماركس إلى حدٍّ كبير بداروين؛ فكتب على سبيل المثال: «أعمالُ داروين مهمَّة للغاية، وتتناسب مع هدفي؛ حيث إنه يضع الأساسَ في العلوم الطبيعية لصراع الطبقات الاجتماعية عبر التاريخ»[5]. ولما أصدر كارل ماركس النسخةَ الثانية لكتابه: «رأس المال» (Das Kapital)، أرسلها إلى

---

(1) Education in Australia, New Zealand and the Pacific (94), by: Michael Crossley, Greg Hancock, Terra Sprague, (Bloomsbury Publishing, 2015)

(٢) انظر:
\http://www.independent.co.uk/voices/commentators/johann-hari/johann-hari-the-truth-our-empire-killed-millions-404631.html

(٣) انظر:
King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror and Heroism in Colonial Africa (225-233), by: Adam Hochschild, (Mariner Books: 1999)

(٤) انظر البحث: Whithaker R. Birt (3) The Congo: From Leopold to Lumumba

(5) Marx Letter to Ferdinand Lassalle, 16:th January, 1861

داروين وكتب: «إلى السيِّد تشارلز داروين، من مُعجبٍ مُخلص، كارل ماركس»[1]. وقد ردَّ داروين على هذه الرسالة وشكرَه، وقال: «أعتقد أنَّ كلانا نريد صدقًا أن نوسّع نطاق المعرفة»[2].

وهذا الودُّ المتبادَل انتقل إلى القادة الشيوعيين، وكان تفكيرُ حكّام الاتّحاد السوفيتي متجذِّرًا بالعمق في الرؤية التطوُّرية؛ فكان الملاحدة الشيوعيون يرون أن الحروب التي أشعلوها والإبادةَ الجماعية التي قاموا بها كان جزءًا من الصِّراع بين الطبقات. وهذا الصراعُ كان متجذِّرًا في نظرية التطوُّر.

وقد ألَّف مجموعةٌ من المؤرِّخين الأوروبيين الكتابَ الأسود للشيوعية (The Black Book of Communism) عنْ جرائم الدول الشيوعية، وقدَّروا عدد القتلى على أيدي الشُّيوعيين الملاحدة بـ٩٤ مليون! فنظريةُ التطوُّر كانت ذات أثرٍ كبير في هذا المذهب الإلحادي الإجرامي.

النّازية: الحزبُ النازي حكمَ ألمانيا بين عامي ١٩٣٣ - ١٩٤٥، وكان من أكثر الأحزاب دمويَّةً عبر التاريخ. وكان هذا الحزب يُبدي عداوة شديدة للأديان والمتديّنين - ولا سيَّما اليهود وبعض فرق النصارى -. ولكنْ كان بعض النازيين يؤمنون بوجود الله، فلا يعتبر الحزب النازي حزبًا إلحاديًّا، ولكنَّه كان حزبًا معارضًا للأديان التقليدية الموجودة في ألمانيا حينذاك. وكان أدلف هتلر - زعيم الحزب النازي - «أسيرًا للتعليمات التطوّرية، والظاهرُ أنَّه كان كذلك منذُ أن كان صغيرًا. الأفكارُ التطوُّرية هي الأساس - بطريقة شبه مكشوفة - لما هو أسوأ من كتابه: كفاحي، وكذلك خطاباته الجماهيرية... وكان هتلر يرى... أنه يجبُ على الأعراق العليا أن تقهر الأعراق الدنيا دائمًا»[3].

---

(1) Darwin in man: a psychological study of scientific creativity (72), by: Howard E.Gruber, Wildwood House (1974)

(2) Marx’s Ecology: Materialism and Nature (207)

(3) Darwin: before andirafter (115), by: Robert Clark

وقد أَلَّف ريتشارد فايكارت[1] كتابه المشهور: «من داروين إلى هتلر» (From Darwin to Hitler) عن علاقةِ الداروينية بالمذهب النازي، وتوصَّل إلى أنه كان مؤسَّسًا على تلك النظرية، وأنَّها جعلتهم ينظرون إلى جرائمهم البشعة بأنها فضائل عظيمة[2].

وقد قدَّر المؤرخون أنَّ النازيين قتلوا أكثر من ٢٠ مليون شخصًا في غير حالة الحرب[3]. وكانت نظريةُ التطوُّر الأساسَ لهذه الجرائم البشعة.

فهذه ثلاثةٌ من أشهر المذاهب الفكرية المعاصرة العلمانية المبنية على نظرية التطوّر، وقد بلغَ ضحاياها أكثر من ١٠٠ مليون نسمة منذ ظهور هذه النظرية. ولا يعني ذلك أنَّ كلَّ مَن شارك في هذه الجرائم كانوا ملاحدة، ولكنَّ مذاهبهم كانت مبنية على نظرية التطوُّر المعارضة للدين. وهذه النظرية هي الركنُ الركين للملاحدة الجدد الذين يهاجمون الأديانَ بأنها وراء الحروب والإرهاب. فأيُّ إرهاب أسوأ من إرهاب المستعمرين العنصرين والشيوعين والنازيين؟

- **ثانيًا: العنفُ والإجرام في المجتمعات:**

العنفُ موجودٌ في جميع المجتمعات، سواء أكان الشعب متديّنًا أم غير متديِّن، ولكن العنف أكثر انتشارًا بين الملاحدة واللادينيين من انتشاره بين المتديّنين. ومن أسباب ذلك: تبجيل العنف والمجرمين عبرَ أفلام آكشن (Action Films). وهذه الأفلام لها صلة ظاهرة باللادينية والفلسفات الإلحادية؛ قال جون باسكينو: «أظهر عدد هائل من الدراسات الاجتماعية والنفسية أنَّ لدى الأطفال والبالغين المتابعين لأفلام العنف ميلًا لتطوير حسٍّ عالٍ من العدوانية. ويتفاقم هذا الحسُّ العالي من العدوانية عند الأطفال والكبار الذين يعانون من عدمِ الاستقرار النفسي. أشارت

---

(١) ريتشارد فايكارت (Richard Weikart): بروفسور التاريخ في جامعة إوفا بالولايات المتّحدة، وتخصّصه في التاريخ الفكري الأوروبي المعاصر. انظر:
https://www.csustan.edu/history/Weikart

(٢) انظر: From Darwin to Hitler (215) (Palgrave Macmillan 2006)

(٣) انظر: http: / /www.scottmanning.com /content /nazi – body – count /

الجمعية الأمريكية لعلم النَّفس باستمرارٍ خلال أبحاثها إلى أنَّ الذين يشاهدون العنف على التلفاز لديهم ميلٌ ليصبحوا أقلَّ تأثُّرًا وحساسيةً لألم ومعاناةِ الآخرين، ويزداد استعدادهم للتصرّف بعدوانية تجاهَ غيرهم. أمّا الأطفال فميولهم تتَّجه ليصبحوا أكثر عدوانية في سنِّ المراهقة، وأكثر عرضةً للانخراط في أعمال إجرامية في سنِّ البلوغ. وقد أفسدَ هوس العلمانية بالسيطرة، والأفضلية الشخصية و«البقاء للأصلح»؛ عقولَ الأجيال. فأضحى لدينا أجيال من عَديمي الإحساس تجاه العنف»[1].

وقال أيضًا عنْ تزايد العنف والإجرام في بلده: الولايات المتَّحدة: «مع محاولات ضبطِ النمو السكاني، يؤكِّد تقريرُ الجريمة الموحَّد لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي (FBI) أنَّ أربعة عقود من تطبيق العلمانية، والبراغماتية، والاسمية، والأنانية، والنفعية، والتلذُّذية، والتطوّرية، والوضعية والنِّسبوية، واتباع مبدأ البقاء للأصلح [أو الأقوى]، قد أوصلتْ مجتمعنا إلى حافَّة الانهيار. في سنة ١٩٦٠؛ سُجلت ٣,٠٩٥,٧٠٠ جريمة اعتداء على الأملاك، و٩,١١٠ جريمة قتل، و١٧,١٩٠ حادثة اغتصاب، و١٠٧,٨٤٠ سرقة، و١٥٤,٣٢٠ اعتداء بالغ الخطورة، و٩١٢,١٠٠ حادثة سطو، و٣٢٨,٢٠٠ حادثة سرقة سيارات. ما الذي حدث في الأربعة عقود التي سادت فيها ديانة العلمانية؟ في سنة ٢٠٠٧ سجلت ٩,٨٤٣,٤٨١ جريمة اعتداء على الأملاك، و١٦,٩٢٩ جريمة قتل، و٩٠,٤٢٧ حادثة اغتصاب، و٤٤٥,١٢٥ سرقة، و٩١٠,٧٤٤ اعتداء بالغ الخطورة، و٢,١٧٩,١٤٠ حادثة سطو، و١,٠٩٥,٧٦٩ حادثة سرقة سيارات. هذه هي المثالية العظيمة التي جلبها لنا دين الإنسانية والإلحاد! وكلَّما تغلغلتِ الفلسفات الإلحادية أكثر فأكثر إلى عقول الناس وقلوبهم، كلما كان من المحتملِ أن يتمَّ اللجوءُ إلى مبدأ البقاء للأقوى، وغرائز الإنسان الأساسية. وكل ما قيل مِن إحصاءاتٍ في الولايات المتحدة ما هو إلّا انعكاسٌ لجميع المجتمعات العلمانية»[2]. فالمذاهبُ والفلسفات العلمانية

---

(1) Atheist Personality Disorder (19)

(٢) المصدر السابق (٨٥ – ٨٦).

والإلحادية قد أثَّرت تأثيرًا مباشرًا في عقول الناس، وجعلتهم أكثرَ ميلًا للعنف من غيرهم. وذلك أنَّ هذه المذاهب تحمل طابع: البقاء للأصلح، والنِّسبية الأخلاقية، وعدم الإيمان بمحاسبة الإله للإنسان. وجميع هذه الأفكار العلمانية الإلحادية تمهِّد للعنف والإجرام في المجتمعات.

- **ثالثًا: انتشارُ المخدرات:**

المخدِّرات داءٌ مُنتشر في كثيرٍ من المجتمعات، ويقتل آلافًا من البشر سنويًّا في أنحاء العالم. والأديانُ المشهورة كاليهودية[١]، والنصرانية[٢]، والإسلام[٣] تحرّم استخدامَ المخدِّرات. وأمّا الملاحدة فلا يوجد لديهم محرَّمات. قد يمتنع الملحد عنْ تعاطي المخدِّرات لكونها مضرَّة، أو لأنَّ قانون الدولة يمنع من ذلك، ولكنَّ المخدِّرات ليست محرَّمة عندهم كما هي محرَّمة عند المتديِّنين. وليست هناك مراقبة لله في عدم تعاطيها. ولهذا أظهرتِ الأبحاثُ العلمية أنَّ الملاحدة واللادينيين يتعاطون المخدّرات أكثر من المتديِّنين[٤]، وأنَّ التديُّن من أعظم موانع تعاطي المخدِّرات[٥].

وقد ذكر جون باسكينو الارتباطَ بين الإلحاد والمخدِّرات بقوله: «قام التوجُّه إلى النَّفس - الذي عززته أداةُ الإلحاد التبشيرية المتمثِّلة في وسائل الإعلام - بخلق

---

(١) انظر: https: / /www.myjewishlearning.com /article /smoking - alcohol - /and - drugs

(٢) انظر: https://www.gospelway.com/morality/drug_abuse.php

(٣) انظر فتوى اللجنة الدائمة حيث نقلوا الإجماع على تحريم تعاطي المخدّرات:
http:// www.alifta.net/ fatawa/ FatawaDetails.aspx?languagename=ar&View=Page&PageID=3225&PageNo=1&BookID=2#P11

(٤) انظر:
https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S1516444613000238
وانظر أيضًا:
https://www.sciencedaily.com/releases/2013 / 10 / 131003093041.htm

(٥) انظر: https: / /www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC3043382 /

الذات الفارغة. ومعَ عدم وجود إلهٍ لملء ذلك الفراغ أصبحتِ المخدِّرات الاختيارَ الأكثر نشاطًا. إنَّ الإحصائيات المتعلِّقة بتعاطي المخدِّرات المشروع وغير المشروع في الولايات المتَّحدة مدهشةٌ، معَ وجود اتجاهٍ متزايدٍ دائمًا في مشاكل الصحة العقليّة - المغذّاة بالتوجُّه نحو الذات -، وسيستمرُّ تعاطي المخدِّرات والرعاية الصحية العقلية في تزايد، واصلًا لنسبٍ وبائية»[1].

- **رابعًا: الهوسُ الجنسي:**

الزِّنا محرَّم في اليهودية، والنصرانية والإسلام؛ فالوصيةُ السابعة من الوصايا العشر - التي يقدِّسها اليهود والنصارى معًا - هي: «لا تزنِ!»[2]. واللهُ تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [سورة الإسراء:٣٢].

وليس الزنا محرَّمًا فحسب، بل النظرُ إلى النساء بشهوة محرَّم أيضًا؛ يُنسب إلى المسيح في إنجيل متَّى أنَّه قال: «إنَّ كلَّ مَن ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه»[3].

واللهُ تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة النور: ٣٠].

وأمّا الملاحدة فليس الزنا محرَّمًا عندهم، ومِن باب أولى فليس النظرُ إلى النساء بالشَّهوة محرَّمًا أيضًا. بل دعاةُ النِّسوية من الملاحدة واللاديين يدعون إلى تحرُّر جنسي شامل. ومِن الأمثلة على ذلك ما قالته الناشطةُ النسوية الملحدة مارغرت سانغر[4]: «هدفُنا هو إشباعٌ جنسيٌّ غيرُ محدود دون عبء الأطفال غير المرغوب

---

(1) Atheist Personality Disorder (21)

(٢) سفر الخروج (٢٠/ ١٤).

(٣) إنجيل متى (٥/ ٢٨).

(٤) مارغرت سانغر (Margaret Sanger): ناشطة نسوية أمريكية متطرّفة، سَعَت من أجل التحرّر الجنسي ومساواة المرأة بالرجل، وتحديد النسل. وكانت تتبنّى المذهبَ الإنساني الإلحادي. توفيت عام ١٩٦٦م. انظر:
https://www.pbs.org/wgbh/americanexperience/features/pill-margaret-sanger-1879-1966/

بهم... يجب أن تحظَى النساء بحقِّ الحياة... الحبّ... والكسل... بأن تكون أمًّا غير متزوجةٍ... بأن تنشئ... بأن تدمّر... فراش الزوجية هو أكثرُ تأثيرٍ منحطٍّ في النظام الاجتماعي... أفضل فعلٍ رحيمٍ تفعله العائلة لأحد أعضائها الرُّضَّع هو أن تقتله»(١).

قال جون باسكينو: «إنَّ الإباحية ولدت من رحم الإلحاد، كما تعين أيضًا على صعودِهِ أكثر. ألا يستغرب أن يصل الزنا والخيانة الزوجية إلى مستويات وبائية؟ ألا يستغرب أن تصلَ الفوضى الجنسيَّة إلى مستويات لم يُسمَع بها منذ نشأة الوثنية؟ ألا يستغرب أنَّ الدعارة منتشرة، وأنَّها ربحت حتَّى نوعًا من الشرعية؟ ألا يستغرب أن تذكر الدراسة التي أجراها نيل مالاموث من جامعة كاليفورنيا أنَّ ٥٠ بالمائة من الرجال لا إشكالَ لديهم في أنْ يغتصبوا النساء إنْ تيقَّنوا أنَّ ذلك لن يجلب لهم أية مشكلة؟(٢) ألا يستغرب أنَّ أبناءَ العاشرة نشطون جنسيًّا، وأنَّ بنات الثانية عشرة يقعن في الحمل والإجهاض؟ ألا يستغرب أنه بمجرَّد ما يفقد «تابل الجنس» نكهته في الزواج يعني ذلك نهايته؟ ألا يستغرب أنْ يبلغ الاغتصاب والاعتداءات الجنسية واغتصاب الأطفال نسبًا وبائية؟ عندما ينزل المرءُ نفسَه إلى مرتبة حيوان متوحِّش فلن يستطيع أن يتصرَّف إلّا مثل حيوان متوحِّش! والإلحاد هو دين التوحّش»(٣).

وهذا العالَم العلماني الإلحادي المهووس بالجنس انتشرتْ فيه الأفلام الإباحية بطريقة مقزِّزة؛ قال جون باسكينو: «عندما يكون جوهرُ الشخص أو طبيعته الفطرية ذات قيمة ضئيلة، لا يعود المرء حينها إلّا مجرَّد أداة للاستخدام. يشاهد الأمريكي العادي حوالي ١٥,٠٠٠ صورة جنسية موجَّهة سنويًّا. و٦٥ ٪ من التلفزيون الأمريكي محشوٌّ بالمحتوى الجنسي. ويبلغ متوسِّط المشاهد الجنسية المعروضة في حصة الأسرة التلفازية ثمانية مشاهد أو أكثر يوميًّا. والتلفاز اليومي له أكثر من ١٥٦ مشهد جماع، حيث تفوق نسبةُ ممارسيه من غير المتزوجين ثلاثَ مرات نسبتهم من

---

(1) The Woman rebel, vol. 1, N. 1 reprinted in Woman in the New Race

(٢) انظر: Philadelphia Inquirer, Jan. 9، 1987

(3) Atheist Personality Disorder (56-57)

المتزوجين[1]... إننا نعيش في مجتمعٍ يشكِّل فيه الإدمان الجنسي والإباحية جزءًا من الحياة اليومية. مما أدّى إلى مجتمعٍ مُتساهلٍ ومنحرف جنسيًّا. ومن الجدير بالذكر أنَّ صناعة المواد الإباحية هي صناعة كبرى في العالم!»[2].

وهذه الدعوةُ الإلحادية إلى التحرُّر الجنسي وانتشار الأفلام الإباحية لها آثار سلبية عظيمة على المجتمع؛ ذكر جون باسكينو بعض الإحصائيات منذ عام ١٩٦٠ م:

- رغمَ انتشار موانع الحمل، ارتفعت عمليات الإجهاض من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١,٤ مليون عملية في السنة.

- استقرارُ الرجل والمرأة في سكن واحد بلا زواج يجمعهما ارتفع من ٥٠٠,٠٠٠ زوج [بمعنى المرأة وخدنها] إلى ٤ ملايين. وهذا النوعُ من السكن أشهرُ وأكثر شيوعًا من الزواج الشرعي في الولايات المتحدة.

- ارتفعَ الطلاق من ٤٠٠,٠٠٠ حالة إلى ١,٢ مليون حالة في السنة.
- ارتفعَ عددُ الأسر ذوات الأب أو الأم غير المتزوجين من ٩ إلى ٣٢٪.
- ارتفعَ عددُ أبناء الزنا من ٢٠٠,٠٠٠ إلى ١,٥ مليون مولود في السنة.
- ارتفعَ معدَّلُ حمل المراهقات من ٣٠ إلى ١١٠ لكل ١٠٠٠ فتاةٍ سنويًّا.
- ارتفع معدَّلُ حدوث الأمراض المنقولة جنسيًّا إلى ٢٤٥٪.
- ارتفع معدَّلُ الاستغلال الجنسي للأطفال إلى ٢٨٦٪.
- ارتفع معدَّلُ الجريمة إلى ٥١٠٪[3].

فهذه صرخةُ نذير من العالم الغربي عن الآثار المدمِّرة والشرور المتفاقمة المترتبة على الإلحاد واللادينية. ولا شكَّ أنَّ هذه النقاط مجتمعة تدلُّ على أنه لا يوجد شيء أسوأ ولا أخطر من الإلحاد، وأنَّ شروره لا تعدُّ ولا تحصى.

---

(١) انظر: Pediatrics 107 (January 2001): 191 - 194

(2) Atheist Personality Disorder (21-22)

(٣) انظر: المصدر السابق (٥٣ – ٥٤).

المبحثُ السّابع
نقدُ أساليب علماءِ الغرب
في الرُّدود على المَلاحدة

تناول هذا الفصلُ أساليبَ علماء الغرب في الردود على الملاحدة. وقد تقدّم أنَّ من أبرزِ أساليبهم في ذلك: بيانَ مغالطاتهم المنطقية، وشطحاتهم، وتناقضاتهم، وضعف خطابهم، ومخالفتهم للمنهج العلمي والشرور المترتّبة على الإلحاد.

وهذه الأساليبُ جيِّدة ومتميِّزة في كشفِ عَوار الملاحدة وبيان هزالة فكرهم. ومع ذلك فإنَّ كلامَ علماء الغرب في هذا الفصل لم يخلُ من بعض الخلل. ويتلخَّص ذلك في أربع نقاط:

النُّقطةُ الأولى: قد تقدَّم أنَّ نقد النصارى للملاحدة في المسائل العقلية فيها شيء من الإشكال، وذلك لأنَّ عقيدتهم مبنيَّة على مخالفة بديهيات العقل. فكذلك ردودهم على المغالطاتِ المنطقية والتناقضات والشطحات عند الملاحدة فيها هذا الإشكال. فالعقيدةُ النصرانية نفسُها مخالفةٌ لأبجديات المنطق وهي متناقضة، وقساوستهم ينطقونَ بأنواعٍ من الشَّطحات. وليس ذلك في مسألةٍ فرعية فقط، بل في أصل الأصول، وأهمِّ القضايا على الإطلاق؛ ألَا وهي عقيدةُ التثليث. فمهْما حاول النصارى بيان المغالطات المنطقية عندَ الملاحدة وتناقضاتهم فإنَّهم واقعون في ذلك أيضًا. فكان المفروض أنَّ النصارى يراجعون أنفسَهم عندما بيَّنوا هذه المغالطات والتناقضات والشطحات، وينظرونَ بجديَّة في عقائدهم. ولا توجد عقيدةٌ موافقة للمنطق السليم، وبعيدةٌ عن التناقضات والشطحات إلّا العقيدة الإسلامية.

النُّقطةُ الثّانية: اعتنى علماءُ الغرب ببيانِ ضعف الخطاب عند الملاحدة الجدد، وذكروا نقاطًا مهمَّة في ذلك. ولا شكَّ أنَّ خطاب الملاحدة الجدد ضعيف وهزيل. ولكنَّ هذا النقد يمكن توجيهُه إلى خطاب كثيرٍ من النصارى أيضًا. وإن كان لديهم بعضُ الحجج والردود القوية والمتينة إلّا أنَّ بعض حججهم وردودهم ليست كذلك. وسيتمُّ الوقوفُ على مسائل كثيرة من ذلك خلال هذه الرسالة. فلو اعتنى النصارى بتسديدِ الضعف في خطابهم كما اعتنوا ببيانِ ضعف الخطاب الإلحادي لانتفعوا من ذلك.

النُّقطةُ الثّالثة: عندما ردَّ علماءُ الغرب على مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي أدخلوا في كلامهم الحديثَ عنْ بعض الظواهر الغريبة مثل التخاطر. ويقال في ذلك ما قيل في موقفِهم من علم النَّفس الموازي. وهو أنَّ تحمُّسَهم في بيان مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي قد يدخلهم في شَرَك الشياطين والجنّ. فلا بدَّ أن يكون المسلم على حذر من الانخراطِ في هذه القضايا، ويكتفي بأنَّ هذه الظواهر تبيِّن قصورَ المنهج العلمي المبني على المذهب الطبيعي الذي يعتمد عليه الملاحدة.

النُّقطةُ الرّابعة: قد أجادَ علماءُ الغرب في بيان الشرور المترتبة على الإلحاد. ولكن الإلحاد نفسه قد نشأ في أوروبا كردَّة فعلٍ للشرور التي قام بها النصارى. فالكنيسة الكاثوليكية قد طغتْ وبغتْ، وحرَّضت على حروب صليبية، وأكلت أموال الناس بالباطل، وصدَّت عن سبيل الله. فالشرورُ التي قام بها النصارى لا تعدُّ ولا تحصى. وسيأتي في مبحث: ردودهم على شبهة الشُّرور المترتبة على الأديان أنَّ الكتاب المقدَّس لدى اليهود والنصارى قد حثَّ على ارتكاب إبادة جماعية للرجال والنساء والأولاد. فالشرورُ التي قام بها النصارى ليست مبنيَّة على تصرُّفات أفراد، بل هي منبثقة من كتابهم المقدَّس. وأمّا المسلمون كأفرادٍ فقد يفعلون الشُّرور، ولكن لا يكون ذلك مبنيًّا على دينهم الذي يحثُّ على كلِّ خير، ويمنع عن كلِّ شرّ.

الفصلُ الثّالث

وسائلُهم في الرُّدود على الإلحاد

وفيه سبعةُ مباحث:

المبحثُ الأوَّل: تأليفُ الكتب.

المبحثُ الثّاني: عقدُ المناظرات.

المبحثُ الثّالث: البرامجُ والمقاطع المرئية.

المبحثُ الرّابع: النشرُ في وسائل الإعلام.

المبحثُ الخامس: النشرُ في وسائل التواصل.

المبحثُ السّادس: إصلاحُ العلوم التجريبية لتتوافق مع الحقائق الدينية.

المبحثُ السّابع: نقدُ وسائل علماء الغرب في الردود على الإلحاد.

المبحثُ الأوَّل

تأليفُ الكتب

الدعوةُ إلى الإلحاد قد تقوَّت كثيرًا بعدَ انطلاق حركة الإلحاد الجديد، وأصدر روَّادُها عددًا مِن الكتب الإلحادية. ولكنَّ الحركة المضادَّة للإلحاد في الغرب نشطت كثيرًا كذلك، والكتب في نقدِ الإلحاد تفوق الكتب الإلحادية بمراحل، بحيث يصعب حصرُها. ومما يدلُّ على ذلك أنَّ أشهرَ كتاب إلحادي في هذا العصر هو كتاب: وهْم الإله لريتشارد دوكينز. وقد ألَّف علماءُ الغرب سبعين مؤلَّفًا في الردِّ على هذا الكتاب فقط[1]! وأمّا الكتبُ الأخرى في الردِّ على الإلحاد الجديد وما يتعلَّق به؛ فتفوق المئات.

وليس الغرضُ من هذا المبحث تعدادَ جميع كتب علماء الغرب في هذا المجال، وإنما المراد: إبراز أهمِّ هذه الجهود، وبيان أفضلِ الكتب التي يمكن الاستفادةُ منها في نقد الإلحاد.

ويمكن تقسيمُ المؤلَّفات في نقد الإلحاد، وما يدور في فلكِها، إلى الأقسام التالية:

١) الأدلةُ العقلية على وجود الله.

٢) الأدلةُ العلمية على وجود الله.

٣) إثباتُ المعجزات.

٤) نقدُ خطاب الإلحاد الجديد.

٥) نقدُ المذهب المادي.

---

(١) هذه القائمة تتضمّن سبعين ردًّا على كتاب دوكينز:

https://www.goodreads.com/list/show/92978.The_God_Delusion_and_its_fleas_\

ولا يستبعد أن الكتب أكثر من ذلك.

٦) درءُ التعارض بين الإيمان والعلم التجريبي والعقل.

٧) نقدُ النظريات العلمية التي يتبنّاها الملاحدة.

أوَّلًا: كتبٌ في بيان الأدلة العقلية على وجود الله:

كان أكثرُ اللاهوتيين المتقدِّمين يردُّون على الإلحاد بإقامة أدلة عقلية على وجودِ الله. وكانت هذه الأدلة تتَّسم بالصُّعوبة والتعقيد وكثرة المقدِّمات. وأمّا علماءُ الغرب المعاصرون فقد نقَّحوا هذه الأدلة وصاغوها بصياغات جديدة مدعومة بأدلة من العلم التجريبي. والمؤلِّفون في هذا المجال كثيرون، ولكنْ لعلَّ أبرزهم مؤلِّفان:

المؤلِّفُ الأوَّل: البروفسور ريتشارد سوينبورن؛ فقد ألَّف ثلاثية مشهورة عن الأدلة العقليَّة الفلسفية على وجود الله؛ وهي: «تماسك علم اللاهوت» (The Coherence of Theism)، الذي صدر عام ١٩٧٧م. و»الوجود الإلهي» (The Existence of God)، الذي صدر عام ١٩٧٩م. و»الإيمان والعقل» (Faith and Reason)، الذي صدر عام ١٩٨٤م. ثمَّ ألَّف بعدَ هذه الثلاثية كتابه: «هل هناك إله؟» (Is there a God?) عام ١٩٩٦م في الموضوع نفسه.

والبروفسور سوينبورن يعتبر أحدَ أشهر الفلاسفة اللاهوتيين الغربيين في هذا الزمان، وقد قضى خمسينَ سنة من عُمره في نقدِ الإلحاد والدفاع عن النصرانية[1]. وكتبه موجَّهة للمتخصِّصين في الفلسفة والمنطق، وفيها عمق شديد، ولكنَّها نافعة.

المؤلِّف الثّاني: البروفسور وليام لاين كرايغ. يعتبر وليام لاين كرايغ أحدَ أشهر مُنتقدي الإلحاد على الإطلاق في هذا الزَّمان. وذلك في كثير من المجالات؛ كمناظرة الملحدين، وكتابة المقالات، وصناعة المقاطع، ومع ذلك كلِّه فقد ألَّف كتبًا كثيرة في نقد الإلحاد، ولذلك يتكرَّر اسمُه كثيرًا في هذا البحث. وقد ألَّف البروفسور كرايغ

---

(١) انظر:

http://www.philosophyofreligion.info/whos-who/modern-authors/richard-swinburne/

عددًا من الكتبِ في الأدلة العقلية على وجود الله. وبدأ مسيرتَه التأليفية بكتابة كتابيْن عن الدليل الكوني؛ وهمَا: «الحجة الكونية الكلامية» (The Kalam Cosmologi-cal Argument)، و«الحجة الكونية من أفلاطون إلى ليبنز» (The Cosmological Argument from Platon to Leibniz). وخصَّص الكتابين لحجَّة واحدة على وجود الله، وهي الحجة الكونية. ولعلَّه لا يوجد في الغرب مَن يُحسن صياغة هذه الحجة مع الردِّ على الاعتراضات عليها مثل البروفسور كرايغ. كما أنه اشتركَ مع مجموعة من علماء الغرب في تأليف كتاب: «الله طيب الله كبير» (God is Good God is Great) بكتابة فصل: «ريتشارد دوكينز عن الحجج على وجود الله» (Richard Dawkins on Arguments for God) وتحدّث فيه عن الحجَّة الكونية، والحجَّة الأخلاقية، والحجَّة الغائية، والحجَّة الوجودية بكلام متميِّز.

ومما يتميَّز به البروفسور وليام لاين كرياغ أنه صاحبُ تجربة طويلة مع الملاحدة. وسوفَ يظهر في المبحث القادم - إن شاء الله - أَنَّه من أكثر علماء الغرب مناظرةً مع الملاحدة؛ فهو خبيرٌ بكلامهم واعتراضاتهم. ولهذا، فإنه يعرف الاعتراضات التي يذكرها الملاحدةُ على الأدلة العقلية على وجود الله فيحترزُ في كلامه كثيرًا حتى لا يفتح لهم بابَ الانتقاد بصياغاتٍ غير دقيقة. ولهذا كان حريًّا بالاستفادة منه في هذا المجال.

ثانيًا: كتبٌ في بيان الأدلة العلمية على وجود الله:

بينما كان المتقدِّمون يوردونَ الأدلة العقلية المحْضة على وجود الله، فإنه يكثر عندَ المعاصرين إيرادُ الأدلة العلمية على وجودِه سبحانه وتعالى. وذلك أن العلم التجريبي يتبوأ مكانةً رفيعة في العصر الحديث، والناس يتأثَّرون به أكثر من الأدلة العقلية المحضة.

والكتبُ في هذا المجال كثيرة جدًّا، وهي تتنوَّع حسب مجالات العلم التجريبي. وأكثرُ المجالات التي يكتب فيها علماءُ الغرب هي: علم الكون، والفيزياء وعلم الأحياء. وبيانُ ذلك كما يلي:

علمُ الكون: بعضُ علماء الغرب يركِّزون على الأدلة العلمية المشاهدة في الكون على وجودِ الله، وأبرزُ هؤلاء العلماء - فيما أرى - : الدكتور هيو روس - عالم الفيزياء

الكونية الكندي -. وقد ألَّف الدكتور روس عددًا من الكتب في هذا الموضوع؛ منها: «لماذا الكون بهذه الطريقة» (Why the universe is the way it is)، و«الخالق والكون» (The Creator and the Cosmos)، و«ما وراء الكون» (Beyond the Cosmos). وهذه الكتب جيِّدة ومفيدة، ويلاحظ أنَّ الدكتور روس متخصِّص في علم الكون مع حسن صياغة دلالة هذا العلم على الخالق.

الفيزياء: قد ألَّف علماء الغرب عددًا من الكتب عن الأدلة الفيزيائية على وجودِ الله، ومِن أبرز هؤلاء المؤلِّفين هو جون بولكنغهورن[١]، وهو عالمُ فيزياء مرموق، حيث كان بروفسور الفيزياء الرياضية في جامعة كامبردج فترةً طويلة، والحاصل على زمالة الجمعية الملكية البريطانية. قد ألَّف البروفسور بولكنغهورن خمسة كتب في الفيزياء وستة وعشرين كتابًا عنِ العلاقة بين العلم التجريبي والدين[٢]. ومن ضمن هذه الكتب: كتب كثيرةٌ عن الأدلة الفيزيائية على وجود الله، مثل: «إيمان الفيزيائي» (The Faith of a Physicist)، «الفيزياء الكمّية وعلم اللاهوت» (Quantum Physics and Theology). كما أنه اشتركَ في تأليف كتاب: «الله طيب، الله عظيم» (God is Good God is Great)، بكتابة فصل: «الله والفيزياء» (God and Physics) وهو نافعٌ ومفيد. ولكونه أحد أشهر الفيزيائيين في هذا العصر فإنَّ لكلامه وزنه حتَّى عند غير المتديِّنين.

علمُ الأحياء: الأدلةُ على أنَّ المخلوقات الحيَّة مخلوقة بإتقان كثيرة، حتى إنّ الملحدَ العنيدَ ريتشارد دوكينز قد اضطرَّ أن يقول: «الكائنات الحية تبدو مصمَّمة، إنها تبدو بشكلٍ غامر كما لو أنها مصمَّمة»[٣]. ورغم ذلك استكبرَ وأعرض وتولّى وأنكر ذلك. ولكنَّ

---

(١) جون بولكنغهورن (John Polkinghorne): قسيس أنجليكاني، وبروفسور الفيزياء الرياضية في جامعة أكسفورد لمدّة ١١ سنة. وقد ألّف بعض الكتب المهمّة والأساسية في ميكانيكا الكم. انظر: https: / /www.closertotruth.com /contributor /john – polkinghorne /profile

(٢) انظر: https: / /mottod.com /authors /john – polkinghorne

(3) Royal Institution Christmas Lectures, 1991

علماءَ الغرب قد ألَّفوا كتبًا عديدة، وبيَّنوا الأدلةَ الواضحة البيِّنة على التصميم والإتقان في المخلوقات الحيَّة الدالَّة على خالقها. ومن الأمثلة على هذه الكتب كتاب: «تصميم الحياة: اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية» (The Design of Life: Discovering Signs of Intelligence in Biological Systems)[1] الذي اشترك في تأليفه: الدكتور وليام ديمبسكي، والدكتور جونتان ويلز. ويركّز هذا الكتاب على بيان دلالة النُّظم البيولوجية على التصميم.

ومِن الكتب المتميِّزة في هذا المجال كتاب: «توقيع في الخليّة: الدنا وأدلة التصميم الذَّكي» (Signature in the Cell: DNA and the Evidence for Intelligent Design)[2] للدكتور ستيفن ماير.

ثالثًا: كتبٌ في إثبات المعجزات:

قد وردَ في كلٍّ مِن كتابهم المقدَّس والقرآن الكريم ذكر عددٍ من المعجزات للأنبياء. وكما أنَّ هذه المعجزات دليلٌ على صدق الأنبياء، فإنها دليل على وجود الله وربوبيته أيضًا. وهو دليلٌ حسِّي قوي يشاهده مَن حضر، يتناقله الشهود للغائبين. وحيث إن الملاحدةَ استطالوا على دليلِ المعجزات وشكَّكوا في وقوعها بزعمهم أنها تتناقض مع قوانينِ الطبيعة، فقد ألَّف علماءُ الغرب عددًا من الكتب في إثبات هذه المعجزات، وردُّوا على شبهات الملاحدة في ذلك. مِن أشهر الكتب في هذا المجال كتاب: «المعجزات» (Miracles) للبروفسور سي أس لويس الذي صدر عام ١٩٤٧ م. وكان البروفسور لويس يجيدُ الكتابة؛ حيث إنَّه كان أديبًا مشهورًا في بريطانيا، حتى وُضع في قائمة: «أعظم خمسين كاتبًا في بريطانيا منذ١٩٤٥م.» (The ٥٠ Greatest British Writers Since ١٩٤٥)[3]. فكانت لغتُه مؤثِّرة مع قوّة الحجج والأدلة.

---

(١) وقد ترجمت مؤسسة تكوين للدراسات والأبحاث هذا الكتاب إلى العربية، وطبع عام ٢٠١٤م.

(٢) وقد ترجم مركز براهين لدراسات الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية هذا الكتاب إلى اللغة العربية عام ٢٠١٧.

(٣) انظر:
https://www.thetimes.co.uk/article/the-50-greatest-british-writers-since-1945-ws3g69xrf90

وممَّن تميَّز في هذا الباب: البروفسور جون لينوكس؛ فقد خصّص فصلًا في كتابه: «حانوتي الإيمان بالله» (God's Undertaker) للكلام عن المعجزات وعدم تعارضها مع قوانين الطبيعة، فأفاد وأجاد.

ومِن الكتب الأكاديمية الجيِّدة في مجال المعجزات: «المعجزات والعقل الناقد» (Miracles and the Critical Mind) للبروفسور كولن براون[1]؛ فقد سرد المؤلّف تاريخَ علم اللاهوت المتعلِّق بالمعجزات، والاعتراضات عليها مع الردود. وهذا الكتاب عميق جدًّا، ومفيدٌ في نقد الاعتراضات على المعجزات.

رابعًا: كتبٌ في نقدِ خطاب الإلحاد الجديد:

قد سبقَ في أوَّل هذا المبحث أنَّ علماء الغرب قد ألَّفوا أكثر من سبعين كتابًا في الردِّ على كتاب: وهْم الإله، لريتشارد دوكينز. وهذه الكتبُ أمثلة على الكتب النقدية لخطابِ الإلحاد الجديد المتطرِّف وشبهاته. ومِن أشهر الكتب في نقد خطاب الإلحاد الجديد: «الردُّ على الإلحاد الجديد: تفكيك قضية دوكينز ضدّ الإله» (Answering the New Atheism: Dismantling Dawkin's Case against God) للبروفسور سكوت هون، والبروفسور بنيامين ويكر. فقد تميَّز هذا الكتاب بقوَّة حججه في نقد خطاب دوكينز والردِّ على خزعبلاته، حتَّى قال البروفسور أنطوني فلو - الملحد المشهور الذي ترك الإلحاد قبلَ وفاته - عنْ حجج هذا الكتاب: «نادرًا، وربما لم يحصل قط، أنني في سنواتي العديدة كبروفسور في الفلسفة حصلتُ على الفرصة أن أقرأ حجَّة مقنعة مثل هذه»[2]. ومِن الكتب المتميِّزة في نقدِ خطاب الإلحاد الجديد كتاب: «وهم الشيطان: الإلحاد ومزاعمه العلمية»

---

(١) كولن براون(Colin Brown): بروفسور اللاهوت النظامي في معهد فولير اللاهوتي بالولايات المتّحدة. توفي عام ٢٠١٩م. انظر:

https://www.fuller.edu/posts/in-memoriam-colin-brown/

(٢) هذا الكلام مثبت على الغلاف الخلفي لكتاب: Answering the New Atheism

(The Devil's Delusion: Atheism and its Scientific Pretensions)[1] للدكتور ديفيد برلينسكي[2]. وقد تميَّز هذا الكتاب بأن الدكتور برلينسكي نفسه ليس بمتديِّن، ولهذا كان لكتابه وقعٌ أقوى مما لو أَلَّف أحد المتديِّنين، إضافة إلى ما فيه من قوّة الحجَّة وتفكيك خطاب الإلحاد الجديد.

خامسًا: كتبٌ في نقد المذهب المادي:

قدْ سبق أنَّ المذهب المادي من أهمِّ أسس الإلحاد المعاصر الذي يقوم عليها. ولأهميةِ هذا المذهب اهتمَّ علماءُ الغرب بنقده، حيث إذا سقط الأساس انهار بقية المذهب. ومِن أبرز المؤلَّفات في نقد المذهب المادي كتاب: وهْم العلم التجريبي، للدكتور رييرت شيلدرايك الذي سبقتِ الإشارةُ إليه في مبحث: بيان مخالفة المنهج العلمي المادي للواقع، في الفصل الماضي. ولعلَّه أمتع كتاب في هذا الباب.

ومِن الكتب المتميِّزة في هذا الباب كتاب: «المذهب الطبيعي: تحليل نقدي» (Naturalism: A Critical Analyses)، الذي اشترك في تأليفه ١١ فيلسوفًا غربيًّا، كلُّهم يحملون شهادةَ الدكتوراه في الفلسفة. وهذا الكتاب، وإن كان مفيدًا، فإنه عميق جدًّا بحيث لا يستفيد منه إلا المتخصِّص في الفلسفة.

وقد أسهمَ البروفسور جون لينوكس إسهامًا جيِّدًا في نقد المذهب المادي في كتابه النافع: «حانوتي الإيمان بالله» (God's Undertaker) حيث تكلّم عن هذه المسألة في بابين مِن أبواب الكتاب الاثني عشر.

---

(١) وقد ترجم مركز دلائل هذا الكتاب إلى اللغة العربية عام ١٤٣٧.

(٢) ديفيد برلينسكي (David Berlinski): فيلسوف وعالم أمريكي من أصل يهودي. يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برينستون المشهورة بالولايات المتّحدة، كما أنه تخصّص في الرياضيات وعلم الأحياء. انظر: https: / /davidberlinski.org /biography/

سادسًا: كتبٌ في درْءِ التَّعارض بين الإيمان والعلم التجريبي:

الملاحدةُ الجدد يركّزون كثيرًا على مسألةِ تعارض الإيمان مع العلم التجريبي. وذلك لجهلِهم أو تجاهلهم لحدودِ هذا العلم، فيعطونه منزلة لا يستحقُّها. وقد تصدَّى علماء الغرب لدعوى التعارضِ ببيان حقيقة حدود العلم التجريبي ومجالاته المعيَّنة التي لا يجوز أن يتعدَّاها. ولعلَّ أبرزَ كتاب في هذا المجال هو كتاب: «حدود الحقيقة العلمية» (The Limitations of Scientific Truth) للبروفسور نيجل بروش. وهذا الكتاب يتميَّز بسهولة أسلوبِه وقوَّة حججه، مدعومًا بكثيرٍ من النقول المفيدة في هذا الباب. كما أنه بيَّن أن العلمَ التجريبي إذا وُضِع في إطاره الصحيح لا يتعارض مع الإيمان.

ومِن الكتب المفيدة في هذا الباب: وهم العلم (The Science Delusion) للدكتور روبيرت شيلدراك. وقد سبق أن نقلتُ من هذا الكتاب كثيرًا في مبحث: بيان مخالفة الملاحدة للمنهج العلمي.

وقد أفادَ البروفسور جون لينوكس في هذا الموضوع في كتابه: «الرماية نحو الإله: لماذا لا يصيب الملاحدة الجدد الهدف» (Gunning for God: Why the New Atheists are Missing the Target)، حيث أفرد فصلًا كاملًا عن موضوع: عدم تعارض العلم التجريبي والعقل للإيمان.

سابعًا: كتبٌ في نقد النظريات العلمية التي يتبنّاها الملاحدة:

الملاحدةُ لا يذكرون أنَّ العلم التجريبي يخالف الإيمان من حيث العموم فحسب، بل يذكرون عدَّة أمثلة على نظريات علمية مخالفة للمعتقدات الدينية. وأكثر ما يركّزون عليه: النظريات العلمية المتعلِّقة بأصْل الكون، ونظرية التطوُّر. وذلك أنَّهم يرون أن النظرياتِ العلمية المتعلِّقة بأصل الكون تنقض الحجةَ الكونية على وجود الله، وأن نظرية التطوُّر تنقض الحجة الغائية.

وقد ألَّف علماءُ الغرب مؤلَّفات كثيرة جدًّا في نقد نظرية التطوُّر. وبالتتبُّع والاستقراء يظهر أنَّ عددَ الكتب التي أُلِّفَت في نقد نظرية التطوُّر فقط قد تزيد عن

مائة كتاب. وبعضُ هذه الكتب اشترك عددٌ من العلماء في تأليفها مثل كتاب: «التطوّر الإلهي» (Theistic Evolution)، فقد اشتركَ في تأليفه ستة وعشرون عالمًا من علماء الغرب. وكتاب «عقب أخيل للتطوّر» (Evolution's Achilles' Heel)، ألّفه تسعة من علماء الغرب، كلُّهم يحملون شهادة الدكتوراه في العلوم التجريبية.

وبعضُ هذه الكتب النقدية لنظرية التطوُّر أَلَّفها علماء غيرُ متديِّنين مثل: الدكتور مايكل دينتون، فإنه يصنِّف نفسَه بأنه لاأدري، ولكنَّه ردَّ على النظرية بناء على مخالفتها للأدلَّة العلمية. وقد ردَّ على النظرية في كتابين متميِّزين همَا: «التطوّر: نظرية في أزمة» (Evolution: A Theory in Crisis) الذي صدر عام ١٩٨٥م، وكتاب: «التطوّر ما تزال نظرية في أزمة» (Evolution: Still a Theory in Crisis)، الذي صدر عام٢٠١٦[١]م.

وهناك عددٌ من الكتب في نقدِ شبهات الملاحدة في علم الكون. ومن هذه الكتب، كتاب: «استعادة علم الفضاء» (Taking Back Astronomy) للدكتور جاسون ليزلي، فقد ردَّ في هذا الكتاب على نظريةِ الانفجار العظيم، وذكر عددًا من الاعتراضات القويَّة على هذه النظرية.

ومِن الكتب الجيِّدة في هذا المجال كتاب: «الإله وستيفن هوكينغ» (God and Stephen Hawking)، للبروفسور جون لينوكس. وردَّ في هذا الكتاب على ستيفن هوكينغ، وما سطَّره في كتابه: التصميم العظيم مِن استغناء الكون عن الخالق. كما أنه تطرّق إلى الردِّ على نظرية الأكوان المتعدِّدة[٢]. وهو كتابٌ رغمَ صغر حجمه نافعٌ ومفيد في بابه.

فيتبيَّن خلالَ هذا الباب أنَّ علماء الغرب قد أَلَّفوا مؤلَّفات كثيرة جدًّا في نقد الإلحاد، ولعلَّها مِن أبرز وسائلهم في سبيل مكافحة هذا الداء العُضال.

---

(١) وقد ترجم مركز براهين الكتابين إلى اللغة العربية، وصدرَا عام ٢٠١٧.

(٢) الأكوان المتعدّدة (Multiverse): مفهوم نظري يشير إلى مجموعة من الأكوان المنفصلة سببيًّا، وأي شيء قد يكون موجودًا خارج حدود هذه الأكوان أو بينها. انظر: https://oxfordre.com/religion/view/10.1093/acrefore/9780199340378.001.0001/acrefore-9780199340378-e-157

المبحثُ الثّاني
عقدُ المناظرات

حيث إنَّ النقاش بينَ الملاحدة والمتديِّنين قد اشتدَّ كثيرًا في الآونة الأخيرة، فإن الطرفين قد اتَّفقَا على عقد مناظرات بينهما. وهذه المناظرات كثيرة جدًّا ومنتشرة في الغرب. وقد اهتمَّت إحدى قنوات يوتيوب بعرض هذه المناظرات، فبلغ عددها ٣١٤ مناظرة[١]!

وليست كلُّ مناظرة لها تلك القيمة العلمية، ولكن بعض المناظرات مفيدة وجيِّدة، وكان لها صدًى كبيرٌ في النقاش الديني. وأشهرُ المناظرين من المتديِّنين بالتتبُّع والاستقراء هُم: البروفسور وليام لاين كرايغ، والبروفسور جون لينوكس، والبروفسور ألستر ماكغراث. وهذه أشهرُ المناظرات التي أقاموها، معَ تعريف مختصر لكلِّ مناظرة:

مناظراتُ البروفسور وليام لاين كرايغ:

حسبَ اطِّلاع الباحث فلا يوجد أحدٌ من علماء الغرب ناظرَ الملاحدة أكثر من البروفسور كرايغ؛ فلديْه مناظراتٌ كثيرة جدًّا في موضوع الإلحاد. ووليام لاين كرياغ بروفسور في الفلسفة، ومتخصِّص في المنطق والجدل، فيعرف كيف يقيم الأدلة، وينتقد الخصوم. وبسببِ خبرته الطويلة وعلمِه في هذا المجال تميَّز كثيرًا في مناظراته، حتى خاف ريتشارد دوكينز من مُناظراته، وتهرَّب عدَّة مرَّات إلى أنْ وافق على مناظرته مع صديقه مايكل شيرمر[٢] في مناظرةٍ بعنوان: «ما المشكلة إذا لا يوجد

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /user /AtheistTheistDebates /videos

(٢) مايكل شيرمر (Michael Shermer): حامل شهادة الدكتوراه في تاريخ العلوم من جامعة كليرمونت في الولايات المتّحدة، ومؤسّس الجمعية الشكوكية. وهو أحد دعاة الإلحاد المشاهير. انظر: https: / /michaelshermer.com /bio /

إله؟» (What’s the Problem if there is no God?)، وقد ظهر البروفسور كرايغ عليهما بحججٍ قويَّة مقنعة[1].

والبروفسور كرايغ قد ناظرَ كثيرًا من رؤوس الملاحدة في هذا العصر في موضوعات متعدِّدة، وإن كان التركيزُ الأكبر على إثباتِ وجود الله. وهذه أمثلة على هذه الموضوعات:

الموضوعُ الأوَّل: «هل الله موجود؟» (Does God exist?) قد ناظر البروفسور كرايغ كلًّا من: كريستوفير هيتشن والبروفسور بيتر أتكنز مرّتين[2]، ولورانس كراوس[3] عن هذا الموضوع. ومضمونُ هذه المناظرات متقارب، وهو أنَّ البروفسور كرايغ يبيِّن في أوّل المناظرة الحججَ على وجود الله؛ والحججُ التي يذكرها في مناظراته هي:

١) الحجَّة الوجودية.
٢) الحجَّة الكونية.
٣) حجَّة التوافق الدقيق للكون.
٤) الحجَّة الأخلاقية.
٥) الخبرة الشخصية الحسِّية بوجود الله - مثل: إجابة الدعاء -[4].

---

(١) انظر:
https://www.youtube.com/watch?v=J2CAAf2CmOg

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=kYkfSd4i0sI
وانظر: https://www.youtube.com/watch?v=sTJ4m5fhLJg

(٣) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=CBGWFB2W1O8

(٤) ثمّة دليل سادس يذكره البروفسور كرايغ تبعًا للعقيدة النصرانية، وهو قيامة المسيح بعد الموت. هذا الدليل مَفاده أنَّ المسيح u قد مات، وقام بعد الموت. وهذه القيامة تكون بقدرة الله، فيكون دليلًا على وجوده، وكذلك أنّه دليلٌ مؤيّد للديانة النصرانية. ولكنّ هذا الدليل مبني على شهادات في الأناجيل الأربعة، وهذه الكتب لا يوثق بها - كما هو مبسوط في غير هذا الموضع -. وقد دلَّ القرآن على أن المسيح لم يمت إذ يقول الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [سورة النساء:١٥٧].

والحديثُ عن هذه الحجج سيأتي في الباب الثاني - إنْ شاء الله - مفصَّلًا.

ثمَّ تستمرُّ المناظرات بإيرادِ الملاحدة بعض الشبهات على وجود الله، مثل: مشكلة الشَّر، نظرية التطوُّر، وحجَّة عدم الإيمان، وبعض الشرور المترتِّبة على الأديان. ثمَّ ينتقدُها البروفسور كرايغ ويبيِّن وهنَها. والحديثُ عن هذه الشبهات والردُّ عليها سيأتي في الباب الثالث - إن شاء الله - مفصَّلًا.

الموضوعُ الثّاني: «هل أساسُ الأخلاق طبيعي أو فوق طبيعي؟» (Is the FoundationMorality Natural or Supernatural?). وقد ناظر البروفسور كرايغ الملحد سام هاريس في هذه المسألة[1]. والبروفسور كرايغ يوردُ الأدلة في هذه المناظرة على أنَّ الإلحاد لا يؤسِّس لأخلاقٍ موضوعية، وأنَّه لا يمكن للملحد أن يقول: إن الإبادة الجماعية والاغتصاب - على سبيل المثال - ليست أفعالًا شنيعة بطريقة موضوعية. يمكن للملحدِ أنْ يستنكر هذه الأفعال، ولكنَّه لا يستطيع أن يقيمَ أساسًا سليمًا لهذا الاستنكار، لأنَّ الإلحاد قرينُ العدمية والنِّسبية الأخلاقية. وهذه حججٌ نقدية قويَّة للإلحاد، وأنه غير قادر على شرح أصول الأخلاق.

الموضوعُ الثّالث: «لماذا يوجد شيء وليس لاشيء؟» (Why is there something rather than nothing?). وقد ناظرَ البروفسور كرايغ الملحد لوارنس كراوس في هذا الموضوع[2]. وكراوس يعتبر أحدَ أشهر علماء الكون في هذا العصر، ولكنّه ضعيف جدًّا في إيراد الأدلةِ العقلية والفلسفية. فالبروفسور كرايغ يوردُ الأدلةَ العقلية الفلسفية عن هذه القضية، والبروفسور كراوس يناظرُ بناءً على نظرياته الإلحادية في علم الكون. ولكنَّ البروفسور كراوس يقوم بتلبيس مشهور في هذه القضية، وهو أنَّه يزعم أنه يمكن أن يأتي شيء من لاشيء، إذ يعيدُ تعريفَ لاشيء بأنه فراغ كمِّي. وما يذكره غير صحيح؛ لأنَّ الفراغَ الكمِّي لا يعتبر لاشيء، وإنَّما حالة كمومية بأدنى طاقةٍ ممكنة. وهذا الفراغ الكمّي في الحقيقة شيء، ولكنْ بطاقةٍ ضئيلة.

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=5VmLQjdT7IA

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=U4M4ZUAcyV8

فأصلُ دليل البروفسور كراوس غلط، ومبني على تلبيسٍ وتدليس. وبذلك استطاع البروفسور كرايغ أن يهزمَه في المناظرة.

الموضوعُ الرّابع: «هل دفن العلمُ التجريبي الإله؟» (Has Science Buried God?)[1]. قدْ ناظر البروفسور كرايغ البروفسور كراوس في هذه المسألة. وبدأ كراوس المناظرة بإيراد شُبهات متعلِّقة بـ(إله الفراغات)، أي أنه كلَّما يتقدَّم العلم التجريبي بتفسير الظواهر الكونية وفقَ قوانين الطبيعة تقلُّ الحاجة إلى إلهٍ متصرِّف في الكون. وقد ردَّ البروفسور كرايغ على هذه الشبهة بأنه سوءُ فهمٍ للاعتقاد بوجود الخالق. الإله الخالق هو الذي يفسِّر وجودَ قوانين الطبيعة أصلًا. وأقام البروفسور كرايغ ثلاث حجج أخرى:

١) أنَّ الإيمان بالله يضع الأسسَ الصحيحة لوجود العلم التجريبي أصلًا، لأنَّه يفسِّر انتظامَ الكون، وأنَّه يمكن فهمه وإدراكه.

٢) أنَّ العلمَ التجريبي قد جاء مؤيِّدًا للمعتقد الديني أنَّ الكون غير أزلي، وله بداية.

٣) أنَّ العلمَ التجريبي المبنيَّ على المذهب الطبيعي قاصرٌ عن تفسير جميع الظواهر الفيزيائية، ولكنَّه يمكن لعلم اللاهوت تفسيرُ هذه الظواهر حيث أنَّ المتديِّنين يؤمنون بوجود عالم غيبي أيضًا.

وكلُّها حجج قويَّة ومقنعة، ولم يستطعِ البروفسور كراوس أن يجيب عليها بإجابات مقنعة.

مناظراتُ البروفسور جون لينوكس:

جون لينوكس بروفسور في الرياضيات في جامعة أكسفورد، كما أنه متخصِّص في فلسفة العلوم وتاريخها. وهذا يعطيه ميْزتين في المناظرات، وهما: إيراد الحجج المنطقية القويَّة، وكذلك اطِّلاع واسعٌ على العلوم التجريبية. فهو ليس عالما متخصصًا في علم تجريبي معيَّن

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=Qb1-F_UEtS4

مثل: علم الأحياء أو علم الكون، ولكنَّه درسَ الأسس الفلسفية للعلم التجريبي، وتاريخَ هذه العلوم كلِّها من حيث العموم. وهذا يجعله يتفوَّق على مَن يناظره مِن الملاحدة، ويستطيع أن يلزمَه بإلزامات قويَّة. إضافة إلى ما يتمتَّع به من الاحترام في الكلام، وأسلوب حواريٍّ هادئ، بخلاف الملاحدة الذين يغلب عليهم الأسلوبُ الاستهزائي والتهكُّمي.

وقد ناظرَ البروفسور لينوكس في مناظراتٍ عديدة رؤوسَ الإلحاد المعاصر وأفحمهم، وقدَّم حججًا قويَّة مُقنعة بخلاف خصومِه. ومِن أشهر مَن ناظره البروفسور لينوكس:

المناظرُ الأوَّل: ريتشارد دوكينز. وقد ناظره البروفسور لينوكس مرّتين:

المرَّةُ الأولى: «مناظرة وهم الإله؟» (The God Delusion Debate)[1] عام ٢٠٠٧، أيْ بعدَ سنة من صدور كتاب: وهم الإله، لدوكينز. وقد شاهد أكثرُ من مليون شخص هذه المناظرة عبرَ البثِّ المباشر[2]، ثمَّ فرِّغت المناظرةُ في كتاب متداول في الأسواق[3]. وقد بيَّن البروفسور لينوكس في هذه المناظرة الأخطاءَ العلمية في كتاب دوكينز.

المرَّة الثَّانية: «هل العلم التجريبي دفن الإله؟» (Has Science Buried God?)[4] عام ٢٠٠٨، وهي مِن أشهر المناظرات بين ملحدٍ ونصراني في هذا العصر، حيث أنها أقيمتْ في المتحف الطبيعي في جامعة أكسفورد. وهو المتحف الذي أقيمت فيه مناظرة عنْ نظرية التطوّر عام ١٨٦٠م بينَ أحدِ أنصار داروين وبين قسيس. وقد اشتهر بين الناس أنَّ التطوُّر غلبَ القسيس في المناظرة، فكان الناس يرونَه دليلًا على صحة نظرية التطوُّر، وهزيمة الدين - وسيأتي الحديثُ المفصَّل عنه في المبحث المتعلّق بنظرية التطوّر إنْ شاء الله.

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=zF5bPl92 - 5o

(٢) انظر: https: / /www.namb.net /apologetics /resources /debate – john – lennox – and – richard – dawkins

(٣) انظر: https: / /www.amazon.com /Delusion – Debate – Richard – Dawkins - Lennox/dp/B001C19HNM

(٤) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=J0UIbd0eLxw

فإعادةُ هذه المناظرة في ذلك المكان كان له تأثيرٌ رمزي كبير. ولكنَّ البروفسور لينوكس كان أقوى حجَّةً من دوكينز، وأفحمَه في كثيرٍ من النقاط المهمَّة. وقد شاهد أكثرُ من ١,٢ مليون هذه المناظرة، ويظهر مِن تتبُّع التعليقات أنَّ كثيرًا من الناس رأوا أن الغلبةَ كانت للينوكس، وليس لدوكينز.

المُناظر الثّاني: لورينس كراوس. وعنوانُ المناظرة: «هل الكون يترك مكانًا للوجود الإلهي؟» (Does Cosmos Leave Space for God?)[1]. قد ناظره البروفسور لينوكس عن موضوعِ الأدلة العلميةِ الكونية على وجود الله. والبروفسور كراوس كعادته ضعيفٌ في حججِه، ولكنَّه كثيرُ التهكُّم والسخرية؛ فمَن شاهد المناظرة متحلِّيًا بالإنصاف وجد أنَّ كلامَ البروفسور لينوكس أكثرَ منطقية وأقوى حججًا من سخريات كراوس.

المُناظرُ الثّالث: الدكتور مايكل شيرمير. والمناظرةُ بعنوان: «طبيعة الشرِّ والألم» (The Nature of Evil and Suffering)[2]. وهذا الموضوع خطيرٌ وحسَّاس، وذلك أنه يشتمل على جانبيْن: الجانب المنطقي، والجانب العاطفي. وأمّا الجانب المنطقي، فيمكن الإجابةُ عنْ مشكلة الشرِّ بذكر الحِكَم مِن وجود هذه الشرور، وقد فعل البروفسور لينوكس ذلك. وأمَّا الجانب العاطفي، فقد اعترفَ البروفسور لينوكس أنَّ الإجابة عليه أصعب، ولا سيَّما لمن حصلَ له الألم، أو إذا أصيب أحدُ الأقرباء بالسرطان على سبيل المثال. ولكنْ مع ذلك، فإنَّ الإجابة على مشكلة الشرِّ أصعبُ على الملحد، حيث أنه لا يمكن أن يفسِّر وجود الخير والشرِّ، وكذلك الإلحاد لا يعطي صاحبَه الأمل والرجاء للآخرة. وأمّا مايكل شيرمير فكان ضعيفَ الحجَّة، مع أنه يعتبر من رموز الإلحاد في هذا الزَّمان. فلم يستطعْ أن يفسِّر طبيعة الشر أصلًا، وإنما قفزَ لذكر بعض الأمثلة العاطفية على وجود الشرور، واستهزأ بالمعتقدات الدينية.

---

(١) انظر: https: //www.youtube.com/watch?v=o7CKDLKP4ek

(٢) انظر: https: //www.youtube.com/watch?v=w6QSmwwGR50

المناظرُ الرّابع: البروفسور بيتر أتكنز. وعنوانُ المناظرة: «العلم التجريبي والإله» (Science and God)[١]. ولم تكنْ مناظرة بطريقة تقليدية، وإنما هي أشبه ما يكون بحوار عنْ مسائل متعلِّقة بالعلم التجريبي والإيمان بالله. والبروفسور أتكنز حاولَ خلال الحوار أن يقدِّم خيارَيْن: إمّا أن تؤمن بالله، وإمّا أن تؤمن بالعلم التجريبي. وقد ردّ البروفسور جون لينوكس على هذا الخيارِ الثُّنائي بذكر عددٍ من الأدلة المقنعة على أنه لا تعارض بينَ العلم التجريبي والإيمان بالله، بل كان مِن أكبر العلماء التجريبيين عبرَ التاريخ يؤمنون بالله، ورأوا أنَّ هذا الإيمان كان الحافزَ الأكبر لعملهم البحثي العلمي. وكان البروفسور لينوكس أقوى حجَّة من البروفسور أتكنز في هذا الحوار.

المناظرُ الخامس: كريستوفر هيتشن. والمناظرة بعنوان: «هل الإله عظيم؟» (Is God Great?). كانت هذه المناظرة عن كتاب هيتسن: «الإله ليس عظيمًا» (God is not Great). كان هيتشن مَن بدأ هذه المناظرة بإلقاءِ كلمة، ولكنَّه لا يكاد يبين في كلامه، فيصعبُ فهمُ ما يريد أن يصلَ إليه، غيرَ أن يستهزئ ويتهكَّم بالأديان والمتديّنين. ولكن زبدة كلامه أنَّه يرى أنَّ العلمَ التجريبي بديلٌ للإيمان بالله، وأنَّ الأديان لم تأت بشيء سوى الشُّرور والمشاكل. وأمَّا البروفسور لينوكس، فقد أفحمَه بقوَّة بذكر الأدلة المقنعة على أنَّه لا تعارضَ بين العلم التجريبي والإيمان بالله، وهي مسألة قد ألَّف فيها كتابه المشهور: حانوتي الإله (God's Undertaker). كما أنه ردَّ عليه في مسألة الشرور المترتِّبة على الأديان، بأنَّ ذلك لا يدلُّ على شيء، بل بهذا المنطق لا بدَّ أن ننكر الإلحاد لأنه كان وراءَ بعض أسوأ الشُّرور عبر التاريخ. وهذا المنطقُ يلزمنا إنكار العلم التجريبي قد قدَّم لنا القنبلة النووية، وكثيرًا من الأسلحة، ولكنَّنا لا نفعل ذلك لأنها حجة واهية.

فكان البروفسور لينوكس أقوى حجَّة من هيتشن. وقد اعترف هيتشن في مقابلة بينَه وبينَ البروفسور لينوكس بعدَ المناظرة أنه قد ظهرتِ استبانة بعد المناظرة أن الناسَ صوَّتوا على أن لينوكس فازَ في المناظرة، وكان أقوى حجَّة منه[٢].

---

(١) انظر: https://www.youtube.com/watch?v=LkayCWHzrz4

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=jB6BTb8Dinw

مناظرات ألستر ماكغراث:

ألستر ماكغراث بروفسور في تاريخ علم اللاهوت، ويحمل شهادة الدكتوراه في علم الأحياء الجزيئي أيضًا. وهذا يجعله قويًا في إقامة الأدلة اللاهوتية على وجود الله، مع تخصُّصه في العلوم التجريبية. وكان البروفسور ماكغراث ملحدًا، ثمَّ ترك الإلحاد وتنصَّر. وهذا يُعطيه قوَّة في المناظرة أيضًا، حيث أنه خبيرٌ بالإلحاد من داخل المذهب. وقد ناظر البروفسور ماكغراث رؤوسَ الإلحاد في هذا الزمان، ومن هؤلاء:

المناظرُ الأوَّل: ريتشارد دوكينز. والمناظرةُ بعنوان: «مناظرة وهم الإله» (The God Delusion Debate)[1]. هذه المناظرة مسجَّلة بالصوتِ دون الصورة. وكان دوكينز يتحدَّث عنْ كتابه: «وهم الإله» (The God Delusion)، والبروفسور ماكغراث تحدّث عن كتاب: «وهم دوكينز» (Dawkins Delusion). وقد اعتادَ الملاحدة أن يهاجموا الأديان والمتديِّنين، ولكنَّ هذه المناظرة كانت بالعكس؛ وهو أنَّ البروفسور ماكغراث ينتقد أفكار دوكينز. وتركَّزت المناظرةُ على قضية الشُّرور المترتِّبة على الأديان، وقد ألزمه البروفسور ماكغراث بالخيرِ المترتِّب على الأديان والتديُّن، وأنَّ الخير أكثرُ من الشَّر. كما أنهما تحدَّثا عن قضايا أخرى كالعلاقة بين العلم التجريبي والإيمان، والأسس الأخلاقية.

المناظرُ الثّاني: داينال دينيت، عن موضوع: «الإله والدين» (God and Religion)[2]. كانت المناظرة عن كتابِ دنيال دينيت: «فكّ السحر» (Breaking the Spell)، الذي قدَّم فيه دينيت نظريتَه عن نشأة الأديان. وخلاصة كلامه أنه يحاول أن يفسِّر وجودَ التديُّن لدى الإنسان بنظرية التطوُّر، وبالأخصِّ بنظرية الميم التي اخترعها ريتشارد دوكينز. ولكنَّ تخصُّصَ دانيال دينيت في الفلسفة، وليس في تاريخ الأديان وعلم الأحياء اللَّذيْن هما من تخصُّصات البروفسور ماكغراث؛ فقد غلبه البروفسور ماكغراث في المناظرة، وبيَّن أنَّ هذه النظرية فرضية غير مبنية على أدلة علمية صحيحة. ومن المضْحِك أنَّ الملاحدة

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com/watch?v=qpCz7622Cp4

(٢) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=DiOXkO1tRbA

يتَّهمون المتديِّنين أنَّ الإيمان فرضية غير مبنيَّة على أدلة علمية، فبيَّن البروفسور ماكغراث شدَّةَ تناقضهم في هذا الباب، وانهزم دينيت في المناظرة.

المناظرُ الثّالث: كريستوفر هيتشن. والمناظرةُ بعنوان: «سمّ أو دواء: الإيمان الديني في العالم الحديث» (Poison or Cure: Religious Belief in the Modern World)[1]. كانت هذه المناظرة عنِ الشُّرور المترتِّبة على الأديان. وهيتشن لا يقدِّم أدلة عقلانية في الغالب، بل يتهكَّم ويستهزئ، ويستخدم العواطفَ عند المستمعين ليقلِّل من شأن الدين. وأما البروفسور ماكغراث فهوَ أكثرُ أدبًا منه بكثير، وهذا مما نبَّه عليه بعض المعلِّقين في يوتيوب. وهو أيضًا أقوى حجَّة من هيتشن حيث أنه بدأ كلامه بمعارضة هيتشن بذكر بعضِ الشُّرور المترتِّبة على الإلحاد، ثمَّ ذكر أنَّ الشرور قد يفعلها الإنسان سواء أكان متديِّنًا أو ملحدًا، ولا يمكن أن نجعلَ هذه الشرور الصادرة من بعض الناس ميزانًا لتقييم دينٍ أو مذهب فكري، وإنَّما ينظر إلى ما يدعو إليه الدين أو المذهب نفسه. ثمّ بدأ ينتقدُ الأسسَ الأخلاقية لدى الملاحدة، وأنه لا يمكن أن يقيمَ منظومة أخلاقية متكاملة إلّا بالإيمان والدين. وهذا أمرُ لا يستطيعه الملاحدة، وعلى رأسهم هيتشن، فانهزم في هذه المناظرة لقلَّة أدبه، وضعفِ حججه.

فهذا استعراضٌ مختصَر لبعض أهمِّ المناظرات الدائرة بين الملاحدة والمتديِّنين. وقد تبيَّن أنَّ هذه المناظرات كثيرة ومتنوِّعة، وأنَّ الغلبة في المناظرات الكبرى كانت للمتديِّنين، وليس للملاحدة. وما مِن موضوع يطرحه الملاحدةُ الجدد إلّا وقد أبانَ علماءُ الغرب ضعفَه وعَوَاره.

ولكنَّ الملاحَظ في هذه المناظرات أنَّ علماءَ الغرب يحسنون هدمَ المذهب الإلحادي والردَّ عليه بقوَّة، ولكنَّ أغلبهم لا يكتفون بنقدِ الإلحاد، بل ينتقلون بعد ذلك إلى الدَّعوة إلى النصرانية. وهذه الديانةُ مبنيَّة على عقائدَ باطلة وخرافات وخزعبلات. فعندما يحاولون إقامةَ الحجج على صحَّة ديانتهم يضعف موقفهم كثيرًا أمام الملاحدة ويتبين ضعفهم. فكلَا الطرفين يحسن هدمَ عقائد الآخر، ولكن لا

---

(١) انظر: https: / /www.youtube.com /watch?v=fKdZT7r2 – RY

يحسن إقامةَ الحججِ على صحَّة مذهبه وديانته. وذلك لأنَّ الحقَّ المبين لا يكون إلّا في الإسلام، وما عداه فمتفاوتٌ في مدى انحرافه وضلاله.

حكمُ مشاهدة هذه المناظرات:

ما موقفُ المسلم من مشاهدةِ هذه المناظرات؟ لا شكَّ أن المتخصِّص في نقد الإلحاد يستفيدُ من هذه المناظرات في بعض الأمور، من أهمّها:

الأمرُ الأوَّل: حججُ علماء الغرب وإلزاماتهم للملاحدة.

الأمرُ الثّاني: مواطنُ الضَّعف في الخطاب الإلحادي.

الأمرُ الثّالث: الأخطاءُ التي يقع فيها المتديِّن في بعض الأحيان، وماذا يتعقَّب الملاحدةُ على هذه الأخطاء حتى لا يكرِّرها الداعية.

وعقدُ المناظرات معَ أهل الباطل قد تحدَّث عنه العلماء والباحثون، ووضعوا لها شروطًا وضوابط، وليس هذا محلَّ بسطها[1]. ولكنَّ الذي يتبيَّن من مشاهدة مناظرات علماء الغرب معَ الملاحدة أنه لا تجوز مشاهدتها إلّا للمتخصِّصين. وذلك فيما أرى لأربعة أسباب:

السببُ الأوَّل: استخدامُ الملاحدة للسُّخرية والاستهزاء من الدين، ولا يجوز للمسلم أن يجلسَ معهم إذا كان الأمرُ كذلك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [سورة النساء: ١٤٠].

السببُ الثّاني: قلّما خرجتْ هذه المناظرات بهدايةِ الآخرين، بل يكون الشرُّ فيها أغلَب، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [سورة الأعلى:٩]، وقال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «ومفهومُ الآية أنَّه إن لم تنفع الذكرى بأنْ كان التذكير يزيد في الشَّر أو ينقصُ من الخير لم تكنْ مأمورًا بها، بل هي منهيٌّ عنها»[2].

---

(١) لخَّص الدكتور عثمان علي حسن آراء العلماء في مناظرة أهل البدع بشتى أصنافهم في رسالته المتميِّزة: منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد (١ / ٢٧٧ - ٣٥٦)، (دار إشبيليا للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٩٢٠)، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ).

السببُ الثّالث: الملاحدةُ يُكثرون من ذكْر الشبهات في مناظراتهم. والاستماع للشُّبهات خطير جدًّا على المرء، فـ«القلوب ضعيفة، والشبَهُ خطَّافة»[1]. و«تحصل بكثرةِ الإصغاء إلى الشُّبه شكوك تشبه شكوكَ الموسوسين في الطهارة»[2].

وهذه الشبهُ التي يستمعُ إليها العامي في المناظرات قد تثبتُ في قلبه حتى لا يستطيع أنْ يستخرجها، وتتعاظَم حتى قد يقع في الكفر - والعياذ بالله -.

السببُ الرّابع: أنَّ علماءَ الغرب لا يكتفونَ بالردِّ على الإلحاد في هذه المناظرات في الغالب، بل يضيفونَ إلى ذلك الدعوةَ إلى الديانة النصرانية، فقد يتأثَّر مَن يستمع إليهم بشبهات نصرانية.

فخلاصةُ التقييم لمناظرةِ علماء الغرب للملاحدة أنَّ هذه المناظرات تفيد المتخصِّصين في تقويةِ حججهم وأسلوبهم الدَّعوي للملاحدة، ولكن لا تجوز مشاهدتها إلا للمتخصِّص.

---

(١) سيَر أعلام النبلاء (٧/ ٢٦١)، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ، ت. مجموعة من المحقّقين بإشراف شعيب الأرناؤوط).

(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١ / ٢٠٨)، لمحمد بن إبراهيم القاسمي المعروف بابن الوزير، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٥ هـ، ت. شعيب الأرناؤوط).

الفهرس